الأسطورة الزائفة

رحيل الصهيونية والبحث عن بديل

(دراسة فى الأدب العبرى الإسرائيلى)

دكتور / عمرو عبدالعلي علام

مدرس الأدب العبرى الحديث والمعاصر

بكلية الآداب - جامعة المنوفية



للنشر والتوزيع

الأسطورة الزائفة
رحيل الصهيونية والبحث عن بديل
تأليف
د. عمرو عبدالعلي علام
تصميم الغلاف :
سامر محمود
التنسيق الداخلي :
صالح صلاح عبد العزيز - رفعت حسن سيد
الناشر:
دار العلوم للنشر والتوزيع
رقم الإيداع :
2004/13773
الترقيم الدولي:
977-380-026-1
الطبعة :
الأولى - يناير 2005
سنة الطبع :
1426 هـ / 2005 م
العنوان:
43ب شارع رمسيس - أمام جمعية الشبان المسلمين -
الدور السادس - شقة 71 - معروف .
المراسلات:
ص ب: 202 محمد فريد 11518 القاهرة
هاتف : ٥٧٦١٤٠٠(٢٠٢) فاكس: ٥٧٩٩٩٠٧ (٢٠٢)
إدارة المبيعات:
0106832707-0101636192
البريد الإلكتروني :
Info@daralaloom.com
daralaloom@hotmail.com
WWW.daralaloom.com

إهداء

إلى روح والدي الطاهرة

مقدمة الكتاب

من المعروف في التاريخ الحديث لليهود في شرق أوروبا، أن حركة " التنوير اليهودية " (الهسكالاة) على الرغم من سعيها إلى الترويج لفكرة اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها كمدخل لحل ما يسمى بـ " المشكلة اليهودية " ، فإن أدباء هذه المرحلة أثاروا لدى اليهود، عن طريق الموضوعات التي تناولوها في أشعارهم ورواياتهم، التعلق بفلسطين وبماضي اليهود فيها، وهو ما اتفق عليه بأنه كان بمثابة " الصهيونية الأدبية " التي سبقت الصهيونية السياسية ومهدت الكثيرين من اليهود لقبول طروحاتها فيما بعد.

وهكذا، أصبحت هناك بعد فشل حركة " الهسكالاة " في تحقيق أهدافها وطرح الحل الصهيوني باعتباره الحل البديل لطرح " الهسكالاة " علاقة وثيقة بين الحركة الصهيونية كفكرة والأدب العبري الحديث. وبدأ الأدباء اليهود يكتبون بنغمة صهيونية، أمثال: يهودا ليف جوردون، وآحاد هاعام، وبيرتس سمولنسكين، الذين كانوا بمثابة حلقة الوصل ما بين "عصر التنوير اليهودي " (١٧٨٠ـ١٨٨٠) و"عصر الإحياء القومي" . ومن هنا كان للأدب العبري الحديث دور مهم في الترويج للفكرة والحركة الصهيونية وأهدافها بحث اليهود على الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها، وتحول الإنتاج الأدبي للأدباء والمفكرين اليهود، بعد انتقال مركز الإنتاج الأدبي إلى فلسطين، إلى" أدب مجند" لخدمة أهداف الصهيونية التي تجسدت في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين، ومحاولات جمع الشتات اليهودي. ومع توالي الهجرات الصهيونية إلى فلسطين وازدياد النشاط الاستيطاني الصهيوني، واعتبار فلسطين هي البوتقة التي سيعاد فيها صهر الإنسان اليهودي، استمر الأدب العبري الحديث مجندا لخدمة الأهداف الصهيونية، وظهرت في القصص والروايات والأشعار صورة البطل العبري الجديد الطليعي الذي يعمل في الزراعة، وشق الطرق، وإقامة المستوطنات، البطل الذي يحاول التخلص من مشاعر الغربة والشتات، وأصبحت مهمة الأدب العبري الحديث في هذه المرحلة هي الدعوة لتحقيق أهداف الصهيونية، على كل المستويات الاجتماعية والفكرية والعقائدية، محاولا البعد عن إبراز أي تناقض بين الأيديولوجية الصهيونية وتجربة الفرد في واقع الحياة، باستخدام كل المبررات لإضفاء الشرعية على الأهداف الصهيونية.

وبعد نشوب حرب (١٩٤٨) وقيام دولة إسرائيل بدأ عدد من الأدباء الإسرائيليين، أمثال ساميخ يزهار و أ. ب. يهوشواع وبنيامين تموز وعاموس عوز وأهارون ميجد ودافيد شاحار ويورام كانيوك وإسحاق أورباز وغيرهم، في القيام بمراجعة شاملة للأيديولوجية

الصهيونية، حيث راحوا يعبرون عن تخبطات المحارب الصهيونى ومعاناته، إلى حد جعل الناقد الإسرائيلى يوسف أورن يصف هذه الحرب بأنها دليل على فشل الصهيونية، حيث يقول: " إن حرب (١٩٤٨) التى تشير فى التاريخ إلى البرهان الذى يحاول الإقناع على نجاح الصهيونية، تعرض فى الأدب الذى يصف هذه الحرب كفشل أخلاقى لا مثيل له. لقد تحولت الصهيونية على يد أدباء (١٩٤٨) إلى اسم مضطهد، وإلى نظرية معادية تستمد قوتها من الكلام والبلاغة فقط، نظرية لم تتوافق أفكارها مع أفعالها ".

واستمر هذا الجدل حول الصهيونية بعد كل حرب تخوضها إسرائيل، حتى إن حرب يونيو ١٩٦٧ لم تعد تمثل فى الأدب العبرى محور فخر ومباهاة بالقوة العسكرية الإسرائيلية، بل عبر الكثير من الأدباء الإسرائيليين عن الحلقة المفرغة من الحروب التى تزيد من فقد الأعزاء والأمهات الثكلى، وربما تصاعدت رائحة البارود والسأم من تلك الحروب المتوالية فى عدد كبير من الأعمال الأدبية التى تغلغلت فى أعماق النفس الإسرائيلية، وكشفت لنا عن مرارة نفسية عميقة، وشعور بالخطر الدائم حتى فى أوقات الانتصار. وكانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ بمثابة إضافة جديدة إلى كأس افتقاد الإحساس بالأمان وارتفاع معدل الإحساس بالخطر الدائم، وهو الأمر الذى جعل الكثيرين من الأدباء الإسرائيليين يضعون علامات استفهام عديدة حول الصهيونية، وتدنى قدرتها على مواجهة التحديات التى تواجهها دولة إسرائيل.

وقد لحق بهم فى نفس التوجه أدباء جيل الثمانينيات أمثال "مئير شاليف" وغيره من الأدباء الذين طرحوا الأسئلة المريرة حول مدى صدق الصهيونية فى أطروحاتها حول الحق الدينى والتاريخى لليهود فى فلسطين، وهى الأطروحات التى تسببت فى كل هذه الحروب.

لقد راح الأدباء الإسرائيليون يعبرون عن تقييمهم لواقع هذه الأيديولوجية وفى أى شيء نجحت، وفى أى شيء أخفقت. وتميزت الرواية العبرية المعاصرة بلهجة نقدية لاذعة، عن بقية الأنواع الأدبية المختلفة، فى الكشف عن ضعف الصهيونية، وعن تدنى قدرتها على مواجهة التحديات التى تواجهها دولة إسرائيل، وعن إخفاقها فى تحقيق بعض أهدافها مثل تجميع الشتات اليهودى، وتوفير الأمن للجموع اليهودية المهاجرة إلى فلسطين، والفشل فى إعداد وريث لجيل المؤسسين، بحيث أصبحت العلاقة بين الدولة والأيديولوجية الصهيونية فى حاجة إلى مراجعة شاملة وتدقيق. واتهمت الرواية العبرية المعاصرة، فى فترة متأخرة، الصهيونية بالفشل، وبأنها السبب فى كل المحن التى وقعت فيها الدولة.

والمتتبع للمتغيرات التى طرأت على تقييم الصهيونية، وكيفية تعامل الأدب العبرى المعاصر مع فرضياتها النظرية، ومدى تلاؤمها مع الواقع المعاش، سوف يلاحظ أن هذا التقييم تأثر بالاهتزازات التى تعرضت لها أهداف الصهيونية ووسائل تحقيقها. ومن هنا تمت المراجعة لمدى قوة الصهيونية في تحقيق أهدافها، وارتبط هذا التقييم بالأحداث التى أشارت إلى نجاحات الدولة وفشلها أكثر من أى شيء آخر. وكانت للحروب المتوالية التى خاضتها إسرائيل، وبخاصة حرب ١٩٧٣، أثر كبير على المستوى النفسى فى حدوث تغيرات فكرية فى تقييم الأدب العبرى المعاصر للصهيونية.

لقد جعل الجدل القائم حول نقد الأيديولوجية الصهيونية في الأدب العبرى المعاصر بعض النقاد الإسرائيليين يطلقون السؤال التالى: هل مازال الأدب العبرى المعاصر صهيونيا ؟ خصوصاً أن هذا الأدب عبر فى فترات وجيزة عن أهداف الصهيونية وتطلعاتها بإخلاص تام، ولكنه سرعان ما اتجه، بعد أن واجهت الدولة الكثير من المشكلات الداخلية والخارجية، إلى الشكوكية الشاملة في التعامل مع مدى صدق الصهيونية فى نهجها، وفى احتمالات تحقيق مشروعاتها (الإقليمية، والديموجرافية، وغيرها)، ووصل الأمر إلى القول بأنه لم تعد هناك حاجة إلى الصهيونية بعد أن أقيمت الدولة، وبات الجو مهيأ لفكرة الانفصال عن الصهيونية والبحث عن بديل جديد يتوافق مع الواقع المعاش بمتغيراته، وهام فى الأفق التنكر لكل مبدأ صهيونى يسعى إلى ترسيخ مفاهيم ونظريات عفا عليها الزمن، ولا تتلاءم مع الوضع الراهن لدولة إسرائيل. وبدا أن هناك شبه اتفاق على أن الصهيونية قد آن أوان تشييعها إلى مثواها الأخير، خصوصاً فى فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين.

وهكذا، باتت الصهيونية فى نظر بعض الأدباء والمفكرين أمراً بعيداً عن الواقع يجب مراجعته والوقوف على مواطن الفشل والخلل فيه، وربما ضرورة استبداله بما يتوافق مع المعطيات الآنية والمكانية. وهو أمر كان جديراً بالدراسة والتحليل، لاسيما أنه يصب مباشرة فى قضية الصراع العربى الإسرائيلى.

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على تحليل بعض الروايات العبرية المعاصرة، خلال فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، لأنها الفترة التى شهدت ظهور عدد من الروايات الإسرائيلية التى تعاملت مباشرة مع فرضيات الأيديولوجية الصهيونية وإخفاقاتها، وتواكب معها، على مستوى العلوم الاجتماعية ظهور مجموعة " المؤرخين الجدد " فى إسرائيل، الذين طالبوا بإعادة كتابة تاريخ إسرائيل على ضوء الوثائق الرسمية

التى سمحت بها وكشفت عنها الحكومة الإسرائيلية، حيث نقد هؤلاء المؤرخون الفكر الصهيونى التقليدى وعنصريته، وحدث ثمة نقاش وسجال إسرائيلى -إسرائيلى حول صورة الدولة فيما بعد الصهيونية.

ووفق المنهج التحليلى، تم تناول أربع روايات تعرضت بالنقد لتقييم الأيديولوجية الصهيونية ومدى تحقق أهدافها على أرض فلسطين، وإبراز مواطن النجاح والفشل فى نظرياتها. وقد وقع اختيارنا على رواية (مولخو) ١٩٨٧ للأديب الإسرائيلى "أ. ب. يهوشواع"، وروايتى (رواية روسية) ١٩٨٨ و(عيسو) ١٩٩١ للأديب الإسرائيلى " مئير شاليف "، وأخيراً رواية (الحالة الثالثة) ١٩٩٣ لعاموس عوز، لأن تلك الروايات تعرضت لكثير من القضايا السياسية والفكرية والاجتماعية لدولة إسرائيل، علاوة على أن هذه الروايات أحدثت سجالاً واسعاً من الجدل داخل الأوساط الأدبية فى إسرائيل، خصوصاً رواية (رواية روسية) لمئير شاليف التى وصفت بأنها أول رواية عبرية معادية للصهيونية، بالإضافة إلى رواية (عيسو)، واتهم على أساسهما "شاليف" من قبل بعض النقاد الإسرائيليين بمعاداة الصهيونية.

وبالطبع، فقد اختلف تناول كل أديب عن الآخر فى تقييمه للصهيونية، إلا أن هناك شبه إجماع بينهم على حتمية عمل مراجعة شاملة للصهيونية. ففى حين أشار "شاليف" إلى أن الصهيونية اعتمدت فى نظرياتها على أساطير لإثبات الحق الدينى والتاريخى لليهود فى فلسطين، فقد أشار "يهوشواع" إلى ضرورة الانفصال عن هذه الأيديولوجية الكلاسيكية والبحث عن بديل جديد لها، وانضم إليهما " عوز " فى تفنيد أخطاء الصهيونية تجاه مسألة الصراع العربى الإسرائيلى.

أهمية الكتاب:

يمكن القول بأن أهمية هذا الكتاب تكمن فى النقاط التالية:

(١) تفنيد مزاعم الادعاءات الصهيونية القائمة على الأساطير فى حق اليهود على أرض فلسطين وزيفها، من خلال دراسة بعض الأعمال الأدبية التى ترفض هذه الادعاءات وتصفها بالأساطير التى لا تصلح سندا لحق تاريخى وشرعى لليهود فى فلسطين.

(٢) مواكبة التغيرات الفكرية التى تطرأ على فكر الأدباء الإسرائيليين فى موقفهم من الصهيونية الكلاسيكية، والوقوف على أسباب النقد العنيف الذى تعرضت له الصهيونية خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين.

(٣) إلقاء الضوء على تقييم الأدب العبرى المعاصر لنجاحات الأيديولوجية الصهيونية وإخفاقاتها فى تحقيق أهدافها، والأسباب التى أدت إلى المطالبة ببداية مراجعة شاملة لمفردات الصهيونية وأهدافها.

وعلى ضوء ما تقدم تم تقسيم فصول الكتاب على النحو التالى:

الفصل الأول: ويحمل عنوان (تطور العلاقة بين الأدب العبرى والصهيونية):

وفيه تم تناول العلاقة التى جمعت بين الأدب العبرى الحديث والقضايا اليهودية منذ فترة "الهسكالاة" وحركة الإحياء القومى لليهود فى القرن التاسع عشر وحتى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، والوقوف على تطور هذه العلاقة، وإسهامات الأدب العبرى الحديث فى نجاح الحركة الصهيونية سياسياً منذ فشل حركة " الهسكالاة " التى مهدت الطريق أمام بزوغ نجم الصهيونية فى ظل الحركات التحررية الأوربية، ودور الأدب العبرى الإسرائيلى فى معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية التى طفت على السطح فى ظل التمسك بتحقيق أهداف الصهيونية.

الفصل الثانى: ويحمل عنوان (البحث عن صهيونية بديلة فى رواية "مولخو" لـ " أ. ب. يهوشواع ")

وفيه تم التعرض لمحاور نقد الصهيونية فى رواية (مولخو) حسب رؤية "يهوشواع" بضرورة البحث عن بديل للصهيونية الكلاسيكية، بديل يتوافق مع الواقع المعاش، بعدما أصبحت أيديولوجية عقيمة، وباتت تظهر أخطاؤها يوماً بعد يوم. حيث كشف "يهوشواع " فى روايته هذه عن تحطم بوتقة الانصهار التى حلمت بها الصهيونية، وكانت محل اهتمامها على مدار عقود عديدة، بعدما أصبح النزوح عن إسرائيل فى تزايد مستمر، شأنه شأن تزايد الصراع الدينى العلمانى والصراع الإشكنازى السفارادى فى إسرائيل. وتعرض "يهوشواع" كذلك إلى فشل الصهيونية فى إعداد وريث لجيل المؤسسين الصهاينة، وأشار إلى أضرار العلاقة التى تجمع الآن بين الأيديولوجية الصهيونية بصورتها الكلاسيكية والدولة.

الفصل الثالث: ويحمل عنوان (إحباط يهود الشتات وفشل المشروع الصهيونى فى رواية " رواية روسية " لـ "مئير شاليف ")

وفيه تم التعرض لموقف "شاليف" القوى من الصهيونية وبصورة مباشرة، حيث ترى هذه الرواية أن افتراض الصهيونية بأن هناك حلفاً تاريخياً خاصاً بين الشعب اليهودى وأرض فلسطين، وهو ما يكسب اليهود ملكية خاصة وأزلية على هذه الأرض، هو

افـتراض خاطئ وأسطورة خرافية تجب حقوق العرب الفلسطينيين فى ملكية هذه الأرض. حيث لا توجد حقوق مادية للشعب اليهودى فى فلسطين كما تزعم الصهيونية. وهو بذلك يدحـض أسـطورة العـودة إلى الطبيعـية بعـودة يهـود الشتات إلى أرض فلسطين، وينظر إلى ادعـاءات الصـهيونية بـالحق الـتاريخى للـيهود فـى أرض فلسطين على أنها أسطورة خرافية ابتدعـتها الصهيونية من أجل تشجيع الهجرة إلى فلسطين. كما أكد "شاليف" كذلك مثلما "فعـل "يهوشـواع"، عـلى فشـل الصـهيونية فى إعداد وريث لجيل المؤسسين، وفى دمج الشتات اليهودى داخل إسرائيل. وأثبتت (رواية روسية) فشل المشروع الصهيونى على هذه الأرض الـتى تحولـت إلى " مقـبرة جماعـية للـرواد الصهيونيين " لتعود وتقوم بدورها الذى كانت تقوم به فى الماضى.

الفصـل الـرابع: ويحمل عنوان (الصهيونية فى ميزان النقد من المنظور الدينى الأسطورى فى رواية " عيسو " لـ " مئير شاليف ").

وفـيه تم الـتعرض للصـهيونية وعلاقـتها بـالتراث الدينى اليهودى، وموقف "شاليف" المكمـل لموقفـه السـابق فى روايته (رواية روسية)، حيث وظف " شاليف " فى هذه الرواية الـتراث الديـنى الـيهودى لخدمـة هدفـه فى دحض ادعاءات الصهيونية بأن هناك حلفاً دينياً خاصـاً بـين الـيهود والـرب وعدهـم بموجـبه بهـذه الأرض مـن خلال قصة التوءم " عيسو ويعقـوب " وصـراعهما عـلى المـيراث فى العهد القديم، وهو ما وصفه بالأسطورة أيضاً. وأكـد "شاليف" من خلال روايته هذه بأن حل الصراع بنزول أحد الأخوين عن الميراث هو أمر لا يمكن أن يحدث على أرض الواقع، ومن يعتقد ذلك فهو مخطئ، ومن الخطر أن نعتمد عـلى أسطورة المقرا التى تحل حالات النزاع حول الميراث بمثل هذه البساطة، حسبما يقول، مشـيراً إلى اعـتماد الصـهيونية على الأساطير الدينية فى حل الصراعات، حيث إن القصص المقرائـية الـتى حكـت عـن إمكانية حلول مثل هذه تعد (أساطير)، وتقترب كثيراً من الخيال المخـتلق الـذى يقـدم حلـولاً لـن تحدث على أرض الواقع مدى الحياة. ويؤكد " شاليف " عـلى أنه إذا كانت الجولة الأولى من الصراع قد حسمت لصالح " يعقوب " فعلينا أن ننتظر نتيجة الجولة الثانية.

الفصـل الخـامس: ويحمـل عنوان (الصهيونية وصراعات القوى السياسية فى إسرائيل فى رواية " الحالة الثالثة " لـ" عاموس عوز ").

وفـيه تم الـتعرض إلى موقـف عـوز مـن الصهيونية، حيث يرى أن الصهيونية كانت فى الأصـل حركة لتحرير الإنسان اليهودى وليس لتحرير الأرض. وتطرق " عوز " فى روايته

هـذه إلى أثـر نـتائج حـرب ١٩٦٧ فـى الموقف من الصهيونية، والصراع بين اليمين واليسار حـول الموقـف من القضايا الشائكة التى تشكل جوهر الصراع العربى الإسرائيلى. كما كان إخفـاق الصـهيونية فـى إعداد ورثة لجيل المؤسسين من الأمور التى اهتم بها "عوز" فى هذه الـرواية، حيث اهتم بمسألة الميراث ومشكلة المرشحين له من جيل الأبناء، حيث يكمن هذا الفشـل الصـهيونى فـى آبـاء الأسـرة الذين أسسوا الضيعة الأسرية التى نمت وتحصنت لتدل عـلى هـدف الصـهيونية فـى اسـتخدام المـيراث على مدار أجيال عديدة، فلم تنجح تنبؤات المؤسـس لتحقـيق ذلـك فـى الأجـيال اللاحقة، وانتحى مشروع المؤسس جانباً وهجر ودمر عـلى يد نسله بعدما ظهر الوريث المستهدف مستهتراً لا يمكن الاعتماد عليه. ومن هنا باءت محـاولات الأبـاء المؤسسين بالفشل فى إعداد وريث يواصل المسيرة بنفس الحماس. وبالتالى فـإن (مـرحلة الـنجاح) فـى الاستيطان الصهيونى أعقبتها، فى فترة متأخرة من سنوات قيام الدولـة، (مرحلة الفشل)، وهى نفس الرؤية التى أكد عليها " يهوشواع " و" شاليف " فى الروايات السابقة محل الدراسة.

ولا يفوتـنى فـى هـذا المقـام، أن أتقدم بخالص الحب والتقدير إلى أستاذى الجليل الأستاذ الدكـتور رشـاد عـبدالله الشامى، أستاذ الدراسات العبرية والإسرائيلية بكلية الآداب جامعة عـين شمـس، الـذى تـابع هـذه الدراسـة مـنذ الـلحظات الأولى وأثراها بملاحظاته العلمية السديدة، وأفاض على من علمه الغزير، فجزاه الله عنى كل الخير.

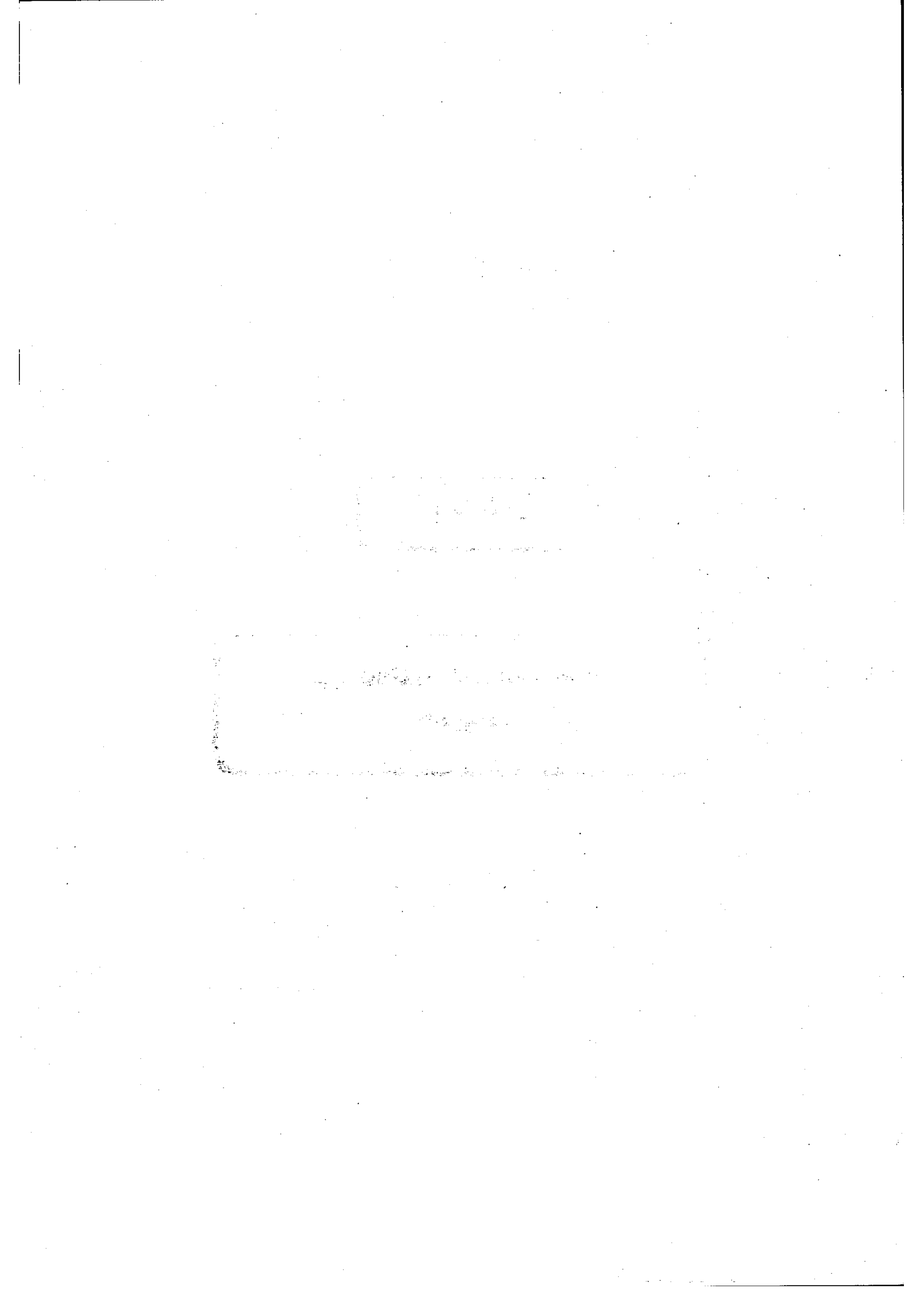
والله ولى التوفيق

القاهرة فى يوليو ٢٠٠٤

دكتور / عمرو عبدالعلى

الفصل الأول

تطور العلاقة بين الأدب العبرى الحديث والصهيونية



أولاً: نشأة الصهيونية وأهدافها:

لم تكن الصهيونية يوماً إلا حركة يهودية تاريخية استغلت شيوع ما يسمى بالمسألة اليهودية وهدفت إلى حلها بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، لتعتلى مسرح الأحداث التاريخية المتوترة إبان فترة تكوينها كحركة ثم يسدل الستار فى النهاية بتحقيق هدفها الأسمى، وهو قيام كيان يهودى مستقل بعيداً عن حياة الشتات التى عاشها اليهود ومازالوا عبر فترات تاريخية طويلة تجرع خلالها اليهود ـ بسبب تكوينهم النفسى ـ شتى أنواع المعاملة الإنسانية من قبل سلطات البلاد التى كانوا يعيشون فيها.

والمتتبع لتاريخ اليهود عبر عصور عديدة، سيجد أن الصهيونية ما هى إلا نتاج لعدة عوامل وظروف صاغها السلوك البشرى اليهودى على أرض الواقع، قادت فى النهاية إلى ظهور الصهيونية ومن بعدها قيام دولة إسرائيل فى العصر الحديث، وهى إشكالية لا يمكن فهمها إلا من خلال تتبع الوجود اليهودى وما شكله من اضطرابات وأحداث منذ ما قبل الصهيونية وحتى قيام دولة إسرائيل.

ولكى ندرك تماماً ماهية الأيديولوجية الصهيونية، علينا أن نتجه بأنظارنا أولاً ووفقاً لتطور تاريخ الصهيونية إلى يهود وسط أوربا وشرقها، لأنها تعد المنطقة المركزية الأولى للتفاعلات والأحداث والأفكار التى صاغت الصهيونية، وقادت فى النهاية إلى ظهورها.

" لقد ثبت بناء على شواهد كثيرة تاريخية ودينية أن اليهود قد رحلوا إلى الشاطئ الشمالى من البحر الأسود وترانسكا فانيا وطوران فى القرن الأول الميلادى، كانوا فى خلال هذه الفترة متأثرين بالثقافة والعادات الاجتماعية والدينية المأخوذة عن جيرانهم الهالينيين. ويؤكد المؤرخون على أن كثيرين من يهود فلسطين قد وصلوا منذ ما قبل المسيح بقرون عديدة (بعد سقوط الهيكل الأول فى القرن السادس ق. م) إلى شواطئ روسيا، وانتشروا عبر منطقة القوقاز. ووفقاً للأدلة التاريخية فإن هناك جماعة يهودية استقرت فى جورجيا حوالى عام ١٣٢ ق. م مع اندحار ثورة بركوخبا(*) ضد الرومان ... وبعد ذلك بمرحلة متأخرة ظهر اليهود فى أجزاء أخرى من روسيا، وقد استقروا فى البداية فى كييف ولتوانيا حوالى

(*) ثورة بركوخبا: حدثت هذه الثورة فى فترة الحكم الرومانى بعد الدمار الذى لحق بمدينة القدس، بعد حصارها وتدمير المعبد الثانى – الذى حدث عام ٦٩ ميلادية – وسبى عدد من اليهود، حينما انتهز أحد الكهنة اليهود ويدعى " شمعون اللاوى "، الذى عرف فيما بعد ببركوخبا، انشغال روما بحروبها مع الفرس (البيزنطيين) وضعف الحكومة المركزية، فقاد تمرداً محدوداً ونصب نفسه ملكاً على اليهود هناك مدعياً أنه "المسيح المنتظر"، ولكن سرعان ما قضت روما على هذا التمرد بقيادة أدريان الذى هدم ما كان من مبان فى القدس وأعاد بناءها من جديد على الطراز الرومانى. (انظر: د. منى التاريخ الإسرائيلى فى مفهوم الربانى نحمان كروخمال، دراسة نقدية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٨، ص٧٦).

القرن الثامن الميلادى. وفى بداية القرن الخامس عشر الميلادى كانت هناك جماعة يهودية فى منطقة بيلوروسيا. ووردت أول إشارة لليهود فى تاريخ موسكو عام ١٤٧٤ . وكانت أكبر هجرة مؤثرة فى تاريخ اليهود تلك التى حدثت فى اتجاه شرق أوروبا فى اتجاه الغرب نحو ألمانيا ... وبتأثير ما لاقاه اليهود على يد الحملات الصليبية هاجرت عشرات الآلاف من الأسر من غرب أوروبا إلى شرقها، وشجعهم على ذلك ترحيب حكام تلك البلاد للاستفادة بهم فى التنمية. واعتبارا من القرن السادس عشر فصاعدا تجددت حياة اليهود فى غرب أوربا ووجدوا وطنا آمنا نسبيا فى شرق أوروبا، نظراً للامتيازات التى تمتعوا بها من حرية دينية وحكم ذاتى وما إلى ذلك. وقد عاش اليهود فى روسيا وبولندا داخل إطار أطلق عليه (منطقة الاستيطان) وكان يشمل بولندا ولتوانيا وبيلوروسيا وأوكرانيا، وهى المناطق التى سمح لليهود بأن يعيشوا فيها حتى منتصف القرن التاسع عشر " [(١)].

وحتى عشية عصر التنوير اليهودى (الهسكالاه [*])، عاش اليهود حياة منعزلة متقوقعين داخل حدودهم وأماكن إقامتهم. وهى حياة يمكن القول إنها كانت بعيدة تماماً عن مواكبة التغيرات الفكرية والحضارية التى تدور من حولهم، حيث أصبحت العزلة اليهودية فى حارات اليهود ومنطقة الاستيطان اليهودى أبرز ما اشتهر به اليهود آنذاك، حيث وقف الحاخامات اليهود بالمرصاد لأية محاولة للخروج على الطابع الانعزالى الذى طبع حياة اليهود من قبلهم.

وقد اتخذت مناطق الانعزال اليهودى مسميات عديدة مثل الشتتل [(**)]، والقاهال [(***)] والجيتو [(****)] الذى يعد أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية فى العالم ؛ بحيث أصبح يطلق

---

(١) د. رشاد عبدالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة، الكويت، العدد١٠٢، يونيو ١٩٨٦، (ص ١٠).

(*) الهسكالاه: هي حركة تنوير يهودية نادت بانفتاح اليهود واندماجهم اجتماعياً وثقافياً ولغوياً بالأمم التي يعيشون بينها، وطرحت تعديلات جذرية في الدين اليهودي والعبادة، وكان من روادها اليهودي الألماني "موسى مندلسون" الذي قام بالترجمة الألمانية للعهد القديم، وذلك في محاولة للتخلص من سيطرة الدين اليهودي على مجريات الحياة اليهودية، وكان شعار الهسكالاه في روسيا هو (كن يهوديا في بيتك وإنساناً خارج بيتك).

(**) الشتتل: هى كلمة ييديشية تعنى (المدينة الصغيرة)، وهو عبارة عن تجمع سكانى من اليهود يتراوح بين ألف وعشرين ألفاً وكانت الحياة تدور فيه حول المعبد اليهودى، والمنزل اليهودى ثم السوق الذى يلتقى فيه اليهود بالأغيار. (انظر: د. رشاد عبدالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، ص١٣).

(***) القاهال: كلمة عبرية تعنى جمهوراً أو جماعة كبيرة من الناس فى مكان واحد، أو طائفة أو الطائفة اليهودية فى إحدى مدن الشتات اليهودى. ويعني بها الخلية الأساسية لتنظيم حياة اليهود فى منطقة إقامتهم. وكانت مهام القاهال مشابهة لمهام الدولة تجاه مواطنيها. وتعد تجسيداً للحكم الذاتى من قبل الحكومة. (انظر: المرجع السابق، ص ١٣).

على سبيل التعميم على شتى أشكال الحياة اليهودية الانعزالية. وقد لعب الدين اليهودى فى الجيتو دوراً فاعلاً؛ بحيث لا يمكن فهم هذه الحياة اليهودية التى عاشها اليهود فى شرق أوروبا وإدراكها بمعزل عن الدين اليهودى وقوانينه التى تحكمت فى المأكل والملبس والتعليم والزواج والختان ويوم السبت وشتى أنواع الحياة الإنسانية لليهود عبر عقود كثيرة. ومن هنا كانت لسلطة الحاخام قدسيتها فى تنظيم إيقاع الحياة داخل هذا الجيتو.

ويمكن القول، إن الحياة الانعزالية التى عاشها اليهود قد تدخلت بشكل رئيسى فى صياغة النفسية اليهودية الجيتوية، بحيث أصبح التقرب منها ومحاولة إدراكها أمراً صعب المنال فى غالب الأحيان، مما استرعى انتباه عدد من حكام البلاد التى كان يعيش بينها اليهود فكان منهم من ألغى "القاهالات" وأخضع اليهود للإدارة العامة، وهناك من فرض عليهم الخدمة العسكرية الإجبارية بأضعاف المدة العادية.

أما عن حياة اليهود فى غرب أوروبا، فلم تختلف كثيراً عنها فى شرق أوروبا؛ حيث استمر اليهود فى حياتهم اليهودية الانعزالية، وبعد قيام الثورة الفرنسية شهد اليهود معاملة أفضل، بعدما ألغيت عنهم القيود الاقتصادية، وأعيد النظر فى مسألة دخولهم الجمعيات الكنسية المكونة من الحاخامات والعلمانيين ومسألة الترقية فى الجيش.

فشل حركة التنوير اليهودية (الهسكالاه) والاتجاه نحو الصهيونية:

" فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر كانت أوروبا قد سئمت الحكم الاستبدادى الذى كان يسودها فى ذلك الحين على يد الملوك والنبلاء والقساوسة الذين حطموا روح الشعوب. وحينئذ بدأ العلماء والفلاسفة فى بث آراء جديدة عن دور الدولة وعن حق الإنسان فى عرض رأيه فى مختلف شئون الحكم. وقد سميت هذه الحركة "حركة التنوير الأوربية Enlightenment "[(1)].

ولم يكن لهذه الحركة هدف إلا تنوير العقل الإنسانى وتشجيعه على لفظ الإرث التقليدى الموجود والاتجاه به نحو العلمانية والتحضر، بعدما تفشت بين جموع الشعوب غياهب الرجعية والتقوقع داخل الذات الإنسانية ومجاراتها بروح الإيمان فحسب.

(••••) الجيتو: أصل هذه الكلمة محاط بكثير من الشكوك. ومن المحتمل أن تكون الكلمة قد استخدمت للمرة الأولى لوصف حى من أحياء البندقية، والذى يقع بالقرب من مسبك لصهر المعادن يسمى (جيتو أو جتو)= = كان محاطاً بأسوار وبوابات فى عام ١٥١٦ وخصص كمكان لإقامة الطائفة اليهودية. وهناك من وجدوا أصلاً للتسمية فى العبرية من الفعل (جت) بمعنى الانفصال أو الطلاق، وفى البيديشية، وفى اللاتينية وفى اليونانية، وفى الجوتية ولكن ليس هناك شك فى أن مصدرها هو كلمة (الجيتو نوفو) معمل سبك المعادن، وهو مكان الحى اليهودى المنعزل الأول، فى البندقية، عام ١٥١٦. (انظر: المرجع السابق، ص ١٦).

(١) د. رشاد عبدالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ٣٩)

ولم يكن اليهود أيضا في منأى عن هذه الحركة التنويرية الأوربية. فبينما كانت الحياة اليهودية تسير بشكل عادى بين أسوار الجيتو، انطلقت حركة " الهسكالاه " أو حركة التنوير اليهودية على يد موشيه مندلسون لأول مرة عام ١٧٥٠ بهدف تحطيم عزلة اليهود ودفعهم نحو الاندماج والذوبان فى المجتمعات التى كانوا يعيشون بينها. "ورويداً رويداً بدأت الآراء الجديدة عن حرية الإنسان تدخل إلى حارات اليهود الضيقة، وحينئذ بدا اليهود يشعرون بجو (بيت هامدراش) الضيق الخانق (مركز للعبادة والدراسة فى آن واحد)، وبعالم الربانيم (الحاخامات التلموديين) القاسى المتزمت. ولم يعد يرى كثير من اليهود أي معنى لبعدهم الزائد عن الشعوب التى بشرت بحب الإنسانية وبالحرية، وتفجرت فى كل ناحية هتافات (لنخرج من الجيتو) و(لنتقرب من الشعوب) و(لنتعلم لغاتهم) و(لنتثقف ونتعلم الحكمة والمعرفة). وبذلك بدأت حركة تثقيف عصرية بين اليهود، كانت بدايتها فى ألمانيا، عبر عنها بما يسمي حركة التنوير اليهودية او (الهسكالاه) وهو الاصطلاح الذى استخدمه يهودا جيليتس لأول مرة عام ١٨٣٢ للدلالة على عصر النهضة الثقافية اليهودية الذى استمر من عام ١٧٥٠ إلى ١٨٨٠ " (١).

وعلى الرغم من أثار هذه الحركة التى أشعلت الثورة ضد النظام الحياتى للجيتو وسيطرة الدين اليهودى على أدق تفاصيل الحياة للنفس اليهودية، فإن مندلسون لم يع تماماً طبيعة النفس اليهودية القائمة على إثارة القلاقل والمشكلات. " فقامت الثورة فيما بعد ضد الهسكالاة نفسها بعد انتكاستها الكبرى فى أعقاب الاضطرابات التى وقعت فى روسيا عام ١٨٨١ وظهور قوانين مايو (•) التى أفقدت اليهود الأمل فى الاندماج والذوبان فى الشعب الروسى " (٢).

لقد كانت هناك ثمة مؤشرات تشير إلى احتمال فشل هذه الحركة وبزوغ نجم حركة جديدة قامت على أنقاضها وهى الحركة الصهيونية. فعلى الرغم من جنوح المجتمع اليهودى نحو التحرر من القيود الدينية ورفع شعار (كن يهودياً فى بيتك وإنساناً خارج

---

(١)د. رشاد عبدالله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ٤١).

(•) قوانين مايو: مجموعة من القوانين المؤقتة أصدرتها الحكومة الروسية في مايو ١٨٨٢ وبمقتضاها أصبح من المحظور على أعضاء الجماعات اليهودية فى روسيا أن يعيشوا أو يمتلكوا أى عقار إلا فى المدن الموجودة داخل منطقة الاستيطان اليهودى. ومن ضمن هذه القوانين ألا يسمح لليهودى بالسكن خارج المدن الخاصة بهم، وإذا خرج اليهودى من قريته لا يسمح له بالعودة، ومن حق السكان الروس طرد السكان اليهود من قراهم. (انظر: د. عبد الوهاب المسيرى: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، الجزء الرابع، ١٩٩٩، ص ٣٧٩).

(٢)د. أحمد حماد: الأدب العبرى الحديث، الضال فى دروب الحياة، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٩١ (ص ١٥).

بيـتك)، فـإن ما يسمى بـ " المشكلة اليهودية " وجد بعداً جديداً تماماً أمام التحدى الخاص بالـتحرر والاندمـاج فـى المجـتمعات غـير الـيهودية، " وبـدأ الموضـوع بـالمدارس الخاصة بالمجـتمع غـير الـيهودى الـتى فتحـت أبوابهـا أمـام الـيهود ... حيث كانت المدارس العامة والعلمانـية تغلـق أبوابهـا بالطـبع يـوم الأحـد وفـى الأعياد العامة، بينما تظل مفتوحة يوم السبت وفـى أعياد اليهود. فماذا يفعل اليهـودى الذى يرسل أبناءه إلى تلك المدارس؟ فهل يمتنع عـن إرسـالـهم خوفـاً من تدنيس السبت؟ أم يقول لابنه اذهب إلى المدرسة ولا تكتب شيئاً؟ وإذا كـان هناك امتحان يوم السبت، فماذا يفعل الابن؟ فهل يكتب ويدنس السبت؟ أم يطلـب امـتحاناً خاصـاً لــه؟ ومـاذا إذا لم يسـمح لــه المدرس؟ وماذا إذا جاء الامتحان المصـيرى فـى عيد الغفران اليهودى الذى يأتى يوم السبت؟ هل يدنسه ثم يستغفر؟ أم يفقد السنة الدراسية كلـها؟ أم يعيش فى منأى عن كل هذا ويشعر بأن الأمر غير متعلق به؟ "(١).

وأيـاً كانت إجابة اليهودى على كل هذه الأسئلة، خصوصاً وهو يتساوى فى الحقوق مع الآخـرين وسط المجتمعات التى يعيش فيها، فإن التحرر الذى سعت إليه حركة الـهسكالاه لم يكن يعنى القضاء على مثل هذه المشكلات التى واجهت اليهود.

ويعلـق شـلومو افيـنيرى عـلى هـذه المعضلة التى واجهت اليهود فى سعيهم نحو التحرر قـائلاً: "كان جيل الـهسكالاه اليهودية مطالباً بإيجاد حل لـهذه التحديات الجديدة بأسلوب كلاسـيكى (كـن يهوديـاً فـى بيـتك، وإنسـاناً خارج بيتك). بينما حقيقة هذا الانشطار إلى نصـفين والـتغيرات بهـذه الصـيغة تشير إلى الموقف الصعب الذى واجهه اليهودى فى عصر الـتحرر ... فمـن الواضـح أن الـيهودى كانت لـه هوية مزدوجة: فهو (مناحم – مندلى) فى بيـته، أمـا فـى خـارج بيته فهو (موريس). وفى بيته تشعل زوجته شموع السبت، بينما فى خـارج بيـته يـتوجه إلى أعمالــه يـوم السـبت. وهـذا هـو التمزق الجديد فى ظل التغييرات الجديدة، وهذا هو الثمن الذى دفعه اليهودى فى مقابل التحرر "(٢).

وفـى خضـم هـذه المشكلات الكبيرة التى واجهت جيل الـهسكالاه وكان أبرزها ازدواج الـهويـة الـيهودية، لأن اليهودى هو أيضاً ألمانى وبولندى وروسى، انسلخت حركة الإحياء القومـى الـيهودى الـتى قامـت عـلى أنقـاض حركة التنوير اليهودية، وظهر جيل ما يسمى بالحـركة القومـية الـيهودية. وقـد استغل هذا الجيل الموقف المتعثر لحركة التنوير اليهودية؛ فحـاربوا الأفكـار الاندماجـية الـتى نـادى بهـا المتـنورون الـيهود، وصوروا الاندماج بأقبح

(١) شـلومو آفنيرى: " شيئلوت حفراه اومدينيوت بيسرائيل " قضايا اجتماعية وسياسية فى إسرائيل دار نشر كيتر، القدس١٩٧٧، (ص١٧).
(٢) نفس المرجع، (ص١٨).

المظاهـر ؛ إذ عـدّ ضعفاً فى الشخصية، وليس كعملية تاريخية لـها منطقها وقوتها الدافعة، وساعدهم فى ذلك ظهور عصر القوميات فى أوروبا.

" لقد عاش معظم يهود أوروبا آنذاك فى شرقها، وهناك اختلطوا بالقوميين الذين سعوا فـى ذلـك الوقـت إلى إيجاد هوية مستقلة لـهم: فقد صارع البولنديون من أجل هويتهم أمام الألمـان مـن ناحـية، والـروس مـن ناحـية أخـرى. وكشف الأوكرانيون عن تاريخهم أمام الـروس مـن ناحية، والبـولنديين من ناحـية أخرى، والمجريون أيضاً سعوا من أجل هوية لـهم أمام الألمان، وكذا السلافيون الجنوبيون والرومان والسلوفاك. واليهـود بين كل هـذا فى الوسـط " [1] يعيشون ازدواج الـهوية.

ولـم يكـن ظهور القوميات الأوربية إلا بادرة أمل لليهود أو للقوميين اليهود الذين أخذوا زمـام المـبـادرة مـتأثرين إلى حـد كـبير بظهـور هذه القوميات، لتبدأ فترة جديدة فى تاريخ اليهود، وهى فترة الإحياء القومى.

" وهكـذا، مهـدت الحـركات القومـية فـى المجـتمعات الأوربـية فى هذه الفترة الطريق لظهـور حـركة يهوديـة عـلى غــرار تلـك الحركات، وفى أواخر القرن التاسع عشر أصبح السـؤال المطـروح: لماذا لم يفعل اليهود مثلما فعل اليونان والعرب والإيطاليون والمجريون، والبولنديون وغيرهم من الشعوب الأخرى للسعى خلف دولة مستقلة " [2].

ويمكـن القـول، إن حركة الـهسكالاه على الرغم من فشلـها فإنها كانت المحرك والدافع لشـباب الـيهود إلى التفكير فى مواكبة الحركات القومية الأوربية، لاسيما وقد انخرط شباب الـيهود فـى ظـل حـركة التـنوير اليهودية فى قراءة العلوم المختلفة ومحاكاة الثقافات الأوربية المتحضرة والدراسات الإنسانية الأخرى، فظهر عدد من المفكرين والسياسيين اليهود ينادون بإنشـاء كيان يهودى خالص فى ظل المناداة بحرية الأقليات فى أوروبا ؛ ليقضوا على مخاوف الاندماج بين الشعوب التى كانت محل خلاف بين كثير من المفكرين اليهود آنذاك.

" وقـد هاجم دعاة الاستنارة أيضاً فكرة المسيح المنتظر ونادوا بأن على اليهود أن يحصلوا عـلى الخـلاص بأنفسـهم، الأمـر الـذى فسـره الصـهيونيون عـلى أنه من الممكن العودة إلى فلسـطين دون انـتظار لمقـدم المسيح. كذلـك فـإن مفكـرى الـهسـكالاه انـتقدوا الشخصية

(١) شـلومو آفنيرى: " شيئلوت حفراه اومدينيوت بيسرائيل " (قضايا اجتماعية وسياسية فى إسرائيل)، مرجع سابق (ص٢٠).

(٢) Zachary Lockman ,comarades and gnemies (Arab and Jewish workers in Palestine 1906-1948 , university of california press , july 1996, p.29

اليهودية بسبب هامشيتها وطالبوا بتحويلها إلى شخصية منتجة وأكدوا على أهمية العمل الزراعي واليدوي. وهذه قضية ورثها الصهاينة ودعاة معاداة السامية* "(١).

وقد أدت كل هذه العوامل إلى تكوين نويات الصهيونية، فتكونت حركات يهودية على أيدي عدد من المثقفين اليهود الذين تأثروا بالحركات القومية الأوربية وهامت فلسطين في أفق هذه الجماعات الصغيرة التي بدأت تلوّح بفلسطين كوطن قومي لليهود، وأصبحت الدعوة إلى الهجرة لفلسطين تمثل المحرك الرئيسي والهدف الأسمى لتلك الجماعات، مثل جماعة " البيلو** "، وجماعة " زورو بابل " التي تأسست عام ١٨٨٣ في أوديسا بزعامة " ليوبنسكر " الذي كان هدفه إقناع اليهود في الغرب بالاهتمام بإحياء كيان يهودي مستقل في فلسطين. ومن ثم تأسست جماعة " أحباء صهيون " *** أشهر الجمعيات اليهودية التي تأسست في أعقاب أحداث ١٨٨١ في روسيا، وتبلورت أركانها بصورة جذبت جموع اليهود، وأخذت من هذه الأحداث ذريعة وحجة للتشجيع على الهجرة والاستيطان في أرض فلسطين.

" وبمرور الوقت تكونت جمعيات (أحباء صهيون) في جاليسيا والنمسا وألمانيا وفرنسا وكندا وإنجلترا وأمريكا. وفي عام ١٨٩٣ نشر برنباوم كتابا دعا فيه إلى فكرة الإحياء القومي في فلسطين، وأخذ يدعو إلى عقد مؤتمر صهيوني دولي ؛ ليشكل حركة سياسية من أجل هذا الهدف. وفي عام ١٨٩٤ انعقد في باريس مؤتمر للجمعيات الصهيونية في مختلف الدول. ولم تتوقف المطالب باجتماع عام لمؤتمر صهيوني. ولم تتحقق اللبنات الأولى لهذا الهدف إلا على يد تيودور هرتسل الأب الروحي للحركة الصهيونية "(٢).

(*) معاداة السامية : اصطلاح ردده الفكر الصهيوني لكي يشير إلى ما يدعيه الصهيونيون بوجود عداء دائم من الشعوب الأخرى ضد اليهود الذين يعارضون أبناء سام. برز هذا الاصطلاح في نهاية السبعينيات من القرن التاسع عشر. (انظر: أفرايم ومناحم تلمي، معجم المصطلحات الصهيونية، ترجمة أحمد بركات العجرمي، دار الجيل للنشر، عمان، ١٩٨٨، ص٢٧).

(١) انظر : د. رشاد عبدالله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ٤٤، ٤٣).

(**) البيلو : هي اختصار للكلمات الواردة في العهد القديم " بيت يعقوب اذهبوا فنذهب ". وهي منظمة شبابية يهودية أسست بروسيا في أعقاب أحداث ١٨٨١ التي قام بها الروس ضد اليهود. نادت هذه المنظمة بالعودة إلى فلسطين والاستيطان بها. (انظر : أفرايم ومناحم تلمي، معجم المصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص ٦٤).

(***) محبة صهيون: هي عبارة عن جمعيات صهيونية نشأت قبل تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية، وقد بدأ تأسيسها في روسيا عام (١٨٨١) بعد صدور قوانين مايو التي فرضت قيودا على حركة أعضاء الأقلية اليهودية في روسيا مما دفع الشباب إلى الهجرة وإعلان تأسيس جمعيات " أحباء صهيون ".
(انظر د. عبد الوهاب المسيري: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٧٥، ص٥٩).

(٢) شموئيل أتينيجر: " تولدوت عم يسرائيل باعت هاحداشاه " (تاريخ شعب إسرائيل في العصر الحديث) دار نشر حفرات دافير، إسرائيل، ١٩٦٩، (ص ١٨٤).

" إن الصهيونية كحركة سياسية لم تهدف إلا إلى توطين اليهود فى فلسطين (أرض الميعاد) كوسيلة لحل ما يسمى بالمسألة اليهودية. وكلمة (صهيونية) اشتقها الكاتب اليهودى النمساوى ناتان برنباوم (١٨٦٤ / ١٩٣٧) من كلمة (صهيون) ليصف بها هذا الاتجاه السياسى (الجديد) بين صفوف اليهود وغيرهم "[١].

والجدير بالذكر أن زعماء الصهيونية قد فكروا قبل (الاتجاه نحو فلسطين) فى مشروعات صهيونية كثيرة لتحقيق هدف إنشاء وطن قومى لليهود ؛ حيث فكروا فى استعمار أوغندة وقبرص وبعض دول أمريكا الجنوبية واستراليا وغيرها. ولكن فلسطين حازت على موافقة أغلبية القادة الصهاينة لاعتبارات دينية وسياسية كثيرة.

" وبالرغم من أن الحل الصهيونى ظهر متفرقاً. فنشر موشيه هس، والحاخام الصهيونى يهودا القلعى وكاليشر كتاباتهم وكتبهم متبنية لفكرة الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين، فإنه بظهور هرتسل على الساحة عام ١٨٩٦ تحولت الصهيونية إلى حركة سياسية منظمة واعية بالضغوط والضوابط الدولية. فقد اكتشف هرتسل حقيقة بديهية، وهى أنه لتهجير يهود العالم لابد من الحصول على ترخيص دولى بذلك، مع ضمان دعم إحدى الدول الكبرى "[٢].

لقد استغل هرتسل شيوع ما يسمى بمعاداة السامية واتخذ منها ذريعة وحجة ليكسب بها تعاطف دول أوروبا ومساندتها ؛ لتحقيق هدف الصهيونية المحورى إذ كان يقول: " لم تكن مشكلة اليهود مشكلة دينية أو اجتماعية بل هى مشكلة قومية. وينبغى علينا إيجاد حل لها طالما أن جماهير اليهود لا ترغب فى الاندماج "[٣].

وقد كانت أولى خطواته هى كتابه (دولة اليهود) الذى شرح فيه باستفاضة فكرة وضرورة إنشاء وطن قومى لليهود، يضع حداً نهائياً لما يسمى بمعاداة السامية، ويقضى على الشتات اليهودى نهائياً.

وفى حقيقة الأمر، لم يكن ما يسمى بمعاداة السامية إلا حجة أشاعها اليهود من أجل تعضيد الفكرة الصهيونية ولفت أنظار الشتات اليهودى نحو فلسطين، لاسيما وأن أرض فلسطين كانت دوماً مفتوحة أمامهم حتى وقت الهروب اليهودى من الأحداث السياسية التى وقعت فى روسيا، ولكن لم يتجه إلا القليل منهم إليها، وهو مايعلق عليه شلومو أفنيرى قائلاً : " لقد كانت معاداة السامية، فى الحقيقة بكل مظاهرها فى القرن التاسع عشر، قوة دامغة للصهيونية. ولكن علينا أن نشير إلى انه من خلال مليونى ونصف مليون يهودى فى روسيا القيصرية الذين هربوا من الأحداث التى وقعت ما بين عامى ١٨٨٢ و

---

(١) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، دراسة فى علم اجتماع المعرفة، عالم المعرفة، الكويت، العدد (٦٠-٦١) يونيو ١٩٨٨، (ص ٩٥).
(٢) نفس المرجع، (ص ٩٥).
(٣) Cohen aharon , Israel and the arab world –W.H.Allen , London 1969 ,p29.

١٩١٤ ، قد توجهت الأغلبية منهم إلى أمريكا وكندا وإنجلترا ، وأمريكا الجنوبية وجنوب أفريقيا. وقلة فقط (أقل من واحد فى المائة) هم الذين هاجروا إلى فلسطين ، وبهذا فإن الهجرات اليهودية السابقة لن تمثل أدنى نسبة منها توجهت إلى فلسطين ، وأقامت بها نواة حقيقية للاستيطان اليهودى الجديد الذى تحول مع مرور الأيام إلى دولة " [(١)].

" وبدأ هرتسل فى تنظيم الجمعيات المختلفة فى شرق أوروبا ، وتوجه إلى أثرياء الغرب (روتشيلد وآخرين) ، ثم دعا إلى عقد المؤتمر الصيونى الأول فى بازل عام ١٨٩٧ وبعد عدة محاولات ومناورات دبلوماسية فاشلة عرضت إنجلترا مشروع أفريقيا لتوطين الفائض السكانى اليهودى فى إحدى مناطق الإمبراطورية ، ولكن لم يكتب للمشروع أى نجاح ، وفى عام ١٩١٧ أصدرت الحكومة الإنجليزية وعد بلفور [•] الذى استمرت الحركة الصهيونية على أثره فى المناورة السياسية والنشاط الدبلوماسى خارج فلسطين ، وفى النشاط الاستيطانى داخلها إلى أن أنشأت الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ " [(٢)].

وما بين أول مؤتمر صهيونى عالمى وحتى قيام دولة إسرائيل توالت المؤتمرات الصهيونية المنظمة التى سعت إلى تحقيق هدف الصهيونية الرئيسى بقيام كيان يهودى خالص ، حيث تأسس البنك القومى (صندوق الاستيطان اليهودى) فى المؤتمر الصهيونى الثانى عام ١٨٩٨ وتأسس الصندوق القومى اليهودى الذى خصص لشراء الأراضى فى فلسطين فى المؤتمر الصهيونى الخامس عام ١٩٠١ .

ولم تكن المؤتمرات الصهيونية العالمية التى انعقدت على التوالى فى منأى عن الخلافات التى وقعت بين القادة الصهاينة لتحقيق الهدف الحقيقى الذى يسعى إلى إنشاء كيان يهودى وضع المؤتمر الصهيونى الأول حجر الأساس له ، بدعوى قيام مأوى ليهود الشتات . وعلى الرغم من الاتفاق على تحقيق نسق أيديولوجي واحد وهو إنشاء دولة يهودية فى أرض فلسطين ، فإنه كانت هناك اختلافات فى وجهات النظر بين الزعماء الصهيونيين حول كيفية تحقيق هذا الهدف أو أسلوبه ؛ مما أدى إلى شيوع اتجاهات وتيارات صهيونية عديدة ؛ أدت فى النهاية إلى انبثاق المدارس الصهيونية المعروفة التى يمكن أن نعرض لها بإيجاز كالتالى :

---

(١) شلومو آفنيرى : " شيئلوت حفراه اومدينيوت بيسرائيل " قضايا اجتماعية وسياسية فى إسرائيل ، مرجع سابق ، (ص١٣).

(•) نص وعد بلفور : عزيزى اللورد روتشيلد ، يسعدني أن أبعث إليك باسم حكومة جلالة الملك ببيان التأييد التالى تلبية للرغبات اليهودية الصهيونية بعد أن حظى هذا البيان بموافقة الحكومة ، إن حكومة جلالة الملك تعد راغبة فى إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتحقيق هذا الهدف بشرط ألا يجرى أى شيء قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية أو بحقوق مكانة اليهود السياسية فى أى بلد آخر .
آرثر جيمس بلفور وزارة الخارجية فى ٢/ ١١/ ١٩١٧ .
(انظر : أفرايم ومناحم تلمي ، معجم المصطلحات الصهيونية ، مرجع سابق ، ص ١٥١).

(٢)د. عبد الوهاب المسيرى : الأيديولوجية الصهيونية ، مرجع سابق ، (ص ٩٦).

الصهيونية السياسية :

تعـد الصهيونية السياسية اتجاهاً فى الحركة الصهيونية بزعامة هرتسل. ويرى هذا الاتجاه ضـرورة تقديم ضمانات قانونية وبحقوق سياسية شرط مسبق قبل أن يبدأ اليهود بالاستيطان فـى فلسـطين. ومـن أجـل تحقـيق هـذا الـهدف أسـس هرتسل الـهستدروت (*) الصهيونية العالمية.

" ويؤمـن الصـهاينة السياسـيون بـأن المسـألة اليهودية هى مشكلة الفائض اليهودى غير القـادر على الاندماج، ولـم تكن اليهودية مشكلة مطروحة بالنسبة لـهم (على عكس موقف الصـهيونية الدينـية الثقافـية). فـلا يمكن حل المسألة اليهودية إلا بأن يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب وقومية مثل كل القوميات" (١).

الصهيونية التنقيحية :

تعـد أهـم تـيارات الصـهيونيات السياسـية، ويعـد هذا التيار الصهيونى استمراراً لفكر هرتسـل والصـهيونية السياسـية، ويعـد جابتونسـكى المفكـر الأساسى لـهذا التيار. ويؤمن الصـهيونيون أصـحاب هذا التيار بأن " معاداة السامية " وفشل الاندماج هما اللذان أديا إلى ظهـور حركة القومية اليهودية والصهيونية، ويرون أن المشكلة مشكلة يهود وليست مشكلة يهوديـة، ويـنظرون إلى الـيهودية على أنها تراث تاريخى يمكن الاستغناء عنه تماماً، ويتفقون مع هرتسل على تغليب الجانب القومى على الجانب الدينى.

الصهيونية العمالية (الاشتراكية) :

يؤمـن الصـهيونيون العماليون أو الاشتراكيون بأن ما يسمى بالمسألة اليهودية هى مشكلة فـائض سـكانى يهـودى غير قادر على الاندماج، وليست مشكلة الديانة اليهودية فقط، أى أنهـا مشكلة الوضع الاقتصادى والاجتماعى لبعض قطاعات اليهود ... وتتلخص المشكلة، حسـب التصـور الصـهيونى العمالى، فى أن التركيب الاجتماعى والحضارى لليهود يختلف عن التركيب الاجتماعى والحضارى للشعوب التى يعيشون بينها. ومن هنا فليس هناك حل إلا الـهجـرة، وفـى رأى سـيركين مؤسـس الصهيونية الاشتراكية، أنه ينبغى تشكيل الدولة

(*) الـهسـتدروت الصـهيونية العالمـية: أسسها بنيامين زئيف هرتسل خلال انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول الـذى عقد ببازل فى سويسـرا عام ١٨٩٧. وقد حـدد المؤتمـر الأول هـدف الحركـة الصهيونيـة = = ضـمن مشـروع بـازل، وهـو أن الصهيونية تصبو لأن تقيم للشعب اليهودى وطناً فى فلسطين يكون مضـموناً بموجب القانون العام. (انظر: أفرايم ومناحم تلمى، معجم المصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص ١٢١).

(١) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٩٦).

اليهودية على أساس تعاونى أى تأسيس الاقتصاد على أساس العون المتبادل وعلى ملكية العمال لوسائل الإنتاج أو ملكية المستهلكين لمؤسسات التموين.

الصهيونية الدينية:

تنطلق الصهيونية الدينية من معارضة فكرة انتظار اليهود "للمسيح المنتظر" أو "المسيح المخلص" ليقودهم صوب أرض فلسطين، تلك الفكرة التى اعتمد عليها يهود الشتات على مدى عقود كثيرة. ودعا الصهيونيون الدينيون إلى إقامة مستوطنات فى فلسطين كمقدمة لظهور المسيح المنتظر.

الصهيونية الروحية:

قاد آحاد هاعام أحد زعماء الصهيونية هذا التيار الصهيونى، فقد كان يرى أن حل المسألة اليهودية لن يأتى إلا بإنشاء مركز روحى يكون مركزاً ثقافياً وتعليمياً لليهود فى الشتات وحصناً منيعاً فى وجه خطر الاندماج الذى هدد يهود الشتات، أى أنه يجب تأهيل قلوب اليهود أولاً فى البعث الروحى والأخلاقى لليهود. ورأى أحاد هاعام أن أرض فلسطين لن تحل المشكلة اليهودية إلا بإنشاء هذا المركز القومى الروحى، وبالاستيطان العملى فى فلسطين بمعدل معتدل [1].

الصهيونية العملية:

رأى الصهيونيون العمليون أن حل ما يسمى بالمسألة اليهودية لن يتم إلا عن طريق جهود اليهود الذاتية والعملية لا عن طريق المناورات السياسية والدبلوماسية وكان فايتسمان من أهم قادة هذا الاتجاه.

أهداف الصهيونية:

سعت الأيديولوجية الصهيونية منذ الإرهاصات الأولى إلى تحقيق عدة أهداف لحل ما يسمى بالمسألة اليهودية، ويمكن القول، إنه على الرغم من اختلاف الآراء والتناقضات بين التيارات الصهيونية باختلاف مدارسها، فإن هناك اتفاقاً واسعاً بينها حول الأهداف المرجوة. فلم يكن الاختلاف بين هذه التيارات إلا اختلافاً فقط فى كيفية وأسلوب تحقيق الأهداف الصهيونية ويمكن لنا أن نعرض بإيجاز لأهداف الصهيونية، بصرف النظر عما تحقق منها أولم يتحقق بعد، فى النقاط التالية:

(١) " الاتجاه نحو فلسطين " كان شعاراً صهيونياً اتفق عليه الجميع من أجل قيام كيان يهودى خالص أو وطن قومى لشتات اليهود. ورأى الزعماء الصهيونيون أن أرض فلسطين هى أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. واتجهت الأنظار إلى أرض فلسطين

(١) انظر: أفرايم ومناحم تلمى، معجم المصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، (ص٣٨٢).

لاعتبارات دينية يهودية وسياسية أيضاً ولاعتبارات تاريخية حسبما يزعم الصهيونيون، حيث أشاع هؤلاء وجود نزعة تاريخية تربط بين يهود الشتات وأرض فلسطين.

" كمـا أن الوعـد الإلــهي والأنبـيائى لبنى إسرائيل بإنهاء تشتتهم من خلال العودة إلى صهيون، كان هو المبدأ المركزى الذى يحرك الصهيونية، ويضفى عليها صفة الشرعية. ويجرى تفسيره كحق تـاريخى (أو واجـب) من قبل العلمانيين، وكحق دينى من قبل الصـهيونيين الدينيين. وهكذا زرعت الصهيونية فى الوعى اليهودى عبر الأجيال فكرة العلاقـة الوثـيقة الـتى لا تنفصـم بين الـهوية الدينية والـهدف السياسى لكل مرحلة "[1].

(٢) " تجمـيع شـتات الـيهود " فى أرض فلسطين ودمجهم وذوبانهم فيما عرف بين الزعماء الصـهيونيين بـبوتقة الانصـهار، هو أمر مهم بالنسبة لتحقق الصهيونية وبدونه لا يمكن قـيام دولـة للـيهود ومن هنا كان تشجيع اليـهود فى شتى بلدان العالم على الـهجرة إلى أرض المـيعاد. وعـلى هـذا الأسـاس تـنظر الصـهيونية إلى وجـود الجماعـات اليهودية المختلفة فى الشتات على أنه (منفى).

(٣) " نظـراً لأن مؤسسى الصهيونية جاءوا أساساً من بين اليهود العلمانيين، الذين لم يكن لديهم حل فى مواجهة ما يسمونه (معاداة السامية) العلمانية، فقد طرحوا حلاً علمانياً لــهذه المشـكلة، وهـو (الدولـة الـيهودية) ارتـبط بالسـعى الحثيث للتأكيد على مفهوم (الطبيعية) أو (لنكن شعبا مثل سائر الشعوب) "[2].

(٤) " باسـتثناء الجماعـات الـيهودية الدينـية فـى إسرائيل، فإن الصهيونية تؤكد على القيم المادية وتمـيل إلى تـرجمة القـيم الدينـية إلى مفاهيم مادية. فشعب إسرائيل قيمة، ولكن الـبعد القومـى فيه أكبر من البعد الدينى، و(أرض إسرائيل) قيمة ولكن يبرز فيها البعد الإقلـيمي (البيـئة والآثـار التاريخـية والاكتشـافات الأثـرية) أكـثر من مشاهد الأشواق النفسـية، وتـوراة إسـرائيل قـيمة ولكنها مجرد دليل على الحق الوراثى لليهود اكثر منها وجهة نظر قيمية أخلاقية أو عقيدة تتحكم فى نظام الحياة بوحى من الخالق "[3].

وربما يفسر هذا اعتماد الصهيونية على أسطورة المقرا (الكتاب المقدس لليهود، التوارة) فى حل الصراع العربى الإسرائيلى، ورفعها لشعار (عيسو يكره يعقوب).

(١)د. رشـاد عـبد اللــه الشـامى: إشـكالية الـهويـة فـى إسرائيل، عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد٢٢٤، أغسطس١٩٩٧، (ص٢١٣ـ٢١٤).
(٢)د. رشاد عبد اللـه الشامى: إشكالية الـهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ٢١٤).
(٣) نفس المرجع، (ص ٢١٥).

(٥) سعت الصهيونية إلى خلق نمط يهودى جديد غير نمط اليهودى الجيتوى فى محاولة منها لإعداد جيل من الورثة الشباب يأتى من بعد جيل المؤسسين لاستكمال المسيرة، فجاءت شخصية الصبار (•).

(٦) هدفت الصهيونية أيضاً إلى ترسيخ مبدأ المصير المشترك ليهود دولة إسرائيل مع اليهود فى كل مكان فى العالم فى محاولة منها لاستغلال بعض نفوذ اليهود بالخارج للعمل من أجل مصلحة دولة إسرائيل ومساندتها.

(٧) " بما أن صهيون أو (أرض إسرائيل) حسب التوراة، هى الرمز الرئيسى للصهيونية، فإن " هاعلياه "، أى الهجرة، هى الطقس الأول فى الصهيونية، وهى حق لجميع اليهود والتزام يترتب على كل صهيونى، فإن محك تمسك بالمعتقد الصهيونى، هو موقف اليهودى من (قانون العودة) الذى يضمن تلقائياً حق المواطنة الإسرائيلية لكل يهودى يهاجر إلى إسرائيل " [1].

(٨) أكد زعماء الصهيونية مراراً وتكراراً فى المراحل المختلفة من تكوين الصهيونية كحركة أن أهداف هذه الحركة سوف تقوم بالطرق السلمية والدبلوماسية المختلفة، ولم تكن الحرب يوماً ضمن الأهداف الصهيونية المعلنة، وهو ما لم يحدث على أرض الواقع.

وهكذا، وضع الآباء المؤسسون للأيديولوجية الصهيونية هذه الأهداف نصب أعينهم، وحاولوا تحقيقها بشتى الوسائل الدبلوماسية الشرعية وغير الشرعية. وربما لم يخطر ببالهم ذات يوم أن مفردات أيديولوجيتهم سوف تخضع لمراجعة شاملة ودقيقة لكل إخفاقاتها من قبل الأجيال المتعاقبة، تماماً مثلما حدث مع مطلع الثمانينيات، وبداية التسعينيات من القرن العشرين.

وقبل أن نتعرض لموجات النقد اللاذعة التى تعرضت لها الأيديولوجية الصهيونية قبل أن تدنو من تحقيق كل أهدافها، لا يمكننا أن نغفل حقيقة بعض الإنجازات التى نجحت الصهيونية فى تحقيقها منذ المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى بازل بسويسرا عام ١٨٩٧

(•) الصبار: أخذ ذلك المصطلح يتردد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة واستخدم للمرة الأولى فى مدرسة " هرتسليا " الثانوية فى تل أبيب، وهى مدرسة كانت تضم بين تلاميذها اليهود شباناً من مواليد فلسطين إلى جانب الذين هاجروا مع آبائهم، والذين كانوا غالباً ما يتفوقون على أولئك المولودين فى فلسطين بسبب قدومهم من حضارة أكثر تقدماً. وفى محاولة لتعويض الشعور بالنقص كان اليهود من مواليد فلسطين، يلجأون إلى الإمساك بثمرات التين الشوكي وتقشيرها بأيديهم، ويدخلون فى مسابقات التقشير هذه مع أبناء المهاجرين، وكانت تنتهى عادة بأن يكسب أبناء اليهود من مواليد فلسطين هذا التحدى، ويتمكنون من نزع القشرة الشائكة ليحصلوا على الثمرة الحلوة. ومن هنا التصقت كلمة " التين الشوكى " (الصبار) بهذه الفئة من اليهود مواليد فلسطين، ثم انتشرت التسمية لتغطى ما يسمى بجيل " الصباريم " الذى أصبح يقصد به أولئك اليهود الذين ولدوا فى فلسطين على الرغم من تخلفهم الحضارى، فإنهم أكثر قدرة على تحمل المشاق. (انظر: د. رشاد عبد الله الشامى: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٢٩).

(١) د. رشاد عبد الله الشامى: إشكالية الهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ٢١٤).

وحتى يومنا هذا. حيث كان حلم الصهيونية الأول التى سعت إلى تحقيقه منذ أول مؤتمر صهيونى لها، هو إنشاء كيان يهودى مستقل على أرض فلسطين، وقد نجحت الصهيونية بالفعل فى تحقيق هذا الهدف أو الحلم ؛ فخرجت دولة إسرائيل إلى حيز الوجود فى ١٥ مايو ١٩٤٨ . وقد سبق هذا الأمر بعض الإنجازات التى كان للصهيونيين الأوائل باع طويل فى تحقيقها كتمهيد لانتزاع أرض فلسطين، وإعلان قيام دولة لليهود على حساب هذه البقعة من الأرض العربية. وقد تحقق هذا من خلال:

(١) **الهجرات الصهيونية الخمس**: شكلت الهجرة أهم عنصر من عناصر الاستعداد الصهيونى لاحتلال فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها، حيث نظر زعماء الصهيونية إلى تجميع الشتات اليهودى داخل فلسطين نظرة اهتمام بالغ ؛ لما تشكله تلك الجماعات اليهودية من تكتل يؤدى إلى أغلبية يهودية فى فلسطين تكون عماداً ومرتكزاً للدولة اليهودية. وقد لعبت الوكالة اليهودية دوراً فاعلاً فى استدراج اليهود ناحية فلسطين، فبالإضافة إلى الهجرات السرية أو غير الشرعية، كانت هناك الهجرات الصهيونية الخمس المعروفة [١]:

أ- الهجرة الأولى، واستمرت خلال الفترة من عام (١٨٨٢ - ١٩٠٣)، ووصل تعدادها حوالي ٢٥ ألف مهاجر يهودي.

ب- الهجرات الثلاث اللاحقة، وهى الهجرة الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) وكانت تعدادها ٤٠ ألف مهاجر يهودي معظمهم من الشباب اليهودي المتحمس، والهجرة الثالثة (١٩١٩- ١٩٢٤) وكان ٤٥٪ منهم من المهاجرين من روسيا، و٣٠٪ من بولندا، والهجرة الرابعة (١٩٢٤ - ١٩٣٤) كان نصفها من بولندا، وخمسها من روسيا، والخمس الباقي من باقي أنحاء أوربا.

ج- الهجرة الخامسة (١٩٣٢-١٩٣٨) وحملت إلى فلسطين ٢١٧ ألف يهودي، وكانت أقل صهيونية. " وقد تم ربط هذه الهجرات اليهودية التى كونت المستوطنات بعناصر ثلاثة: ادعاء الحق التاريخى، وفكرة الخلاص اليهودى، والأرض المختارة ... ونجح الفكر الصهيونى فى إقناع اليهود بأن الاستيطان فى فلسطين ليس مجرد ضرورة قومية بل لإثبات الذات، ولإظهار قدرة التفوق لدى الإنسان اليهودى " [٢].

(٢) **وعد بلفور**: لجأ هرتسل فى بداية الحركة الصهيونية إلى الخلافة العثمانية التى كانت فلسطين جزءا من المناطق التابعة لها، فى محاولة للحصول على حق فتح باب الهجرة أمام

---

(١) انظر: د. رشاد عبدالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ٨٦).

(٢) د. عبد الخالق عبدالله جبة: إسرائيل – الإستيطان والكيان، دراسة نقدية لسيرة يجال آلون الذاتية، مجلة كلية الآداب بسوهاج، العدد١٦، يوليو ١٩٩٤، (ص٢٢).

الـيهود إلى فلسـطين، ولكنه فشل فى ذلك، وقد حاول البحث عن بديل فى منطقة العريش وسيناء عـن طـريق الإنجليز الذيـن كانوا يحتلون مصر آنذاك، ولكنه فشل فى ذلك أيضاً.

وبعـد وفاتـه فـى عـام ١٩٠٥ **كـان قـد أعطـى** درسـاً ظـل ركناً أساسياً من أركان السياسة الصـهيونية، وهـو ضـرورة **الاعـتماد على الدولة** العظمى القوية لمساندة أهداف الصهيونية والعمـل عـلى تحقيقها. **ويعـد مـوت هرتسـل** واصـل حاييم وايزمان المسيرة حتى استطاع الحصـول عـلى مـا يعرف بـ (وعد بلفور) الشهير من وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت جيمس بلفـور الـذى يقضـى بـالعمل مـن جانب بريطانيا على مساعدة اليهود لإقامة كيان يهودى لـهم فى فلسطين، وعرف هذا التصريح باسمه فى ٢/ ١١/ ١٩١٧.

(٣) **إقامة المستوطنات اليهودية:** نجحت الصهيونية نجاحاً ملحوظاً فى دفع جموع اليهود إلى الاستيطان فـى فلسـطين وشـراء الأراضـى العربـية من الفلسطينيين فى محاولة لوضع حجر الأسـاس للاسـتيطان الصـهيونى الـذى تحقـق عـلى أيـدى الـرواد الصـهيونيين فـيما عرف بالـريادة، أو الطـليعة " حالوتسيوت" حيث قام هؤلاء بشراء قطعة أرض وأنشئوا عليها أول مسـتعمرة زراعـية لليهود وهى مستعمرة بيتح تكفاه (بوابة الأمـل) ثم توالت بعد ذلك إنشـاء المستوطنات مثل (ريشـون لتسـيون) و(زخارون يعقوب) و (روش بيناه)، وغيرها مـن المستوطنات الصهيونية. وقد ساعد على ذلك تأسيس كيرن قاييمت (الصندوق القومى الـيهودى) فـى المؤتـمر الصـهيـونى الخـامس عـام ١٩٠١، الذى خصـص لشـراء الأراضى العربية فى فلسطين.

(٤) **خلق مؤسسة عسكرية صهيونية:** كانت مسألة الحفاظ على المنجزات الصهيونية موضع اهـتمام الـرواد الصـهيونيين، لاسيما وأنهم كانوا يدركون تماماً ضراوة المقاومة العربية حال تنفـيذ مشـروعهم الصـهيونى عـلى أرض فلسـطين. ومن هنا نجحت الصهيونية فى تكوين نويات عسكرية صهيونية من الشباب اليهود المهاجرين، شكلت فيما بعد الأعمدة الأساسية لجيش إسرائيل بعد قيام الدولة، حيث توالت عمليات إنشاء المنظمات العسكرية الصهيونية بعد مجىء لـهجرات الصهيونية إلى فلسطين، نذكر منها على سبيل المثال ما يلى [1]:

(•) هيحالوتس: (الرائد – الطليعى)، وتعنى ذلك الجزء من الجيش الذى يسير فى المقدمة، وتعنى فى المجـال الاسـتعمارى أول مـن يقـوم بالاحـتلال أو من يشق الطريق أمام من يأتون بعده وهو اصطلاح أطلـق عـلى المجموعـة الـيهودية الـتى هاجرت إلى فلسطين من أجل تحقيق الحلم الصهيونى عن طريق العمـل الـيدوى الشـاق. ويشـيع اسـتخدام هذا الاصطلاح فى المصادر العربية بكلمة (رائد ـ طليعى) والإشارة إلى " دور الحالوتسيـم " عـلى أنـه " جيل الـرواد". (انظـر: د. رشـاد عبد اللـه الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، ص٨١)

(١) انظر: أفرايم ومناحم تلمى، معجم المصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، (ص٢٤٥).

الهاجاناه: منظمة عسكرية إسرائيلية، تأسست بعد عام (١٩١٧) بزعامة البولونى " ولهلم رابيل " كان شعارها " فلسطين لليهود ".

إتسل: (المنظمة العسكرية القومية)، وهى منظمة يهودية مسلحة قامت عام (١٩٣١) بالاشتراك مع جماعة مسلحة من " بيتار " و " الهاجاناه " احتجاجاً على سياسة " الهاجاناه " الدفاعية.

لحى: وهى منظمة " المحاربون من أجل حرية إسرائيل ". وقد تشكلت هذه المنظمة من جماعة يهودية سرية عام (١٩٤٠) على أيدى " افراهام شتيرن ".

البالماح: هى اختصار الكلمة العبرية " بلوجوت ماحتس " (سرايا الصاعقة)، وقد تكون فى عام (١٩٤١) وارتبط بحركة " الكيبوتس " وحزب " المابام (*) ". وكان يتميز أفراد هذه القوة العسكرية اليهودية بقدر كبير من التثقيف السياسى الذى يركز على مبادئ الصهيونية الاشتراكية.

(٥) **قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين:** كان قرار تقسيم فلسطين الصادر من الأمم المتحدة فى الرابع والعشرين من نوفمبرعام ١٩٤٧ من أهم الإنجازات الصهيونية التى تحققت من خلال المساعى الدبلوماسية لرواد الحركة الصهيونية لدى القوى السياسية المؤثرة فى العالم بعد الحرب العالمية الثانية وخصوصاً أمريكا وفرنسا وبريطانيا وروسيا. حيث استغل رواد الصهيونية هذا القرار وبدءوا يعملون فى إطار شرعى لكسب المزيد من الأراضى الفلسطينية، حتى استطاعوا الحصول بعد حرب ١٩٤٨ على ما يقرب من عشرين فى المائة زيادة فى الأرض عن قرار التقسيم. وقد مهد هذا القرار الطريق لقبول دولة يهودية وليدة بين أسرة الشعوب فى المنطقة العربية، وتلاه بعد ذلك قيام دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ التى حظيت باعتراف كثير من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة.

وهكذا، نجح الرواد الصهيونيون الأوائل فى تهيئة المناخ الدولى المناسب لتحقيق حلمهم الكبير بإقامة دولة لليهود، وبعد اندلاع حرب ١٩٤٨ التى يطلقون عليها فى الفكر الصهيونى (حرب الاستقلال) جنحت منطقة الشرق الأوسط نحو منعطف خطير، حيث توالت الحروب الإسرائيلية العربية بدءاً من هذه الحرب التى شكلت الشرارة الأولى لاندلاع سلسلة من الحروب التى خاضتها إسرائيل ضد الدول العربية المجاورة، فى محاولة لإثبات الوجود وتثبيت أركان الدولة اليهودية والحصول على مزيد من الأراضى العربية.

(*) مابام (حزب العمال الموحد): حزب صهيونى طلائعى ذو ميول يسارية متطرفة، أنشأ فى عام ١٩٤٨ عن طريق توحيد توحيد حزبى (الحارس الفتى) و (اتحاد العمال - عمال صهيون). وقد جاء فى اتفاقية توحيد الحزبين أن الحزب موحد حول الأسس الفكرية، والأهداف العملية وحول الاعتراف بهدف ودور العمال فى العالم. (أنظر: نفس المرجع، ص ٢٩٠).

ويمكن القول، إن حرب ١٩٤٨ كانت بمثابة نقطة تحول كبيرة فى تاريخ الحركة الصهيونية التى أكدت مراراً وتكراراً على تحقيق أهدافها بالطرق السلمية المختلفة، ثم تكشف لهؤلاء اليهود حقيقة تمسك الفلسطينيين بالوجود فى هذه الأرض. وتعد هذه الحرب أيضاً بمثابة نقطة تحول كبيرة على المستوى الشخصى والإنسانى بالنسبة لمن خاض هذه الحرب من الشباب الإسرائيليين حيث وجد هؤلاء أنفسهم، مع بدء المعارك العسكرية متأرجحين ما بين المثل العليا والأخلاق الإنسانية وبين الواجب العسكرى الذى يلزمهم بالقيام بأعمال القتل والطرد وسفك الدماء ضد المواطن العربى الذى عاش معهم جنباً إلى جنب قبل قيام الدولة وبدء العمليات العسكرية ضد القرى العربية، مما شكل لهم ما يمكن أن نطلق عليه بالورطة الأخلاقية. ومن هنا أدرك بعض اليهود حقيقة الصهيونية التى دفعت بهم نحو منعطف خطير، هدد حياتهم وجعلهم فى وضع الاستعداد الدائم للحرب القادمة، لتأتى حرب تلو الأخرى لتجعل الإسرائيلى فى حالة من الصدام العنيف ليس فقط مع الفلسطينيين أهل البلاد الأصليين، بل مع العالم العربى الذى يحيط بهم. وقد شكلت نتائج حرب ١٩٦٧، مع اتساع رقعة الأرض التى تسيطر عليها إسرائيل مخاوف عظيمة فى قلوب قطاعات واسعة داخل المجتمع الإسرائيلى، وبدأ العرب الفلسطينيون يشكلون بالنسبة لهم عدواً يمكن أن ينقض عليهم فى أية لحظة. وقد شملت هذه الحياة الإسرائيلية المغلقة جيلاً كاملاً، منذ حرب ١٩٤٨، عاش فى ظل الحرب والحصار المستمرين، الأمر الذى شكل لهم محنة وجودية أصبح من الصعب الفكاك منها بكل سهولة، الأمر الذى عمق من مخاوف المجتمع الإسرائيلى من المصير المجهول.

وإذا كان هذا هو الحال الذى نتج عن هذه الحرب التى انتصرت فيها إسرائيل على الجيوش العربية، فإن حرب ١٩٧٣ التى منيت فيها العسكرية الإسرائيلية بهزيمة أكدت لدى الجميع حقيقة جديدة، هى أنه لا يمكن لجيش إسرائيل أن يصول ويجول فى الأراضى العربية المحتلة دون أن يدفع الثمن.

ويمكن القول أيضاً، إن الحلقة المفرغة من الحروب التى خاضتها إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨، كانت سبباً مباشراً فى اتجاه بعض المفكرين الإسرائيليين لعمل مراجعة شاملة ودقيقة لمفردات الصهيونية التى أوقعتهم فى فخ هذه الحروب التى لا طائل منها سوى مزيد من جثث القتلى وزيادة عدد الثكالى، ناهيك عن الدمار والخراب فى الأرض الموعودة على نحو مخالف لما روجت له الصهيونية. ومع مطلع الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن العشرين، بدأ المفكرون الإسرائيليون فى مقارنة الواقع المعيش مع أهداف الصهيونية التى تسعى دولة إسرائيل إلى تحقيقها. وتم وضع علامات استفهام عديدة أمام إخفاقات الصهيونية فى تجميع الشتات اليهودى داخل إسرائيل، وتفكك المجتمع الإسرائيلى

والصـراعات الداخلية التى تمزقه، الأمر الذى جعل بعضهم يتساءل عن حقيقة الصهيونية، وهل هى حركة تاريخية أم لحظة تاريخية؟ أم أنها أيديولوجية كلاسيكية لا تتناسب مع الواقع المعيش فـى دولـة إسـرائيل؟ أم أنهـا اسـتنفذت قواهـا وفشلت فى مواجهة التحديات التى واجهـتها؟ كمـا طرحت التساؤلات عما فعلته فى الشتات اليهودى حتى ذلك الحين؟ وهل هـناك ضـرورة لوجودهـا؟ إلى غـير هـذه الأسـئلة الـتى تم طـرحها بصراحة ووضوح على الساحة فى إسرائيل.

الآراء النقدية للمفكرين الإسرائيليين حول الصهيونية:

كـان مطمـح الصهيونيين الأوائل منذ الإرهاصات الأولى لسعى الأيديولوجية الصهيونية لتحقـيق أهدافهـا، هـو العمـل على نجاح المشروع الصهيونى وإخراجه من حيز المشروع إلى مـرحلة التحقيق لحل ما يسمى بالمسألة اليهودية. وربما لم يخطر ببال أحد من الصهاينة، بعد أن حققـت الصـهيونية هدفها الأسمى، وهو إقامة دولة لليهود فى فلسطين، أنه سيأتى يوم سيطالب فـيه المفكرون الإسرائيليون بالانفصال عنها أو نقدها أو حتى مقتها واتهامها بأنها السبب فـى الكـثير مـن المشـكلات الـتى يواجههـا الإسـرائيليون عـلى أرض الواقع الذى يعيشونه، إلى حد أنه فى النهاية ظهر مفهوم جديد للصهيونية تمت الإشارة إليه بمصطلح (ما بعـد الصهيونية)(•)، وهو ما يعنى أن الصهيونية الكلاسيكية هى أيديولوجية قديمة عفا عليها الـزمن، ولا ضـرورة لوجودهـا عـلى أرض الواقـع بعدمـا تحققـت أهم أهدافها، بينما لم تستطع أن تواجه التحديات التى ترتبت على تحقيق الأهداف والطموحات.

وتـرى سـينتيا أوزيـك " أن مفهـوم (صـهيونية) يشـير إلى حـركة تاريخـية أوربـية، أو بالأحـرى، إلى لحظـة تاريخـية أوربـية، ويشير كذلك، إلى الأرضية التي أنجبت الصهيونية، مثـلما أنتـجـت الليـبرالية، والاشتراكية، والقومية ... ويمكن تفسير تلك المفاهيم على عدة أوجه، حيث إنها عندما تصل لـهدفها، تفقد معناها على أرض الواقع "[(1)].

وتشـير أوزيك كذلك إلى " أن الصهيونية عرفت كحركة قومية، وقد مر الآن على قيام الدولـة الـتي قامـت تلـك الحركة من أجلـها أكثر من خمسين عاماً، فقد ولدت إسرائيل من رحم الصهيونية، ولكنها الآن، باعتبارها دولة، يجب أن تتحرر من المفاهيم التي كانت سبباً

(•) مـابعد الصـهيونية: يرى بعض المفكرين أن مصطلح (ما بعد الصهيونية) post Zionism إنما يقصد به تلك الكتابات التاريخية التى بدأ بعض المؤرخين الإسرائيليين الذين عرفوا باسم (المؤرخين الجدد) فى كـتاباتها اعتـباراً مـن بداية الثمانينيات تباعاً، حيث أعادوا كتابة تاريخ الـهجرات الصهيونية والصراع العـربى الفلسـطينى، بعيداً عن الرؤية الصهيونية الرسمية، من جديد فى ضوء المعطيات التى كشفت عنها الوثائق الرسمية التى أفرجت عنها السلطات الإسرائيلية.

(١) سنتيا أوزيك: إسرائيل ليست صهيونية بل هى صهيون، صحيفة " هاآرتس " الإسرائيلية، ٥-١٠-١٩٩٧

في وجودها ... كما أن استخدام مصطلح الصهيونية اليوم يشير إلى الضعف وعدم الوصول لهدف، أي أنه وضع قابل للتغير. وهو لذلك يتيح التعرض لأخطار خارجية، وبلبلة في القيم، إلى درجة عدم الثقة داخلياً " [١].

وترى أوزيك كذلك، أن هناك ضرورة لاستقلال إسرائيل، وهذا الاستقلال لن يتحقق إلا بالانفصال عن الصهيونية، حيث تقول: " لقد كانت الصهيونية بمثابة معمل تفريخ لإسرائيل، وعندما يتطور الجنين ينفصل عن أطرافه البدائية، كذلك الحال بالنسبة لصهيون التي يجب أن تنفصل عن أطرافها الفوضوية، ويكون مستقبل الصهيونية هو صهيون ذاتها، لكي يسود الشعور بالاستقلالية التامة " [٢].

ويرى مايكل الجنتايب، أن هناك أموراً لم تنجح الصهيونية، بعد مرور قرن من الزمان عليها، فى حلها، فالخلافات حول أمور عديدة مازالت موجودة بين اليهود أنفسهم وبقوة، حيث يقول: " الآن، وبعد مرور قرن على الصهيونية، يتراءى لي تساؤل تم طرحه بشكل لم يتخيله الآباء المؤسسون مطلقاً. فهناك يهود يعدون إسرائيل هي مركز وجودهم، كما أن هناك يهودا لا يبالون بإسرائيل، بل تثير اشمئزازهم، وهناك من يفسر الرسالة الصهيونية باعتبارها دعوة لاقتسام الأرض مع شعب آخر. وآخرون يؤمنون بأن الرب منح الأرض لهم وحدهم. ومازالت العلاقة بين الشتات والوطن محاطة بالخلافات كدأبها ؛ حيث يرغب بعض اليهود في الهجرة إلى الأرض، بينما لا يرغب بعضهم الآخر في ذلك. وهناك في الشتات من يشير على الإسرائيليين أن يمنحوا الأمن لجيرانهم من العرب، وآخرون لا يشيرون بذلك. كل تلك الخلافات لا تتيح حلاً، ولم تقدم الصهيونية رداً على ذلك أو على حتى المسألة اليهودية " [٣].

ويضيف مايكل قائلاً: " هناك خلاف أخير لم تتمكن الصهيونية من حله، ألا وهو استخدام العنف في فض الاشتباكات داخل العائلة الصهيونية. على سبيل المثال في النزاع الدائم مع العرب كان هناك خلاف مستمر بين اليهود الذين يؤمنون بأن النظريات التي تدافع عن الحلم الصهيوني من شأنها أن تلوثه، وبين أولئك الذين لا يعتقدون ذلك ... والسؤال الحقيقي هنا هو، هل استطاع الحلم الصهيوني أن يبرر العنف ضد اليهود الآخرين. ومن دواعي أسف معظم اليهود أنه استطاع ذلك بالفعل. فقد اغتيل رئيس

(١) سنتيا أوزيك: إسرائيل ليست صهيونية بل هى صهيون، صحيفة " هاآرتس " الإسرائيلية، ٥-١٠-١٩٩٧
(٢) سنتيا أوزيك: نفس المرجع.
(٣) مايكل الجنتايب: فى الطريق إلى الصهيونية الحقيقية، صحيفة " هاآرتس " الإسرائيلية، ٦-١٠-١٩٩٧

الـوزراء إسحاق رابين (•). قتل يهودي يهودياً آخر باسم صهيون، كما أن الانتخابـات تحسم بواسطـة السلاح " [1].

أمـا والتر لاكوير، فإنه ينظر إلى الصهيونية على أنها حركة ضمن الحركات القومية تحول حـلمها إلى واقـع سياسـي، ولكـن دولـة إسـرائيل، تلك الدولة التى حلم بها الصهيونيون الأوائـل لم تكـن هـى الحـلم ذاتـه ؛ فقـد ابـتعدت كـثيراً عـن الدولـة التى حلم بها هؤلاء الصـهيونيون. ويقـول لاكويـر: " عندما ألفت كتاب A History of Zionism (تاريخ الصـهيونية) في أواخـر السـتينيات، كان هناك بعض زعماء الحركة الصهيونية مازالوا على قـيد الحياة، وقد أصيب كثير منهم بالإحباط بسبب نتائج هذا المشروع الذي كرسوا حياتهم مـن أجلـه. لأن دولـة إسـرائيل الحديثة لم تكن على النحو الذى تحدث به عنها هرتسل في روايته اليوتوبية " [2].

وعن مدى نجاح الصهيونية فى تجـميع الشتات اليهودي داخل إسـرائيل يقــول لاكوير: " عـندما سـألت جرشوم شولام عن سبب اتجاهه للصهيونية، تردد قليلاً ثم أجاب: (لأنني أردت وضـع حـد لجنون السفر المرضي عند اليهود. لكنهم الآن يسافرون أكثر من أي وقت مضـى) ... لقـد قامـت الصهيونية كرد فعل ضد معاداة اليهودية، إلا أنها كانت أيضاً بمثابة تمـرد ضـد أسـلوب الحـياة اليهودي البائس، وخصوصا في شرق أوربا. وكانت تمثل حلماً بمجتمع جديد وميلاداً لجنس يهودي جديد (ليس بالمعني البيولوجي). واليوم، وبعد مرور ١٠٠ عـام عـلى بـازل، توجـد حـركة قوية، وخصوصا في إسرائيل، لا تعارض الاندماج فحسـب بـل تعـارض الـتحرير أيضاً، وتنادي بالعودة إلى الشتتل (حتى إذا كان الشتتل مع وجـود الإنترنيـت). . . ومـن هذا المنطلق فإن الفجوة بين الحلم والواقع كبيرة بالفعل مثلما أشار جرشوم شولام " [3].

ويتسـاءل لاكوير عن مستقبل الصهيونية فى هذا الوقت، وعن دور الشتات اليهودى فى بناء مستقبل الدولة، ولكنه لا يعتقد أنه مستقبل مشرق أو مبشر، حيث يقول: " هل هناك مستقبل للصـهيونية؟ فـيما يـبدو أن الصهيونية قد وصلت إلى ذروتـها في عام ١٩٤٨، مع قـيام الدولـة، ثـم مع الـهجرة من الاتحاد السوفييتي السابق. حيث لم تتبق جماعات يهودية

(•) إسـحاق رابـين: رئـيس الـوزراء الإسـرائيلى الأسبق، وهو من اليسار الإسرائيلى، وينتمى إلى حزب العمـل، وقـد تم اغتـيالـه فى عام (١٩٩٥) على يد " يجال عامير " أحد المتطرفين الإسرائيليين بسبب اتفاقيات السلام التى أجراها مع الفلسطينيين.

(١) مايكل الجنتايب: فى الطريق إلى الصهيونية الحقيقية، مرجع سابق.

(٢) لاكوير: القصة التى بدأت فى بازل، صحيفة " هاآرتس " الإسرائيلية، ٧ـ١٠ـ١٩٩٧

(٣) نفس المرجع

كبيرة يمكن أن تتجمع الآن (ومن يصدق ولو للحظة أن يهود أمريكا يمكن أن يهاجروا لإسرائيل؟) "[1].

جماعات رفض الصهيونية

منذ المؤتمر الصهيوني الأول الذى عقد فى بازل عام ١٨٩٧، والمنظمة الصهيونية العالمية تطرح نفسها على أنها المنظمة الوحيدة التى عبرت عن آمال اليهود، وحولت تطلعاتهم إلى برنامج سياسى قابل للتنفيذ بالفعل، وقدمت الصهيونية نفسها منذ البداية كمتحدث رسمى لجموع اليهود فى بلاد الشتات. وبعد مرور عدة سنوات على بداية أول مؤتمر صهيونى، وبعد أن بدأ البرنامج الصهيونى يدخل فى أطواره التنفيذية بتحقيق بعض النجاحات مع بداية موجة الهجرات الصهيونية إلى فلسطين وقيام الدولة، ظلت الصهيونية تتحدث من هذا المنطلق متناسية وجود بعض جماعات الرفض الصهيونى، وأن دولة إسرائيل لا تضم كل اليهود حتى الآن، لأسباب أيديولوجية أو عقائدية، وأن من هاجروا إلى أرض فلسطين كانت تختلف استجاباتهم للصهيونية باختلاف الظروف الحضارية والأهداف الشخصية. " فبعض اليهود هاجروا إلى فلسطين للاستيطان فيها لأسباب دينية. وقد هاجر معظم يهود البلاد العربية لأسباب اقتصادية سعياً وراء الرزق أو لأسباب سياسية ... لذلك حينما تتاح لهؤلاء المهاجرين فرصة الفرار من أرض الميعاد إلى أرض الفرص الاقتصادية فى الولايات المتحدة فإنهم يفعلون ذلك دون تردد ... إن اليهود سواء فى الشرق أو الغرب، لم يتقبلوا الصهيونية تقبلاً أعمى، وإنما كانت تختلف استجاباتهم لها باختلاف الظروف والانتماء الحضارى أو الطبقى. فهناك بطبيعة الحال اليهود الصهاينة المؤمنون بالصهيونية كحل لما يسمى بـ" المشكلة اليهودية " فى العالم لأن هذه الحركة تخدم مصالحهم الاقتصادية أو النفسية والحضارية، لكن كان هناك أيضاً يهود كثيرون فى بلدان عديدة فى أوروبا وأمريكا حاولوا التملص من الصهيونية، وكان هناك من اليهود من لهم تحفظات عليها، وكان هناك من رفضوها رفضاً كاملاً عن وعى أو عن غير وعى "[2].

ومن هنا يمكن تقسيم جماعات رفض الصهيونية إلى الاتجاهات التالية:

(١) الرفض الدينى للصهيونية:

ينبع الرفض الدينى للصهيونية من خلال فكرتى (الخلاص) و(الاختيار)، فإذا كانت الصهيونية ترى أن اليهود هم شعب مثل سائر الشعوب يجب ألا يخضعوا إلا للقانون

(١) نفس المرجع

(٢) هدى عبد السميع حجازى: بعض كلاسيكيات الرفض اليهودى للصهيونية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد (١٤) - العدد الأول، أبريل -مايو - يونيو ١٩٨٣، (ص ١٤٧).

العلماني فقط، وأن المسائل الدينية والمحافظة على الوصايا اليهودية هي أمور تعوق تحرر الإنسان اليهودي وتعرقله عن مواصلة التقدم الحضاري والإنساني، فإن اليهودية ترى عكس ذلك تماماً وهو الأمر الذي مثل منذ الإرهاصات الأولى للصهيونية صداماً مباشراً بين الحاخامات اليهود والقادة الصهاينة.

" وعندما ظهرت الصهيونية، أول ما ظهرت على المسرح السياسي الدولي، كانت الاستجابة اليهودية لها أبعد ما تكون عن الترحيب، واتخذت المنظمات اليهودية الرئيسية من الصهيونية موقفاً معارضاً أو موقفاً غير صهيوني، وأعلنت اللجنة التنفيذية لمجلس الحاخامات في ألمانيا عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول اعتراضها على الصهيونية، على أساس أن فكرة الدولة اليهودية تتعارض مع عقيدة الخلاص اليهودية، واتخذت كافة المنظمات اليهودية في إنجلترا وأمريكا مواقف مماثلة تعبر فيها عن رفضها للتفسير الصهيوني لليهودية على أنها انتماء قومي معلنين أن (إعلان فلسطين وطناً قومياً لليهود سيكون جريمة في حق الرؤى العالمية لأنبياء اليهود وقادتهم العظماء) " (١).

وقد بدأت الأزمة الدينية اليهودية عندما حاولت الصهيونية تحوير معنى الخلاص لدى اليهود على أساس أن الفكرة الصهيونية هي امتداد لفكر الخلاص في اليهودية، وقد سعت لتحقيق ذلك من خلال استغلال الظروف السياسية وتحويل المعنى الديني للخلاص إلى مضمون علماني يرفضه اليهود الدينيون.

" وتتلخص هذه الأزمة الدينية التي سببتها الصهيونية نتيجة لهذا التفسير الجديد الذي قدمته لمعنى الخلاص، في أن الديانة اليهودية صورت الخلاص في صورة لقاء بين الإنسان اليهودي وإلهه، فالفكرة دينية حشرية بمعنى أن هذا اللقاء المنتظر هو من بين الأحداث التي سيتم وقوعها بعد نهاية العالم، أو كما يسميها بعض علماء الأديان بالأشياء الأخيرة أو بأحداث ما بعد الموت " (٢).

وقد نظر بعض اليهود الدينيين إلى الصهيونية وقيام الدولة على أنهما يمثلان (التعجيل بالنهاية) وهو ما يعارض الأمر الإلهي بانتظار المسيح المخلص، " وعلى الرغم من أن الصهيونية قد حققت هدف العودة بإنشائها لدولة إسرائيل فإن الصهيونية لم تحقق الخلاص المنتظر، ولم تغن عن قدوم المسيح المخلص، إذ لا يزال حال اليهود في العالم وموقفهم متوتراً وحساساً كما أنهم لا يزالون مشتتين في أنحاء العالم. وأن من يقول بأن الصهيونية جمعت شمل اليهود أو ستجمع شملهم فهو خاطئ، وعلى هذا فالاعتقاد في أن الصهيونية إتمام للفكر الخلاصي اليهودي، أو إنجاز له إنما هو من صنع خيال بعض المتطرفين من

(١) انظر: د. عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٢٢٨).
(٢)د. محمد خليفة حسن: الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الديني اليهودي، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد (٤)، (ص ٢١).

الصهاينة الذين اهتموا فقط بالجانب التنفيذي لفكرة الخلاص الذى حولوه إلى خلاص علمانى يحدث فى العالم، ولا علاقة له بنهاية الأيام " [١] .

وقد أثارت الصهيونية كذلك فى تعرضها لمفهوم (الاختيار) لدى اليهود بعض الشكوك فمفهوم (الاختيار) له أصوله الثابتة فى الديانة اليهودية، فاليهود هم شعب الله المختار وتربطهم بالرب علاقة خاصة، واليهودى مختار من قبل الرب الذى اصطفاه من بين جموع البشر وفضله عليهم، وهو ما يتعارض مع محاولات الصهيونية فى مساواة الشعب اليهودى بسائر الشعوب، إذ كيف تهدم فكرة (الاختيارية) من قبل هؤلاء الصهاينة العلمانيين.

وينبع الرفض اليهودى للصهيونية من أن " فكرة الاختيار الدينى عند الصهاينة قد تحولت إلى أفكار عنصرية سياسية، فيصير العنصرى اليهودى عنصراً متفوقاً، ويمنح هذا التفوق اليهود حقوقاً معينة تجب حقوق الآخرين ؛ ولذا يصبح من حقهم الاستيلاء على فلسطين وطرد سكانها، وبدلاً من أن يخضع اليهودى لقوانين ديانته فإن عليه أن يخضع للقوانين العلمانية السائدة بغض النظر عما إذا كانت تتفق مع القوانين الدينية أم لا. وإذا كان المتدينون ينظرون إلى اللغة العبرية باعتبارها لغة دينية يحرم استخدامها فى الشئون الدنيوية، فإن الصهاينة قد جعلوا منها لغة الحديث اليومية فى الوطن الصهيونى ثم جعلوها اللغة الرسمية للدولة " [٢] . ومن هنا يبقى السؤال الذى يطرحه اليهود الرافضون للصهيونية : " ما حكمة الاختيار إذا فسرت الصهيونية مفهوم (نهاية الأيام) على أنه اشتراك اليهودى بنصاب فى مجتمع المساواة. وإذا تساوى مع الآخرين فما قيمة الاختيار؟ " [٣] .

وتلك هى أهم الجماعات اليهودية الدينية المعارضة للصهيونية :

(أ) جماعة ناطورى كارتا (*) (حراس المدينة) :

تعد ناطورى كارتا من أشهر الجماعات اليهودية التى تجاهر بعدائها الشديد للصهيونية والدولة. " وهى منظمة دولية تضم اليهود المتدينين فى الولايات المتحدة وكل أنحاء العالم الذين يعارضون الصهيونية والدولة الصهيونية بشكل مبدئى لا مهادنة فيه ولا مساومة، وأكبر تجمع لهم فى حى بروكلين فى نيويورك وفى حى بناى براك فى القدس ... وهى تدعو لإسقاط دولة إسرائيل وإقامة دولة فلسطينية فى كل الأراضى الفلسطينية و تدويل

---

(١) نفس المرجع.

(٢) هدى عبد السميع حجازى: مرجع سابق، (ص ١٤٩).

(٣) د. محمد خليفة حسن: الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى، مرجع سابق، (ص ٢٦).

(*) ناطورى كارتا: كلمة آرامية تعنى (حراس المدينة). وقد اتخذت الجماعة هذه التسمية من قصة وردت فى التلمود أتى فيها أن أحد الحاخامات أرسل اثنين من حوارييه لجماعات اليهود المقيمين فى الأرض المقدسة ليرى ما إذا كانت لديهم معاهد لدراسة التوراة أم لا؟ ولكنهما لم يجدا لا معاهد ولا طلبة، فطلبا من أهل المدينة المقدسة أن يرسلوا لهما (الناطورى كارتا) أو (نواطير) أى (حراس المدينة)، فأتوا لهما برجال الشرطة. وبعد عرض الأمر على الحاخام قال: (هؤلاء ليسوا حراس المدينة، وإنما هم مخربوها)، إذ إن حراس المدينة الحقيقيين هم هؤلاء الذين يجلسون فى المعابد والمعاهد الدينية ليصلوا أو يدرسوا التوراة. (انظر: هدى عبد السميع حجازى: مرجع سابق، ص١٥٠).

القـدس، وتعـترف بمنظمة الـتحرير الفلسـطينية عـلى أنهـا المـمثل الوحـيد و الشـرعى للفلسطينيين " [1].

" وتعـد هذه الطائفة أن الصهيونية تمثل الخطيئة القاتلة ضد الرب ومصير اليهود، ويرون فـيها نقيضـاً كاملاً لليهودية الحقة ... وتقاطع الدولة الصهيونية ورموزها وشاراتها وأعيادها وثقافتها وتقاليدها، ويعدون التعاون مع الدولة نوعا من الضلال والكفر الدينى، والمشاركة فـى الانـتخابات عمـلاً وثنياً ومسـاعدات الحكومـة رشـاوى لتغيير مواقفهم ... ويستخدم أعضـاء (نـاطورى كارتـا) اللغـة اليديشية [••] فى معاملاتهم اليومية، ويقصرون استخدام العبرية على الصلاة والتعليم الدينى ... ويمتنع أعضاء هذه الطائفة عن أداء الخدمة العسكرية فـى الجـيش الإسـرائيلى ... وترتبط هذه الطائفة بعلاقات ودية وطيبة مع السلطة الفلسطينية ويـرفعون العلم الفلسطينى على مقرهم ... وينظرون لدولة إسرائيل باعتبارها ثمرة الغطرسة الآثمـة، لأنهـا قامت على يد نفر من الكفرة الذين تحدوا مشيئة الرب وإرادته بإعلانهم إقامة دولة إسرائيل بدلاً من انتظار (المسيح المنتظر) المخول وحدة لإقامة دولة إسرائيل " [2].

(ب) جماعة أجودات يسرائيل (وحدة إسرائيل):

تأسسـت عـام ١٩٢٢ فـى بولـندا، ولا يؤمن أتباعها إلا بالتوراة وتعاليمها لحل مشاكل الـيهود والـيهودية. وقـد حاربوا بضراوة الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية. وبعد صـدور وعـد بلفور ١٩١٧ قدموا احتجاجاً إلى عصبة الأمم المتحدة ضد الـهيمنة الصهيونية عـلى اليهود فى فلسطين ... ولكن الحركة الصهيونية نجحت مع هذا فى استيعاب الاجودات بعـد عـام ١٩٤٨، ولـذا فهـذا الحـزب الدينى لا يرفض الدولة الصهيونية بشكل مبدئى فى الوقت الراهن وإنما يحاول أن يفرض عليها مبادئ الشريعة اليهودية. وأصبح أعضاؤها الآن مـن المتشـددين الذيـن يصـرون على التوسع الصهيونى بعد أن انخرطوا فى سلك الصهيونية وانسحبوا من صفوف المعارضة [3].

" وفـى عـام ١٩٤٨ تحـول (أجـودات يسـرائيل) إلى حـزب إسـرائيلى يعمـل فى إطار مؤسسـات الدولـة، عبر موافقته على المشاركة فى مجلس الدولة المؤقت. وقد تم ذلك، بعد منافسـات داخلـية طويلـة بشـأن الموقـف من الدولة اليهودية، وبعد التوصل جميعاً مع باقى

---

(١) هدى عبد السميع حجازى: مرجع سابق، (ص ١٥٠-١٥١).

(••) اليديشـية: هى لغة خاصة باليهود فى شرق أوربا عبارة عن خليط من العبرية والآرامية والألمانية وبعـض الكـلمات السـلافية، وتكتـب بـالخط العبرى. نشأت فى ألمانيا فى القرن الثانى عشر وحملـها معهـم الـيهود إلى بولـندا وروسيا حينما هاجروا إلى هناك فى القرن الخامس عشر الميلادى. (انظر: د. رشـاد عبدالله الشـامى: لمحـات مـن الأدب العـبرى الحديث مع نماذج مترجمة، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٤، ص٥٥).

(٢) أحمـد بهـاء الديـن شـعبان: حاخامـات وجـنرالات، الدين والدولـة فـى إسـرائيل، نوارة للترجمـة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦، (ص١١١).

(٣) هدى عبد السميع حجازى: مرجع سابق، (ص ١٥٠).

الأحـزاب الدينية، إلى اتفاق مع الأحزاب الصهيونية الأخرى، بشأن بعض الشروط المتعلقة بـتمكين التيـار الـيهودى الأرثـوذكس مـن الحفـاظ عـلى أنماطـه الحياتية فى إطار الـدولة الجديدة "[1].

(ج) الطائفة السامرية:

تعـد الطائفـة السـامرية إحدى الجماعات البشرية الصغيرة المغلقة التى تعتنق ديانة منبثقة عـن اليهود ويعيش أغلب أعضائها فى (جبل جرزيم) قرب نابلس وهم يعلنون أنهم أحفاد الـيهود الذيـن ظلوا فى (السامرة) بعد الغزو الآشورى وترحيل اليهود إلى بابل فى عام ٧٢١ ق. م، وهـم يقـاطعون استخدام العـبرية فـى الحـياة اليومـية لقدسـيتها ويتحدثون العربية بلـهجـة سـكان المـنطقة المحلـية ... وهى تعارض اليهود والصهيونية فى احتلالـهـم للأرض العربـية، وإعلانهـم القـدس كعاصـمة لدولـتهم، ومـن هـنا جـاء قرار الإدارة الفلسطينية بتخصيص مقعد لـها فى مجلس الحكم الذاتى لـها[2].

(٢) الرفض الاندماجى للصهيونية:

يـنطلق رفـض اليهود الاندماجيين للصهيونية من " افتراض فلسفى دينى يشبه من بعض الوجـوه افتراض اليهود الأرثوذكس، وهو أن اليهودية هى أساساً انتماء دينى وليست قومى سياسـى "[3]، " وهـو الرفض الذى ينطلق من الإيمان بأن اليهود أقلية دينية، تعتنق الديانة الـيهودية، وأنهـم مواطـنون عاديون يتجه ولاؤهم إلى الدول التى يعيشون فيها، وأن اليهود لـيس لــهم تاريخ يهودى مستقل، وإنما هم - كأقلية - يشاركون فى تواريخ الشعوب التى يعيشـون بـين ظهرانـيها. والـيهودية الإصلاحية هى التعبير الدينى عن هذا الاتجاه. ويتألف هذا التيار من أعضاء الطبقات المتوسطة فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الذين لم يجدوا صـعوبة اقتصـادية أو حضارية فى الاندماج فى مجتمعاتهم. وقد تسبب إعلان دولة إسرائيل وصـداقتها مـع العـالم الغـربى الـرأسمالى فـى تساقط الجمعيات التى تعبر عن هذا الاتجاه، فصـهاينة الخـارج، هم فى نهاية الأمر يهود مندمجون فى مجتمعاتهم، يدينون بالولاء الفعلى لـها، وإن كانوا يمارسون أحاسيس صهيونية (قومية) خارج حدود أوطانهم "[4].

" وتـاريخ معارضـة الاندماجـيين للصـهيونية طويـل ويعـود إلى الأيـام الأولى لـلحركة الصـهيونية ولعـل مـن أهـم الشخصيات اليهودية المعادية للصهيونية السير ادوين مونتاجو،

---

(١) انظـر: د. رشـاد عـبدالله الشـامى: القـوى الدينـية فـى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس القومى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد(١٨٦)، ١٩٩٤، (ص ١٤٢-١٤٣).

(٢) انظـر: أحمـد بهـاء الدين شعبان: حاخامات وجنرالات، الدين والدولة فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ١١٨).

(٣) هدى عبد السميع حجازى: مرجع سابق، (ص ١٥١).

(٤) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٢٢٩).

وهو الوزير اليهودى الوحيد فى وزارة سير لويد جورج (التى أصدرت وعد بلفور). وقد عارض السير مونتاجو الفكرة الصهيونية معارضة قوية، وبيّن أن فلسطين قد يكون لها وضع خاص وأهمية خاصة بالنسبة لليهود، ولكنها لها وضع مماثل وأهمية مماثلة بالنسبة للمسلمين والمسيحيين " (١)

(٣) الرفض الاشتراكى للصهيونية :

ينظر اليهود الاشتراكيون إلى اليهود على أنهم طبقة كادحة مثلها مثل أية طبقة أخرى، وأن حل المسألة اليهودية يستلزم حلاً لكل المشكلات الاجتماعية لطبقات المجتمع تغير من مفهوم الوجود المستقل لليهود والوجود المستقل للمسألة اليهودية.

" ويشترك الرفض الاشتراكى للصهيونية مع أشكال الرفض اليهودية المختلفة فى كثير من المفاهيم. فعلى سبيل المثال يرى الاشتراكيون اليهود الرافضون للصهيونية أن اليهود لا يشكلون جماعة قومية مستقلة وإنما هم أقلية دينية وحسب، وأن حل المسألة اليهودية بالتالى لا يكون عن طريق الهجرة إلى (الوطن القومى) وإنما يكون عن طريق ثورة اجتماعية شاملة تغير البناء الطبقى للمجتمع، وتحل كل مشاكل الطبقات الكادحة والأقليات المضطهدة " (٢).

(٤) قومية الشتات (الدياسبورا) :

يختلف دعاة قومية الشتات مع اليهود الاشتراكيين والاندماجيين والدينيين فى رفضهم للاندماج كحل للمسألة اليهودية، لأنهم يؤمنون بتفوق اليهود وتفردهم وهو ما يتفق مع الصهيونية. ولكن هناك ثمة اختلاف بين الحركة الصهيونية ودعاة قومية الشتات، الذين يؤمنون بأهمية الشتات فى حياة اليهود حيث إن اليهود يمثلون أقلية قومية وتلك الأقلية تكونت فى الشتات.

" ومن أهم دعاة قومية الشتات، المفكر اليهودى الأمريكى آى. ف. ستون ... وقد ألقى ستون نظرة شاملة على منجزات الشتات، فوجد أن الفترات التى ازدهرت فيها حياة اليهود مرتبطة بحضارات ذات رؤية تعددية، سواء فى الفترة الهلينية (فى الإسكندرية)، أو فى الفترة التى سادت فيها الحضارة العربية فى الأندلس (وشمال أفريقيا)، أو فى العصر الحديث فى غرب أوروبا والولايات المتحدة. وهو يرى أن ازدهار حياة اليهود فى الشتات وإسهاماتهم الحضارية ظاهرة إيجابية جديرة بالحفاظ عليها وتدعيمها " (٣).

(١) هدى عبد السميع حجازى: مرجع سابق، (ص ١٥٣).
(٢) هدى عبد السميع حجازى: مرجع سابق، (ص ١٥٥).
(٣) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٢٣٢).

وثمة تقابل بين دعاة قومية الدياسبوا والحزب العمالى اليهودى الاشتراكى (البوند) الذى تأسس فى بولندا عام ١٨٩٧ كاتحاد عام للعمال اليهود فى روسيا وبولندا وليتوانيا. وقد عارض (البوند) أية عقيدة وطنية يهودية، وكان من المحاربين الأشداء فى الشارع اليهودى ضد الصهيونية من منطلق أن حل القضية اليهودية فى جميع أنحاء العالم سيأتى عن طريق انتصار الاشتراكية، ونظر (البوند) إلى دولة إسرائيل على أنها خطر شديد على الشعب اليهودى فى العالم. وقد استوعبت إسرائيل عددا من أعضاء (البوند) الذين اعترفوا بالدولة ولكنهم رفضوا الاعتراف بالصهيونية كحل للقضية اليهودية فى العالم ومازالوا يتمسكون باليديش كلغة لهم.

ثانياً: تطور العلاقة بين الأدب العبرى والصهيونية:

ارتبط الأدب العبرى الحديث منذ ما قبل قيام دولة إسرائيل وحتى وقتنا هذا ارتباطاً وثيقاً وقوياً بالأحداث السياسية والاجتماعية التى مر بها اليهود عبر فترات عديدة. ولما كان الأدب، بصفة عامة، هو مرآة للمجتمع وهو المعبر الحقيقى عما يعتمل فى النفس البشرية وما تمر به من أحاسيس مختلفة، فإن الأدب العبرى الحديث كان هو الآخر خير معبر عما مرت به جموع اليهود منذ فترة "الهسكالاة" ومروراً بفترة مايسمى " بالإحياء القومى اليهودى " (الصهيونية) ووصولاً إلى مابعد قيام الدولة وحتى يومنا هذا.

وفى الوقت الذى كان فيه هذا الأدب معبراً عن تلك الأحداث التى مرت بها جموع اليهود فى شتى بلدان أوروبا الغربية والشرقية فقد كان أحياناً شريكاً رئيساً أيضاً فى صنع تلك الأحداث، لاسيما أنه كان الجسر التى عبرت من خلاله حركة "الهسكالاه" ومن بعدها الصهيونية، للوصول إلى النفس اليهودية ومخاطبتها. ولاشك أنه قد تحققت من خلاله بعض الأهداف التى سعت إليها حركتا "الهسكالاه" والصهيونية، فكان " أدباً دعائياً " و " أدباً مجنداً " فى أحيان كثيرة و " أدبا ناقداً و " أدباً رافضاً " فى أحيان أخرى.

" إن الصهيونية بمعنى (الحركة اليهودية باتجاه فلسطين) لم تولد فى مؤتمر بازل فى العشرين من أغسطس عام ١٨٩٧، ولكن هذا المؤتمر كان تتويجاً علنياً لسلسلة من الضغوط لعب فيها (الأدب الصهيونى) دوراً أساسياً. وإذا كان العقد الأخير من القرن التاسع عشر هو البداية الرسمية لولادة الصهيونية السياسية، فإن (الصهيونية الأدبية) كانت قد بدأت قبل ذلك وشكلت فى الحقيقة مادة (الصهيونية الفكرية) التى كتب عنها هس وبنسكر وسوكولوف وأحاد هاعام وهرتسل وغيرهم " [(١)].

(*) البوند: كلمة عبرية تعنى (الرابطة).

(١) غسان كنفانى: فى الأدب الصهيونى، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٧٨، ط ٢، (ص ٣٥).

ولكى ندرك التطور الذى طرأ على علاقة هذا الأدب بالصهيونية كفكرة وكحركة، فعلينا أن ندقق النظر فى المراحل المختلفة التى مر بها هذا التطور للوقوف على أسباب ثبات هذه العلاقة وتغيرها، التى شكلت الحروب التى خاضتها إسرائيل منذ قيام الدولة، علامة فاصلة زمنياً بين مرحلة وأخرى من مراحل تطور علاقة هذا الأدب بالحركة الصهيونية، بحيث أصبح هناك ما يعرف بأدب حرب ١٩٤٨، وأدب حرب ١٩٦٧، وأدب حرب ١٩٧٣ وانسحب هذا الأمر على ميادين أخرى كالتعليم والاقتصاد والمسرح والتطورات الاجتماعية الإسرائيلية الأخرى.

ومن الأهمية أيضاً أن نتعرف على الخريطة الأدبية فى إسرائيل قبل التطرق إلى مراحل التطور التى صاحبت الأدب العبرى الحديث والمعاصر بعلاقته بالصهيونية، حيث يقسمها الناقد الإسرائيلى جرشون شاكيد إلى ثلاثة أجيال:

الجيل الأول: ويمثله أدباء من مواليد العقد الأول والثانى من القرن العشرين، وينحدر هؤلاء الأدباء من آباء هاجروا إلى فلسطين ضمن موجتى الهجرة الأولى والثانية. وكانت التجارب الاجتماعية التى صاغت هذا الجيل هى ذكرى هجرة الآباء والحرب العالمية الثانية وحرب ١٩٤٨. وهم أقرب مايكون إلى الأيديولوجية الصهيونية. وينتمى إلى هذا الجيل على سبيل المثال (ساميخ يزهار، وأهارون ميجد، وموشيه شامير، وناتان شاحام، وحانوخ بارطوف، وبنيامين تموز، وغيرهم من الأدباء).

الجيل الثانى: ويمثله أدباء من مواليد الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين. وهم الأدباء الذين ولدوا فى فلسطين، وهناك من يطلق عليهم(جيل البلد) أو جيل البالماح *. وقد أثرت فى هذا الجيل حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٥، وينتمى إلى هذا الجيل على سبيل المثال (بنحاس ساديه، ودافيد شاحار، أ. ب. يهوشواع، وعاموس عوز، ويهوشواع كناز، وعماليا كاهانا كرمون، ويتسحاق أورباز، ويورام كانيوك، ويتسحاق بن نير، وغيرهم من الأدباء).

الجيل الثالث: ويمثله أدباء من مواليد الخمسينيات والستينيات. وكانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ من التجارب التكوينية لهذا الجيل، بالإضافة إلى حرب لبنان والانتفاضة الفلسطينية. ويتميز هذا الجيل بالتحرر من الأيديولوجيات والتركيز على الفرد. وينتمى إلى

(*) البالماح: هى اختصار الكلمة العبرية "بلوجوت ماحتس" (سرايا الصاعقة)، وقد تكون فى عام (١٩٤١) وارتبط بحركة "الكيبوتس" وحزب "المابام". وكان يتميز أفراد هذه القوة العسكرية اليهودية بالتمتع بقدر كبير من التثقيف السياسى الذى يركز على مبادئ الصهيونية العالمية. (انظر: د. عبد الوهاب المسيرى: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص٩٧).

هـذا الجيل مـن الأدبـاء (دافيد جـروسمان، ومـئير شاليف، وحانا بت شاحار، وأورلى كاستـل بلوم، وغيرهـم).

وعـلى هذا الأساس يمكن الوقوف على تطور هذه العلاقة التى جمعت بين الأدب العبرى الحديث/ المعاصر والصهيونية عبر هذه المراحل :

(١) مرحلة ما بعد " الـهسكالاه " (الحركة القومية اليهودية) :

سـار الأدب العـبرى الحديث فى خط متواز جنبا إلى جنب مع الأحداث التاريخية التى مر بهـا الـيهود عـلى مـدار عقود عديدة منذ القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. وإذا كان هذا الأدب قد حمل على عاتقه مهمة تنوير العقل اليهودى إبان عصر "الـهسكالاه"، وقام بدور فـاعل فـى هذا المجال حيث أسهم الأدباء العبريون فى نقل الحضارة الأوربية واستلـهامها، وأضاءوا حارات اليهود فى الجيتو بنشر العلوم المختلفة، فقد قاموا بدورهم أيضاً خلال فترة مـا يسـمى بـ" الإحـياء القومى اليهودى " (الصهيونية)، لاسيما وقد تحول معظم أدباء " الـهسكالاه " إلى القومـية الـيهودية، حيـث ساقتهم نداءات " الأدب المجند " ونادوا بحياة قومية ذات سيادة، وذلك بعد الانتكاسة الكبرى لحركة التنوير اليهودية (الـهسكالاه).

وقد لعبت الـهسكالاه فى شرق أوروبا فى إذكاء روح التطلع إلى فلسطين عن طريق :

(أ) اتخـاذ فريق كبير من الأدباء اليهود الروس من دعاة التنوير اليهودى اللغة العبرية كوسيلة من أجل الإحياء الثقافى اليهودى فى روسيا.

(ب) تـناول موضـوعات فـى قصـائدهم (حيـث كان الشعر هو الغالب فى كتابات هؤلاء الأدبـاء، باستثناء روايات أبراهام مابو) ترتبط بفلسطين وبالتاريخ اليهودى ومستقاة من المقـرا. ونذكـر فـي هـذا المجال أشعار ميخا ليفنسون (ميخال) ويهودا ليف جـوردون، عـلى وجه الخصوص ورواية " محبة صهيون " لمابو "، التى كان لـها أبعد الأثر فى إيقاظ روح الارتـباط بفلسـطين لدى قطاعات عريضة من اليهود قراء العبرية فى ذلك الوقت.

وعـندما أعلـن عـن فشل حركة التنوير اليهودية فى تحقيق أهدافها الرئيسية فى الاندماج فى الشعوب التى يعيشون بينها والتشبه أو التمثل بأبناء هذه الشعوب فى الزى والسلوك والمهـن المنـتجة، فـى أعقـاب حادثـة اغتيال القيصـر ألكسندر الأول فى مارس ١٨٨١ واتهام اليهود باغتيالـه، وقيام موجة من الاضطهادات والمذابح ضد اليهود فى روسـيا، تحـول معظـم " المسكـيليم " (المتنورين اليهود) إلى الطرح الصهيونى وبدأوا يبشرون به بـين اليهود، واستخدموا الأدب كوسيلة فعالة من أجل تحقيق الـهدف الجديد، ومن هنا كانـت الصهيونية الأدبية أسبق من الصهيونية السياسية التى قامت على يد تيودور زئيف هرتسل بعد ذلك فى عام ١٨٩٧ عام انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول.

ولم يكـن معظـم الأدبـاء العـبريين فـى مـنأى عن الجهود السياسية التى قام بها الزعماء الصـهيونيون فـى ذلـك الوقـت ؛ فقـد أعجبتهم فكرة (الاتجاه نحو فلسطين) وفكرة القومية الـيهودية الخالصـة، وأخذوا على عاتقهم مهمة تعليق قلوب اليهود بأرض فلسطين، أرض الميعاد الـتى تـدر لبناً وعسـلاً، فأحـيوا ذكـريات الماضـى الـيهودى، وتحدثوا باسم الدين اليهودى تارة، وباسم أرض الأجداد والتاريخ تارة أخرى.

وقـد عـبر ليلينبلوم عن ذلك فى مقالـه (إحياء إسرائيل على أرض آبائه) بقولـه: "علينا الكـف عـن الحياة كأغراب وعلينا العيش حياة قومية ذات سيادة ككل الشعوب. ويمكن أن تصـبح الفكـرة القومـية، الـتى هـى مصدر كل ضوائقنا، - بل ينبغى - أن تكون بمثابة منبع الخـلاص. وعلينا أن نحاول جاهدين العودة إلـى كوننا قومية منظمة، وذلك بدلا من كوننا يتامى فى كل العالم "[1].

وهكـذا، بـدأت بـوادر الاتجـاه نحـو إنشـاء كيان يهودى مستقل، أخذت الحركة القومية الـيهودية عـلى عاتقهـا مسـألة بلورته لتجنح فى النهاية نحو دفع جموع اليهود فى الشتات إلى فلسـطين لإنشاء وطن قومى لـهم هناك وإحياء ماضيهم ليقوم الأدب العبرى فى تلك الفترة بـدور كبير وفاعل فى مخاطبة جموع اليهود فى شتى البلاد وتحويل أنظارهم صوب فلسطين.

" وكان بيرتس سمولنسكن (١٨٤٢ - ١٨٨٥) هو أول من أسس هذه الحركة أدبياً ؛ حيث أوضـح فـى أواخـــر الستينيات وخلال السبعينيات من القرن التاسع عشر خطورة التطرف فى "الـهسكالاه" [2] حيث كتب يقول: " من الحماقة أن يعتقد اليهود فى أن "الـهسكالاه "هـى نـور لــهم وسوف يصبحون أكثر قوة من خلالـها وأنها ستصبح مفخرة لـهم " [3] " وفـى خـلال هذه الفترة بدأ الأدباء اليهودَ يؤمنون بالفكرة القومية ويروجون لـها فى الأروقة الـيهودية، وأخـذت هـذه الحـركة تتبلور وتعرض أهدافها بوضوح، بعد أن أصدر موشيه هـس (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) كـتابه الشهير (روما وبيت المقدس) الذى دعا فيه إلى ضرورة تحول الـيهود بكـل كـيانهم وجوانحهـم نحـو بيـت المقـدس لإحـياء ماضـيهم القديـم عـلى هـذه الأرض "[4].

(١)(نقلاً عـن د. سـعيد عـبد السـلام: الفكـر الـيهودى والبحث عن الجذور، دراسة فى الأدب العبرى الحديث، مكتبة الأهرام، القاهرة ١٩٩٩، (ص ٥١).
(٢) انظر: د. أحمد حماد: الأدب العبرى الحديث، مرجع سابق، (ص ١٦، ١٧).
(٣) شـلومو أفنيرى: " هارعايون هاتسيونى لجفاناف "(الفكرة الصهيونية بأنواعها)، دار نشر عم عوفيد، تل أبيب، ١٩٨٥، (ص ٧٦).
(٤) د. أحمد حماد: مرجع سابق، (ص ١٦، ١٧).

وفى حقيقة الأمر، لعب الأدب العبرى الحديث فى ذلك الوقت دوراً مهماً فى نقل أفكار هذه الحركة التى حملها على أكتافه إلى حيز الوجود، حيث قام الأدباء العبريون بدورهم فى تمهيد الطريق للأفكار الصهيونية فأثاروا حمية اليهود عن طريق كتاباتهم وأججوا الشعور الدينى والتاريخى لليهود تجاه فلسطين. ويمكن القول، إنه لولا جهود هؤلاء الأدباء، وخصوصا الشعراء، لما نجحت الصهيونية فى تحقيق هدفها الأسمى، وهو قيام كيان يهودى مستقل فى فلسطين، حيث هزت كتاباتهم بعنف أركان التجمعات اليهودية فى شتى البلاد التى كانوا يعيشون بها، وداعبت أحاسيسهم الدينية وأحيت ذكرى الآباء الأولين ومهدت الأرض لكى تنثر فيها بذور الدعوة إلى الصهيونية والاتجاه نحو فلسطين.

وقد تحقق هذا بإكثار الأدباء القوميين من الكتابة حول " معرفة الطبيعة فى فلسطين، ومعرفة طبيعة البلاد، وإدراك الذكرى التاريخية الأثرية التى تكمن فى هذه البلاد. وكذلك معرفة اللغة العبرية كلغة قومية، لغة الوطن الأبدى، ومن خلال معرفة المقرا كتعبير حاضر للذكرى التاريخية، الذى يربط الشعب بالحاضر تجاه البلاد الحقيقية، والإعلان المستقل للاستيطان فى فلسطين عن طريق فلاحة الأرض وبناء مجتمع جديد والدفاع عنه، وكذلك مجموعة الطقوس الدينية التى شكلت الهوية المستقلة للصهيونى الذى يحقق فريضة الاحتفال بمواسم الطبيعة وجمع محاصيل الأرض "[(١)].

وهكذا هرع الأدباء العبريون فى تلك الفترة، الذين آمنوا بفكرة ما يسمى بالقومية اليهودية، إلى تجنيد أقلامهم لخدمة هذه الحركة فتغنوا فى كتاباتهم بأرض فلسطين. " وفى هذه المرحلة – مرحلة القومية – التى تبدأ من سنة ١٨٨١ وتستمر إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أسست دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨، صارت الغلبة لدعاة القومية فأثاروا الحنين إلى الوطن الموعود، وتشجيع الهجرة إليه، والتأكيد على (الوحدة القومية لليهود) أينما كانوا، ومحاربة التيارات غير المماثلة للقومية أو المناوئة لها مثل التيار الدينى المحافظ، وتيار الاندماج وتيار الاشتراكية العالمية. لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع، هى مرحلة تكثيف الجهود على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للسيطرة بشكل عملى على فلسطين، وفى مقدمة تلك الجهود تقوية اليشوف (الاستيطان اليهودى) فى فلسطين "[(٢)].

وهكذا، انطلق الأدب العبرى الحديث نحو تحقيق الهدف ليعج بالنصوص التى تربط شتات اليهود بأرض فلسطين، ويقول كلاوزنر فى هذا الصدد: " إن الأدب العبرى الحديث نفسه عاد آنذاك للازدهار من جديد فى (أرضه التاريخية) التى ولد فيها قبل آلاف

(١) أليعازر شفايد: " زهوت يهوديت تسيونيت " (الهوية اليهودية الصهيونية)، مجلة " موزنايم "، ٦، أبريل ١٩٩٧، إسرائيل، (ص١٦).
(٢) انظر د. زين العابدين محمود: الأدب العبرى الحديث، السمات والخواطر، القاهرة، ١٩٩٧، (ص٨٦).

السنين . فالأدب العبرى الحديث ما هو إلا الحلقة الأخيرة فى السلسلة الأدبية للثلاثة آلاف سنة الأخيرة " (١).

وقد حمل هذا الأدب أو أدب جيل الإحياء كما يطلقون عليه كل من " يهودا ليف جوردون وأبراهام مابو، وبيرتس سمولنسكين، ومندلى موخير سفاريم، وحاييم نحمان بياليك، وشاؤول تشرنحوفسكى، وآحاد هاعام، وميخا يوسف برديشفسكى، ويوسف حاييم برينر، وجنسين، وحاييم هزاز، وأدب الهجرة الثالثة، خصوصا أبراهام شلونسكى، وناتان ألترمان، وليئة جولدبرج وعجنون. وفى كتاباتهم دعوا إلى (رفض الشتات) والاتجاه نحو فلسطين أرض الأجداد " (٢).

" وإذا كان سمولنسكين قد أدرك أن فكرة الهجرة إلى فلسطين هى فكرة محفوفة بالمخاطر ضد معظم اليهود، دون هؤلاء الذين يتطلعون للدفن فيها فإنه أدرك أيضاً فى السنوات الأخيرة أنه من الممكن إقامة مستوطنات هناك، وبهذا الأسلوب يمكن مغازلة اليهود بأن الأرض مستعدة لاستقبال سكان كثيرين تستطيع أن تستوعبهم " (٣).

وعلى سبيل المثال، تغنى بياليك شاعر القومية اليهودية أو أمير الشعراء العبريين -كما يطلقون عليه- بأرض فلسطين (٤) ويبرز أقوى تعبير عن قوميته اليهودية من خلال قصيدته(إلى العصفور)، حيث جعل بياليك العصفور فى تلك القصيدة رسولاً يحكى له عن أرض أحلامه. وفى هذه القصيدة يجسد العصفور على قدرته على التنقل والحركة بحرية والذهاب إلى الأراضى المقدسة ويطلب منه أن يحكى له عن أمجاد الأرض المقدسة التى يشتاق إليها، تلك الأرض التى يزدهر فيها الربيع الأبدى.

أما أبراهام مابو فقد كانت " رواياته مليئة بالحنين للعودة إلى فلسطين، وربما كان هذا هو السبب الذى جعل بعض نقاد الأدب العبرى الحديث يقولون عنه إنه كان صهيونياً قبل أن تظهر الصهيونية، وأن رواياته كانت تعبر عن أولى إرهاصات الإحياء والبعث القومى فى الأدب العبرى الحديث " (٥). وكانت أشهر الروايات التى كتبها ووصف فيها أرض فلسطين كجنة عدن هى رواية (محبة صهيون) ١٨٥٣ .

كما يبرز حاييم هزاز أهمية أن يصبح اليهودى صهيونياً ويؤمن بمبادئ الصهيونية ومفاهيمها التى تدعو إلى الاستيطان فى فلسطين فى قصته (الموعظة) فهو يقول على لسان

---

(١) يوسف كلاوزنر: الموجز فى تاريخ الأدب العبرى الحديث ١٧٨١ -١٩٣٩، تعريب: اسحق شموش، عكا، ١٩٨٦، (ص١٥٦)
(٢) أليعازر شفايد: " زهوت يهوديت تسيونيت " (الهوية اليهودية الصهيونية)، مرجع سابق، (ص١٨).
(٣)شلومو أفنيرى: " هارعايون هاتسيونى لجفاناف " (الفكرة الصهيونية بأنواعها)، (ص٧٦).
(٤) أنظر: دائرة المعارف العبرية، دار نشر حفراه، القدس، (ص ٦٨٨ : ٦٨٩).
(٥) د. أحمد حماد: مرجع سابق، (ص١٣٨).

بطل القصة يودقه : " ... إن الصهيونية واليهودية ليستا شيئا واحدا، بل هما شيئان يختلف كل منهما عن الآخر، وربما أيضاً هما شيئان يكمن كل منهما فى الآخر . وعلى أية حال إنهما ليسا على حد سواء . فالإنسان الذى لم يستطع أن يكون يهودياً فإنه يصبح صهيونياً " [(١)].

وفى روايته(يا عيش) " يشير هزاز إلى أهمية القدس فى الوجدان اليهودى وأنه يأتى إليها اليهود من جميع أرجاء العالم لإقامة شعيرة استيطان (أرض إسرائيل) فهم يبنون بيوتا ويزرعون كروماً ويتدفق عليهم المال من الأثرياء مجاناً من كل مكان من روسيا وبولندا وأمريكا وذلك لكى يقيموا فقط فريضة استيطان أرض فلسطين " [(٢)].

ويعطى لنا زئيف يعابيتس فى قصته (عيد الشجرة) ١٨٩٢ نموذجاً لليهودى الجديد القوى على أرض فلسطين. " ففى هذه القصة يصف الحياة فى قرية (يهود) التى تقع بالقرب من (بيتح تكفاه) فى ذلك الوقت. ويعابيتس الذى كان دينياً وواحداً من الأدباء العبريين الأوائل الذين وصفوا الحياة الجديدة فى المستوطنات الأولى فى فلسطين، يقدم لنا شخصية الصبى اليهودى الذى يعيش فى فلسطين (نحمان يزرعائيلى) كنموذج لشخصية صبى إسرائيلى جديد قوى ونشيط، وهو يقابل بذلك شخصية اليهودى الجيتوى(الشتاتى) " [(٣)].

وعمد بعض الأدباء إلى إبراز بعض رموز التاريخ اليهودى القديم فى فلسطين فى أعمالهم الأدبية، وذلك فى إشارة منهم إلى أن اليهود سكنوا تلك البقعة من الأرض منذ العصر التوراتى، كما فعل مندلى موخير سفاريم فى قصته (رحلات بنيامين الثالث) التى تحدث فيها عن نهر الأردن ومغارة المكفيلة وقبر راحيل وحائط المبكى [(٤)].

كما ربط شموئيل يوسف عجنون بين فلسطين وتاريخ اليهود، ففى روايته (أمس البعيد) التى تعد أكبر رواياته ؛ إذ تقع فى ستمائة صفحة، يصف المصاعب الحياتية للتأقلم فى فلسطين فى بداية القرن العشرين. ومع هذا فهو يدعو كل اليهود للفوز بالسكن فى (أرض إسرائيل) التى هى مصدر أساسى لليهود.

وفى هذه الرواية يدعو عجنون زعماء الصهيونية للتحرك نحو القيام بنشاط عملى حقيقى فى حقل الاستيطان اليهودى فى فلسطين، " حيث تنتقد الرواية الزعماء

(١) ايهود بن عيزر : " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت " (أحاديث حول مردود الصهيونية)، دار نشر عم عوفيد، تل أبيب، ١٩٨٦، (ص١٦).
(٢) انظر : د. سعيد عبد السلام : الفكر اليهودى والبحث عن الجذور، مرجع سابق، (ص ٢٤، ٢٥).
(٣) ايهود بن عيزر : " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت " (أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص١٦، ١٧).
(٤) انظر : د. سعيد عبد السلام : الفكر اليهودى والبحث عن الجذور، مرجع سابق، (ص ١٧، ١٨).

الصـهيونيين غير العمليين الذين لا هم لـهم سوى إلقاء الخطب الرنانة دون القيام بأى نشاط فعـلى مـن أجل تجسيد فكرة الاستيطان اليهودى فى فلسطين ... إن النظرة النقدية إلى هؤلاء الـزعماء ليسـت مطلقـة فـى الـرواية، بـل هـى مرهونة تقدر بقدر ما يقدمه هؤلاء الزعماء للصـهيونية، ومؤسسـاتهم مـن إسـهامات مـن أجـل تشجيع الـهجرة اليهودية إلى فلسطين والاسـتيطان بمضمونه اليهودى الصـهيونى، فكلما تراخوا عن هذين الـهدفين زادت وتيرة الانتقادات " [١].

وهكـذا حمـل الأدب العـبرى الحديـث الفكـرة الصـهيونية عـلى أكتافه وعبر بها إلى حيز الوجـود لـيحققا معـاً حلمهما فى إنشاء كيان يهودى مستقل، حتى نجحا، فى النهاية، فى إقامـة دولـة إسـرائيل كدولة يتجمع فيها يهود الشتات، ولعب الأدب العبرى الحديث دوراً فـاعلاً فـى إرسـاء دعـائم هـذا الكيان اليهودى، الذى لولاه لتغير وجه التاريخ اليهودى فى العصر الحديث على الإطلاق، حيث يشير أهارون بن أور إلى أهمية هذه العلاقة التى جمعت بـين هـذا الأدب والفكـرة الصـهيونية بقولـه: " كـان الأدب العبرى هو المصنع الذى أنتج الصـهيونية بمفهومهـا الكـامل، ومن خلالـه تم صياغة المثل الصهيونية ... ولكن الصهيونية هـى التى خلقت الظروف التى أحيت هذا الأدب وطورته بإبرازها لأهمية وجود أدب عبرى يشـبع الحاجـات الروحانـية للـيهود، وإن كانت المبادئ الصهيونية قد تجسدت فى أى عمل أدبى كتب خلال تلك الفترة فإن هذا الأمر كان ميزة وليس عيباً " [٢].

وفى حقيقة الأمر، فإن العلاقة التى جمعت بين الأدب العبرى الحديث والصهيونية كانت علاقـة تكامل، حيث كان كل منهما يكمل الآخر، فالظروف التى خلقتها الصهيونية لـهذا الأدب والتى تحدث عنها بن أور وأدت فى النهاية إلى قيام دولة إسرائيل، لم تكن بالطبع إلا الظـروف السياسية والاجتماعية التى خلقها رواد الحركة الصهيونية الذين استغلوا الأحداث السياسـية الـتى مـر بهـا اليهود لصالحهم ليكون للقدر اليهودى دوره فى الدوافع والأهداف السياسية والقومية والتاريخية التى تم استغلالـها والتأكيد عليها بصفة خاصة بعد اضطرابات روسـيا عام ١٨٨١ وأحداث النازى • وقضية دريفوس •• وهو ما يعلق عليه بن عيزر قائلاً:

---

(١) د. عـبد الوهاب وهب اللـه: الاستيطان اليهودي فى الأدب الصهيوني، دار الكلمة للنشر، بيروت، ١٩٨٣، ط٢، (ص ١٥٣: ١٥٥).

(٢) أهـارون بن أور: " تولدوت هاسفروت هاعفريت هاحداشاه " (تاريخ الأدب العبرى الحديث)، دار نشر يزرعئيل، تل أبيب، (ص٧،٦).

(•) أحـداث النازى: يطلق على هذه الأحداث فى الفكر الصهيونى " هاشوأه " (النكبة)، والتى أباد فيها الـنازيون بـزعامة هـتلر عـدد مـن الـيهود وغيرهم من الطوائف الأخرى فى أفران الغاز. وحول هذه الأحـداث يـدور سـجالاً واسعاً بين النقاد والمفكرين بشأن عدد هؤلاء اليهود الذين أبيدوا، والأسباب التى أدت إلى هذه الأحداث.

(••) قضـية دريفوس: دريفوس هو ضابط يهودى فرنسى، تم اتهامه من قبل السلطات الفرنسية ببيع أسـرار عسـكرية فرنسـية إلى ألمانيا، وتمـت محاكمـته فـى عـام ١٨٩٤ وفى عام ١٨٩٩، وحكم عليه

" إن الصـهيونية ودولـة إسـرائيل استخدما القدر اليهودى وأحداث النازى كحجة حاسمة لتبرير حقيقة قيامهما أمام العالم وأمام أنفسهما، ونظرا إلى أنفسهم كجزء من (تاريخنا الذى صنعناه بأنفسنا، وبأيدينا وبقوتنا) أى على العكس تماماً من الشتات واليهودية. وقد تم إدراك هذا التاريخ الفعلى لإقامة الدولة بمفاهيم علمانية تماماً ... وقد كتب الناقد الإسرائيلى كورتسفيل فى إحدى مقالاته أن (تلك هى نتيجة الطبيعية التى حلمت بها الصهيونية. ولم يكن هذا ذنب الجيل المعاصر إذا كانت الصهيونية قد اندهشت من تحقيق حلمها "(١) بقيام دولة لليهود.

أما بالنسبة لفلسطين أو (أرض إسرائيل) التى تغنى بها الأدباء العبريون آنذاك ونجحوا فى تحويل أنظار شتات اليهود إليها بإبراز الادعاءات الصهيونية القائلة بأن اليهود ظلوا يتطلعون إليها على مر العصور فيقول أ. ب يهوشواع: " لقد بدأت الصهيونية تدلى بدلوها مع نهاية القرن التاسع عشر، فى هذا الموضوع. ولم يكن هذا اشتياقاً جديداً لفلسطين أو كراهية فجائية للشتات ... فعلى الرغم من أن أبواب فلسطين فتحت على مصراعيها بعد وعد بلفور وقدمت دولة عظمى مثل بريطانيا الدعم لإمكانية إقامة دولة يهودية فى فلسطين، فمازال الشعب اليهودى لم يأت بعد إلى فلسطين. ولا تستطيع أية فطنة أو شروح مغالطة أن تنفى هذه الحقيقة المطلقة "(٢).

وهو أمر يؤكد عليه شلومو أفينيرى بقوله: " إن كل من يمعن النظر فى تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة وتطورها على طول التاريخ ونزعة اليهود تجاه فلسطين، يستطيع أن يدرك هذه الظاهرة التى تبدو منذ النظرة الأولى كتناقض يستلزم التدقيق والتأمل "(٣).

(٢) مرحلة ما بعد قيام الدولة (١٩٤٨):

اختلف موقف الأدب العبرى الإسرائيلى من الصهيونية بعد حرب ١٩٤٨ وقيام الدولة. " فإذا كانت السمة الغالبة للأدب العبرى قبل حرب ١٩٤٨ هى سمة الأدب الفكرى المجند، وهو الأدب الذى عبر عن جيل فترة (الهجرتين الثانية و الثالثة)، وجيل " البالماح " (نسبة إلى إلى وحدة عسكرية كان يطلق عليها اسم سرايا الصاعقة، اشترك فى عملياتها العسكرية عدد صغير نسبياً من أدباء هذه الفترة) عن طريق الالتزام بالبعد عن إبراز

بالسجن المؤبد ونفيه إلى جزيرة العفاريت. (انظر: أفرايم ومناحم تلمى، معجم المصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص ٣٠٣)

(١) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت " (أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (١٩).

(٢) أفراهام بيت يهوشواع: "بزخوت هانورماليوت، حاميش ماسوت بشئيلوت هاتسيونوت " (بفضل الطبيعية، خمس مقالات حول قضايا الصهيونية، دار نشر شوكن، القدس وتل أبيب، ١٩٨٤، (ص ٣٧، ٣٨).

(٣) شلومو آفنيرى: " شيئلوت حفراه اومدينيوت بيسرائيل " قضايا اجتماعية وسياسية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص١١).

أى نوع من التناقض بين الأيدلوجية الصهيونية، وبين تجربة الفرد فى واقع الحياة، كما تميز كذلك بالسعى نحو خلق المبررات لكل القضايا التى واجهت الصهيونية سواء كان ذلك تبرير رفض الاندماج اليهودى في مجتمعات الشتات اليهودى بالتركيز على موجات العداء وكراهية اليهود، أو تبرير محاربة الانتداب البريطاني واغتصاب فلسطين من العرب "[١] فإن الموقف الأدبى من الصهيونية قد اختلف تماماً بعد هذه الحرب " فبعد أن حطت حرب ١٩٤٨ أوزارها ونجحت التنظيمات والمؤسسات الصهيونية فى توظيف الإمكانات الذاتية والخارجية المتاحة لها فى إقامة الدولة، وراودت الإسرائيليين آمال العيش فى أمان، وظنوا أن الجانب العربى قد ركن إلى ضعف وانهيار، وأنه قد أسلم للأمر الواقع وداعبت خيالهم تفاؤلية مفرطة فى تثبيت أركان الدولة الوليدة من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتأكيد على المثل الصهيونية التى طالما روجوا لها "[٢] لتشجيع الهجرات إلى فلسطين جنة عدن " فوجئ الجميع بما يثير الدهشة والتعجب، فى أن التفاخر بالنصر لم يكن هو الموضوع الذى استخدم كإطار للإنتاج الأدبى شعراً ونثراً بعد حرب ١٩٤٨ . لقد كان الموضوع الرئيسى تقريباً فيما عدا استثناءات الأدب الدعائى أو المجند هو تخبطات المحارب الصهيونى ومعاناته لأنه قد وضع بواسطة المخططات الصهيونية أمام اختيار صعب، إما أن يتراجع عن فكرته ويعود من حيث أتى، وإما أن يواصل ويخوض حرباً دموية إنساناً ضد إنسان وشعباً ضد شعب ... لذلك فقد أصبح العالم الداخلي والفردى والحساس لدى الجندى الإسرائيلى بكل صراعاته هو الموضوع الرئيسى لأدب حرب ١٩٤٨م "[٣].

ويعلق الناقد الإسرائيلى يوسف أورن على هذه الحالة بقوله: " لقد أتت المجموعة الأولى من الأدباء، (أدباء جيل الدولة)، بحساب مع الأيديولوجية الصهيونية بعد حرب ١٩٤٨، ففى أثناء تعلمهم (فى البيت، وفى حركة الشباب، وفى المدرسة) أدركوا من خلال الصهيونية أن الدولة سوف تقوم بطرق المصالحة المختلفة، وقد خاب أملهم وتحقق قيام الدولة بالحرب، وكانوا هم ضحاياها. وقاموا فيها بأعمال ظالمة. وقد استخدم هذا التناقض بين الوعد وما يتم تحقيقه كشهادة على ضعف الصهيونية. وهكذا، حدث أن حرب ١٩٤٨ التى تشير فى التاريخ إلى البرهان الذى يحاول الإقناع على نجاح الصهيونية، يعرض فى الأدب الذى يصف هذه الحرب كفشل أخلاقى لا مثيل له. لقد تحولت الصهيونية على يد أدباء ١٩٤٨ إلى اسم مضطهد وإلى شريعة معادية تستمد قوتها من الكلام والبلاغة فقط، شريعة لم تتوافق أفكارها مع أفعالها. وهو الأمر الذى جعل أدباء (جيل

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، (ص ٢)
(٢) د. زين العابدين محمود: الأدب العبرى الحديث، السمات والخواطر، مرجع سابق، (ص١٩٣).
(٣)د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، (ص٢٧)

البلد) يضع الصهيونية بين الأقواس للسخرية من عدم صمودها أمام أول اختبار لبلوغ الهدف وكانتقام للإحباط الذى تسببت فيه وأصاب جنود حرب ١٩٤٨ " (١).

ويمكن القول، إن حرب ١٩٤٨ تعد بمثابة نقطة تحول كبيرة على المستوى الشخصى والإنسانى بالنسبة لبعض الأدباء الإسرائيليين بعد قيام الدولة. فإذا كانت المرحلة الأدبية لدى بعض الأدباء قبل قيام الدولة قد تميزت بإظهار الانبهار بسحر الشرق وطبيعة العلاقة التى تربط بين اليهود والعرب الفلسطينيين فى فلسطين، فإن هذه الحرب قد جعلت هؤلاء الأدباء الإسرائيليين فى موقف حائر، حيث وجد هؤلاء أنفسهم متأرجحين ما بين المثل العليا والأخلاق الإنسانية وبين الواجب العسكرى الذى يلزمهم بالقيام بأعمال القتل والطرد وسفك الدماء ضد المواطن العربى الذى عاش معهم جنباً إلى جنب قبل قيام الدولة وبدء العمليات العسكرية.

ويضيف يوسف أورن معلقاً على موقف الأدباء الإسرائيليين من الصهيونية بعد هذه الحرب بقوله: " إن المؤلفات الأدبية التى كتبها (جيل فى البلاد) حول حرب ١٩٤٨ لم تلق الضوء على الواقع التاريخى لهذه الحرب، بل إنها تطرقت إلى الاضطراب النفسى الذى واجههم خلالها، بعد أن تحولت إلى حرب احتلال بعد أن كانت حرباً دفاعية، وذلك لتثبيت حدود الدولة. وقد عبرت كتاباتهم عن الفارق ما بين التعليم الصهيونى الذى تشربوه فى البيت، وفى المدرسة وفى حركة الشبيبة، وهو التعليم الذى تغلغل بهم فى الرؤية المشتركة لكل رؤى الصهيونية وتعاليمها، التى تقول إن دولة اليهود سوف تقوم بطرق المصالحة المختلفة، وبين ما حدث لهم بالفعل فى حرب ١٩٤٨ وهو ضرورة القتال فى ساحات المعركة لكى تتحقق السيادة. وهنا ينبع فشل الصهيونية المتوقع فى الاختبار الفعلى الأول لها " (٢).

لقد كشفت هذه الحرب عن الوجه الحقيقى للصهيونية التى أولت اهتماماً كبيراً للأهداف الجماعية دون الاهتمام بالفرد ذاته، وفى أول موقعة حقيقية لها تحولت حرب ١٩٤٨ إلى فخ نفسى وإلى عقدة نفسية عميقة عبر عنها هؤلاء الأدباء الإسرائيليون والذين اشترك بعضهم فى هذه الحرب، وأصبح الأدب الإسرائيلى وقتها هو ساحة القتال الرئيسية تبارى كل منهم فى إبراز الهوة النفسية العميقة التى أحدثتها لهم الصهيونية وأجبرتهم فيها على الإمساك بالسيف فى معركة الوجود بعد أن " أعلنت الصهيونية بعد عام ١٩٤٨

---

(١) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، دار نشر ياحد، إسرائيل، ١٩٩٠، (ص١٤).
(٢) يوسف أورن: " رومان تسيونى رحمانا ليتسلان " (رواية صهيونية، حاشا لله)، مجلة موزنايم، أكتوبر ١٩٩٩، (ص٤٣).

عـن هدفهـا غـير الأخلاقى فى صراحة تامة وحددت هدفها فى تفريغ فلسطين بالكامل من سـكانها الفلسـطينيين عـن طـريق طـرد السكان بالقوة ونزع الملكيات وهدم المنازل وترويع المواطـنين ودفعهـم إلى ترك أرضهم، وبهذا فالصهيونية سرقت وطناً بكاملـه وبقوة السلاح وقتلت وشردت النساء والأطفال، وهددت الحياة الآمنة لليهود فى كل بلاد العالم " [(١)].

ومـن هـنا كانـت لـتلك الأحـداث أثـرها الكـبير على الفرد الإسرائيلى الذى كان مجبراً ومضـطراً لتنفـيذ كـل هـذه الأعمال، حتى وإن كان يرفض كل هذا. وفى مرحلة الإفاقة، عـندما أدرك هول ما فعلـه، كان هناك حساب عسير مع النفس، انعكس على الأدب الذى يعكـس بـدوره تجـارب المجـتمـع، حيـث " لم تكـن حرب ١٩٤٨ مجرد موضوع مناسب للوصـف والقـص فحسـب، بـل كانــت حدثاً غير إلى حد غير قليل من ملامح الشخصية المـبدعة فـى الأدب الإسرائيلى، وعلى هذا الأساس، تتحدد أهمية حرب ١٩٤٨ فى التأثير عـلى الموضـوعات الـتى تـناولـها الأدب العـبرى اعتباراً مـن الخمسينيات، وعـلى الجيل الإسرائيلى الذى شكلت الحرب بالنسبة لـه المحك الأول، الشخصى والعام، لاختيار القيم والمثاليات التى غذته بها الحركة الصهيونية " [(٢)].

" هـذا ولم يكـن أمام أدباء ١٩٤٨ إلا التعبير عن إحباطهم من الصهيونية فى كتاباتهم، وذلـك بسـبب التناقض بين الآمال التى وعدت بها والواقع الذى تكشف لـهم فى ١٩٤٨، ومـا تـبعه مـن عدم إمكانية تحقيق السيادة، وترتب على ذلك استحالة الدفاع دون استخدام القوة " [(٣)].

وقـد كـان الأديـب الإسـرائيلى ساميخ يزهار من أشهر الأدباء الإسرائيليين الذين عبروا عـن تخبطات المحارب الصهيونى ومعاناته فى هذه الحرب، لاسيما أنه كان واحداً من الذين خاضـوا غمـار حـرب (١٩٤٨) وشـارك فـى عـدد من العمليات الإرهابية الصهيونية التى كانـت تستهدف طرد الفلسطينيين من قراهم فى إطار مخطط الصهيونية للسيطرة على مزيد من الأراضى العربية وضمها إلى الدولة.

وكانـت قصـة (الأسـير) من أصدق القصص التى عبرت عن هذه الورطة الأخلاقية التى وقـع فـيها بطـل يـزهار المعـذب، حيث تصف هذه القصة إحدى العمليات العسكرية التى يقـوم بها بعـض الجنـود الإسرائيليين في قرية عربيـة، وذلك في الفـترة الأخـيرة من حـرب (١٩٤٨). وفـى غمرة الخواء النفسي الذي عاش فيه الجنود الإسرائيليون، وفى محاولة لقتل

---

(١) د. محمـد خليفة حسـن: الوضع الأخلاقى للصهيونية، مجلة إبداع، الـهيئة العامة للكتاب، القاهرة، العدد ٦، ١٩٩٨ (ص٦٣).

(٢) د. رشـاد عبد اللـه الشامى: الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب فى الأدب الإسرائيلى، دراسة فى أدب حرب ١٩٤٨ عند ساميخ يزهار، دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٨٨، (ص ٢٠).

(٣) يوسف أورن: "رومان تسيونى رحمانا ليتسلان "(رواية صهيونية، حاشا للـه)، مرحع سابق، (ص٤٥).

الملل الذي أحاط بهم في هذه المهمة العسكرية التى لم يعرفوا متى ستنتهي، ينتهي الأمر بالقبض على راع عربي والتحقيق معه بتهمة التجسس، وهى فرصة لتبديد ذلك الجو الهادئ والممل.

ويتم وصف عملية صيد الأسير العربي البريء وكأنها عملية عسكرية عظيمة تتم ضد إحدى كتائب العدو، وليس ضد إنسان أعزل وبرئ، وهو ما يعكس سخرية القاص من هذا العمل الشرير [١]. وبعد التحقيق معه في مقر العملية العسكرية وركله ولكمه وضربه عدة مرات بصورة وحشية وحيوانية، يتم نقله إلى مقر القيادة العامة للتحقيق معه، وذلك بصحبة أحد الجنود الإسرائيليين. وهنا يقع ذلك الجندي الذي يقوم بدور القاص في تخبط ومعاناة ويتأرجح ما بين كونه إنساناً يرى في ذلك الراعي البريء إنساناً يعول زوجته وأبنائه، ولذا يجب الإفراج عنه وتركه إلى حال سبيله، وبين كونه جندياً يعبر عن " النحن " وليس عن " الأنا "، ويظل طوال الطريق في التفكير ما بين تركه للأسير وبين الاحتفاظ به. وتنتهي القصة دون توصل ذلك الجندي إلى حل يرضى ضميره، ويبقى ممزقاً نفسياً لا يستطيع أن يفعل شيئاً في النهاية.

ويرى بن عيزر، أن هذه القصة هى خير معبر عن العجز الأخلاقى والتخبط والانكسار، حيث يقول: " إن قصة (الأسير) التى صدرت لأول مرة عام(١٩٤٨) تعد من أشهر قصص التخبط الأخلاقي، حيث وصفت بشدة تخبطات القاص الذي تعلم كيف يحترم حياة الإنسان والنفس والحرية والاستقلال، ولكنه عجز عن فعل شئ تجاه ما يقع أمامه، حيث ساروا لقتل راع عربي مسن وقع في الأسر... كما أن دائرة القاص لم تتقاطع أبداً مع مصير الأسير، ولم تكن هناك علاقة شخصية بينهما. فالفرد العربي قائم فقط كمعضلة أخلاقية تقف أمام الجندي الإسرائيلي. ولكن القاص لم يكن مهيأً لاتخاذ أي موقف إيجابي تجاه مقتل الأسير أو تجاه طرده وإبعاده عن أسرته... وجاءت نهاية القصة نهاية مفتوحة، وموت الأسير غير موصوف بها، ولكن من المعقول أن قد حدث " [٢].

كما يقول الناقد الإسرائيلي " م. دوبشانى " عن قصة (الأسير): " ربما كانت من أحسن قصص يزهار التى استنكر فيها بواسطة القصة الفنية العيوب النفسية والأخلاقية التى يقع فيها كل منتصر ومحتل، والتى ظهرت في الحرب. " ويرى " أ. ب. يافه " أن يزهار يصف في هذه القصة، وبصورة حرة للغاية، التفسخ الأخلاقى الذي يحدث للجنود في الخنادق، والحالة النفسية التى قد تحدث لهم بسبب حياتهم [٣].

---

(١) د. رشاد عبدالله الشامي: " الأسير العربي " والعجز الإسرائيلي عن الحسم الأخلاقي في قصة (الأسير) لساميخ يزهار، مجلة الدراسات الشرقية، العدد الثاني، يوليو ١٩٨٤، (ص١٣).

(٢) ايهود بن عيزر: " بموليدت هاجعجوعيم هامنوجاديم، هاعرفي باسفروت هاعفريت " (فى وطن الأشواق المتناقضة، العربى فى الأدب العبرى "، دار نشر زمورا بيتان، تل أبيب، ١٩٩٢، (ص٢٨).

(٣) د. رشاد عبدالله الشامي: "الأسير العربي" والعجز الإسرائيلي عن الحسم الأخلاقي، مرجع سابق، (ص٣٠).

كما أن قصة (خربة خزاعة) لـ " ساميخ يزهار " تعد أيضاً من القصص التى عبرت عن ذلك التخبط وتلك المعاناة للمحارب الإسرائيلى. وتدور قصة (خربة خزاعة) حول صدور أمر لفصيلة من فصائل الجنود الإسرائيليين بالاستيلاء على قرية عربية تدعى " خربة خزاعة " وذلك بعد طرد سكانها العرب. وكان " يزهار " نفسه واحداً من الجنود الذين ضمتهم هذه الفصيلة حيث قام بالاشتراك في هذه العملية. وكانت مهمة هذه الفصيلة تتلخص في جمع سكان هذه القرية، وشحنهم في العربات، ونقلهم خلف الخطوط اليهودية، ونسف المنازل وحرق البيوت، والقبض على الشباب المشبوهين.

وتبدأ عملية تنفيذ الأمر القتالي بقسوة، فتنسف المنازل، ويتم جمع السكان وشحنهم في السيارات. ويشترك البطل القاص في تنفيذ المهمة بقلب محطم ونفس ممزقة، دون أن يجرؤ على الاحتجاج لوقف الجريمة التى تتم على مشهد منه بأسلوب لا إنساني، بالرغم من احتجاجه الداخلي على مشاهد الإرهاب وسماعه لنحيب النساء وصراخ الأطفال(١).

ويبدى "يزهار" في قصته هذه اعتراضه على طرد العرب وتهجيرهم. إنه يكره التهجير، وأحشاؤه تتمزق وهو يرى موكب المهجّرين. ولكنه يتخاذل كما تخاذل في قصة (الأسير) فلا يقدم على عمل يمنع ذلك(٢).

ويقول " عاموس عوز " عن هذه القصة معبراً عن هذا الوضع :

" إن موضوع هذه القصة ليس هو الصراع الإسرائيلي العربي، ولكنه بكل خجل الصراع الإسرائيلي الإسرائيلي. وبدقة أكثر: الصراع بين أحد شبابنا المقاتلين وبين نفسه الممزقة"(٣)

وهكذا أوقعت الصهيونية بعض هؤلاء اليهود الذين خاضوا غمار هذه الحرب فى معاناة نفسية عميقة، وصفها يزهار فى هذه القصة على لسان القاص بالورطة:

(ما لنا وكل هذه الورطة) اندفعت هذه الكلمات من فمى بلهجة احتجاجية) (٤).

وتعد رواية (أيام تسيكلاج) ١٩٥٨ أهم إنتاجات يزهار فى تفنيد حرب ١٩٤٨ فى الأدب القصصى الإسرائيلى وأوسعها، حيث نجد فيها كلمات الإحباط والفشل على لسان

---

(١) د. رشاد عبدالله الشامي: الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي، مرجع سابق، (ص١٠٣).

(٢) غانم مزعل: الشخصية العربية فى الأدب العبرى الحديث(١٩٤٨-١٩٨٥)، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٦، (ص٦٣).

(٣) عاموس عوز: " بأور هاتيخيليت هاعازاه " (فى الضوء الأزرق الساطع)، دار نشر كيتر، إسرائيل، ١٩٩٠ (ص١٥٧).

(٤) ساميخ يزهار: "شبعاه سيبوريم" (سبع قصص)، دار نشر هاكيبوتس هامؤحد، القدس، ١٩٧١، (ص٨٣).

أبطالـها وسخرية من نظريات الصهيونية . لقد عرضت فيها الأفكار الصهيونية كأقوال تهتم بالأوهـام وكـأقوال تؤكـد عـلى (مـا هو غير قائم) وهو ما يعبر عنه كلام دنوس أحد أبطال الرواية بقولـه : (لا تفقد الأمل عندما لا تجد ما ليس موجوداً) .

وبعـيداً عـن دائـرة الحـرب الـتى تسببت فى التمزق النفسى للشخصية الإسرائيلية ، عبر أهـارون مـيجد ـ مـن زاويـة أخـرى ـ عـن صـراع شخصـية الصبار مـع الصهيونية ، تلك الشخصـية الـتى كانـت هدفـاً مـن الأهـداف الـتى سـعى إلى تحقيقها رواد الـهجرتين الثانية والثالـثة رغـبة مـنهم فـى الابـتعاد بأبنائهم عن صورة اليهودى القديم ، يهودى الشتات ، " وألقـوا عـلى كاهلـهـا مهمـة أن يحقـق فـى حـياته نـبوءة الأجـيال الصهيونية ، حتى أصبح اصـطلاح (الصـبار) جـزءاً مـن تلـك المحاولـة الـتى لجـأت إلـيها الصـهيونية لاصطناع لغة واصـطلاحات خاصـة بهـا تعـبر عـن واقـع إسرائيلى محدد لا نظير لـه فى غير إسرائيل من المجـتمعات الـيهودية . ومـن هـنا فـإن تعبير (الصبار) إنما يخدم فى نهاية الأمر هدفاً سياسياً صـهيونياً ، وهـو الإيهـام بأن الصهر الاجتماعي لمختلف الأصول الحضارية لليهود قد تحقق فـى إسـرائيل ، وتمـثل فـى جـيل جديد هو جيل (الصباريم) الذى تتلاشى فيه تلك الفروق الحضـارية . وهـو جـيل يضـم قطاعـاً مـن الشباب الإسرائيلى يتميز بخصائص نفسية محددة متجانسـة كـالقوة الجسـمانية وانتصـاب القامـة (على النحو الذى عكسه الأدب العبرى فى إسرائيل) " (١) .

ولكـن الـرواد الصـهيونيين تناسـوا تمامـاً الـذات الإنسـانية وهم يسعون لخلق نمط جديد لشخصـية الـيهودى . وهـو مـا عـبر عـنه أهـارون مـيجد فـى روايته (أنا وحدفا) ١٩٥٣ .

" ويكمن تميز ميجد ، فى تلك الرواية ، فى الرؤية اللاذعة التى شخصت الصورة التى حلت بأبناء جيل الصباريم مع قيام الدولة ، أى بداية خلو هويتهم من مضامينها وتحولوا إلى صورة للـهوية الصهيونية التى لا يوجد بينها وبين نمط الحياة والثقافة الحياتية الكثير . لقد فقد البطل فـى هـذه الـرواية (الأنـا) الخاصـة به ، وفراره من (الكيبوتس) الذى مازال يعد بؤرة الإنجاز الاسـتيطانى الاجـتماعى المستقل على أرض فلسطين ، وذهابه إلى المدينة لم يكن فقط ابتعاداً عـن القـيم الصـهيونية بقـدر ما كان فراراً من هويته إلى أين؟ إلى تغيب مطلق بجانب حضور الصهيونية القوية لزوجتـه (حدفا) " (٢) .

لقـد حـاول مـيجد فـى الـرواية أن يـبين لنا أن اختفاء الـهوية الذاتية للبطل أمام الـهوية الصـهيونية لم يكـن بطـبيعة الحـال إلا تمـزقاً نفسـياً جديـداً دلـت الصهيونية بدلوها فيه فى محاولـتها لخلـق شخصـية قويـة تضحى بحياتها من أجل الآخرين ؛ حتى تتناسب مع مرحلة

(١) د. رشاد عبد اللـه الشامى : عجز النصر ، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧ ، مرجع سابق ، (ص٢٣) .
(٢)أنظر : أليعازر شفايد : " زهوت يهوديت تسيونيت " (الـهوية اليهودية الصهيونية) ، مرجع سابق ، (ص٢٠) .

تثبيت أركـان الدولـة الولـيدة القائمـة عـلى طـرد الآخرين وسفك دمائهم، ولم تضع فى اعتبارها طبيعة النفس البشرية وتمركزها حول ذاتها فباءت محاولاتها بالفشل. وهى أمور طرحها ميجد فى هذه الرواية بصرف النظر عما إذا كان طرحه هذا يمثل نقداً أو تأييداً لهذه الشخصية التى رفضت الامتثال لقيم الصهيونية التى لا تتوافق مع الواقع الحياتى كما ينبغى أن يكون.

ويؤكد اليعازر شفايد على أن البطل فى هذه الرواية قد تخلى عن بطولته وتحول فى ظل هذه الظروف إلى لا بطل: " لقد تحول البطل فى هذه الرواية دفعة واحدة إلى لا بطل عندما ترك مسرحه وذهب إلى مسرح آخر. وإذا كانت هذه النفسية تذوب بسهولة كبيرة إلى هذا الحد أمام قوة الهوية لزوجته حدفا، وإذا لم يبق منها بذهابه إلى المدينة سوى رمزها الخارجى الممزق، وهو قبعة (التمبل*) والسروال القصير، فإنه يتضح لنا أن هذه الهوية منذ البداية لم تكن اكثر من واقع شخصى متقوقع داخل هذا الرداء الخارجى، وأنه منذ البداية لم تكن هذه الهوية إلا هوية ساحقة لجماعة وحدّها زيها الطليعى والقتالى ... ولكنهم اختفوا خلف هوية هذه الجماعة التى تفتقر إلى النفسية الفردية العادية. لقد كشفت هذه الحقيقة المؤلمة حينما جاء وقت لم يثر فيه كل هذا احتراماً، بل سخرية. إنها جماعة فى طريقها إلى التحلل والتفسخ " (١).

وهكذا عبر ميجد فى هذه الرواية عن سبب ضعف الهوية الصهيونية لدى الشخصية الصبارية. ولماذا لم تصل إلى حد الامتصاص والذوبان. فقد تركت الساحة فى أول اختبار فعلى لها، ونفضت عنها قيود هذه الجماعة المقاتلة التى تؤمن بقيم الصهيونية فقط وتطمس ذاتها.

وفى إطار البحث من جديد عن هوية للفرد الإسرائيلى كتب موشيه شامير روايته (لكونك عاريا) ١٩٥٩. وفى هذه الرواية يقوم البطل موشيه بتحطيم الألواح (إشارة إلى ثورة موسى وتحطيمه لألواح الوصايا العشر) الخاصة بالحركة الصهيونية الاشتراكية ويثور ضد عيمك الأب الروحى لهذه الحركة. ويقوم موشيه بكتابة مسرحية يعبر فيها عن موت الأبناء قرباناً على مذبح الصهيونية، ويشعر بأن إسرائيل قد بناها الرواد الصهيونيون (الآباء) على جسد (الأبناء)، وهو موضوع المسرحية التى كتبها موشيه بطل الرواية.

لقد عبرت هذه الرواية عن صراع آخر يتمثل فى الفجوة العميقة بين الآباء والأبناء هؤلاء الآباء الذين سعوا إلى تحقيق هدفهم على حساب أبنائهم ودفعوا بهم إلى هوة عميقة

(*) تمبل: هى كلمة عامية عبرية تطلق على غطاء الرأس المميز للشخصية الإسرائيلية " الصبار "، وهى من الكلمة العامية الإنجليزية " دومبل ".

(١) أليعازر شفايد: " زهوت يهوديت تسيونيت " (الهوية اليهودية الصهيونية)، مرجع سابق، (ص٢٠).

ومظـلمة . " إنهـا روايـة تشـتمل ، دون شـك ، عـلى إرهاصـات الأزمـة الـتى حدثت فى الستينيات فـى المجتمع الإسرائيلى ، تلك الأزمة التى دفعت بالأدب الإسرائيلى للبحث عن هويـة الفـرد الإسـرائيلى مـن جديد ، وبحث موقفه وارتباطه بالقيم الصهيونية التى أصبحت محـل مناقشة وشك . لقد فتح (تحطيم الألواح) إمكانات جديدة ومجالات جديدة أمام الأدب للتنقيـب فـى الـذات الإنسـانية والبحـث لـهـا عـن مخرج من تلك الأزمة الوجودية ، والبحث لـها عن هوية ترعى فيها الجانب الذاتى والشخصى " [(١)].

" وبذلـك يلـتقى أبطال شامير مع الأبطال المتخبطين والمتألمين ليزهار ... لقد سعى شامير إلى إدراك العمـق الـيهودى الـذى كان خافياً عن أبطالـه من خلف صهيونيتهم ، ولاشك أنه سـعى أيضـاً إلى المواجهـة لـيس فقـط مـع الصـهيونية الكامـنة فـى الثقافة اليهودية ، بل مع الـنزاعات الفكرية التى تشعبت حولـها بسبب هويتها العلمانية التى أبعدت الـهوية الروحية الدينية عن الفرد من أجل الـهوية الصهيونية " [(٢)].

" ومـن هنا فإذا جاز لنا القول ، بأن أدب ١٩٤٨ قد ولد ، بداية ، فى ظروف صاغته فى إطار أدب فكرى مجند ، وهو ما يسمى بأدب (النحن) ، إلا أنه ما لبث أن أخذ يلتمس طريقة نحـو (الأنا) ليعبر عن الفرد وصراعاته وتخبطاته فى مواجهة التناقضات التى يعانيها . وما أن وصـل إلى (الأنا) حتى عاد كتابه وتساءلوا عن الصلة بينهم وبين (النحن) وعن حق الوجود الـذى يمكـن (للأنـا) أن تمارسه دون ارتباط بالواقع الاجتماعى أيا كان . وهكذا تصارع هذا الأدب مـع نفسـه ، وقـام جيل جديـد مـن القصاصـين يحـاول أن يقطـع الرابطة بين (الأنا) والمجتمع ، وجعـل (الأنـا) فى مركز الوجود ، وكان منهم من حاول أن يخلص الأبطال من أى ارتباطات اجتماعية وسعى إلى (الأنا) الخالصة ، وكان منهم من كان عالمهم اكثر توازناً . إنـه صـراع نـتج فى أعـقاب أزمة حـرب ١٩٤٨ من أجل التخلى عن (النحن) والسعى نحو (الأنا) " [(٣)].

(٣) مرحلة ما بعد حرب يونيو ١٩٦٧ :

جـاءت حرب يونيو ١٩٦٧ التى خاضتها إسرائيل ضد ثلاث دول عربية (مصر – سوريا – الأردن) ، واحتلت على أثرها أجزاء عديدة من أراضى هذه البلاد ، لتمثل محنة جديدة من المحـن الـتى أثقلت كاهل النفسية الإسرائيلية . فعلى الرغم من الانتصار الكبير الذى حققته العسـكرية الإسـرائيلية فى هذه الحرب ، فإنها أضافت أزمة جديدة من الأزمات التى تتفجر بعد كل حرب تخوضها إسرائيل .

(١) د. رشاد عبد اللـه الشامى : عجز النصر ، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧ ، مرجع سـابق ، (ص ٣٣) .
(٢) أليعازر شفايد : " زهوت يهوديت تسيونيت " (الـهوية اليهودية الصهيونية) ، مرجع سابق ، (ص٢٣) .
(٣) د. رشاد عبد اللـه الشامى : عجز النصر ، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧ ، مرجع سابق ، (ص ٢٨) .

" لقـد تمخضـت حرب يونيو ١٩٦٧ عن عدة اتجاهات طفت على سطح الحياة السياسية فـى إسـرائيل، تجـاه مـا أسـفرت عـنه هـذه الحرب من نتائج التوسع الإقليمى الإسرائيلى، باحتلال أراض عربية تبلغ مساحتها أكثر من ثلاثة أضعاف حجم دولة إسرائيل " [(١)]:

(١) اتجـاه رأى أن الأراضـى الـتى تم احـتلالـها هى جزء من (أرض إسرائيل الكبرى) وفق الحدود الواردة فى الوعد الإلـهى فى التوراة واعتبرت هذه الأراضى محررة

(٢) اتجـاه حـاول اسـتغلال ميكانيزم الصراع العبرى الإسرائيلى بشأن فرض الأمر الواقع. وأنـه مـع التسويف وتغيير معالم المناطق المحتلة والسعى لتهويدها سوف يعترف العالم بأن هذه الأراضى هى جزء من دولة إسرائيل.

(٣) اتجـاه معـتدل رأى فى احتلال هذه المساحات من البلاد العربية ورقة للمساومة من أجل السلام واعتبر هذه المناطق المحتلة هى مناطق محتفظ بها.

(٤) اتجـاه رفـض مـبدأ احتلال أراضى الغير بالقوة ورفض الاعتراف بأن هذه الأراضى هى جـزء مـن (أرض إسـرائيل الكـبرى) واعتـبر أن إسـرائيل تحولـت إلى دولـة احـتلال اسـتعمارية بمـا يتـناقض مـع أخلاقـيات الصـهيونية وأطلق على هذه الأراضى المناطق المحتلة.

وكمـا اختلفت ردود أفعال هذه الحرب على الساحة السياسية، كان هو الحال أيضاً على السـاحة الأدبـية، لتمثل هذه الحرب منعطفاً جديداً فى موقف الأدب العبرى الإسرائيلى من الصـهيونية، حيث تباينت ردود أفعال هذه الحرب لدى الأدباء الإسرائيليين، ليعبر بعضهم عـن دائـرة الحـرب المفـرغة الـتى تمثل محنة جديدة زادت وطأتها بعد هذه الحرب من ناحية، وليعـبر بعضـهم الآخـر عـن الانتصـار والفخـر والغطرسة الإسرائيلية من ناحية أخرى، " حيـث كان أدبهم يعبر عن أدب القوة والغرور والغطرسة والفخر والحماس وعدم الاكتراث بالآخـرين، ويجسـد الشخصـية الإسـرائيلية القويـة المنتصرة التى لا تعرف غير القوة وسيلة للتفاهم مع العرب والتمسك بالأراضى العربية المحتلة " [(٢)].

لقـد ألقـت هـذه الحرب بظلالـها على موقف الأدباء الإسرائيليين بالنسبة لردود أفعالـها عـلى المجـتمع الإسـرائيلى بصـفة عامة، وعلى الفرد الإسرائيلى بصفة خاصة، بحيث يمكن القـول بـأن إسـرائيل هزمت نفسها فى هذه الحرب على حساب القلق الوجودى وأحاسيس التخـبط والقلـق مـن المصير المجهول، وهى أحاسيس عبر عنها الأدب العبرى بأكثر مما عبر عن أحاسيس الفخر بالانتصار.

---

(١) انظر د. رشاد عبد اللـه الشامى: إشكالية الـهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص١٧٩).

(٢) د. محمد فوزى ضيف: الاتجاهات الجديدة فى الأدب العبرى بعد حربى يونيه ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٨٧، (٢٨٩).

وعلى سبيل المثال، رأى الأديب الإسرائيلى حانوخ برطوف أن المجتمع الإسرائيلى وقع فى الأسر بعد هذه الحرب، وأن إسرائيل لم تنتصر فى هذه الحرب، حيث كتب يقول: " بالرغم من إننا انتصرنا فى الحرب، فإننا نحن المحتلون والمحاصرون ؛ لأن لدينا تخبطات تكفى للموت ... ويوجد هنا شعب صغير، هو بالكاد شعب، فى منطقة هى بالكاد أرض، مع كوابيس بسبب حدود لا يعرف ماذا يفعل بها، ويريد السلام ولا يستطيع الحصول عليه "[1].

وهو وضع يعلق عليه شلومو افنيرى قائلاً: " ظهرت الصهيونية بعد حرب يونيو ١٩٦٧ تحت مفهوم الأرض و السيطرة و السيادة وضم الأراضى. فماذا أدنى من أن الإعلام العربى، فى مثل هذا الوضع، يعرض دولة إسرائيل والصهيونية فى مقارنة مع الاستعمار والنظام الاستعمارى إننا حال تصورنا أن الصهيونية هى حركة للتحرير القومى، فمن الصعب أن نحكم عليها حكماً يتساوى مع الاستعمار، ولكن وقت أن نصبح فى نظر الآخرين كمحتلين فإن المقارنة مع الاستعمار تصبح مطلوبة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يساعد الإعلام العربى ويطلق له العنان في نظرته للصهيونية (كحركة من أجل أرض إسرائيل الكاملة) ... لقد تحولنا من حركة لتحرير اليهود إلى حركة للمطالبة بالأراضى "[2].

هذا، ولم يختلف رد فعل هذه الحرب على الإنتاج الأدبى فى إسرائيل اختلافا كبيراً عن رد الفعل بعد حرب ١٩٤٨ " فإذا كان الإحساس العام الذى ساد الجو الأدبى فى إسرائيل بعد عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧ هو إحساس الشعور بالمأساة التى خلفوها للعرب، والخوف الوجودى الذى لبس أحيانا صورة المقارنة بمصير الصليبيين والخوف من الجار والغريب على وجه العموم، ونبذ الاستمرارية الوجودية متمثلة فى رفض التوالد خوفاً من المصير المجهول، فإن الصورة لم تختلف بعد حرب ١٩٦٧ كثيراً، بل زادت تعقيداً، وابتعدت عن المجتمع أكثر، وأكثر وأصبحت تتناول الفرد بصورة أساسية وتخضع لكل تيارات الأدب الأوروبى التى تغالى فى تعرية الفرد من الداخل "[3] الذى أصبح يتشكك فى مصداقية الصهيونية، وهو شك أخذ يتعاظم بمرور الوقت وجعله يضع علامات استفهام عديدة حول القيم الصهيونية ومعانيها؟.

(١) حانوخ بارطوف: " هامنوتساحيم فهامكوتاريم " (المنتصرون المحاصرون)، صحيفة معاريف الإسرائيلية، ٩-٥-١٩٦٩. (نقلاً عن د. رشاد الشامى: عجز النصر، مرجع سابق، ص٤٩).

(٢) شلومو آفنيرى: " شيئلوت حفراه اومدينيوت بيسرائيل " قضايا اجتماعية وسياسية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص٤٥، ٤٤).

(٣) د. رشاد عبد الله الشامى: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، (ص ٥١، ٥٠).

" وقـد أكـد البرفيسـور جرشـوم شـوكين عـلى أن الوعى المتمثل فى إدراك حقيقة فشل الدولـة فى تجسيد الحلم الصهيونى قد برز بقوة لدى دوائر الشباب بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة وذلـك فـى الكـتاب الـذى أصدره عاموس ايلون تحت عنوان (حديث المحاربيـن) والذى ضمنه مواقف جيل الشباب فى إسرائيل تجاه الدولة وشعورهم بخيبة الأمل ... وختم شوكين كلامـه بأن كل من يعتبر قيام دولة إسرائيل ذات القوة المادية الكبيرة دليلاً على نجاح المشروع الصـهيونى فإنما يضلل نفسه. فهدف الحركة الصهيونية أساساً لم يكن يتمثل فى إقامة دولة يهوديـة تـتحدث العـبرية وتبـنى لنفسـها جيشاً قوياً بل كان هدفها الأساسى هو حل ضائقة اليهود فى أماكن انتشارهم " (١).

وهكـذا، أوقعـت هـذه الحـرب المجتمع الإسرائيلى فى مأزق جديد ؛ حيث وجد الفرد الإسـرائيلى نفسـه يعـيش تناقضـاً حاداً بين فرضيات الأيديولوجية الصهيونية التى تدعو إلى جعـل الـيهود شـعباً مـثل سـائر الشعوب وبين الواقع المغاير لـهذه المبادئ الذى تكشف بعد ذلـك فـى سياسـة التوسع الإقليمى وضم الأراضى على حساب شعب آخر. ومن هنا شعر الفـرد الإسـرائيلى بالخديعـة الصـهيونية وبـالواقع المريـر الذى يعيشه المجتمع فى ظل حلقة مفـرغة مـن الحـروب تـتعاظم بعد كل حرب يخوضونها وتزيد من الـهوة السحيقة التى وقع فيها الإنسان الإسرائيلى.

" إن الأدبـاء الممـثلين لمـرحلة مـا بعـد حـرب ١٩٦٧ أمثال عاموس عوز وأبراهام بيت يهوشـواع وإسـحق أورباز وديفيد شاحار ويهودا عميحاى وإسحق أورن وشلومو نيتسان، وهـم جمـيعاً ممـن اتخذوا مواقف يسارية، كانوا مخلصين فى إبداعاتهم لذلك العالم المميز بجو الغـربة والعـزلة والانطـواء والكشـف عن العالم الداخلى والمنعزل للأبطال الذين يخضعون لعقلانيـتهم وقد فقدوا سلامة الـهوية تماماً، ويواجهون بشاعة المجتمع بعد تعريته من أقنعته المزخـرفة ويـبعدون الأوهام عن أنفسهم ويضعون علامات الاستفهام المريرة من خلال بنيان رمـزى مجازى " (٢).

لقـد عكس هؤلاء الأدباء الإسرائيليون هذا الوضع الجديد الذى تمخض عن حرب يونيو ١٩٦٧ فـى إنـتاجاتهم الأدبـية، بشكل نستطيع من خلالـه أن نستقرئ حالة الحصار النفسى والإحسـاس بالضـياع والـهلاك التى أصابت الفرد الإسرائيلى بعد هذه الحرب، وذلك من خـلال بعض الأعمال الأدبية مثل رواية (نمل) لإسحاق أورباز التى صدرت بعد هذه الحرب

(١) د. محمـد محمـود أبـو غديـر : إسـرائيل بعد خمسين عاماً، اليوتوبيا الصهيونية بين الحلم والواقع، مجلة إبداع، الـهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد السادس ١٩٩٨، (ص٧٢).

(٢) د. رشـاد عـبد اللـه الشـامى : خطـوط عريضـة لاتجاهات الأدب العبرى المعاصر فى إسرائيل، مجلة إبداع، العدد الأول ١٩٩٥، (ص ٢٥).

بعـام تقريـباً. وتحكـى هذه الرواية عن زوجين إسرائيليين يعيشان فى شقة بتل أبيب. وهذه الشـقة فـى انهيار متزايد، وذلك من جراء هجوم غريب من النمل، حيث يقرض حوائطها تدريجياً، ويظل يعقوب الزوج يتصارع مع النمل ويبنى حائطاً أمام حائط دون جدوى حيث يعـود الـنمل مـرة أخـرى لمهاجمته. ويعلق إيهود بن عيزر على المعنى الرمزى للنمل فى هذه الـرواية قائلاً: " يبدو أنه من الصعب أن نخطئ فى تحديد المعنى البارز الذى يدل عليه النمل فـى هـذه الـرواية، ذلك المعنى الذى يهتم بتلك المنطقة الوجودية للمحنة العاتية التى يحدث فيها كابوس انهيار حنة جونين فى رواية (عزيزى ميخائيل) لعاموس عوز، ويحدث كابوس حـرق الغابـة فى قصة (أمام الغابات) ليهوشواع. أما كابوس النمل لأورباز إلى جانب كونه يشـير إلى حـياة رجل وزوجته على حافة الانهيار، فهو كابوس مغروس بصورة واضحة فى إحســاس الحـرب والحصــار، وفـى الإرهــاق مـن الوضـع الوجـودى الذى يصل إلى درجة كابوس الانهيار النفسى والإحساس بالضياع والـهلاك " [1].

كمـا انعكسـت تخبطات المجتمع الإسـرائيلى وصراعاته وتساؤلاته فى رواية يجآل ليف (واللــه يـا أمـى إنى أكره الحرب). " وتعد هذه الرواية من أولى الروايات التى صدرت فى أعقـاب حـرب ١٩٦٧، لكـنها ليسـت أروع مـا كتب عن المعارك التى دارت على جبهات القـتال، وإنمـا عـن المعـارك الـتى دارت فـى أعمـاق نفـس المؤلف، وحول ما يمليه الضمير والعدل وما يمليه الخوف من الحرب والتعلق بالحياة والإخلاص للرفاق. وهى محاولة للكتابة مـن وجهة نظر شاب مقاتل ذاق بنفسه مرارة الحرب وأهوالـها. والشخصيات التى يعرضها المؤلـف هـى شخصيات حية وموجودة – وهى الشخصيات التى أفرزها المجتمع الإسرائيلى وخلق منهم جنوداً مقاتلين. ولذلك فإن هؤلاء الجنود هم لحم ودم وليسوا أبطالاً، وتعمهم باسـتمرار أحاسـيس الخوف والتخبطات والأشواق إلى البيت، وإلى الحياة اليومية وذلك منذ تحـركهم مـن اللطـرون قـبل القـتال وحـتى وصـولـهم إلى ضـفاف نهـر الأردن فـى نهايـة المعـركة" [2]. وهـى نفـس الأحاسـيس التى عبر عنها ليف أيضاً فى قصته (بعد الحرب بيوم واحـد) حيـث تعـبر هـذه القصـة عـن التمزق النفسى من جراء هذه الحرب من جانب أحد الجـنود الإسـرائيليين حـتى فـى ظـل مشـاعر الانتصـار. إن (يوسـى) البطل فى هذه القصة يتسـاءل بعـد عودتـه مـن إجـازة لمدة ثمان وأربعين ساعة عن رفاقه الذين سقطوا، وظل هو على قيد الحياة، وعن ثمن هذه الحرب فى ظل تخبطات الجنود وتساؤلاتهم عن جدواها.

---

(١) ايهـود بـن عـيزر: " بموليدت هاجعجوعيم هامنوجاديم، هاعرفى باسفروت هاعفريت " (فى وطن الأشواق المتناقضة، العربى فى الأدب العبرى "، مرجع سابق، (ص٣٧، ٣٨).

(٢)د. رشـاد عـبد اللــه الشـامى: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، (ص ١٢٧).

وهكذا، عبر بعض الأدباء الإسرائيليين عن تخبطات ذلك الجيل وتساؤلاته عن الحلم الصهيونى ووعوده بأن الحياة سوف تصبح مستقرة وآمنة فى أرض فلسطين، وانعكس ذلك فى الكثير من الأعمال الأدبية لدى العديد من الأدباء كل بأسلوبه، كما رأينا يهوشواع وهو يعبر عن عدم إيمان بعضهم بجدوى الاحتلال والطرد من خلال تعاطف البطل أو الحارس الإسرائيلى فى قصته (أمام الغابات) ١٩٦٨ مع الشخصية العربية، فيقوم بمساعدة العربى فى إحراق الغابة التى أقيمت على أنقاض قريته العربية. وهو ما يعكس التمزق النفسى والتساؤلات عن جدوى الحروب وسقوط الضحايا التى عبر عنها العديد من الأدباء الإسرائيليين بعد حرب ١٩٦٧، إنها أحاسيس مريرة دفعت بعضهم إلى الوقوع فى هوة سحيقة من الارتباك والتخبط والسؤال الدائم عن الاستقرار الذى وعدت به الصهيونية.

وهو ما عبر عنه بن عيزر محللاً الوضع الذى آل إليه المجتمع الإسرائيلى بعد هذه الحرب بقوله: " لقد وعدنا الحلم الصهيونى أن يكون التاريخ فى أرض إسرائيل مستقراً، لكن هاهو الصدى الفكرى العميق للأدب الذى يكتب فى إسرائيل، إنه أبعد ما يكون عن أى مفهوم للهدوء والاستقامة "(1).

(٤) مرحلة ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣:

لا يمكن أن يختلف اثنان على أن كلاً من حربى يونيه ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ كان لهما أكبر الأثر فى المجتمع الإسرائيلى على كل الأصعدة السياسية والثقافية والأدبية، لاسيما وقد أحدثت حرب أكتوبر ١٩٧٣ هزة عنيفة داخل المجتمع الإسرائيلى الذى عمه التخبط والانكسار بعد أحاسيس الغطرسة والفخار والقوة الوهمية لإسرائيل فى أعقاب حرب يونيه ١٩٦٧. وقد دفع هذا التحول ببعضهم إلى الإحساس بالملل والاكتئاب من دائرة الحرب المفرغة التى اكتشفوا أنها لا طائل منها سوى مزيد من الضحايا والتمزق النفسى العميق للشخصية الإسرائيلية بعد كل حرب. ولأن الحرب، كما وصفها مفكرو إسرائيل وأدباؤها كانت بمثابة " زلزال " هز إسرائيل، فإنها كشفت القناع عن زيف الادعاءات القائلة بضرورة الاحتفاظ بكل الأراضى التى تم احتلالها فى ١٩٦٧ لضمان أمن الشعب الإسرائيلى وسلامته، وهو ما دفع بعضهم إلى رفع راية التغيير فى أهداف وتوجهات الدولة.

وقد عبر عن هذه الحالة الصحفى الإسرائيلى شلومو أفنيرى فى أحد مقالاته بصحيفة معاريف ٨/ ١١/ ١٩٧٤، حيث كتب قائلاً: " فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ظهر

---

(١) د. محمد فوزى ضيف: الاتجاهات الجديدة فى الأدب العبرى بعد حربى يونيه ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ مرجع سابق، (ص٦٤).

علـى الساحة فى البلاد اتجاه يشير إلى الصعوبات والمحن التى واجهت الوجود اليهودى فى فلسطين. ويرى هذا الاتجاه أنه إذا كان هدف الصهيونية هو الإتيان بشعب مثقل بالمتاعب ومتخم بالمشكلات والمرارات إلى شواطئ الراحة والإرث (فلسطين)، فها هو يجد نفسه بعيداً عن كل الآمال، شعب يجلس فى صهيون على فوهة بركان على وشك الانفجار فى أية لحظة. فالحرب تتبعها حرب، ومزيد من جثث موتى حرب ١٩٧٣ ملقاة أمامنا وفى نفس الوقت فنحن مطالبون بمواجهة حرب أخرى محتملة ... بعد أن رأينا الخطر يرفرف على رؤوسنا هنا فى إسرائيل مرتين فى حرب يونيه ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ " (١).

" لقد أدى نشوب هاتين الحربين، يونيه ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣، إلى جعل مسائل أساسية فى الواقع اليهودى الإسرائيلى وفى الأيديولوجية الصهيونية، ملموسة بعد أن كان قد تم التخلص منها، وطفت الخلافات على السطح دون أن تكون هناك إمكانية لحلها. ووقف المجتمع الإسرائيلى فى مفترق الطرق، وأصبح عليه أن يحدد لنفسه هويته وماهية اليهودية والصهيونية " (٢).

وقد أكدت الدراسات النفسية التى أجريت على الجمهور الإسرائيلى بعد حرب ١٩٧٣ عمق الإحساس بالإحباط والمرارة، حيث إن هذه الحرب حطمت الغرور الإسرائيلى ما بعد حرب ١٩٦٧، وآلت بالمجتمع الإسرائيلى إلى مزيد من الانكسار. ونفس هذه الحقيقة " أكد عليها المفكر الإسرائيلى يشعياهو لايبوفتس فى دراسة له عن حرب ١٩٧٣، حيث سبق وأن حذر من اندلاع تلك الحرب قبل وقوعها بسنوات، حيث أكدت تلك الدراسة على أن حرب ١٩٧٣ قد عمقت داخل الجمهور الإسرائيلى مشاعر الكآبة وخيبة الأمل والشعور بالإحباط والفشل " (٣). " وأما البروفيسور جرشوم شوكين، فإنه يرى أنه إذا كان الوعى المتمثل فى إدراك حقيقة فشل الدولة فى تجسيد الحلم الصهيونى قد برز بقوة لدى دوائر الشباب بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة وذلك فى الكتاب الذى أصدره عاموس ايلون تحت عنوان (حديث المحاربين) والذى ضمنه مواقف جيل إسرائيل تجاه الدولة وشعورهم بخيبة الأمل، فإن هذه المشاعر قد تعاظمت لتشمل مختلف القطاعات السكانية فى إسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ ... ويرى المفكر الإسرائيلى حاييم بن شاحر أن الواقع الصهيونى الحالى فى إسرائيل يختلف تماماً عن الحلم الصهيونى الأصلى. فيهود العالم لم يتجمعوا فيها.

(١) شلومو آفنيرى: " شيئلوت حفراه اومدينيوت بيسرائيل " قضايا اجتماعية وسياسية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص٤٧ : ٥٠).
(٢) د. رشاد عبد الله الشامى: إشكالية الهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ٢٢١، ٢٢٢).
(٣) د. محمد محمود أبو غدير: المثقفون والسلطة فى إسرائيل، مجلة إبداع، القاهرة، العدد السابع يوليو ١٩٩٨ (ص٤٣).

والدولـة تواجـه مشـاكل كـثيرة وهـى أبعـد مـن أن تكون جنة عدن التى وعدت الصهيونية بتحقيقها لليهود " [(١)].

وعـلى السـاحة الأدبية، كان للأدباء الإسرائيليين دورهم فى التعبير عن هذه الحرب التى مثلـت لـهم نقطة تحول ومزيداً من الوقود على النار المتأججة فى نفوسهم من جراء الحروب المتواصلة، وراحـوا يكتـبون عـن مشاعر الإحباط واليأس والانكسار وينتقدون الحكومات الفاشـلة ويلعـنون الصـهيونية الـتى أتت بهم إلى هذا المكان ووضعت مستقبلـهم ومستقبل الدولـة فى حلقة مفرغة. إنها روح يائسة راحت تدب فى الأدب الإسرائيلى شعراً ونثراً بعد هـذه الحـرب ؛ مما دفـع أحـد الـنقاد العـبريين إلى التحذير من هذه الروح، وضرورة ضبط الـنفس، حـتى يمكـن العـودة إلى الحياة مرة أخرى فكتب يقول: " لقد أدت هذه الحرب إلى حالـة من الارتباك الشديد، وهو ارتباك ينسحب على الأدباء كذلك، إننى لا استنكر الحيرة والارتباك.. غير أنه لابد وأن نقدر أن الحائرين المرتبكين ليس فى مقدورهم أن يكونوا هداة أو مرشـدين لـلحائرين. إن الأدبـاء مـازالوا مستمرين فى إظهار استجاباتهم تجاه الأحداث الـتى وقعـت كـل حسـب وجهة نظره.. وبينهم قلة تجاهد لكى تشجع الشعب وتؤازره فى محنته.. غـير أن هـناك فـى نفس الوقت آخرين عديدين يضيفون أحزاناً على أحزان. لقد اهـتزت ثقـتهم اهـتزازاً شـديداً فـراحوا يزرعون اليأس حولنا الأمر الذى ينطوى على خطر شديد يهدد مستقبلنا " [(٢)].

هـذا، وقد كان لحرب أكتوبر ١٩٧٣ أثرها فى توجهات الأدب العبرى المعاصر بدءاً من منتصـف السـبعينيات، حيـث أدت هـذه الحـرب إلى مولـد مذهـب أدبى جديد هو المذهب الديكادينتى (مذهب التفسخ والتحلل).

" ويتسـم هـذا المذهـب بالنظر إلى المجتمع الإسرائيلى بالتشاؤم والسوداوية إزاء المستقبل المجهـول، كما يكتنفه الخوف من الانهيار والتفتت كنتيجة حتمية للفساد المستشرى، حيث يؤكد اتباعه فى أكثر من موضع على تضاؤل الرغبة فى الحياة لقتامتها، بالإضافة إلى الشعور بالغروب والأفول والدمار والموت " [(٣)].

وقـد اتسـم هـذا المذهـب أيضـاً بتقيـيم الصهيونية فى ظل الوضع الإسرائيلى القائم بعد حـرب١٩٧٣. " وذلـك مـن خـلال تقيـيم حالة اليهود فى ذلك الوقت وحالتهم قبل قيام الدولة إبان الشتات. وينتمى إلى هذه المذهب يتسحاق بن نير ويعقوب شبتاى " [(٤)].

---

(١) انظـر د. محمـد محمـود أبـو غديـر: إسـرائيل بعـد خمسـين عامـاً، اليوتوبـيا الصـهيونية بـين الحـلم والواقع، مرجع سابق، (ص٧٢).
(٢) (نقـلاً عـن د. إبراهـيم الـبحراوى: الأدب الصـهيونى بين حربين حزيران ١٩٦٧ - تشرين ١٩٧٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٧، (ص ٢٢).
(٣) د. زين العابدين محمود: الأدب العبرى الحديث، مرجع سابق، (ص٢٢٣).
(٤) أنظـر: يوسف أورن: " هاهيتبكحوت باسيبورت هايسرائيليت " (عودة الوعى فى الأدب القصصى الإسرائيلى)، دار نشر ياحد، تل أبيب، ١٩٨٣ (ص١٩: ٢١).

ويتميز أدباء هذا المذهب فى أعمالهم بالتعبير عن التمزق النفسى لأبطالهم، حيث يقول يوسف أورن فى هذا المقام: " إن الإحساس بالحياة فى هذه الأعمال فى طريقه إلى الزوال، ويشعر به الأبطال وهو يتحقق فى الواقع، إنهم يعيشون فى حالة ضبابية يعقبها ظلام دامس " [(١)].

وهكذا تركت هذه الحرب أثاراً عميقة أدت إلى تغلغل بعض الأدباء الإسرائيليين فى أعماق النفس الإسرائيلية وكشفوا لنا عن مشاعر التخبط والانكسار والإرهاق من الحروب وخيبة الأمل من النبوءات والأيديولوجية الصهيونية مثل يتسحاق بن نير فى روايته (غروب قروى) ١٩٦٧، ويعقوب شبتاى فى روايته (ذكرى الأشياء) ١٩٧٧، وهما يعدان بمثابة التعبير العميق والمركز عن الحالة الروحية التى اجتاحت المجتمع الإسرائيلى خلال السبعينيات " [(٢)].

" وتكشف الرواية القصيرة الساخرة (بعد المطر) ١٩٧٩ ليتسحاق بن نير أيضاً عن الشارع الإسرائيلى الذى غرق فى الدهشة بعد حرب ١٩٧٣، وهى عمل أدبى يقترب فى لمسه لنفسية الشارع الإسرائيلى عن عدة روايات أخرى، حيث يصف بن نير كيف أنتجت تلك الفترة مسحاء السوق، وأنبياء الشارع والمهلوسين، والعرافين، والمنجمين والسحرة. وتصاحب هذه الرواية المسيرة التى حولت دنتسيجر خلال سبع ساعات فقط من إنسان سليم العقل إلى واحد من الأنبياء المهلوسين، الذى يتنبأ بالخلاص من خلال وصف متحمس لوجود نفط فى البلاد " [(٣)]. وتهاجم هذه الرواية أيضاً الاستيطان والمستوطنين، باعتبارهم السبب فى كل ما لحق بإسرائيل من ويلات حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأنهم سيكونون السبب فى أية حرب جديدة.

ومن أبرز الروايات العبرية التى تحدثت عن الأثار السلبية والموجعة لحرب أكتوبر ١٩٧٣ رواية (العاشق) ١٩٧٧ للأديب الإسرائيلى أ. ب. يهوشواع التى أكد فيها على إفلاس الحركة الصهيونية وخيبة الآمال فى تثبيت أركان الدولة.

ويمكن القول، إن الفكرة الرئيسية لهذه الرواية كانت هى حرب أكتوبر ١٩٧٣، حيث تستهل أحداث الرواية بالدهشة التى أصابت الجميع من عنصر المفاجأة التى بدأت بها هذه الحرب:

---

(١) نفس المرجع (ص٢٣).
(٢) د. رشاد عبد الله الشامى: الاتجاهات الرئيسية للأدب العبرى العاصر فى إسرائيل، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد ٢٤، العدد الثالث، يناير/ مارس ١٩٩٦، (ص ٣٣).
(٣)يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت باروما هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص١٥، ١٦).

" حقاً، كانت هذه حرباً حقيقية وقعت علينا بمفاجأة تامة " [1] حتى إن بعضهم لم يصدق ما حدث، " من الذى كان يصدق ما حدث " [2].

وتشير هذه الرواية أيضاً إلى الفوضى التى عمت البلاد فى أثناء هذه الحرب والهلع والخوف والوجوم الذى أصاب الجميع، وكثرة عدد الجثث والمفقودين، وحالة الملل والكآبة من الحروب المتوالية ورفضها، حتى إن جبريئيل أحد أبطال الرواية يحاول الهروب من على الجبهة فى سيناء عدة مرات وينجح فى النهاية فى الهرب متخفياً فى زى متدين. ويشير جبريئيل هنا إلى رفض الحروب والخوف منها حيث يبدو فى الرواية خائفاً مذعوراً ويتهم الدولة بأنها أرادت قتله فى هذه الحرب، " ببساطة، لقد أرادوا قتلى " [3]، " كان يأمروننا أن نحفر حفرة عميقة فى باطن الأرض. كان كل واحد منا يحفر قبره بنفسه " [4].

ووصف يهوشواع فى هذه الرواية ماذا تفعل الحروب فى الشباب، خصوصاً حرب أكتوبر ١٩٧٣ : " لقد أصبح كل الشباب فى عداد الشيوخ، فابيض شعرهم بفعل الصحراء ... وأصبحت الوجوه واجمة، والعيون غائرة من قلة النوم " [5].

وهكذا، عبر يهوشواع فى تلك الرواية عن أثار هذه الحرب على المجتمع الإسرائيلى الذى أصبحت الحروب تحيط به من كل جانب، فهو يعيشها رغم أنفه ويتوقعها فى أية لحظة. وهو هنا يلقى باللوم على الصهيونية التى وعدت جموع اليهود بالوطن الآمن، وإذا بهم يستنشقون رائحة البارود فى كل وقت ويودعون أبناءهم ويبكونهم . ولعل هروب جبريئيل من الجبهة يشير إلى ضعف ارتباطه بالفكرة الصهيونية وفشلها كما أشار هليل برزيل إلى ذلك [6].

لقد أعادت حرب أكتوبر ١٩٧٣ مسألة تقييم الصهيونية فى الأدب الإسرائيلى مرة أخرى، مثلما حدث فى الحروب السابقة " وشكلت الحالة النفسية القومية مادة خصبة لتقييم الصهيونية فى الأدب الإسرائيلى بعد حربى يونيه ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ . وكشفت هذه الروايات عن حالة الصهيونية بأسلوب التحقيق من خلال عائلة متعددة الأجيال ... لتبقى شاهداً على فشل الصهيونية فى سنوات الدولة " [7].

(١) أفراهام بيت يهوشواع : " هامئهيف " (العاشق)، رواية، دار نشر شوكن، القدس وتل أبيب، ١٩٩، (ص٩).
(٢) نفس المرجع (ص٢٢٠).
(٣)أفراهام بيت يهوشواع : " هامئهيف " (العاشق)، رواية، مرجع سابق (ص٣٥٢).
(٤)نفس المرجع (ص٣٧٢).
(٥)نفس المرجع (ص٣٧٢).
(٦) هليل برزيل : " مسابريم بيحودام " ، دار نشر يحداف ايحود، تل أبيب، ١٩٨١ ، (ص٦٧).
(٧) يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص١٦).

(٥) مرحلة الثمانينيات والتسعينيات (ما بعد الصهيونية):

تميزت هذه المرحلة من تطور العلاقة بين الأدب العبرى والصهيونية بالنقد المباشر للحركة الصهيونية، حيث واصل الأدب العبرى خلال الثمانينيات من القرن العشرين الاتجاه الذى بدأه منذ السبعينيات فى تنقية الأجواء من الشوائب الأيديولوجية، وتم التعامل مع الصهيونية بصورة مباشرة وصلت إلى حد المطالبة بالانفصال عنها بعد أن تسببت فى كل المحن التى وقعت فيها الدولة، وإثبات فشل الصهيونية فى التعامل مع الواقع المعاش.

والمتتبع للمتغيرات التى طرأت على تقييم الصهيونية وكيفية تعامل الأدب العبرى المعاصر مع فرضياتها النظرية ومدى تلاؤمها مع الوقائع الجديدة، سوف يلاحظ أن هذا التقييم تأثر بالاهتزازات التى تعرضت لها أهداف الصهيونية ووسائل تحقيقها، وتمت المراجعة لمدى قوة الصهيونية فى تحقيق أهدافها، وارتبط هذا التقييم بالأحداث التى أشارت إلى نجاحات الدولة وفشلها أكثر من أى شىء آخر. وكانت للحروب المتوالية التى خاضتها إسرائيل، وبخاصة حرب أكتوبر ١٩٧٣، أثرها الكبير على المستوى النفسى فى حدوث تغيرات فكرية فى تقييم الأدب العبرى المعاصر للصهيونية، خصوصاً من قبل الأدباء الإسرائيليين الذين يحسبون على اليسار الإسرائيلى، أمثال عاموس عوز ويهوشواع.

لقد جعل الجدل القائم حول نقد الصهيونية فى الأدب العبرى المعاصر، مع مطلع الثمانينيات من القرن العشرين، بعض الأدباء والنقاد يطلقون السؤال التالى: هل مازال الأدب العبرى المعاصر صهيونياً؟ خصوصاً أن هذا الأدب عبر فى فترات وجيزة عن أهداف وتطلعات الصهيونية بإخلاص تام، ولكنه سرعان ما اتجه، بعد أن واجهت الدولة الكثير من المشكلات الداخلية والخارجية، إلى الشكوكية الشاملة فى التعامل مع مدى صدق الصهيونية فى نهجها، وفى احتمالات تحقيق مشروعاتها (الإقليمية، والديموجرافية، وغيرها) ووصل الأمر إلى القول بأنه لم تعد هناك حاجة إلى الصهيونية بعد أن أقيمت الدولة، وبات الجو مهيأ لفكرة التنكر لكل مبدأ صهيونى يسعى إلى ترسيخ مفاهيم ونظريات عفا عليها الزمن، ولا تتلاءم مع الوضع الراهن لدولة إسرائيل. وبدا فى الأفق شبه اتفاق على أن الصهيونية قد آن أوان تشييعها إلى مثواها الأخير.

هذا وقد واكب هذه المرحلة الأدبية، على المستوى الاجتماعى فى مجال العلوم الاجتماعية، ظهور مجموعة من الباحثين والمؤرخين الأكاديميين ممن أطلق عليهم (المؤرخون الجدد)، حيث طالبت هذه الجماعة بإعادة كتابة تاريخ إسرائيل وعلاقتها بالصهيونية. "

وارتبط ظهور المؤرخين الجدد بتغيرات وتطورات شهدتها الساحة الإسرائيلية منذ السبعينيات، بدأت بصعود الليكود إلى السلطة لأول مرة عام ١٩٧٧ والاتجاه نحو تطبيق سياسات تختلف من حيث التوجهات السياسية والعقائدية عن السياسات التى طبقت

لسنوات عديدة بواسطة حكومات حركة العمل اليسارية " [1]. كما ارتبط مصطلح (ما بعد الصهيونية) بفكر تلك الجماعة الجديدة، حيث " تبدو السمة المميزة لما بعد الصهيونية فى رغبة مثقفين وفنانين فى إعادة تقويم ما أنتجته الصهيونية من أحداث تاريخية والنظر فى سلبياتها من جهة، وتحليل ونقد الوقائع الاجتماعية والسياسية الإسرائيلية، كما صارت عليه فى التسعينيات ... وليس غريباً أن ينطوى مفهوم (ما بعد الصهيونية) على معان عدة، منها ما يفيد أن الصهيونية قد انتهت، وأن إسرائيل صارت على عتبة ولوج مرحلة جديدة. ويمكن أن يعنى مفهوم (ما بعد الصهيونية) غير ذلك " [2].

ويمكن القول، إنه إذا كانت المرحلة الأدبية التى أعقبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ "قد عبرت عن التفسخ الاجتماعى السياسى الذى اجتاح إسرائيل فى هذه الحرب، ووصفت المجتمع الإسرائيلى بأنه مصاب بمرض العصاب وأعربت عن رفضها الصريح لمسلسل الحروب التى بلا ثمن وطرحت بصراحة وضع الفلسطينيين ... إلا أن أعمالاً أخرى اعتباراً من الثمانينيات من القرن العشرين كانت أكثر حدة فى تناولها لمفردات الأيديولوجية الصهيونية ونقدها مع محاولات لطرح البدائل للصهيونية الكلاسيكية التى رأوا أن زمنها قد انقضى وأن دورها قد انتهى وبدأ الطرح الأدبى لما أطلق عليه (ما بعد الصهيونية) " [3]. وراح الأدباء الإسرائيليون اليساريون يعبرون عن تقييمهم لواقع هذه الأيديولوجية وفى أى شئ نجحت وفى أى شئ أخفقت. وتميزت الرواية العبرية المعاصرة بلهجة نقدية لاذعة عن بقية الأنواع الأدبية المختلفة، فى الكشف عن ضعف الصهيونية وعن تدنى قدرتها على مواجهة التحديات التى واجهتها الدولة فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ وازدادت هذه الموجة النقدية مع مطلع الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن العشرين.

ويعلق يوسف أورن على هذه المرحلة التى قويت فيها الشكوكية تجاه الأيديولوجية الصهيونية قائلاً: " يتميز رد فعل الرواية الإسرائيلية تجاه الأيديولوجية الصهيونية بلهجة نقدية لاذعة ومستمرة. ففى البداية تكشف الرواية عن ضعف الصهيونية وقلة قدرتها على مواجهة التحديات التى يفرضها الواقع أمام الدولة الحديثة. وفى فترة متأخرة اتهمت الرواية الإسرائيلية الصهيونية بالفشل، وبأنها السبب فى كل المحن التى وقعت فيها الدولة " [4].

---

(١) د. محمد محمود أبو غدير: إسرائيل ما بعد الصهيونية، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، المجلد الرابع، العدد ٢: ٤، ١٩٩٥، (ص ٦١).

(٢) انظر: معين الحداد: تحليل ظاهرة (ما بعد الصهيونية)، مجلة شئون الأوسط، مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، لبنان، العدد ٧٢ مايو ١٩٩٨، (ص ٧، ٨).

(٣) د. رشاد عبد الله الشامى: أدب مابعد الصهيونية، مجلة سطور، العدد ٣٨ يناير ٢٠٠٠، (ص ٣٥).

(٤) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٩).

وشهدت الثمانينيات أول رواية عبرية معادية للصهيونية كما أطلق عليها النقاد الإسرائيليون، وهي رواية (رواية روسية) ١٩٨٨ لمئير شاليف، وفيها شكك شاليف في كل نظريات الصهيونية وقال إنها قائمة على أساطير ووهم وخداع. ويقول أورن في هذا المقام: " وصلت الشكوكية حول الصهيونية إلى أوجها في الثمانينيات، حيث كان الجو مهيأ لقبول أول رواية معادية للصهيونية كتبها أديب إسرائيلي وهي رواية (رواية روسية) لمئير شاليف. وإذا كان رد فعل كل الروايات الأخرى حول الصهيونية رداً نقدياً شرعياً يتعامل مع الفشل الحقيقي والوهمي للصهيونية، فإن رواية شاليف أثارت الشك في نظريات الصهيونية، خاصة وأنه يحرص على عرضها كـ (أسطورة) وكفكرة باطلة وكاذبة وشكك في اعتماد الصهيونية على وجود صلة خاصة بين فلسطين وشعب إسرائيل " (١).

كما عاد شاليف مع بداية التسعينيات ليؤكد في روايته (عيسو) ١٩٩١، على اعتماد الصهيونية في نظرياتها على الأساطير التوراتية في ادعاء الحق الديني والتاريخي لليهود في فلسطين.

وفي العقد الأخير مع نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، صدرت رواية (مولخو) ١٩٨٧ لـ أ. ب. يهوشواع، وفيها وجه النقد ضد الصهيونية وكشف عن اخفاقاتها في تجميع الشتات، ووصل إلى ذروة نقده لها بالمطالبة بالانفصال عن الصهيونية الكلاسيكية والمراهنة بأيديولوجية صهيونية جديدة تصب في المعطيات الواقعية التي تعيش فيها كل من الدولة والمجتمع الإسرائيلي.

وانضم عاموس عوز إلى موجة النقد الموجهة إلى الصهيونية، وأصدر روايتيه (راحة صحيحة) ١٩٨٢، (صندوق أسود) ١٩٧٨، وعبر فيهما عن فشل الصهيونية في إعداد وريث لجيل المؤسسين. بالإضافة إلى روايته (الحالة الثالثة) ١٩٩١ التي سخر فيها من رواد الحركة الصهيونية ومحاولاتهم الفاشلة في فرض نظرياتهم الصهيونية على الأبناء والأحفاد، وتطرق فيها أيضاً إلى فشل الصهيونية في إعداد وريث لجيل المؤسسين الصهاينة.

وهكذا يمكن القول، إن بعض الأدباء الإسرائيليين اليساريين قد توقفوا، خلال فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، عند مراجعة مدى صدق الصهيونية في أطروحاتها حول الحق الديني والتاريخي لليهود في فلسطين، ومدى نجاح الصهيونية في تجميع الشتات اليهودي، وغير ذلك من القضايا التي تم مراجعتها من جديد على ضوء المتغيرات التي حدثت على الساحة الإسرائيلية، ومدى تلاؤمها مع فرضيات الأيديولوجية

(١) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلي " (الصهيونية والصبارية في الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٢٤).

الصهيونية، مثلما حدث مع شخصية (الصبار) الصهيونية التى أبرز الأدب الإسرائيلى مدى خيبة الأمل من ادعاء (الصبارية) أنها سوف تحل محل الثقافة والإرث اليهوديين. " وبدا التلويح بالوداع (للصبار) الذى وصل ذروته فى نهاية الثمانينيات، أى فى نفس الفترة التى وصلت فيها حرب الأدب الإسرائيلى ضد الصهيونية إلى ذروتها، حيث إن كلتا الأيديولوجيتين، الصهيونية والصبارية، كانتا قد وصلتا إلى الدرك الأسفل. ولم يعد بإمكانهما مواصلة القيام بالدور الذى من المفترض أن تقوم به الأيديولوجية فى حياة المجتمع ... وحسبما يقول الناقد الإسرائيلى يوسف أورن، فقد توقف الأدب النثرى الإسرائيلى عن تمجيد الصورة الكمالية التى نحتها فى بدايته (للصبار). وقد مر الصبار بثلاث صور من التعامل من جانب الأدب الإسرائيلى. لقد عبر عنه ذلك الأدب خلال الأربعينيات بنغمة تمجيدية. وقد تحولت هذه النغمة إلى نغمة ساخرة متهكمة، خلال الستينيات والسبعينيات، ووجد فى الأدب الذى كتب خلال الثمانينيات من القرن العشرين نغمة مأساوية تبشر بغروب النموذج الصبارى المثالى معلنة انتهاء وجوده فى الأدب الذى سيكتب مستقبلاً " [(1)].

ويمكن القول أيضاً، إن تلك المرحلة الزمنية للأدب العبرى المعاصر قد تركزت موضوعاتها الأدبية على محورين مهمين، وهما: نقد الأيديولوجية الصبارية المتمثلة فى شخصية (الصبار) ونقد الأيديولوجية الصهيونية ونبذ مبادئها. وقد تم التعامل مع هاتين الأيديولوجيتين بصورة مباشرة وواضحة بعدما ثبت فشلهما فى مسايرة الواقع الإسرائيلى بمتغيراته السياسية.

وهكذا، " شهد الحوار الذى أجراه الأدب الإسرائيلى مع الصهيونية فترات من الازدهار والتمردات التى وقعت بفعل تأثير الأحداث الرئيسية خلال سنوات الدولة (وخاصة تأثير الحروب وما أعقبها من اهتزازات فى الوضع النفسى القومى)، حيث عبر الأدب الإسرائيلى فى فترات زمنية وجيزة عن الإخلاص التام للصهيونية وأمالها فى تحقيق طموحاتها. وعبر سنوات قيام الدولة راح نفس الأدب يعيد تقييم الصهيونية واتجه بشكوكية شاملة للتعامل مع مدى صدق الصهيونية فى نهجها، ومدى احتمالات تحقيق مشروعاتها الإقليمية والديموجرافية وغيرها " [(2)]. وقد دفع هذا الوضع أديباً مثل موشيه شامير يتساءل عن هذا الأدب وهل مازال صهيونياً؟ وتساءل آخرون، هل من الممكن اعتبار

(1) يوسف أورن: " زهويوت باسيبورت هايسرائيليت " (هويات فى الأدب الإسرائيلى)، دار نشر ياحد، إسرائيل، ١٩٩٤، (ص٩٣). (نقلاً عن د. رشاد عبد الله الشامى: إشكالية الهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، ص ٩٧).

(2) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٢٤).

الأدب العبرى الحديث عدواً للصهيونية؟ وهل يستطيع الأدب المعادى للصهيونية أيضاً إذا كتب باللغة العبرية أن يندرج تحت إطار الأدب العبرى؟

لقد أكد هؤلاء الأدباء الإسرائيليون اليساريون خلال فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، " أنه إذا كانت إسرائيل الحالية هى ثمرة حقاً من ثمار المشروع الصهيونى فإن هذا المشروع ذاته تحول الآن إلى مجرد إشارة إلى حركة تاريخية وإلى لحظة أوربية ولت وانتهت. وقد دفع هذا الأمر المفكرة الإسرائيلية سنتيا أوزيل إلى القول: بأن الكلام عن الصهيونية وعن الدولة الإسرائيلية يدفعنا الآن إلى تبنى مصطلح (ما بعد الصهيونية) الذى يعنى اعتبار الدولة ثمرة لحركة سياسية قديمة لفظت أنفاسها، وأنه من الصعب الآن التعامل مع الدولة مادامت أنها أصبحت مرادفاً لمشروع لم يكتمل بعد. فالحركة التى لم تجسد ذاتها ولم تحقق أهدافها، هى رمز للتخلف والجمود. والدولة التى تعتمد على الدعم الخارجى ستفقد قدرتها على الصمود. ولقد اعتمدت الحركة الصهيونية حقاً على عناصر خارجية منذ عهد هرتسل نفسه، مروراً بوعد بلفور وانتهاء بقرار التقسيم الذى صدر فى عام ١٩٤٧ " (١).

ومن ناحية أخرى، هناك حقيقة لا يمكن إغفالها، وهى أنه على الرغم من موجة النقد اللاذعة التى شهدتها سنوات الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين ضد الصهيونية من قبل الأدباء الإسرائيليين اليساريين، فإن هذه الفترة شهدت أيضاً أعمالاً أدبية أخرى من قبل الأدباء الإسرائيليين اليمينيين، ردت وبشدة على تلك الأعمال التى استعرض فيها أدباء اليسار إخفاقات الصهيونية فحسب ونادوا برحيلها، حيث راح أدباء اليمين يمجدون فى أعمالهم الصهيونية ويستعرضون إنجازات الآباء المؤسسين لها. وقد شكل هذا – إن صح التعبير – موجة من الصراع بين أدباء اليمين وأدباء اليسار حول مدى نجاح الصهيونية أو فشلها.

وعلى سبيل المثال، وصف موشيه شامير الصهيونية بأنها لحن جميل ورائع فى حاجة إلى من يستخدمه بأسلوب راق وفعال، " فهو يعطى لنا فى ثلاثيته (بعيداً عن اللآلئ) ١٩٨٤ معياراً آخر لتقييم الصهيونية ويصفها كبرنامج موسيقى ذى لحن يتوقف تأليفه على ملحنيه ومنفذيه فى الأجيال القادمة. ويسخر شامير من التردد فى الإقدام على هذا اللحن بقوله: (هناك من يجد طوال حياته قيثارة ... وينوون وينوون، وإلى لحنهم لا يقتربون). ولكن يجب ألا يتردد الملحنون فى اختيار اللحن الأفضل: (فالسمفونية تشيد بالتعايش السامى والنهائي

---

(١) د. محمد محمود أبو غدير: إسرائيل بعد خمسين عاماً، اليوتوبيا الصهيونية بين الحلم والواقع، مرجع سابق، (ص٧٣).

وغـير المعلـق ... هـذه السـمفونية غير قابلة للتغيير أو التقليل من شأنها ... حتى إذا لم تخرج للعـالم فهـى قائمـة، وحـتى إذا سمعـوا مقطوعـة منها فهى كاملة، وحتى إذا أساءوا إليها بلحن فهى مكتملة) الرواية ص ١٢ " [١].

كمـا كتـب الأديـب الإسـرائيلى " أهـارون أمـير " ثلاثـية عـرض فـيها الإنجاز الشامل للصـهيونية، وهـى الثلاثـية التى سعت إلى الرفض المطلق للشتات. وهى ("نون" ١٩٦٩، "نون٤٨ " ١٩٨٥، " نون ٦٧ " ١٩٨٩).

وانضـم الأديـب الإسـرائيلى " ناتـان شـاحام " إلى صـفوف المدافعـين عن الصهيونية، وأصـدر روايـته (فـى قلـب تـل أبيب) ١٩٩٦، وفيها يحكى لنا عن مجموعة من الأصدقاء قضـوا طفولـتهم وحـياتهم معـاً فـى مبنى سكنى بتل أبيب، وبعد أن امتد بهم العمر قرروا شـراء هـذا المبنى ليقيموا به متحفا لتخليد آباء الصهيونية الذين سكنوا فى أول مدينة عبرية، وليكون شاهداً للأجيال القادمة على نجاح المشروع الصهيونى على أرض فلسطين.

وتشـتمل حـبكة الـرواية عـلى مـا يقـرب من سبعين عاماً فى تاريخ هذه البلاد، ولكنها فضـلت أن تلقـى الضـوء عـلى الاسـتيطان الصـهيونى فى فلسطين من خلال بعض اليهود الذين شهدت حياتهم ثلاثة أجيال وسكنوا معاً فى عمارة سكنية واحدة فى قلب تل أبيب.

ويـرى يوسـف أورن أن هـذه الـرواية جـاءت كـرد فعـل عـلى روايات شاليف المعادية للصهيونية، على حد قولـه، وأشار إلى أنها رواية صهيونية ترد وبشدة على مشروع شاليف الـذى خلّـد فـيه فشـل الصهيونية بدلاً من تخليد نجاحها، حيث يقول: "وهكذا، بينما بنى شاليف مجده وقبولـه فى الأدب العبرى الإسرائيلى على حساب روايات معادية للصهيونية، وأثبـت فشـل الصـهيونية الـذى زرع شواهده فى كل (قرية) وفى كل (مخبز) بالبلاد، يجىء شـاحام لـيرد علـيه من خلال رواية صهيونية ترتكز إلى الحقائق التاريخية التى يمكن أن تكون كافية عبر السير الحياتية لمجموعة من السكان أثبتت نجاح (الثورة العبرية، التى لم تكن ثورة فقيرة، بل كانت هى الوحيدة، خلال القرن العشرين، التى سطعت بقوة) الرواية ص ٣٧٩ . . . إنها رواية صهيونية تأتى أحداثها من خلال خلفية واسعة لسنوات تحقق الصهيونية فى تاريخ الشعب اليهودى فى العصر الحديث" [٢].

وهكـذا، شـهد الأدب العـبرى الإسـرائيلى، خـلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، نوعاً من المناورة بين أدباء اليمين وأدباء اليسار، وإن كانت الغلبة فى صالح أدباء

(١) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت باروما‌ن هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٢٢).

(٢) يوسـف أورن: "رومـان تسـيونى رحمانا ليتسلان " (رواية صهيونية، حاشا لله)، مرجع سابق، (ص ٤٣، ٤٤).

اليســار لمـا يتمتعون به من شهرة واسعة داخل إسرائيل ومن مكانة أدبية على الخريطة الأدبية فى إسرائيل.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب سوف يركز على تناول الأعمال الأدبية التى كتبها أدبـاء إسـرائيليون ينـتمون إلى اليسـار الصـهيونى، عـلـى اعتـبار أنـه وبالرغم من أن اليمين الصـهيونى قـد أتيحـت لـه فرصة تاريخية لكى يتولى الحكم فى إسرائيل بالتناوب مع اليسار فـى الفـترة مـن ١٩٧٧ وحـتى عام ١٩٩٩ ليخلو لـه كرسى الحكم تماماً اعتباراً من ١٩٩٩ بـتولى شـارون الممثل لليمين المتطرف للحكم فى إسرائيل، فإن هناك حقيقة أساسية لا يمكن إنكارهـا بالـرغم مـن هـذا، وهو أنه وإن كان اليسار قد فقد السلطة السياسية، فإن السلطة الثقافـية فـى إسـرائيل ظلـت حـتى بدايـة القـرن الواحـد والعشرين متمركزة فى يد اليسار الصـهيونى، سـواء عـن طـريق المؤسسـات الثقافـية الرسمـية أو أجهـزة الإعـلام والكتاب الصـحفيين الكبار وأعلام الأدب الإسرائيلى الممثلين لرموزه الأساسية. ولـهذا فإنه لا يمكن بحـال مـن الأحـوال لـهذه الاعتبارات السابقة قراءة شفرة الأدب العبرى فى إسرائيل إلا من خـلال هـؤلاء الأدبـاء اليسـاريين تحديـداً. وإذا كـان هـناك مـن يقـول، إن صـعود اليمين الصهيونى للسلطة فى إسرائيل منذ السبعينيات وحتى الآن قد واكبه نوع ما من الانحسار فى نفـوذ السـلطة الثقافـية لليسار الصهيونى، فإننا وإن كنا نقبل بهذا جزئياً فى بعض المناحى، إلا أن الحقـيقة تشـير إلى أن هـؤلاء الأدباء الذين يمكن أن يشار إليهم باعتبارهم كتابا يمينيين مـازالوا حـتى الآن لم يتـبوءوا مكانة متميزة على خريطة الأدب الإسرائيلى، ولم يستطيعوا أن يقذفـوا بأدبـاء اليسـار مـن فـوق كراسى الصدارة، وتنحصر أعمالـهم فى كتابات سواء شـعرية أو روائية ما زالت ترسخ وتدور فى فلك الأدب المجند الذى عفا عليه الزمن، وتأتى أعمالـهم عادة ليس بروح المبادرة، ولكن من خلال الرد الدفاعى على ما يثيره كتاب اليسار مـن قضايا فى نقد أو إعادة تقييم الصهيونية، أو طرح الحلول لإخراج الصهيونية من مأزقها مـتمركزين حـول الشـعارات القديمـة الـتى لم يعد يقبلـها كل من الواقع والزمن التاريخى، ناهـيك عـن أن مؤسسة النقد الرسمية وغير الرسمية فى إسرائيل مازالت فى يد النقاد الذين ينـتمون لليسـار الصهيونى، فلذا فهم لا يحتفون بمثل هذه الأعمال أو الكتابات التى ينشرها الأدبـاء اليمينـيون، وذلك باستثناءات قليلة للغاية لبعض أعمال لأدباء أمثال موشيه شامير وناتان شاحام وغيرهم.

الفصل الثانى

البحث عن صهيونية بديلة فى رواية

(مولخو) لـ " أ. ب . يهوشواع "

مولخو

(الفصول الأربعة)

أثارت رواية "مولخو" (الفصول الأربعة) التي نشرت عام ١٩٨٧ لـ "أ. ب. يهوشواع"[(١)] ردود فعل عديدة لدى الأدباء الإسرائيليين فور صدورها، وتم تفسيرها بوجهات نظر مختلفة ترتبط بالواقع السياسى لدولة إسرائيل تارة، وتبتعد عنه تماماً تارة أخرى، إلا أننا نرى أنها تصب فى الواقع السياسى والاجتماعى لدولة إسرائيل بصورة كبيرة للغاية، لا سيما أنها مليئة بالرموز والإشارات التى تنتقد هذا الواقع الذى خلفته الصهيونية فى الواقع الإسرائيلى بكل مشاكله، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بموجة النقد التى بدأها الأدباء الإسرائيليون مع مطلع الثمانينيات من القرن العشرين ضد الصهيونية. وكان "يهوشواع" فى طليعة هؤلاء الأدباء الذين أمسكوا بدفة هذا الصراع ضد الصهيونية بعدما تفاقمت المشكلات والمعضلات الداخلية والخارجية للدولة، وبدأت عملية مراجعة شاملة ودقيقة لبرامج الصهيونية وأهدافها ونجاحاتها وإخفاقاتها.

ويرى أبراهام بلفان الناقد الإسرائيلى أن "يهوشواع" استمد أحداث هذه الرواية من الواقع حيث كتب يقول: " إن يهوشواع ذكر فى عدة لقاءات معه قصة تلك الصديقة المقربة لزوجته التى توفيت متأثرة بمرض السرطان بعد صراع معه امتد لسبع سنوات، وكانت قصتها هى خلفية لرواية (مولخو). وقد تابع يهوشواع بنفسه ذلك المرض والموت كصديق للأسرة. وكانت المرأة التى توفت من أصل هولندى، بينما كان زوجها من أصل ألمانى. وفى روايته، حوّل يهوشواع الزوجة إلى أصل ألمانى والزوج إلى أصل سفارادى. وهو ما يجعلنا ندقق فى ذلك الاختيار المتعمد، وهو أن يكون الزوج فى الرواية من أصل سفارادى. كما أنه من المستحيل ألا نميز ذلك التشابه الذى يربط بين أوصاف البطل الخارجية - "مولخو" - (عيناه، شعره، غير ذلك) وبين يهوشواع نفسه. فهناك تفاصيل كثيرة خاصة بالسيرة الذاتية لـ "مولخو" ترتبط بالمؤلف (هؤلاء السفارديم القدامى هم جيل خامس بالقدس، الطفولة فى القدس، الحياة فى حيفا، وغير ذلك "[(٢)].

قصة الرواية (عرض مختصر):

تبدأ أحداث الرواية بوفاة زوجة "مولخو" فى الرابعة فجراً بعد معاناة مع مرض السرطان طوال سبع سنوات كاملة، اعتنى "مولخو" بها جيداً طوال هذه الفترة. وبعدها ترتبك بعض الأمور فى المنزل، حيث كان لـ "مولخو" ابنة فى الجيش وطالب فى الثانوية وطفل

(١) أبراهام بيت يهوشواع: "مولخو"، رواية، دار نشر هاكيبوتس همئوحاد، تل أبيب، ١٩٨٧ (٣٤٦ صفحة).
(٢) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، دار نشر هاكيبوتس همئوحاد، تل أبيب، (ص١٧٤).

صغير، وتوصيه الجدة أم الزوجة المتوفاة بالزواج، وهنا تبدأ قصة البحث عن زوجة. وعلى مدار الرواية يلتقى "مولخو" بثلاث سيدات وطفلة تتمركز حولهن قصة الرواية. فكانت "مريم" المستشارة القانونية هى أول السيدات اللاتى التقى بهن "مولخو" عبر مجموعة من الأصدقاء، وكانت أول المرشحات له للزواج، إلا أنه تجاهل هذا الأمر بسبب عقليتها الغربية التى تتشابه مع عقلية زوجته السابقة. ويسافر "مولخو" بعدها إلى باريس، ومن هناك يتجه إلى برلين ويلتقى بالمستشارة مرة أخرى ويقضى معها عدة أيام يذهب خلالها بمفرده إلى حفلات الأوبرا التى تعود عليها خلال فترة زواجه من الزوجة المتوفاة. وفى أحد المطاعم تتهمه "مريم" بأنه السبب فى موت الزوجة المتوفاة، فيقرر بعدها السفر إلى تل أبيب بعد شراء الهدايا لأم زوجته ولأبنائه وأمه.

وكانت الطفلة هى الجولة الثانية فى جولات التقائه بالنساء خلال الرواية، حيث يكلفه رئيسه فى العمل بمهمة رسمية فى مستوطنة " زروعا " بالجليل، وهناك يلتقى بهذه الطفلة الهندية التى ينجذب نحوها، فهى طفلة تبلغ من العمر أحد عشر عاما، فيهتم بها "مولخو" وبشئون قريتها الفقيرة التى يعمل رجالها فى الزراعة، بينما يعمل نساؤها فى إصلاح الأحذية بـ" قريات شمونه " . وكانت هذه الطفلة الشرقية هى الوحيدة التى اهتم بها "مولخو" عبر جولاته النسائية العديدة حيث تفتحت له آفاق المستقبل بعد لقائه بها. وربما يرجع ذلك إلى أصولها الشرقية التى تتوافق تماما مع أصوله الشرقية.

وتمضى أحداث الرواية فيلتقى "مولخو" بـ"يعراه" ، التى تمثل الجولة النسائية الثالثة له فى رحلة البحث عن زوجة مع استعادة الحب القديم الذى تأججت ذكرياته بذهابه إلى القدس موطن رأسه، حيث تعيش أمه هناك، وحيث تتجدد العلاقة العاطفية القديمة بينه وبين "يعراه " زميلة الدراسة. كانت "يعراه" متزوجة من رجل متدين يدعى "أور ى" ، ولم تنجب حتى ذلك الحين وهى فى الثانية والخمسين من عمرها، حيث تعددت مرات الفشل فى الإنجاب. وكانت هى وزوجها ينتميان إلى الدينيين الذين تشغلهم قضية إنجاب الأطفال. ويحدث أن يصحبها "مولخو" إلى مسكنه فى حيفا ويقضيان معا عدة أيام يتجولان خلالها فى المدينة ويعود بعد ذلك زوجها ليأخذها إلى القدس.

وتأتى المحطة أو الجولة الأخيرة فى رحلة البحث، فيلتقى "مولخو"بـ "نينا" تلك الفتاة الروسية التى لم يمض على إقامتها فى إسرائيل سوى تسعة أشهر فقط سئمت خلالها العيش فى هذه الدولة حتى إنها لم تتعلم العبرية، وقررت العودة إلى وطنها الأم. لقد التقى بها لأول مرة عند أم زوجته فى دار المسنات، وبعدها يذهبن إليه فى العمل بوزارة الداخلية لمساعدتهن فى حل مشكلة هذه الفتاة التى يعيقون عودتها إلى وطنها روسيا. فيقوم "مولخو" بمساعدتهن بالوزارة. وتتطور الأحداث وترسله أم الزوجة المتوفاة العجوز فى

مهمة على نفقتها الخاصة، تتلخص فى إعادة تلك الفتاة إلى بلادها أو وطنها. فيأخذها "مولخو" فى رحلة إلى فينا للحصول على بعض الأوراق من السفارة الروسية هناك، تساعدها فى العودة إلى روسيا، وتفشل اللقاءات هناك مع مسئول الوكالة اليهودية. ثم يذهبان إلى برلين، وهناك يتركها فى شرق برلين دون أن يعرف عنها شيئا عائدا إلى الفندق فى انتظارها، ولكنها لم تعد. لقد تركت له رسالة تقول إنها فى روسيا. فيعود بعدها "مولخو" إلى إسرائيل بعد أن علم بمرض أم زوجته واحتضارها. وهكذا تنتهى الرواية و"مولخو" يفكر فى الحرية والنساء وضرورة الحب فى الحياة. لقد تجاوز خلال سنة مسيرة التحرر، وصمد متحدياً ومتمرداً ضد العقلية الغربية. وانتهت الرواية بعزم "مولخو" على الحب. حب من يشاء دون سيطرة أو قيد، حب من يتوافق معه فى البيئة والمكان.

اتجاهات نقد الصهيونية فى الرواية:

إن الصهيونية، بما طرحته من أهداف كحل لما يسمى بالمشكلة اليهودية فى العالم، تعد هى الحركة اليهودية الوحيدة التى تعلقت بها آمال اليهود فى الانعتاق والتحرر وإقامة دولتهم المستقلة، وصهر جماعات اليهود المختلفة فى بوتقة واحدة. ولقد تداخلت الظروف والأحداث فى بلورة هذه الحركة، فكان لها نجاحاتها فى إقامة الدولة وإخفاقاتها التى استفحلت بعد قيام الدولة واسترعت انتباه عدد من الأدباء الإسرائيليين مع مطلع الثمانينيات من القرن العشرين. وفى ذروة المناداة بإعادة كتابة تاريخ دولة إسرائيل، كان لعدد من الأدباء الإسرائيليين دورهم فى نقد الصهيونية وتعريتها وطرح المعضلات التى وقع فيها الصهاينة على الملأ، وتميزت الرواية الإسرائيلية بهذا الدور عن بقية الأنواع الأخرى من فنون الأدب.

ويقول الناقد الإسرائيلى " يوسف أورن " فى هذا الصدد: " ... وفى العقد الأخير (من القرن العشرين)، مع بداية حرب لبنان وانتهاء بالانتفاضة، اشتد نقد الصهيونية فى الرواية الإسرائيلية ووصل إلى ذروته بمطالبة يهوشواع فى روايته (مولخو) بالانفصال عن الصهيونية الكلاسيكية والمراهنة بالأيديولوجية الجديدة التى تصب فى المعطيات الواقعية التى تعيش فيها الدولة والمجتمع الإسرائيلى " [(١)].

لقد صاغ يهوشواع هذه الرواية بأسلوب رمزى، وطرح خلالها الواقع الحقيقى للمجتمع الإسرائيلى المعاش، ذلك الواقع الذى جعل الفرد الإسرائيلى يضع علامات استفهام عديدة حول الصهيونية ومغزى وجودها حتى الآن، لا سيما أنها السبب الرئيسى

(١) يوسف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت باروما هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٩).

فى كثير من المشكلات التى تفاقمت مع مرور الزمن، وأصبحت مع الواقع المعاصر أيديولوجية قديمة تتزايد إخفاقاتها يوماً بعد يوم.

وتأتى هذه الرواية لتطرح أمامنا بلهجة نقدية لاذعة إخفاقات الصهيونية وفشل أهدافها وتأثير ذلك فى المجتمع الإسرائيلى. ويمكننا أن نتبين انتقاد يهوشواع للصهيونية عبر عدة معضلات تؤرّق المجتمع الإسرائيلى، وبخاصة أنه لم يعرض المشكلات فحسب، بل سعى لتصور الحلول فى نهاية الرواية من وجهة نظره الخاصة. وسنعرض هنا لأبرز الموضوعات ودلالاتها حسبما جاءت فى الرواية طبقاً لموقفه من الصهيونية الغربية:

أولاً: العلاقة بين الدولة والصهيونية:

أكد يهوشواع فى كثير من اللقاءات معه على ضرورة التدقيق فى أحداث رواياته وربطها بالواقع الذى يعيشه الإسرائيليون، إذ يقول: " إننى أطلب من قرائى، أيها السادة، أن يقرأو النص الروائى كله بإمعان "، وبمعنى آخر فإن يهوشواع يطلب من القارئ قراءة رواياته قراءة " رمزية " تصب فى الواقع الخارجى والداخلى لدولة إسرائيل.

ومن هنا، يمكن القول، إن يهوشواع يصوغ لنا العلاقة بين (الدولة) و(الصهيونية) فى هذه الرواية، من خلال علاقة تجمع بين (زوج) شرقى و (زوجة) غربية، وهو بذلك يشير إلى "مولخو" السفارادى باعتباره يمثل الشريحة الأكبر من سكان إسرائيل، التى تنتمى إلى ثقافة الشرق، أما الزوجة فهى تمثل الصهيونية التى تبلورت فى كل من شرق أوروبا وغربها.

ويدعو يهوشواع فى هذه الرواية إلى ضرورة انفصال الدولة عن الصهيونية من خلال الانفصال بين زوجين جاءت علاقاتهما المدمرة لتعطى لنا نتائج الربط بين الأيديولوجية الصهيونية الكلاسيكية التى نشأت فى الغرب، وبين واقع الحياة الحالى فى دولة إسرائيل التى أقيمت فى الشرق. وإذا كانت الدولة لم تخرج عن النص المكتوب الذى صاغته لها الصهيونية فى بداية تكوينها، وخضعت خضوعاً تاماً لبرامجها ووسائل تحقيق أهدافها عبر مسيرة من سيطرة الصهيونية الغربية (الإشكنازية)، فإنه يمكننا أن نلخص هذه العلاقة بين الصهيونية الغربية والدولة فى هذه الرواية من خلال مرحلتين:

(١) مرحلة الخضوع (خضوع "مولخو" للعقلية الإشكنازية):

" يتميز الكيان الصهيونى كتجمع من المهاجرين المستوطنين، بكونه فسيفساء من المجموعات البشرية التى تفصل بعضها عن بعض خيوط عرقية وثقافية وغيرها. واليوم وبعد مرور أكثر من خمسين عاماً على قيام هذا الكيان، لا تزال نظرية (بوتقة الصهر) الصهيونية موضوعة على المحك، فى أبعد تقدير، كما كانت على الدوام. ومن أبرز

أشكال التمايزات الاجتماعية فى إسرائيل الانقسام إلى يهود غربيين (إشكنازيم •) ويهود شرقيين (سفاراديم ••) ... ويتجسد هذا الانقسام فى الفجوة الطائفية المسماة (إثنية) أحياناً، التى تفصل بين الطرفين فى مجالات مستوى الحياة والتعليم والعمالة والثقافة والتمثيل على مستوى قمة الهرم الرسمى، السياسى والعسكرى، كما تتجسد فى نمط الاقتراع للكنيست ولرئيس الحكومة، حيث تحصد الأحزاب اليمينية معظم أصوات السفاراديم فى حين تعطى أغلبية الإشكنازيم مرشحى الأحزاب اليسارية أصواتها " (١).

وربما تعود الخصومة بين اليهود الشرقيين والأحزاب اليسارية إلى سيطرة حزب العمل — الذى يمثل صوت اليهود الإشكنازيم ذوى الأصل الأوروبى — على مقاليد الحكم منذ قيام الدولة ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٧٧، وهى فترة لم يحظ فيها اليهود الشرقيون باهتمام مباشر بشئونهم الاجتماعية من قبل الحكومة الإسرائيلية اليسارية على كل المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية والتعليمية، بعكس الاهتمام البالغ بشئون اليهود الغربيين.

" لقد بدأت القرارات التمييزية التى اتخذها المسئولون الإسرائيليون ضد السفاراديم قبل وصول السفاراديم إلى إسرائيل، وقامت على أساس أن الإشكنازيم، باعتبارهم (ملح الأرض) يستحقون أوضاعاً أفضل و(امتيازات خاصة) ... وعلى العكس من المهاجرين (الإشكنازيم) عومل السفاراديم بصورة غير إنسانية فى المعسكرات التى أقامها الصهيونيون فى بلاد المنشأ فى أثناء الانتقال ... ومن هنا كان صوت إسرائيل الطاغى، بصورة لا تكاد تتغير تقريباً هو صوت اليهود الأوربيين الإشكنازيم، بينما صوت السفاراديم هو صوت مخنوق ومطموس إلى حد كبير " (٢).

وتكمن هامشية اليهود السفاراديم داخل المجتمع الإسرائيلى فى اعتقاد اليهود الإشكنازيم بأنهم أصحاب الحضارة الأرقى، على اعتبار أنهم من الصفوة الإسرائيلية وينتمى إليهم قادة الدولة من رواد الحركة الصهيونية التى نجحت فى خلق كيان مستقل لليهود، وعلى اعتبار أن اليهود الشرقيين هم أبناء مجتمعات متخلفة وبيئات غير متحضرة، وليس عليهم سوى الانصياع والخضوع لمن هم أعرق حضارة وأعظم ثقافة.

(•) إشكناز: كلمة تعنى بالعبرية ألمانيا. وهى تطلق على كل اليهود المنحدرين من أصول ألمانية وفرنسية أو أوربية، ويمتد شمول التسمية لتطلق كذلك على يهود أمريكا الشمالية والجنوبية.

(••) سفارديم: صيغة الجمع بالعبرية من الاصطلاح " سفاردى " نسبة إلى " سفاراد " (أسبانيا). وهو اصطلاح يطلق على اليهود الذين أقاموا فى أجزاء مختلفة من شمال أفريقيا (المغرب - تونس - الجزائر - ليبيا) وتركيا وإيران واليونان والبرتغال والهند.

(١) انظر: خالد عايد: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت، العدد (٣٦) خريف ١٩٩٨، (ص ١٠٣).

(٢) انظر: ايلا حبيبة شوحط: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، الصهيونيون من وجهة نظر ضحاياها اليهود، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣٦)، مرجع سابق، (ص ١٠٥ - ١٠٦).

وقد عبر يهوشواع، باعتباره أديباً سفارادى الأصل، عن هذه الورطة أو المعضلة التى تسعى إلى الجمع بين طائفتين يختلفان تماماً عن بعضهما بعضا فى الحضارة والتاريخ والثقافة، مشيراً إلى أن معمل التفريخ الذى شيده الصهيونيون الغربيون وتمخضت عنه دولة إسرائيل فى الشرق وأخضع البيئة الشرقية لمتطلبات الحضارة الغربية لن يستمر طويلاً، وأن الخضوع المرحلى سوف يأخذ وقته، ليعقبه التحرر التام الذى ستفرضه ظروف الواقع والبيئة والمكان.

وقد عرض يهوشواع تلك المعضلة، فى هذه الرواية، من خلال تناول أدبى لطبيعة العلاقة التى تجمع بين زوجين من أصول مختلفة. إن "مولخو" الزوج السفارادى (المولود فى القدس) يخضع خضوعاً تاماً لعقلية زوجته ذات الأصول الإشكنازية (المولودة فى برلين) التى عودّته على الانصياع لها دون مناقشة أو جدال:

" كان سعيداً بتلبية ما تريده وقد عودته على ذلك جيداً فى الشهور الأخيرة واعتاد الانصياع لرغبتها تماماً، والتعامل بجدية مع كل كلمة تصدر عنها "[(١)].

" لقد عرفت زوجته كيف تصدر أوامرها بدقة وتعلمه كيف يعتنى بها "[(٢)].

" سألتها الخادمة ماذا تطهو؟.. واقترحت عدة اقتراحات، وكانت زوجته هى التى تقرر دائماً قائمة الطعام "[(٣)].

" كان يجيب، ليس لدىّ شيئاً لأقوله، فكل شئ متعلق بك، فأنا مجرد شخص أعمل لديك فحسب، وكانت تلك هى الحقيقة "[(٤)].

وهكذا لم يكن لـ"مولخو" أى دور فى الحياة الزوجية إلا أن يطيع وينفذ، فقد كان يشعر بدونيته كرجل شرقى متزوج من امرأة غربية عرفت كيف تروّضه ليستجيب لها حتى إنه يعترف بذلك:

" لقد عودتنى زوجتى على أنها هى المتحدثة، أما أنا فكنت فى الحقيقة أجيب عليها فقط "[(٥)].

" لقد كان "مولخو" شخصاً مستكيناً إلى حد الخضوع لها، حتى بعد وفاتها، وكان إنساناً فقد تحت ضغط زوجته الشديد والمتعاظم صورة هويته المستقلة، وأصبح خاضعا متماهياً معها، يخجل من سفاراديته ويستجيب للانغماس فى الثقافة الإشكنازية من خلال شل فعالية استقلاليته "[(٦)].

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١١).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٧).
(٣) نفس المرجع، (ص٢٨)
(٤) نفس المرجع، (ص١١٠)
(٥) نفس المرجع، (ص٢٣١).
(٦) يوسف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٢٧).

وربما يذكرنا هذا بطفولة يهوشواع، " فقد كان سفارادياً مختلطاً، تحفظ منذ صباه من الطائفة السفارادية، وذلك لضحالتها الثقافية ... وكانت لأمه تقاليد مختلفة عن والده "[1] حيث كانت حريصة كل الحرص على دمج ابنها يهوشواع في مجتمع اليهود الإشكنازيم. " ففي أحد مقالاته يوضح يهوشواع أن أمه لم تنتم للسفاراديم القدامى في القدس، مثل أبيه، وعلى الرغم من أنها جاءت إلى هنا في عام ١٩٣٢ قادمة من المغرب، فإنها لم تكن لديها مشاعر خاصة أو ملزمة تجاه الطائفة السفارادية. فربما كانت ترى أن الطريق الصحيح هو أن توجه أبناءها بشكل عملي ناحية تلك البلاد التي يحيط بها عالم الصهيونيين الإشكنازيم، ومن هنا أرسلت يهوشواع وأخته إلى المدرسة الثانوية (رحافيا) ولم ترسله إلى مدرسة (تحكموني) مدرسة الطائفة السفارادية في القدس "[2].

واستمراراً لهذا النهج لم تترك زوجته له شيئاً يفعله بنفسه، حيث كانت لها مطالب صارمة في العديد من الأشياء، ومنها على سبيل المثال، النظافة التي كان يستجيب لمتطلبات زوجته بشأنها ليحظى بالرضى وبنظرة حب خاصة:

" كانوا مجبرين على الاستحمام يومياً، ليس في دورة المياه، بل في غرفة الاستحمام لأنها المكان الوحيد الذي يضمن طهارة الجسم، وطوال ثلاثين عاماً من زواجه، كان يشك في شئون نظافته. وأدرك مولخو دائماً أنه إذا أراد أن يرضيها فعليه أن يدخل مرة أخرى ليستحم، حيث يحظى بعدها بنظرة حب خاصة "[3].

وكان إحساس زوجته بأنها ربيبة الثقافة الغربية المتحضرة له عظيم الأثر في سيطرتها ونقدها لكل شيء يفعله زوجها. " إنها زوجة غاضبة تنتقد كل شيء، فهي عصبية بصورة دائمة تجاه الخادمة، وتجاه الدولة، والزوج. وكانت تتنبأ بالشر في الموضوعات السياسية، وتنوح على الدولة، كما لو أنها تنوح على إنسان يحتضر "[4].

ويعلق يوسف أورن على ذلك قائلاً: " حافظ مولخو على إخلاصه لزوجته كما تظاهر به طوال سنوات زواجهما، وكذلك خلال السبع سنوات التي مرضت خلالها. لقد سيطرت عليه لسنوات طوال، وعودته على خدمتها، وجعلته يتعود على عاداتها وألزمته

(١) يوسف سيه لافان: " أ. بيت يهوشواع " (أبراهام بيت يهوشواع)، دار نشر أور عم، ١٩٧٣ (ص٥).
(٢) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار ماني " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد ماني)، مرجع سابق، (ص٧).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٨٠).
(٤) شاريت فوكس: " محول هامافيت " (رقصة الموت)، مجلة " عيتون شبعيم فشيفع "، العدد ٨٧، أبريل، إسرائيل، (ص٢٠).

باحترامهـا. وهـا هى الرواية تعرض أمامنا النتيجة: رجل إمعة يحمل بين أمتعته فأراً رمادياً ومتعباً، مــازال مستمراً فى تنفيذ التعليمات الغريبة عليه بشكل استبدادى حتى بعد موت زوجته. فهو مازال يذهب للحفلات الموسيقية وحفلات الأوبرا، ويتبع نظامه اليومى طبقاً لما أملته عليه زوجته قبل وفاتها: يتطيب بالعطور، ويبدل ملابسه الداخلية، ويحافظ على النظافة، ويطبخ فى خضوع تام" (١).

وهكـذا جـاءت هـذه المرحلة لتتسم بخضوع الزوج السفارادى التام للزوجة (الصهيونية الغربيـة) دون الخـروج عـن خط السير ودون مراعاة للواقع والظروف، "وتكشف لنا الفترة الأخيرة فـى حياتهما المشتركة — فترة المرض المزمن — عن أهمية تاريخ آخر، تشير إليها قصـة الـرواية، وهو أن زواج "مولخو" من زوجته قد استمر ثلاثين عاماً، حيث تغطى هذه السـنوات تقريباً سنوات الدولـة (١٩٤٨ـ١٩٧٨)، وهى تلك السنوات التى خرجت فيها الصهيونية من معقل الأيديولوجيات وبدأت تختبر قوتها فى واقع الحياة عندما أخذت الدولة تخضع بشدة لمطالبها التنبؤية، تماماً مثلما كانت تخضع الزوجة المتوفاة زوجها الشرقى لقيمها الغربية" (٢).

(٢) مرحلة التحرر (تحرر "مولخو" من قيود زوجته الإشكنازية):

جاءت وفاة زوجة "مولخو" بمثابة التمهيد لطرح الإنفصال التام عن الصهيونية. وعلى الـرغم من خضوع "مولخو" لروح زوجته بعد وفاتها طوال عام كامل، فإنه نجح فى النهاية فـى الانفصال عنها والشعور بالحرية، ليبدأ رحلة بحث عن زوجة جديدة أو ربما أيديولوجية جديدة بعد سنوات عديدة عاشها فى خضوع وخنوع.

لقـد كانـت لحظـة المـوت نقطة تحول فى حياة "مولخو"، فهى لحظة الحرية التى سينعم بهـا، وكأنمـا يـريد يهواشوع القول بأن التحرر من الصهيونية الغربية وفكرة الانفصال عنها هى أفضل حل للوضع الراهن:

> "تفحـص "مولخـو" الـزوجة المـتوفاة وقـتاً طويـلاً، كمـا لو أن هناك شكــاً فى موتها، فانـتابه الخـوف لـلحظة، خشـية ألا تكـون قـد ماتت وأن تكون قد فقدت وعيها فقط وكان غاضباً من الطبيب الذى جعلـه يتشكك فى شىء ما" (٣).

وهكـذا، استبدت مشـاعر الخـوف بمولخـو، وعمه الغضب خشية ألا تكون قد ماتت. وكـان الشـك فـى موتهـا بمـثابة إشـارة إلى اختلاف الآراء حول رحيل الصهيونية، وتمسك

(١) يوسـف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٢٧).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٧).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع: "مولخو"، رواية، مرجع سابق، (ص٢١).

بعضهم بضرورة وجودها إلا أن يهوشواع أصر على ضرورة رحيلها، لأنه كان يرى أنه لم يعد للصهيونية دور في الحياة، وأن الدولة أهم بكثير:

" كانوا يتوجهون إليها مباشرة عندما كانت على قيد الحياة والآن يتوجه الجميع إليه فقط "(١).

" كانت كل الأعين تتطلع إليه، وترافقه "(٢).

" ... لقد تعلق الأمل به "(٣).

وهكذا، كان موت الزوجة بمثابة أمل جديد في حياة جديدة مختلفة، وعلى الرغم من ذلك، فإنه كان قلقاً وخائفاً أيضاً من المصير:

" بدا موتها بالنسبة له بمثابة شعاع من نور، ولكنه بدا أيضاً كنوع من التهديد بسجنه هنا في البيت بمفرده "(٤).

وهنا يبدو التأرجح الذي وقع فيه "مولخو" بعد موت زوجته، فإذا كان قد شعر بحريته وبدا موتها بمثابة بارقة أمل نحو التحرر الذاتي، فإنه في نفس الوقت كان يخشى من عبء هذه الحرية التي نعم بها، وبخاصة أنه قد ذاب طوال ثلاثين عاماً في المجتمع الإشكنازي الذي تعود عليه وأفقده حريته، ويعلق أبراهام بلفان، على هذا الوضع المتأزم الذي وقع فيه "مولخو" بقوله: " لقد اندفع "مولخو" تجاه المجتمع الإشكنازي، وحاول أن يذوب فيه، ومع هذا، لم يستطع أن يتحول إلى فرد من هذا المجتمع وشعر بالهوة التي تفصله عن هذا المجتمع الإشكنازي ... إنه لم يكن منتمياً، ذات يوم، إلى عالم الإشكنازيم "(٥).

وربما يبدو هذا الأمر وكأنه يتعارض مع تأكيد يهوشواع ذاته على أنه تطلع طوال حياته إلى الابتعاد عن جذوره السفارادية، حيث " تمثل علاقة يهوشواع بجذوره نقطة مهمة في تطور حياته الأدبية، ففي أعماله الأولى لا يوجد مايشير إلى جذوره السفارادية أو إلى السفاراديم أبناء الاستيطان اليهودي القديم في القدس. وعلى الرغم من اعتراف يهوشواع بأنه تطلع طوال حياته إلى الابتعاد عن جذوره ليبقى أديباً (إسرائيلياً) فحسب، فإن سفاراديته بدأت تحتل مكانة بارزة في أعماله الأدبية منذ روايته (العاشق) ١٩٧٧ فصاعداً "(٦)، وربما يعود ذلك إلى صعود اليمين الصهيوني للحكم في إسرائيل بعد أن

---

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٢).
(٢) نفس المرجع.
(٣) نفس المرجع، (ص٢٤).
(٤) نفس المرجع، (ص٣٤).
(٥) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار ماني "، مرجع سابق، (ص٨، ٩).
(٦) جرشون شاكيد: " سفروت آز – كان – عخشاف " (أدب الماضي والحاضر) دار نشر زمورا بيتان، تل أبيب، ١٩٩٣، (١٥٣-١٥٤).

تحول السفاراديم إلى أغلبية وتحسن الوضع الاجتماعي والثقافي للسفارادية بعد الانقلاب الذي حدث في انتخابات ١٩٧٧ .

كما يعلق شاكيد عن حالة الاندماج واللا اندماج الذي وقع فيها "مولخو" في هذه الرواية بقوله: " يمكن القول، إن يهوشواع، حقاً، (تعود جذوره إلى الطائفة السفارادية)، ولكنه يصوغ لنا شخصية من نفس الطائفة بسخرية بالغة، ولم يستطع يهوشواع أن يقوّم الانقسام الداخلي الذي يعيشه ما بين جذوره وجذور أبطاله السفاراديم وصراعهم مع ما يحيط بهم. لقد ظل بطله المندمج سفارادياً بائساً، لم ينجح في الاندماج ليصبح إشكنازياً، ويعيش بؤسه وضحالته. وربما هناك شبه اعتراف من المؤلف في هذه الرواية، بأن البطل على الرغم من نزوعه للعالم الإشكنازي، فإنه ليس على استعداد أن ينفض عنه غبار هويته التي تلاحقه في كل مكان حتي ولو حاول الهروب منها " [(١)].

ويشير " شاليف " كذلك، إلى الوضع المتأزم الذي وقع فيه "مولخو" لحظه الموت بقوله: " كان "مولخو" لحظة موت زوجته كمن ألقى على عاتقه مهمة مزدوجة ومستحيلة على مايبدو. فمن جانب، حكم على نفسه أن يحيي ذكرى زوجته المتوفاة بشكل دائم، تلك الزوجة التي لم تجعله يعرف طعماً للراحة حتى عند موتها... فطوال ثلاثين عاماً من الزواج كانت تعرقل تقدمه كشخصية مستقلة ذات هوية ... ومن جانب آخر، فإن "مولخو" يحاول أن يعطى مضموناً لذلك الإحساس الغامض بالحرية التي كانت بالنسبة له (شعاعاً من نور، وخوفاً من الوحدة) " [(٢)]. وهو ما أكد عليه يهوشواع، حيث أصبح للحياة بعد موتها طعم آخر، وبدأ جو ساحر يدب في الحياة:

" غمر القمر سريره، وبدت نجوم جديدة وهائلة في الأفق. وفي منتصف الليل أدار سريره ليكون في مواجهة النافذة لكي ينظر إلى تلك السماء الرائعة " [(٣)].

" لقد أراد أن يثبت لها بأنه حظى فعلاً بحرية جديدة، وأن المعايير تغيرت قليلاً " [(٤)].

لقد عانى "مولخو" طوال سنوات زواجه من القيود التي كبّلته بها زوجته، تلك القيود التي لم يستطع الفكاك منها. أما الحرية التي حظى بها هي حرية غالية قد يستطيع من خلالها أن يثبت ذاته وهويته التي طمست طوال ثلاثين عاماً من الزواج، وبخاصة أن

(١) جرشون شاكيد: " سفروت آز – كان – عخشاف " (أدب الماضي والحاضر) مرجع سابق، (ص ١٥٥).
(٢) عانار شاليف: "مولخو أوو شقيعات هامعراف " (مولخو أو غروب الغرب)، مجلة سيمان قريئاه، العدد ٢٠ للمحرر مناحم بيرى، ٢٠ مايو ١٩٩٠، (ص٤٧٥).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٤٤).
(٤) نفس المرجع، (ص١٣٤).

زوجته كانت تتمتع بروح نقدية عالية للغاية، حتى إن "مولخو" أخذ يتساءل فى نفسه، هل تنتقد الأرواح أيضاً وهى فى العالم الآخر؟:

" . . هل استراحت روحها حقاً وأصبحت هادئة ومستكينة؟ وهل توقفت حقاً ملاحظاتها حول العالم؟ وتوقف نقدها الذى لا يعرف المساومة؟ أم أنها تتجول هناك أيضاً فى العالم الآخر؟ وتنتقد نظم الأرواح والسماء؟ "[(١)].

ومن ناحية أخرى، يؤكد " بلفان " على أن المواجهة بين "مولخو " وزوجته هى مواجهة مزدوجة، حيث يقول: " إن المواجهة بين "مولخو" وزوجته مواجهة تحتمل اكثر مما نعتقد جميعاً. فعل ما يبدو، فأمامنا صدام معروف بين شخصية تمثل الطبيعة، هذا من جانب، وبين شخصية تشير إلى الحضارة أو الثقافة، من جانب أخر. ولم يكن "مولخو" شخصية بسيطة فحسب، بل هو شخصية اجتثت من جذورها بسعيها للعيش داخل هذا العالم (الثقافى) "[(٢)].

ومن هنا كان تحرر "مولخو" من تسلط زوجته، فى حقيقة الأمر، تعبيراً عن تحرر الدولة من الصهيونية الغربية التى حددت لها المكان والزمان، حيث حان الآن وقت التغيير والتحرر وأصبح على "مولخو" (الدولة) أن يحدد بنفسه مصيره فى الزمان والمكان:

" كانت زوجته تعرف كيف تحدد الأماكن، وتربطها بزمنه وزمنها، لقد كانت تدرك كيف تقول له أين كان، فعلاً، وأين يتخيل بنفسه ما كان، أما الآن فيجب عليه أن يحدد بنفسه هل كان هنا ومتى؟ "[(٣)].

" إنه منذ هذه اللحظة يسير إلى حيثما يريد، دون أن تستطيع أن توقفه "[(٤)].

وعلى سبيل المثال، تحرر "مولخو" من قيود عديدة فرضتها عليه زوجته قبل مماتها، حيث كانت تمنعه من النوم عند الغرباء. وبعد موتها، تحرر من تلك التحذيرات، وأصبح يفعل ما يشاء:

" اندهش، إنها لم تكن تحب أن ينام فى بيوت الغرباء، ومنذ موتها كان ذلك هو البيت الثانى بالفعل الذى نام فيه "[(٥)].

وقد تمنى مولخو أن تعود زوجته للحياة لترى كيف أصبح إنساناً آخر، يعتمد على نفسه، ويشعر بالحرية، ولديه من القوة ما يمكنه من مصارحتها بفشلها:

---

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١٣٩).
(٢) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص٨٩).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١٤٦).
(٤) نفس المرجع، (ص١٥٣).
(٥) نفس المرجع، (ص١٧٣).

" لـو جـاءت الآن لكـان ردى علـيها مذهـلاً، لدرجـة أنهـا سـوف تعترف أننى تطورت بعض الشىء منذ الشتاء الماضى "[1].

وربما تشير أيضا تلك العلاقة التى جمعت بين "مولخو" (السفارادى) وزوجته (الإشكنازية)، طوال ثلاثين عاماً من الزواج، إلى سيطرة حزب العمل على مقاليد السلطة فى إسرائيل منذ ١٩٤٨ وحتى ١٩٧٧، حيث تأججت الخصومة، كما أشرنا من قبل، بين اليهود السفاراديم وحكومة اليسار الإسرائيلى التى أهملت تماماً شئون الطائفة اليهودية السفارادية على كل المستويات الاجتماعية والتعليمية، بعكس اهتمامها باليهود الغربيين. وعلى سبيل المثال، كانت حادثة أطفال يهود اليمن خير معبر عن مدى عمق هذه الكراهية بين حزب العمل وبين اليهود السفاراديم، حيث اختطف أطفال هؤلاء اليهود اليمنيين (•) إبان هجرتهم فى الخمسينيات إلى إسرائيل، ليعيشوا فى بيوت أسرية اشكنازية، مما يشير إلى النظرة الفوقية من قبل الحكومة، خلال تلك الفترة، لليهود السفاراديم. وربما يأتى تحرر "مولخو" من قيود زوجته، كتعبير عن تحرر هؤلاء السفاراديم من حكم اليسار الإسرائيلى طوال ثلاثين عاماً، وصعود اليمين الصهيونى للحكم الذى اهتم، إلى حد ما، بشئون هؤلاء اليهود السفاراديم، وبما يعنى، فى مقابل هذا، أيضاً تحرر (الدولة) من قيود (الصهيونية الغربية) التى تفاخر بها اليسار الإسرائيلى حتى عام ١٩٧٧. وهو ما يعلق عليه أبرا هام بلفان قائلاً: " كان التطور التاريخي للحركة الصهيونية يكمن فى العديد من المواقف التى شغلت بال يهوشواع طوال سنوات عديدة. وبقى السؤال: هل كان فى مقدور الحركة الصهيونية أن تتقبل النقد فى السنوات العشر الأخيرة – يقصد السبعينيات والثمانينيات ـ الذى ظهر فى الكتابات القصصية والنقدية ليهوشواع "[2].

وهكذا، يتعرض يهوشواع للعلاقة بين الدولة والصهيونية عبر مرحلتين من الخضوع والتحرر حاول من خلالهما أن يوضح لنا حال الدولة فى أثناء الخضوع والسير على درب الصهيونية دون مراعاة للواقع والظروف التى تمر بها الدولة، وحال الدولة عند التحرر. وكأنه يريد أن يكون للدولة هوية مستقلة تستلهمها من الواقع وما يفرضه دون التشبث بشعارات جوفاء ووعود رنانة لم تتحقق حتى الآن. ولن تأتى هذه الهوية سوى بالتحرر كتمهيد للبحث عن بديل والانفصال التام عن الصهيونية الكلاسيكية.

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٣٢٢).

(•) يرجح بعضهم أن حقيقة كون " ييجال عامير "، قاتل رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق يتسحاق رابين، يأتى من الجالية اليمنية لا تبدوا أمراً عرضياً. فعامير يدعى أنه قتل رابين كى يحول دون تنفيذ اتفاقات أوسلو، لكن ما عمق كراهيته لرابين، على مايبدوا، هو غضب اليمنيين القديم نتيجة خطف الأطفال.

(٢) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص١٠ـ١١).

" لقد ذكرت الحرية التى حظى بها مولخو عند موت زوجته فى الرواية مرات كثيرة للغاية ... وكانت الحرية، بمعنى الخروج عن الطوق، هى موضوع رئيسى فى عدد من أعمال يهوشواع " [١]، وبخاصة أن يهوشواع يبحث عن هوية (إسرائيلية) مجردة من التمييز الطائفى بين الإشكنازيم والسفاراديم، مجردة من خضوع من للطرف الآخر؟، وهى حقيقة ربما أدركها يهوشواع لكونه سفارادى الجذور، فموقف اليهود السفاراديم من الصهيونية معروف، لأن جذورهم مغروسة فى هذه الأرض، بعكس الإشكنازيم المهاجرين إليها، وهو ما يتحدث عنه شاكيد بقوله: " إن العلاقة التى تربط اليهود السفاراديم بإسرائيل وبالمشروع الصهيونى، تختلف عن تلك العلاقة التى تجمع بين اليهود الإشكنازيم والصهيونية. فالمبدأ الأساسى لدى هؤلاء اليهود السفاراديم لم يكن الصهيونية ذاتها بل فلسطين ...أما اليهود الإشكنازيم فهم أصحاب الإنجاز ويشعرون بقوة الصهيونية ... ولكن جذور اليهود السفاراديم مغروسة فى تلك الأرض حتى وإن كانوا بعيدين عنها " [٢].

ثانيا: تحطم بوتقة الانصهار (فشل الصهيونية فى تجميع الشتات اليهودى داخل إسرائيل):

سعت الصهيونية منذ البدايات الأولى لظهورها إلى هدف تجميع شتات اليهود فى وطن قومى، ورفعت شعار بوتقة الانصهار التى ستذوب فيها جموع اليهود المختلفة فى هذا الوطن الجديد، ولم تضع الصهيونية، آنذاك، فى الحسبان الثقافات اليهودية المختلفة التى تأثر بها اليهودى فى أثناء وجوده فى البلد التى عاش فيها، وواجهت بعد قيام الدولة معضلة تمثلت فى اختلاف الأجناس والعادات وتمسك كل يهودى بما اكتسبه فى البلد الذى عاش فيه مرحلة طويلة من عمره؛ مما أدى إلى صعوبة التجانس والتكيف بين اليهود داخل إسرائيل، الأمر الذى جعل مقولة "بوتقة الانصهار" تسقط سقوطاً مروعاً وتتحطم مع البدايات الأولى لقيام الدولة.

ويعبر أ. ب. يهوشواع فى كتابه (بفضل الطبيعية) عن موقفه من الشتات الذى أصبح مصدر المشكلات بعد قيام الدولة بقوله: " تعتبر قضية الشتات من أهم القضايا وأعمقها، لا سيما وأنها تفرض على اليهودى أن يسأل نفسه، عندما يضل به الطريق، عن ماهية الشعب اليهودى. فالشتات هو مصدر المشكلات التى يتخبط فيها اليهود منذ أجيال عديدة، وبخاصة فى المائة عام الأخيرة (القرن العشرين). وهو أيضاً لب المشكلات الحقيقية التى تتخبط بها دولة إسرائيل فى الحاضر " [٣].

(١) يديديا يتسحاقى: " هابسوقيم هاستوييم من هاعيين عل يتسيراتوه شل يهوشواع أوشلوشاه سيبوريم " (ما خفى فى انتاج يهوشواع وثلاث قصص)، دار نشر جامعة بار ايلان، تل أبيب، ١٩٩٢، (١٩١).
(٢) جرشون شاكيد: "سفروت از - كان - عخشاف" (أدب الماضى والحاضر)، مرجع سابق، (ص١٥٧).
(٣) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص٢٧-٢٨).

وعلى هذا الأساس، نظر " يهوشواع " إلى الحركة الصهيونية كحدث تاريخي يقف عند حد إقامة الدولة، ولم ينجح فى تحقيق هدف تجميع الشتات اليهودى داخل إسرائيل، " إذ إن ثلاثة أرباع اليهود مازالوا يعيشون خارج حدود الدولة " [1]، كما أن الصهيونية لم تنجح فى صهر اليهود المتجمعين داخل الدولة، حيث يقول: "إننى أظن أن الهدف الأساسى للصهيونية قد انتهى. فأنا لا أرى فى الصهيونية أيديولوجية كاملة، أو نهجا حياتيا شاملا، أو فلسفة اجتماعية خاصة، بل هى أولاً وقبل كل شيء عملية تاريخية خاصة؛ كان هدفها تحقيق الطبيعية مهما كانت كحل للمشكلة اليهودية عن طريق تمركز جزء من الشعب اليهودى بشكل إقليمى فى دولة خاصة بهم " [2].

وقد عبر يهوشواع فى هذه الرواية عن إبراز الظواهر التى تمخضت عن فشل الصهيونية فى صهر جموع اليهود داخل إسرائيل. باعتبار أن الهدف الأسمى لتلك الحركة كان هو صهر اليهود فى مجتمع جديد، مجتمع يهودى ذى سمة عبرية خالصة تذوب فيه كل المشكلات والمحن، إلا أنها لم تنجح فى ذلك، وهو الأمر الذى جعل المجتمع الإسرائيلى مكدساً بآفات الاختلاف بين طوائف اليهود فى العالم، وتعرت الحقيقة كاملة أمام الفرد الإسرائيلى الذى أخذ يتساءل عن مدى تحقق وعود الصهيونية فى الواقع الحياتى. وقد عبر يهوشواع عن هذه المظاهر السلبية فى النقاط التالية:

(١) النزوح عن إسرائيل:

عبر يهوشواع عن مسألة النزوح عن إسرائيل وتأصل الشتات فى النفس اليهودية من خلال شخصيه "نينا" ؛ تلك المهاجرة الروسية التى لم يمض على إقامتها فى إسرائيل سوى تسعه أشهر فقط، لم تتأقلم خلالها على الحياة فى إسرائيل، وأصرت على العودة إلى وطنها الأم روسيا.

ولكون الشتات طبيعة متأصلة فى النفس اليهودية، كما يقول يهوشواع فقد جاءت معظم شخصيات هذه الرواية لتتفق مع مبدأ العودة إلى الوطن الأم، وساعد الجميع هذه الفتاة على العودة إلى وطنها؛ لتنجح فى النهاية، معبرة عن ذلك الواقع المؤلم الذى يعيشه المجتمع الإسرائيلي، ومعبرة عن تحطيم مبدأ (عدم العودة إلى بلاد الشتات) الذى أقرته الصهيونية.

---

(١) مناحم برينكر: "احارى هاتسيونوت" (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، ١٩ـمارس–١٩٨٦ (ص٢١).

(٢) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت " (أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص٩٦).

" فقد كان للصهيونية مبدأ مقدس وهو: عدم العودة أبداً إلى بلاد الشتات. حيث كانت تعبر فى أيديولوجيتها عن ذلك المبدأ فى التخلص من (خطأ الشتات). ويكمن مركز الثقل فى هذه الرواية، فى أنه من أجل الحياة، ومن أجل استمرارية قيام الدولة كدولة طبيعية، لابد وأن تقاد طبقاً للإمكانيات الواقعية، ومن أجل كل ذلك يجب تحطيم هذا (المبدأ) واستغلال نتيجة تحطيمه، أولاً ضد هذه الأيديولوجية نفسها، ثم يتم بعد ذلك استبعادها عن الدولة " [(١)].

إن يهوشواع ينظر للشتات نظرة خاصة، ويؤكد دائما على أنه حالة متأصلة فى النفس اليهودية، يشتاق إليها كلما ابتعد عنها:

" بدأ يشتاق للأيام الماضية، وملأت الأشواق قلبه بحرارة. لأن كل شئ انتهى الآن ورفع ديكور المسرح، وترك جمهورالأصدقاء القاعة، وتحول المسرح إلى كومة من الأخشاب، وبدا الزمن أمامه خرباً ومرهقاً " [(٢)].

وهكذا، حاول يهوشواع على لسان القاص، فى الرواية، أن يفرق عن طريق الرمز بين الشتات وبين الواقع الذى يعيشه الفرد فى إسرائيل (كل شيء انتهى الآن)، بينما يبدو المستقبل خرباً مرهقاً. ويقول يهوشواع عن تأصل الشتات فى النفس اليهودية: "على الرغم من أن الشتات وضع مذل ودنئ ولم يأخذ أبداً شرعية حقيقية مثل أى وضع قائم ... فإنه يعد من المبادئ الأساسية للغاية التى تشكل جوهر الشعب اليهودى، فهو يتواجد فى النويات والذرات التى تبنى هويتنا النفسية والوجودية. وهو جزء منظم من أساطيرنا القومية. فضلاً عن أنه ليس حالة عابرة بل هو حالة داخلية اختارها الشعب ويشتاق إليها دائماً " [(٣)].

ومن هنا كان النزوح عن إسرائيل وتفضيل الشتات على العيش فيها، أمراً يحلو لعدد غفير من اليهود، وإذا كان هؤلاء اليهود الذين يعيشون خارجها يفكرون فى أمر إسرائيل فإنهم يترددون فى الهجرة إليها. ويكشف عن هذا الأمر، ذلك الحوار الذى دار بين "مولخو"، وهو فى باريس مع أحد أصدقائه الأطباء الذى يبين لنا نظرة اليهود الذين يعيشون خارج الدولة:

" بحثوا هناك معه حال الدولة وآمالها بصفة عامة، وكان الطبيب يكرر بنوع من الغضب غير الواضح سؤالاً هو، هل تريدون الانتحار فى النهاية " [(٤)].

---

(١) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٣١).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٤٨).
(٣) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص٤١).
(٤) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٨٠).

وتتكرر مشاهد النزوح في الرواية :

" كانت تلك أسرة شرقية، عالية الصوت إلى حد ما، تحمل معها الكثير من الحقائب والصناديق. فهل هؤلاء نازحون؟ "(١).

وهكذا، يؤكد يهوشواع على فكرة النزوح عن إسرائيل في إشارة إلى ما يواجهه المهاجر اليهودي من مشكلات داخلية تجعله يفر وينزح عن المجتمع الإسرائيلي عائداً إلى وطنه الأم الذي عاش فيه وتربى على تقاليده. ويتضح موقف يهوشواع من الشتات بصورة واضحة ومباشرة، فإذا كانت الصهيونية قد هدفت إلى إقامة وطن أو ملجأ آمن للجماعات اليهودية ونجحت في ذلك، فإن المشكلة الكبرى التي واجهتها هي عدم مجيء معظم هؤلاء اليهود من بلاد الشتات، مما يثبت فشل الصهيونية. ويفند يهوشواع تلك المسألة بقوله: " هناك ضرورة لأن نصف بدقة مواقف الصهيونية وأهدافها. فأنا أرى أن الصهيونية تعني إقامة ملجأ آمن لليهود وليس بالضبط العودة إلى الوطن القديم ... لقد تسلل الإحباط إلى عدد كبير من اليهود بعد وعد بلفور، بعد أن رفض عدد كبير من اليهود المجيء إلى فلسطين على الرغم من قدرتهم على الهجرة... إن الأسطورة القومية، وشعارات الوطن القديم، وإسرائيل الكبرى، وأرض الآباء، كل هذا لم يأت لنا بكثير من اليهود، فلولا الحاجة الملحة في إيجاد ملجأ يقي اليهود من المحرقة(•) لما جاء هنا شخص واحد ولهذا فإنني لا أؤمن بالحق التاريخي لليهود في أرض فلسطين كمبرر وحيد للصهيونية "(٢).

" وتعطينا الإحصائيات الإسرائيلية الرسمية فكرة واضحة عن عدد الذين هاجروا من إسرائيل ؛ ففي الفترة المحصورة بين ١٩٤٨ -١٩٨٦ بلغ عدد النازحين من إسرائيل ١٢٩ ألف نسمة. وتشير إحصائيات المكتب المركزي في إسرائيل إلى أن عدد الذين غادروا إسرائيل منذ ١٩٤٨ إلى ١٩٧٠ وصل إلى ٢٠٠ ألف يهودي "(٣). كما وصل عدد الإسرائيليين النازحين من إسرائيل في عام ٢٠٠٢، حسب آخر الإحصائيات الواردة من إسرائيل، إلى ١٨ ألف نسمة، وذلك بسبب الوضع الأمني الذي خلفته الانتفاضة الفلسطينية والعمليات الاستشهادية التي يقوم بها النشطاء الفلسطينيون رداً على العمليات العسكرية الإسرائيلية التي تنفذها قوات الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة(٤).

---

(١) نفس المرجع، (ص٨٥).

(•) المحرقة: من المصطلحات التي تطلق في الفكر الصهيوني على(أحداث النازي)، التي أباد فيها هتلر عددا من اليهود في أفران الغاز. وحول هذه الأحداث يدور سجال واسع بين النقاد والمفكرين بشأن عدد هؤلاء اليهود الذين أبيدوا، والأسباب التي أدت إلى هذه الأحداث.

(٢) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت " (أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص١٠٠ـ١٠١).

(٣) د. محمد خليفة حسن: الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الديني اليهودي، مرجع سابق، ص (١٩).

(٤) انظر: صحيفة الرياض السعودية، ٢٩ـ١ـ٢٠٠٣.

وعلى الرغم من أن الصهيونية أرست مبدأ عدم العودة إلى بلاد الشتات مرة أخرى، إلا أن "مولخو" فى هذه الرواية يحطم هذا المبدأ ويتحرر منه:

" أخذ يفكر فى زوجته ... **تلك التى** أرست مبدأ أنها لن تعود إلى ألمانيا أبداً، وبقدر ما كان **يحترم مبادءها فى حياتها**، بقدر ما حرره موتها " [1].

لقد كان إيمان يهوشواع **بالطبيعية، طبيعية** وجود الإنسان فى بيئته ومكانه الحقيقى، سبباً فى بلورة قضية النزوح عن إسرائيل من خلال فتاة تبلغ من العمر ٣٢ عاماً قررت وأصرت على العودة إلى وطنها بعد أن فشلت فى التأقلم مع مجتمع هذه الدولة، وهو ما يبين لنا فشل الصهيونية فى صهر اليهود المشتتين داخل إسرائيل فى بوتقة واحدة: "لقد ميّز على الفور ابنة هذه العجوز الروسية، تلك التى تخلق المتاعب، ولا تريد التأقلم فى مركز الاستيعاب وترغب فى العودة إلى الاتحاد السوفييتى " [2].

ويصور لنا يهوشواع نفسية هذه الفتاة التى لم تعد تطيق العيش فى إسرائيل فحسب، بل إنها لم تتعلم العبرية لغة الدولة، وهو واقع مرير يبين لنا كيف أن فتاة يهودية لا ترغب فى معرفة العبرية، كتعبير عن رفضها للاندماج فى الواقع الثقافى والاجتماعى للدولة:

" إنها لا تكاد تعرف العبرية تقريباً، ولا كذلك الإنجليزية أوالفرنسية، وهى تتمتم فقط بكلمات غريبة، وتسخر من نفسها، روحها عالية للغاية، وقد بدت لها السماء عبر النافذة المفتوحة زرقاء للغاية " [3].

" لم يكن لديها استعداد للنطق بكلمة عبرية واحدة " [4].

ولم يكن هذا فحسب، بل إنها تريد التخلى عن الجنسية الإسرائيلية، فقد كانت تحمل معها استمارة التنازل عن الجنسية الإسرائيلية ضمن الاستمارات الأخرى:

" كانت هناك استمارة للحصول على جواز سفر، وأخرى للتخلى عن الجنسية الإسرائيلية " [5].

وهكذا، اصطدمت تلك الفتاة بالواقع الحقيقى الذى خلّفته الصهيونية ولم تستطع التأقلم مع أقرانها. وحاول يهوشواع التأكيد على حقها فى العودة إلى وطنها الأم من خلال وصفه لها وهى تحمل كل أوراقها بوزارة الداخلية التى يعمل بها "مولخو"، ومن خلال مصاحبة أمها وأم زوجته (زوجة "مولخو" المتوفاة) لها وهى تتنقل من مكان لآخر، ومن خلال مساعدة "مولخو" لها فى استكمال أوراقها. لأنه كان مؤمناً بحقها فى العودة وإصرارها عليها:

---

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١٠٢).
(٢) نفس المرجع، (ص١٧٩).
(٣) نفس المرجع، (ص١٧٩)
(٤) نفس المرجع، (ص٢٥٧).
(٥) نفس المرجع، (ص٢٥٧).

" وقال دون تذمر أو نقد، إننى أرى أنها بالفعل مصرة على العودة إلى هناك "[1].

" عـاد مـن هناك وهو يحمل استمارات أخرى، وأجلس النساء الثلاث من حولـه لكـى يـنجز لــهن كـل شـىء بسـرعة، ويجعل الموظفين يختمون الاستمارات قبل الذهاب إلى بيوتهم "[2].

وتعـد مسـاعدة "مولخـو" لــهن بهـذه الـهمة، بمثابة موافقة ضمنية منه على النزوح عن إسـرائيل، كمـا أن أم زوجته تلقى عليه بمهمة، " اتضح بعد ذلك أنها مهمة غريبة للغاية: وهـى إعـادة "نيـنا" المهاجـرة الجديـدة مـن أوربـا (وبالتحديد: من روسيا التى وصل منها القـائمون عـلى الصـهيونية) إلى المكـان الذي هاجرت منه إلى هنا "[3]، كما أن "وطنها هو ذلـك المكـان الـذي تشـعر فـيه بأنـه وطنها، روسيا بالطبع، وهو ذلك المكان الذي تشعر فيه بالحب... فالوطن خيار وليس نزعة مقحمة "[4].

ويـرى أبـراهام بلفـان أن مسـاعدة "مولخو" لـتلك الفـتاة، ربمـا يعنى تحرره نهائياً من زوجته، وربما يعنى أيضاً إعادة زوجته المتوفاة إلى وطنها الأم، وبخاصة أنه يعيدها عن طريق بـرلين الموطـن الأصلى للفقيدة، حيث يقول: " لقد شعر "مولخو" أنه بعودة تلك اليهودية الروسية إلى وطنها عن طريق برلين، إنما هو يعيد زوجته إلى وطنها ويتحرر منها نهائياً. فلم يعنـيه أن يقـيم معهـا أيـة علاقـة عاطفـية أو جنسـية، بقـدر مـا كان يعنيه مصلحته النفسية الواضحة فى الانفصال عنها "[5].

وبالإضـافة إلى هـذا، فإن موافقة "مولخو" وتطوعه لمصاحبة هذه الفتاة في رحلة العودة إلى وطـنها، هـى محاولـة لـنفض غـبار العقليات الإشكنازية التى تعلق بها. أضف إلى ذلك مسـاعدة وموافقـة كـل من أمها وأم زوجته على هذه العودة؛ وهو ما يؤكد عليه " أبرا هام بلفـان "بقولــه: "وهكذا، عندما تمكن "مولخو" من مساعدة "نينا" في العودة إلى وطنها، كمـا لـو أنـه (يـنزح) تلـك الفـتاة إلى مكانهـا الحقـيقى. وهو بذلك يعيد زوجته إلى وطنها وينفض عنه حملاً ثقيلاً ... علاوة على أنه لم يعرف الدوافع الحقيقية وراء مساعدته التطوعية لــ"نيـنا"، ولكـنه كـان يدرك تماماً ضـرورة عودة زوجتـه إلى الـوطن الذى تربت فيه قبـل هــروبها مـن بـرلين "[6]. إنـه لم يسـتطع إعـادة زوجته قبل وفاتها بحكم سيطرتها عليه، ولكنه الآن يعيد تلك الفتاة بعد أن ظلت حائرة تسعة أشهر فى إسرائيل:

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٥٧).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٥٧).
(٣) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٣١).
(٤) شاريت فوكس: " محول هامافيت " (رقصة الموت)، مرجع سابق (ص٢١).
(٥) أبـراهام بلفـان: " مـار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص٩٩).
(٦) أبـراهام بلفـان: " مـار مولخـو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص٢٠٣-١٠٤).

لقد ظلت هنا تسعة أشهر تقريباً، ومازالت حائرة "(١).

وقد قامت أم الزوجة المتوفاة بدورها، وأنفقت على رحلة العودة من مالها الخاص، وهو دليل على اقتناعها التام بموقف هذه الفتاة بحتمية العودة إلى وطنها الحقيقى، ودليل على اعترافها بفشل عودة الشتات اليهودى إلى إسرائيل كما كانت تهدف الصهيونية :

" أعطت العجوز له ثمانمائة دولار لتغطية نفقات هذه الرحلة "(٢).

ويمكن القول، إن تحطم بوتقة الانصهار يبرز هنا فى هذه الرواية فى صورة ساخرة جاء بها يهوشواع بنفسه، ويتضح ذلك خلال ذلك الموقف الذى يتحدث فيه إسرائيليان بلغة الإشارة، حيث إن عدم معرفة "نينا" للغة العبرية، جعلت "مولخو" يتحدث معها طوال رحلته بلغة الإشارة. إنها بلا شك سخرية وإشارة للواقع الذى تعيشه إسرائيل، فأبناء مجتمعها لا يتحدثون لغة واحدة، وتصبح لغة الإشارات أحياناً هى المحك الرئيسى عندما يتطلب الموقف ذلك، وهو ما يعكس الفشل الذريع للصهيونية التى تحدثت كثيراً وبمبالغة كبيرة عن الوطن القومى اليهودى كبوتقة صهر ليهود العالم :

" شرح لها، بلغة الإشارة، هامساً كيف تستخدم الصنابير المختلفة "(٣).

وكان لعدم وجود لغة مشتركة بينهما، وهما إسرائيليان، مشكلة كبيرة بالنسبة لـ"مولخو" ؛ فهو لا يعرف الروسية، وهى لا تعرف العبرية، حتى إننا نجده يستعين بموظف الاستقبال بالفندق لترجمة ما يريده لها، ويحاول استعارة قاموس عبرى – روسى. وكانت صعوبة الحديث بينهما سبباً فى اختفائها عدة مرات دون أن يعرف لها طريقاً :

" اتجه إلى الموظف وسأله عن إمكانية أن يستعير قاموساً عبريا روسيا ... لقد اختفت دون أن أعرف طريقها، فاليوم اختفت وأنا فى صالون الحلاقة حتى وجدتها ... واتجه إليها الموظف وترجم لها كلام "مولخو" "(٤).

ولم تعرف هذه الفتاة خلال فترة وجودها فى إسرائيل سوى كلمة واحدة فقط بالعبرية هى كلمة (سيئ) مما أدهش "مولخو" لمعرفتها بهذه الكلمة. إنها لم تستطع أن تتعلم من العبرية سوى هذه الكلمة، ربما لتعبر عن سخطها على المجتمع الإسرائيلى، ذلك الواقع الذى زرعت فيه عن دون رغبة :

" لقد فاجأته بكلمة لم يتصور أنها تعرفها وهى كلمة سيئ، قالتها بابتسامة باهتة، سيء للغاية "(٥).

(١) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٧٢).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٧٥).
(٣) نفس المرجع، (ص٢٧٦).
(٤) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٩٠).
(٥) نفس المرجع، (ص٢٩٢).

أضف إلى ذلك، أنها لم تشعر بالإسرائيليين كأبناء لوطنها، بل إن الروس فقط هم أبناء وطـنها الأم، وهو ما يتضح من شعورها فى أثناء دخولـها لمطعم مقابل للسفارة الروسية فى فيينا، كان يمتلئ بالموظفين الروس:

" امتلأ وجهها حماساً، لقد هزها ذلك المنظر الذى يجمع أبناء وطنها وهم يحيطون بها " [1].

وقد بذل "مولخو" قصارى جهده خلال رحلة العودة لـهذه الفتاة من أجل إعادتها إلى وطـنها، ولم يـتردد لحظـة فـى مسـاعدتها، بـل كان يتدخل فى الحديث بينها وبين موظفى السفارة فى فيينا حتى لا يجبرها أحد على العودة إلى إسرائيل مرة أخرى:

" ولكـن "مولخـو" لم ييأس، فقد خاف من نجاح ذلك الموظف الواثق من نفسه للغاية، فـى إثـناءها عـن ذلـك. فعـاد قـائلاً، إنـهـا تريد العودة إلى وطنها، فقد جربت العيش فى إسرائيل لمدة تسعة أشهر ولم تنجح التجربة " [2].

لقـد كـان إيمانـه بفكـرة العـودة وفشل بوتقة الانصهار دافعاً قوياً لمصاحبة هذه الفتاة فى رحلة عودتها إلى وطنها دون مقابل:

" تـراجع مولخـو فجأة، إننى أجادل بلا طائل، إذ إنه صادق، وأنا أعكس قلقى وخوفى عليها أيضاً بلا طائل " [3].

ويعلق أبرا هام بلفان على مساعدة "مولخو" لتلك الفتاة الروسية بقولـه: " إن المساعدة التطوعية التى يقوم بها "مولخو" لتلك الفتاة التى ترغب فى النزوح عن إسرائيل، تبرز عدة نقـاط أخـرى فـى عالمـه. فيبين لنا موقفه هذا رأيه فى النزوح. وفى مقابل زوجته التى تنقد بمـرارة كـل مـا يحـدث فـى إسرائيل، فهو يشعر بأن إسرائيل هى وطنه. ولم يشعر أنه نبت غريـب فـى هـذا المكـان، بـل إنـه يقبل الحياة فـى إسرائيل قبولاً طبيعياً؛ لأنه ولد فيها، وتأصلـه هـذا يمـنحه الـثقة فـى التعامل بسماحة مع كل من لا يشعر بإسرائيل كوطن. . . ولكـنه يبذل كل ما فى وسعه من أجل مساعدة هذه الفتاة فى عودتها إلى وطنها روسيا. كما أن موقفه من النزوح يبين لنا نقطة أخرى تتعلق بزوجته أيضاً، ففى مقابل زوجته التى تؤمن بالمبادئ وتحـاول التمسـك بهـا، فإن "مولـخو" يؤمن بالحياة والبشر الذين على قيد الحياة، وبضرورة الاستجابة لتطلعاتهم، والتقليل من آلامهم " [4].

---

(١) نفس المرجع، (ص٢٩٣).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٨٦).
(٣) نفس المرجع، (ص٢٨٧).
(٤) أبـراهام بلفـان: " مـار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص١٢٢-١٢٣).

وربما يعكس ذلك موقف يهوشواع الحقيقى من موضوع (النزوح) أو الشتات فهو يقول: " إن أبراهام أبو الأمة ولد خارج فلسطين، وقد دعاه الرب أن يترك وطنه وبيت آبائه ليصل إلى أرض جديدة اختارها له الرب. . . لذا فإن مفهوم (نازح) ولد فى قصة أبراهام (إبراهيم). فاليهودى الأول هو المهاجر الأول والنازح الأول على حد سواء. وكذلك، فإن اليهودى، أى يهودى، يحمل فى داخله حالتين هما الهجرة والنزوح على طول التاريخ "(١).

لقد عمد يهوشواع أيضاً إلى الإشارة فى هذه الرواية إلى افتقاد الصهيونية للبعد الإنسانى فى حركتها، حيث هدفت فقط إلى جمع شتات اليهود فى إسرائيل دون أن تدرك ما يشعر به الفرد المهاجر من وطنه إلى وطن آخر. ويبدو ذلك فى إشارة يهوشواع إلى الموظفين البيروقراطيين الذين لم يستطيعوا فهم هذه الفتاة، ومعنى رغبتها فى العودة إلى وطنها، لدرجة أنهم يعرضون عليها الهجرة إلى كندا أو أمريكا:

" إن البيروقراطيين لديهم غير مستعدين لاستيعاب مثل هذه العائدة. . ولكن لماذا يجب أن تعود إلى وطنها، فلتسافر إلى أمريكا أو كندا "(٢).

كما حاول يهوشواع السخرية من شعارات الصهيونية على لسان "مولخو"، فهو يشير بصورة رمزية إلى عدم تكيف هذه الفتاة للعيش فى إسرائيل، باعتبار أنه مجتمع لم تتعود عليه، يجتمع فيه الشتات اليهودى دون رابط بينهم، فهم يختلفون فى الطباع والعادات واللغة والجنس، وغير ذلك. فها هو "مولخو" يصرخ فى موظف السفارة وهو يسخر من شعار (المصير المشترك) الذى روجت له الصهيونية:

" كان من الصعب عليها تحمل حرارة الجو فى إسرائيل، حاول "مولخو" أن يفسر الأمر. لقد تعرضت لصيف قاس هذا العام. . . فلتنظر إليها، بأى مفهوم يمكن أن تكون يهودية؟ هل بالمفهوم البيولوجى؟ إنه لأمر مضحك. وضحك "مولخو" دون أن يعى ما الذى يضحكه وواصل حديثه، ... لا تتحدث معى الآن عن المصير المشترك، فما معنى المصير المشترك؟ وتحمس "مولخو" قائلاً. . . لا يوجد مصير مشترك "(٣).

وهكذا اكتملت حلقة اقتناع "مولخو" بإعادة هذه الفتاة إلى بلدها، وكان إصراره على ذلك يقابله إصرار من " نينا " نفسها. لقد حملت معها فى هذه الرحلة الشاقة، من إسرائيل إلى فيينا إلى برلين إلى روسيا فى النهاية صندوقاً كبيراً ضخماً وضعت فيه كل أمتعتها، على الرغم مما كان يسببه لهما من مشكلات فى أثناء الرحلة:

---

(١) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص٣١).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٨٨).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٨٨).

" تضافرت قواهما لرفع الحقيبة على الرف الذى يعلو مقاعدهما "[1].

وعلى مدار الرحلة كلها بالغ يهوشواع كثيراً فى حجم هذه الحقيبة، ربما كان يريد أن يبين لنا مدى إصرارها على عدم العودة إلى إسرائيل، لاسيما وقد حملت معها ملابسها الخاصة بكل فصول السنة، الخريف والشتاء والربيع والصيف:

" وكما هو متوقع، لم يكن فى الحقيبة شىء غريب، فقط ملابس امرأة شتوية، وخريفية وصيفية، وربيعية "[2].

" تضافرت قواهما وجذبا الحقيبة إلى المصعد، ومن هناك حملاها محدثين ضجيجاً إلى المطبخ "[3].

وهكذا، يتبين إصرارها على مدار الرحلة، منذ البداية أنها سوف تنجح فى النهاية. وبالفعل تنجح " نينا " تلك الفتاة النازحة، كما أطلق عليها "مولخو"، فى العودة إلى وطنها روسيا:

" نازحته الصغيرة، كما عاد وأطلق عليها فى داخله "[4].

" لقد سيطرت عليها الرغبة فى العودة إلى وطنها "[5].

اتصلت " نينا " من شرق برلين لتبلغه بأن الأمور تسير بإيجاب ولا داعى للقلق، لأنهم قبلوها "[6].

وهكذا، تنجح تلك الفتاة فى العودة إلى وطنها بعد رحلة شاقة أمضتها بين موظفى السفارات فى فيينا وبرلين ومنها إلى روسيا التى أجرت منها مكالمة تليفونية مع أم زوجته لتبلغها بهذا النجاح:

" اتضح أن الفتاة اتصلت بها فى الظهيرة من الاتحاد السوفيتى وحكت لها عن كل شىء "[7].

ولم يكن هذا فقط انتصاراً لها ضد مبدأ عدم العودة إلى بلاد الشتات الذى أرسته الصهيونية، بل كان أيضاً انتصاراً ونجاحاً لمولخو الذى ساعدها وسافر معها وطار فرحاً بعودتها إلى وطنها وبنجاحه فى المهمة التى بعثته فيها أم زوجته:

---

(١) نفس المرجع، (ص٣٠٢).
(٢) نفس المرجع، (ص٣٣٦).
(٣) نفس المرجع، (ص٣٣٦).
(٤) نفس المرجع، (ص٣٠٧).
(٥) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٣١٢).
(٦) نفس المرجع، (ص٣٣٥).
(٧) نفس المرجع، (ص٣٤٥).

" لقد أرسلته فى مهمة قصيرة ونجح فى تنفيذها، وهو الآن فى شوق لأن يوضح لها، إلى أى مدى كان هذا نجاحا غير متوقع "(١).

ويمكن القول، إن يهوشواع قد بيّن لنا كيف تحطمت بوتقة الانصهار عبر النزوح عن إسرائيل والرجوع إلى الوطن الحقيقى، وكيف تحطمت إحدى مبادئ الصهيونية بعدم العودة إلى بلاد الشتات مرة أخرى، وكيف فشلت الصهيونية فى صهر جموع اليهود داخل إسرائيل. ونجح "يهوشواع" إلى حد كبير فى التعبير عن هذا الفشل الذى حالف الصهيونية بتأييد معظم شخصيات الرواية لهذا النزوح فى تأكيد منهم على جدية العودة، وعدم جدوى العيش فى إسرائيل، بعدما تفاقمت المشكلات وتعرت الحقيقة. وهى حقيقة يؤكد عليها الناقد الإسرائيلى أبرا هام بلفان بقوله: " أبلغت والدة مولخو، هى الأخرى، ابنها فى رغبتها أن يصاحب نينا فى رحلتها إلى فيينا، حيث إنها لم تتأقلم مع الوضع فى إسرائيل، ولديها رغبة جامحة فى العودة إلى وطنها. وبذل مولخو مجهوداً كبيراً فى إنهاء هذه المهمة بنجاح، ربما لخوفه من أن يدفعوه للزواج منها إذا بقيت فى إسرائيل "(٢).

ويوضح لنا بلفان اتفاق " نينا" مع زوجة "مولخو" المتوفاة فى نقدهما للمجتمع الإسرائيلى، إلا أن " نينا" تنجح فى النزوح من إسرائيل بعكس زوجة مولخوالتى اكتفت بالنقد والتجريح: " هناك نقطة اتصال بينهما، وهى النقد اللاذع ضد إسرائيل. فقد كانت زوجة "مولخو" تنتقد إسرائيل بصورة مستمرة، بينما لم تكتف "نينا" بالنقد بل أقدمت على النزوح وتركت البلاد، لقد عبرت عن حريتها فى إصرارها على العودة إلى موطنها الأصلى "(٣).

وهذا الموقف يتفق مع نظرة يهوشواع إلى الشتات على أنه مصير حتمى لليهود منذ نشأتهم على وجه الأرض، حيث يقول: " لقد خلق اليهود فى الشتات. فهل هذه حقيقة أدركناها جيداً بكامل معناها؟ إن الشعب اليهودى لم يخلق فى بلاده. والعلاقة الجوهرية والأولية بين الشعب والوطن لم تكن طبيعية بالنسبة لليهود. لقد تم إعدادنا كشعب فى الشتات، وتغلغل الشتات داخل تكويننا. وأضف إلى ذلك، أن التوراة نزلت على هذا الشعب فى البرية وليست فى فلسطين "(٤).

---

(١) نفس المرجع، (ص٣٤٠).
(٢) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص١١٣).
(٣) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص١١٣).
(٤) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص٣٢).

وهكذا، حاول يهوشواع أن يبين لنا أسباب فشل الصهيونية فى تجميع اليهود داخل إسرائيل. فالقوى الوراثية لدى اليهود بالنسبة للشتات أكبر من أن تتجاهلها الصهيونية، فهو يعيب على الصهيونية ترسيخها لمبدأ ضرورة عيش كل اليهود داخل إسرائيل، لأنه مبدأ لن يتحقق، إذ يقول: " من يعتقد أن الشعب اليهودى كله يجب أن يعيش داخل إسرائيل، والصهيونية بالنسبة له لم تنته بعد، ومن يقول ليس هناك حل آخر للشعب اليهودى إلا العيش فى إطار الصهيونية. فأنا أقول له، لقد انتهت الصهيونية بالنسبة لى. لأننى لا أظن أن كل الشعب اليهودى يجب أن يهاجر إلى إسرائيل "[1].

(٢) الصراع الدينى العلمانى:

بدأت أبعاد هذا الصراع بين اليهود الدينيين والعلمانيين مع نشأة حركة "الهسكالاه" التى هدفت إلى تحطيم النفوذ الدينى وسيطرته واستبداده على النفس اليهودية من الداخل، وإلى تحطيم أسوار " الجيتو " الشاهقة التى كانت تفصل بين اليهود ووجوه الحياة العلمانية فى الدول التى كانوا يعيشون فيها.

" ومن أجل تحقيق هذا الهدف وتحطيم الأسوار الداخلية للجيتو ولبناتها الدينية، كان تركيز حركة (الهسكالاه) ودعاتها من الفلاسفة والأدباء على ضرورة تغير نظام التعليم الدينى والمزج بينه وبين التعليم العصرى القائم على منجزات العقل فى العلوم الطبيعية والإنسانية، وكان من الطبيعى أن تنمو حركة (الهسكالاه) وأن تصل، فى النهاية، إلى حد المواجهة الكاملة مع السلطة الكهنوتية وسيطرتها على كل وجوه الحياة اليهودية.. "[2].

ومع انتقال اليهود من بلاد الشتات إلى فلسطين، انتقل معهم هذا الصراع واتخذ أبعاداً مختلفة. وقد شهدت السنوات الأخيرة نمواً كبيراً فى أعداد اليهود الدينيين ونفوذهم، وبخاصة بعد حرب يونيو (١٩٦٧)، الأمر الذى جعل اليهود العلمانيين يشعرون بأن الخطر يتهددهم واقترح بعضهم اقتسام إسرائيل بين الطرفين. "وترك ١٠٪ من اليهود العلمانيين القدس فى عام (١٩٩٧) بسبب تدهور العلاقة مع اليهود المتطرفين "[3]، حيث تشهد القدس تركزاً يهودياً دينياً، بينما تشهد تل أبيب تركزاً يهودياً علمانياً.

" وربما للمرة الأولى على مدى هذه الفترة، منذ قيام دولة إسرائيل وحتى الآن، يرتبط القلق بالانقسام الداخلى أكثر من الصراع الخارجى، ويظهر ذلك مثلاً، من استطلاعات حديثة أظهرت أن ٦٠٪ يرون الخطر الأكبر فى التصدعات الداخلية، مقابل ٣٠٪ فقط يعدون الصراع الخارجى هو الأخطر "[4].

---

(١) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، بسيحوت عل محير هاتسيونوت " (أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص٩٧).
(٢) د. إبراهيم البحراوى: الدين والدنيا فى إسرائيل، كتاب الهلال، مايو ١٩٩٨، العدد ٥٦٩، (ص١٠).
(٣) عطية عيسوى: إسرائيل تتساءل من أنا، الأهرام، ١٩٩٨/٥/٢ (ص٥).
(٤) د. وحيد عبد المجيد: حدود الانقسام الداخلى فى إسرائيل، مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية، الأهرام، ١٩٩٨/٥/٨، (ص١٨).

وهكـذا، أصبح الانقسـام اليهودى الدينى العلمانى من أكثر القضايا التى تقلق المجتمع الإسـرائيلى، وبدأ يفرض تساؤلات عديدة تتردد بقوة داخل إسرائيل وخارجها منها، على سبيل المثال: هـل إسرائيل دولة يهودية أم يهودية ديمقراطية؟.. ومن الإسرائيلى؟ هل هو يهـودى خالص، أم إسرائيلى يهودى، أم يهودى إسرائيلى، أم إسرائيلى فقط؟ خاصة وأن اليهود الدينـيين المتشـددين فـى إسـرائيل وخارجهـا يرفضـون الاعـتراف بإسـرائيل كدولة علمانية.

وقـد أصبحت أشكال الصراع الدائـر بـين اليهود الدينيين والعلمانيين فى إسرائيل من المظاهـر التى تميز طبيعة الواقع اليهودى فى إسرائيل والتى تعرض مظاهرها خارج إسرائيل: "بـدأت الصـحف وكـل شـبكات التلـيفزيون فـى أمـريكا تذيـع وتنشـر عشرات المقالات والأفـلام يومياً حول احتفال إسرائيل بمرور خمسين عاماً على إعلان إنشائها كدولة، فإذا بها جميعاً وبلا استثناء تقريباً، تتحدث عن هذه الاحتفالات بلـهجة جديدة، يملؤها القلق على ما يجرى فى إسرائيل من انقسامات وصراعات دينية وعقائدية، وإذا بنا نشاهد على شبكات التلـيفزيون الأمريكـية مـناظر الاقتـتال بـين الجماعـات الدينية اليهودية المتطرفة من جانب، والـيهود العلمانـيين مـن جانـب آخـر... ورحـنا نشـاهد كـل لـيلة كيف أن هؤلاء المتزمتين والمتطرفين مـن الـيهود اقـتطعوا جـزءاً مـن مديـنة تـل أبيب، وأقاموا سياجاً حولـها، لمنع المواطـنين مـن ركـوب السيارات يوم السبت، على اعتبار أنه خروج على الديانة اليهودية، وأقـام بعضـهم مكـبرات الصـوت يذيعون فيها خطبهم المديحية فى البيوت التى حولوها إلى معـابد، ويـرد علـيهم العلمانـيون بإقامة صالات "للديسكو" والرقص والملاهى الليلية، ويعلقـون عـلى أبوابها مكبرات الصوت لكى تطغى على الخطب الدينية، ويبدأ الطرفان فى تـبادل اللكمـات والضـرب بـالأيدى والعصـى وتـتدخل الشرطة يائسة لمحاولة التفريق بين الجانـبين .... ووصـل الصراع إلى تهشيم السيارات وحرق بعضها، وتبادل إلقاء القاذورات والمخلفـات البشرية علـناً، إلى حـد جعـل "مناحم فريدمان" ـ أحد علماء الاجتماع فى إسـرائيل – يقـول (إننا أصبحنا نعيش على الجرف، ولم نعد نطيق بعضنا بعضا)"[1].

وتعـد حرمة يوم السبت(*) من أشد القضايا الخلافية بين الدينيين والعلمانيين فى إسرائيل: "ومـا زالت المـعركة الأكثر احتداماً، فى إطار هذا الانقسام تدور حول حرمة يوم السبت،

(1) محمـد حقـى: الصـراع الداخلى فى إسرائيل على شاشات التليفزيون فى أمريكا، صحيفة الأهرام، ١٢/٥/١٩٩٨، (ص٦)

(*) تعـد حـرمة يـوم السـبت مـن أشد القضايا الخلافية بين المتدينين اليهود والعلمانيين، فهناك بعض المحظـورات الخاصـة بـيوم السبت بالنسبة لليهود المتدينين، والذى بموجبها يعتبرون ممارستها من قبل الـيهود العلمانـيين بمـثابة تدنـيس لحرمة ذلك اليوم. ففى هذا اليوم يحظر البيع أو السفر أو الخروج من البيـت، ويحظـر كذلـك إيقـاد المصـابيح الكهربائـية أو مشـاهدة التلفاز أو سماع الراديو أو استخدام السيارات. وفـى هـذا الـيوم يعـارض الـيهود المتديـنون المتشـددون (الحـريديم) فـتح دور السينما أو الكازيـنوهات أو المطـاعم. (أنظر: يشعياهـو ليفمـان، العلاقـات بين المتدينيـن والعلمانيـين فى =

ولعل آخر مظاهرها هو حملة المتدينين ضد المجتمعات التجارية الكيبوتسية التي صار معتاداً أن تعمل في ذلك اليوم، وحملة العلمانيين لإلغاء قانون محلي في تل أبيب يحظر فتح أماكن التسلية والمطاعم في اليوم المتنازع عليه "[1].

لقد وصل الأمر إلى تقسيم الأحياء إلى دينية وعلمانية، حيث تصدرت حي " بارديس حانا " لافتة تقول: (إنكم الآن تدخلون حياً دينياً، وعليكم أن تتحشموا في ملابسكم وأن تحترموا شعائر السبت)، فإذا ببعض سكان الحي يعلقون لافتات على بيوتهم تقول (إن حي " بارديس حانا " يفخر بأن يكون علمانياً).

ويشدد و" واتنبرج "، الكاتب في صحيفة " واشنطن تايمز "، على الانقسامات، بل العداوة السافرة بين اليهود المتشددين الدينيين والغالبية العظمى من السكان اليهود العلمانيين ... ويروي الكاتب ما ذكرته كل وسائل الإعلام عما يحدث، من فرقة الرقص الشعبية التي هاج ضدها المتدينون المتشددون، لأن الراقصات فيها يخلعن ملابسهن الداخلية، فاضطروهن للرقص بسراويل طويلة، إلى آخر الروايات الأخرى مثل فرض الرقابة على فيلم تسجيلي لأنه أظهر الجانب الآخر لما حدث في سنة (١٩٤٨)، بالنسبة للجانب الفلسطيني[2].

وهكذا، اتخذ الانقسام الديني – العلماني بين اليهود الدينيين واليهود العلمانيين صورة مخيفة ومزعجة بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي، وأظهر هذا الانقسام مدى الانفصال التام والواقع الديني الذي يعيش فيه اليهود المتشددون عن الواقع العام للمجتمع الإسرائيلي العلماني، ومما يزيد من هذا الانفصال التام، أن اليهود الدينيين المتشددين لا يخدمون في الجيش الإسرائيلي ولا يدفعون الضرائب، لأنهم يتفرغون لدراسة التوراة طوال اليوم ويحصلون على مبالغ باهظة لمدارسهم غير المعونات الاجتماعية الأخرى[*].

= إسرائيل، ترجمة: د. محمد محمود أبو غدير، مراجعة وتقديم: د. إبراهيم البحراوي، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٠).

(١) د. وحيد عبد المجيد: مرجع سابق، (ص١٨).

(٢) محمد حقي: الصراع الداخلي في إسرائيل على شاشات التليفزيون في أمريكا، مرجع سابق، (ص٦).

(*) تمتد القضايا الخلافية بين المتدينين اليهود والعلمانيين في إسرائيل لتشمل الكثير من أوجه الحياة التي تشتد حولها الصراعات. فبالنسبة للملبس، لابد وأن ترتدي المرأة ملابس طويلة وتغطي رأسها، أما الرجال فيرتدون البالطو الأسود الطويل ويطلقون لحاهم وهو مالا نفعله اليهود العلمانيون. وبالنسبة للطعام، فالشريعة اليهودية تحظر على اليهودي تناول طعام غير كاشير أو تناول طعام طهي في أوعية سبق استخدامها في إعداد طعام غير كاشير وهو ما لا يفعله اليهود العلمانيون. وبالنسبة للطهارة، تمنع العلاقات الزوجية على امتداد ١٢ يوماً على الأقل خلال الدورة الشهرية للمرأة، وفي نهاية هذه الفترة فإن على المرأة أن تغطس في بركة مياه التطهر (مغطس التطهر)، ومن مظاهر اتساع الهوة بين المتدينين اليهود والعلمانيين، يدرس أبناء اليهود المتدينين في مدارس دينية منفصلة وينتمون إلى حركات شبابية دينية منفصلة. وهناك في إسرائيل مؤسسات مختلفة، مثل =

ويمكن القول أيضاً، " إن القوى الدينية فى إسرائيل تمثل مروحة واسعة من الاتجاهات تتراوح بين تأييد الصهيونية العلمانية فيما عرف بـ (الصهيونية الدينية) وبين (معاداة الصهيونية)، وبين السلفية المغالية فى التشدد وتكفير الدولة والانعزالية (الحريديم)، إلا أنها تشترك جميعاً فى طرح تعريف اليهودية لتكون مجرد انتماء أو لمجرد الانتماء. إن المعيار لدى هذه القوى سواء حزبية أو غير حزبية، هو التقيد الصارم بالعبادات والتأكيد على الالتزام بالشريعة اليهودية (الهالاخاه)، والتعبير عن الإيمان وسيادة الطقوس والتقيد بأحكام المذهب الدينى الذى يتمسك به زعماؤها الروحانيون فيما يتصل بقضايا الحياة "[1].

ومن هنا، يعد الصراع الدينى العلمانى داخل إسرائيل مظهرا من مظاهر تحطم بوتقة الانصهار داخل إسرائيل، عبرعنه يهوشواع بصورة ساخرة انتقد فيها اليهود الدينيين، محاولاً إبراز الصهيونية كسبب فى احتدام هذا الصراع، ومؤكداً على فشلها فى تجميع الشتات اليهودى داخل المجتمع الإسرائيلى.

وقد أكد مناحم برينكر على أن الصهيونية قد تكون سبباً فى تقويض هذا المجتمع لدورها فى هذا الصراع، إذ يقول: " إن المشاكل الوجودية الصعبة لإسرائيل هى أيضا مشاكل صهيونية... فكيف ستعيش فى إسرائيل الثقافة اليهودية العلمانية والثقافة اليهودية الدينية، كل منهما بجوار الأخرى، دون أن يقوضا المجتمع الإسرائيلى؟ "[2].

وقد عبر يهوشواع فى رواية (مولخو)، عن الانقسام الواقع بين اليهود الدينيين والعلمانيين فى أى تجمع يحدث بينهم:

" جلس عدد منهم بالطاقيات السوداء فى انتظار وقت الصلاة "[3].

" قام عدد من المسنين فى صمت للمشاركة فى الصلاة، بينما هز العلمانيون رءوسهم مباركين "[4].

وقد اتخذ الانقسام الدينى العلمانى بين اليهود الدينيين والعلمانيين صورة مخيفة ومزعجة بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي، وأظهر هذا الانقسام مدى الانفصال التام للواقع الدينى الذى يعيش فيه اليهود المتشددون عن الواقع العام للمجتمع لإسرائيلي العلمانى. وأصبحنا

= البنوك، تقوم بتشغيل عناصر دينية فقط. كما يطالب الحريديم بتخصيص شواطىء خاصة بالرجال وأخرى للنساء على غرار مايحدث فى المعابد التى يوجد بها حواجز تفصل بين النساء والرجال. (انظر: يشعياهو ليفمان، العلاقات بين المتدينيين والعلمانيين فى إسرائيل، مرجع سابق).

(١) د. رشاد عبدالله الشامي: القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، مرجع سابق (ص٩).

(٢) مناحم برينكر: " احارى هاتسيونوت " (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، مرجع سابق، (ص٢٧).

(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٣٥).

(٤) نفس المرجع، (ص٣٥).

نشـاهد صـورا عديـدة مـن صـور الاقتـتال والضـرب باللكمات بين اليهود الدينيين واليهود العلمانـيين تـدور كلـهـا حـول حـرمة يوم السبت، وقد عبر يهوشواع عن سخريته من هذا الوضـع، فهـناك مـن كان يحذر مولخو من السفر فى هذا اليوم خشية أن يرشق بالحجارة من اليهود الدينيين:

" استجاب "مولخو" قائلاً، إننى مستعد للحضور، ربما يوم السبت. فى يوم السبت؟ اندهش زوجها مرة أخرى... فى يوم السبت سيقذفونك بالحجارة هناك "[1].

وهكـذا أصبح السفر فى هذا اليوم بالنسبة لليهودى الإسرائيلى العلمانى بمثابة مجازفة قد تعـرض مـن يقـدم علـيها من اليهود للخطر. ولكن "مولخو" لا يعبأ بهذا ويقرر السفر فى هذا اليوم إلى القدس ليجد المدينة وقد سادها سكون تام:

" قـرر السـفر إلى القـدس يـوم السـبت... ووصـل القـدس قبيل ظهيرة ذلك الـيوم... ثـم خـرج فـى الثانية والنصف، ليجد المدينة وقد سادها السكون التام الخاص بيوم السبت "[2].

ويشـير يهوشـواع كذلك فى هذه الرواية إلى ما يحدث للسيارات من تحطم أثناء مرورها فـى يـوم السـبت، حيـث يعتـبر اليهود الدينيون أن ذلك تدنيساً لحرمة ذلك اليوم. فها هو "مولخو" ما أن يلمح أحـد الأشخاص يرتدى القبعة الدينية حتى يبطل محـرك سيارته خشية أن تصاب بحجر:

" ولكـنه مـا أن لمح رجلاً يرتدى طاقية يتجه نحوه، حتى أوقف محرك السـيارة عـلى الفـور. وقـرر أن يسير مترجلاً فى هذا المكان، حتى لا يتعرض لخطر قذف سيارته بحجر "[3].

لقـد أصـابت حرمة ذلك اليوم "مولخو" بالملل وهو في القدس، وجعلته يسخر من ذلك المصـعد الـذي يعمـل أتوماتيكـيا في ذلك اليوم دون الضغط على مفاتيح لتشغيلـه، وهو ما جعلـه يتوقف فترة طويلة في كل طابق حتي إن لم يكن هناك أشخاص يريدون استخدامه:

" سمـع المصـعد يزأر من فوق رأسه، ينزل ثم يتوقف، ينزل ثم يتوقف... ثم يفـتح الـباب أتوماتيكياً، حيث كان المصعد يوجه للحركة يوم السبت دون الحاجة للضـغط على مفاتيح... ووقف "مولخو" داخل المصعد صامتاً، وشعر أنه أحمق وهـو يـنتظر الـباب طويـلاً حـتي يـنغلق، وفى النهاية سمع صفيراً وانغلق الباب

(١) نفس المرجع، (ص٢٠٣).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع: "مولخو"، رواية، مرجع سابق، (ص٢٦٠).
(٣) نفس المرجع، (ص٢٦٠).

وصـعد المصعد طابقاً آخر. وكان وقت الانتظار طويلاً للغاية، كما لو أن الجهاز الآلى للمصـعد صـمم مـن أجـل أشـخاص معـاقين أو مرضـى سـوف يدخلـون ويخرجون فى بطء كبير "(١).

ويتساءل "مولخو "فى سخرية عن مغزى ما يحدث فى المصعد من الناحية الدينية:

" وصـعدت بمصـعدكم الغريب والمضحك، وأنا مازلت لا أعرف كيف يفسرون هذا من الناحية الدينية؟ وصدرت منه ضحكة خفيفة "(٢).

ولم يسـخر يهوشواع من هؤلاء الدينيين على لسان "مولخو" فحسب، بل إنه يشير إلى مـدى تزمـتهم وحرصـهم الدقـيق عـلى عـدم تدنـيس يـوم السـبت، " فـأورى"، أحـد الشخصـيات الدينـية فـى الـرواية، يمنع زوجته " يـعراه " من إشعال سيجارة فى هذا اليوم دون أن ينطق بكلمة:

" دسـت سـيجارة فـى فمهـا، وأخـذت تبحث عن ثقاب، ولكن زوجها أمسك يدها برفق ليمنعها، دون أن ينطق بكلمة "(٣).

كما يعبر يهوشواع كذلك عن مبالغة الحاخامات فى تطبيق الشريعة اليهودية فى إسرائيل وأثر ذلك على مدى الانقسام الفاعل بين اليهود الدينيين والعلمانيين، وفى إشارة إلى تدخل الحاخامـات فـى كافـة الشئون الحياتـية والداخلـية للفـرد الـيهودى، يقول يهوشواع، فى سخرية، على لسان "مولخو" فى الرواية:

" هـل سمـح لكـم الحاخـام يـودل بالـتدخين هكـذا قـبل الـنوم، فاجأها بدعابة خفيفة "(٤).

ولم يـتوقف الأمـر عند هذا فحسب، بل إن الدينيين اليهود يخضعون لأوامر الحاخامات بكـل دقه، " فيعراه " لا يوجد لديها تليفزيون فى بيتها، فقد أوصاهم الحاخام بذلك، لأنه يكرهه ويسأمه:

" حـقـاً، لا يوجـد لديكـم جهـاز تلـيفزيون فـى مـنزلكم. لأن حاخـامهم يكره ويسأم، بالفعل، التليفزيون بصفة خاصة "(٥).

ومـن مظاهـر هـذا الصـراع بـين الـيهود الدينيين واليهود العلمانيين، النزاع بينهم حول نزول البحر بملابس سوداء، حتى وصل الأمر إلى حد تخصيص الحكومة الإسرائيلية شواطئ خاصـة بالـيهود الديـنيين فقـط، ويشير يهوشواع إلى ذلك الرداء وهو يصف بعض الأطفال الدينيين فى البحر:

(١) نفس المرجع، (ص٢٦١).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٦٢).
(٣)أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٦٢).
(٤) نفس المرجع، (ص٢٣٢).
(٥) نفس المرجع، (ص٢٣٢).

" لاحظا فى تلك الأثناء تفرق مجموعة من الصبيان بمعاطف سوداء بين الأمواج "[١] .

ويصف يهوشواع اليهود الدينيين، فى هذه الرواية، بأنهم أناس قساة فى معاملاتهم، علاوة على أنهم ينجبون الأطفال بكثرة، ويطلبون من " أورى " اليهودى المتدين الزواج بامرأة جديدة شريطة أن تنجب أطفالا، ذلك لأن " يعراه " زوجته لم تنجب بعد وهى فى الثانية والخمسين من عمرها، وتعددت مرات فشلها فى الحمل والإجهاضات المستمرة:

" إنهم أناس قساة لا يستلهمون مبادئهم من الكتب بل مما هو شفوى، لقد طالبوه لعدة سنوات بالزواج من امرأة أخرى شريطة أن تنجب أطفالا ؛ لأنه بدون أطفال يصبح عالمه معيباً، وفهمه ناقصاً "[٢] .

" هل مازالت تنزف من مرات الحمل الفاشلة والإجهاضات الكثيرة[٣] .

ويفسر الناقد الإسرائيلى يوسف أورن مرات الحمل الفاشلة على أنها أيديولوجيات لم يستوعبها المجتمع الإسرائيلى، إذ يقول: " يجب أن نفهم مغزى مرات الحمل الكثيرة الفاشلة لـ (يعراه)، حيث ظهرت هذه المرات كمثال للأيديولوجيات التى لم يستوعبها المجتمع الإسرائيلى، لأنها جميعاً تعاليم تعرضت للإجهاض فى منتصف الحمل "[٤] .

أما أبراهام بلفان فإنه يصف شخصية " أورى " بالفوضوى الذى ينصاع إلى مطالب هؤلاء الدينيين ويقرر الزواج ؛ حيث يقول: " إن " أورى " زوج " يعراه " إنسان فوضوى، يطالبه الدينيون المتشددون الذين يتردد فى السير على دربهم، بالزواج من امرأة شابة تستطيع أن تنجب له. ففى الوقت الذى يشرح فيه لمولخو بأنه لم يخطر بباله أن يترك " يعراه " قبل أن يدبر لها أمورها، فهو يقرر الزواج "[٥] . بينما نجد مولخو، فى الرواية، يتعجب من ذلك الإخلاص لعالم ملئ بالدينيين الذين يباركون إنجاب الأطفال:

" لقد كرست نفسها لكى تزيد شوقهم وانتماءهم لذلك العالم المكتظ الخاص بالدينيين المرزوقين بالأطفال "[٦] .

(١) نفس المرجع، (ص٢٣٠).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١٩٢).
(٣) نفس المرجع، (٢١٠).
(٤) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٣٣).
(٥) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص١١٠).
(٦) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢١٠).

وهكذا، حاول يهوشواع أن يبين لنا مدى الانقسام الحاد فى المجتمع الإسرائيلى، وبخاصة أن شوكة اليهود الدينيين تزداد فى السنوات الأخيرة بزيادة عددهم، وتحول الكثيرون من اليهود العلمانيين إلى دينيين كما يشير فى الرواية:

" إننى مسافر إلى أصدقاء قدامى لى فى المدرسة أصبحوا مؤخراً متدينين للغاية "[1].

وهكذا أيضاً، يتبين لنا مظهر آخر من مظاهر تحطم بوتقة الصهر داخل المجتمع الإسرائيلى، ويعد ذلك الصراع من أخطر ما يهدد المجتمع الإسرائيلى، نظراً لخطورته الشديدة؛ حتى إننا نجد اليهود الدينيين ينقسمون على أنفسهم أيضاً، فهناك الجماعات اليهودية الدينية المتشددة (الحر يديم)، و الجماعات اليهودية الدينية المتطرفة، فالأولى تسعى إلى خلق " جيتو " يهودى داخل الدولة، يحافظ على خصائص يهودية الشتات من حيث الثقافة فى اللغة والتشدد فى تطبيق الشريعة اليهودية، وتقف موقفاً معادياً من الصهيونية العلمانية. أما الثانية - الجماعات اليهودية الدينية المتطرفة - فهى من أصحاب المواقف الصهيونية السياسية القومية المتطرفة التى تسعى لاستيطان الأراضى المحتلة باعتبارها ضمن حدود الوعد الإلهى أو ضمن الميراث الدينى و التاريخى لليهود.

ومن هنا، يمكن القول، إن الصهيونية بنفسها قد أسهمت فى هذا الانقسام بين اليهود الدينيين، وقامت بالدور البارز فى قيادة هذا الانقسام، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى الصدام مع اليهود العلمانيين، ليجلس المجتمع الإسرائيلى فوق فوهة بركان من شأنه أن ينفجر فى أية لحظة. وبالتالى؛ فقد أخفقت الصهيونية فى وعودها بالتحام اليهود وتجميعهم داخل حدود آمنة لدولة يهودية ازدادت صراعاتها الداخلية وتزايدت مع مرور الوقت، وأصبحت مصدراً للتهديد المستمر والمتعاظم على مر السنين.

(٣) الصراع الإشكنازي السفارادى داخل إسرائيل:

يأتى الصراع الدائم بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلى - كما بيّنا سابقاً - كإخفاق جديد من إخفاقات الصهيونية، ومظهر من مظاهر تحطم بوتقة الصهر التى تحدثت عنها الصهيونية، وهدفت من خلالها إلى إذابة جموع اليهود داخل كيان يهودى واحد. إلا أن اختلاف الثقافات والحضارات بين الجماعات اليهودية المتجمعة داخل الدولة يقف حائلاً أمام تحقق هذا الهدف، ليضيف إلى الصهيونية انتقاداً جديداً عبر عنه الكثير من الأدباء والمفكرين الإسرائيليين في أعمالهم المختلفة.

(١) نفس المرجع، (ص٢٠٧).

ويمكـن القـول، إن الصـهيونيين الأوائـل أربـاب الحضـارة الغربية، الذين قامت الحركة الصـهيونية عـلى أيديهـم، كان لـهم دور بارز في تفاقم هذا الصراع، نظراً لتفاخرهم الدائم بأن الدولة قامت على عاتقهم فقط، مما حدا باليهود الشرقيين إلي الشعور بالدونية تجاههم، وبأنهم جيل مكمل للكيان اليهودي داخل الدولة الجديدة.

لقـد بـدا هـذا الصـراع واضـحاً في احـتفالات إسـرائيل بمرور خمسين عاماً على قيامها. فكانـت مظاهر الاحتفال تتحرك في اتجاهات مختلفة لتلقي الضوء على صور عديدة من صور هـذا الاحـتفال، حيـث حرصـت كـل طائفـة من الطوائف اليهودية المختلفة على إبراز بعد خـاص تتمـتع بـه ويـرجع إلـي الـبلد الـتي كانت تعيش فيه، فإذا بنا نجد احتفالات خاصة بالـيهود المغاربـة، عـلى سـبيل المثال، واليهود الروس، وكافة الطوائف اليهودية المختلفة، ليبرز أمامنا في النهاية مدي انقسام ذلك المجتمع على نفسه فى صورة جماعات طائفية تحرص كل جماعة منها على هويتها الخاصة، ولا تسمح مطلقاً بطمس تلك الـهوية، حتى وإن كان ذلك فى صالح الدولة التى تعيش فيها، وإن كانت هى الملاذ الوحيد لـهم.

إن الصـهيونية بمـا طرحـته مـن أهـداف مـنذ الإرهاصات الأولى لتكوينها، لم تضع فى الاعتبار تلك المعضلة، وظنت باليهود الشرقيين سوءاً، وبأنهم سيكونون أفضل وضعاً وهم يـؤدون دورهم الـهامشى فى الدولة، ورفعت شعار البوتقة، وإذا بتلك الجماعات اليهودية تتـناحر فـيما بيـنها لـلمحافظة عـلى هويتها الخاصة، ولتتفاخر كل جماعة بإنجازاتها الفردية فحسب.

ويعـبر " شـلومو بـن عامى " المغربى الأصل، والقيادى فى حزب العمل الإسرائيلى، عـن ذلك الوضع الـهامشى الذين يعيشه اليهود السفاراديم فى لقاء معه بقولـه: " جئت من مديـنة طـنجة وعمـرى اثنا عشر عاماً، إننى مجنون بهذه المدينة... كما يتحدث عن (جرح الخمسـينيات) الـذى لا يـزال مفتوحاً، عندما وصل وعائلته سنة ١٩٥٥ إلى فلسطين ضمن موجـة هجـرة جماعـية للـيهـود الشـرقيين، فرشـوهم بمـادة الـ د. د. ت. ثم نقلوهم إلى (المعـبراة) حيـث (المشـهد المأسـوى) الـذى (يمـزق القلوب): مكان هو لا مكان ـ على حد تعـبيره ـ واشـتملت شـهادته أيضـاً عـلى تجربته فى معسكر حركة العمل: (نحن فى الداخل ولسـنا فـى الداخل)، مضيفاً أن ابن الطوائف الشرقية لا يزال يجد صعوبة فى الحصول على الشـرعية الكاملـة لوجـوده داخـل هـذا المعسـكر. ويذهـب بـن عـامى إلى القول، بأن هذه الطوائـف توجه احتجاجها وسخطها نحو حركة العمل لا نحو الليكود، لأن هذه الحركة هى الـتى قـادت عملـية التحديـث طـوال ثلاثـين عامـاً مـن دون أن تصـل باليهود الشرقيين إلى الطمأنينة والمساواة "[1].

(١) خالد عايد: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص١٠٤).

وتـرجع " إيـلا شـوحط " هـذا الوضـع الـذى يعيشه اليهود السفاراديم فى إسرائيل إلى الصهيونية، حيث تقول: " تـزعم الصـهيونية أنهـا حركة تحرر لجميع اليهود، ولم يوفر الأيديولوجيون الصـهيونيون أى جهـد فـى محاولة جعل تعبيرى (اليهودى) و (الصهيونى) مترادفـين فعلياً. لكن الصهيونية، فى الواقع، كانت أساساً حركة تحـرر لليهود الأوربييـن (وهـذا الأمر كمـا نعـلم مشكوك فيه)، وبصورة أكثر دقة لتلك الأقلية الصغيرة من اليهود الأوربيين القاطنين بإسرائيل فعلاً، ومع أن الصهيونية تزعم أنها تقدم وطناً إلى جميع اليهود، فـإن ذلـك الوطـن لم يقـدم إلى الجميع عـلى المستوى نفسه، فقد جئ باليهود الشرقيين فى الـبداية إلى فلسـطين لأسـباب صـهيونية أوربـية خاصـة. ثـم جـرى التمييز بيـنهم بصورة منهجـية، مـن قـبل الصـهيونية الـتى بذلت طاقاتها ومواردها المادية بصورة مميزة، لمصلحة اليهود الأوربيين الدائمة، وللأذى الدائم لليهود الشرقيين " [(١)].

وتضـيف " إيـلا شـوحط " قائلـة: " بـدأ التمييز العرقى ضد اليهود الشرقيين مع بداية اسـتقرارهم. فلدى وصولـهم إلى إسرائيل وزعت مجموعات متعددة منهم عبر البلاد، على الـرغم مـن إرادة الـبقاء معـاً. العـائلات فرقـت، والمجموعـات القديمـة فتتـت، والقـادة التقلـيديون جـردوا مـن مناصبهم. واليهود الشرقيون أسكنوا فى الغالب، فى (معبروت)، أى معسـكرات انـتقال، وقـرى نائـية ومسـتوطنات زراعية، وفى ضواحى المدن، ومنها ما أفرغ حديثاً من الفلسطينيين " [(٢)].

وعـن الوضـع الاجـتماعى الـذى يعيشه هؤلاء اليهود السفاراديم فى إسرائيل تقول إيلا شـوحط: " . . . وباعـتبار الـيهود الشـرقيين قـوة عاملـة ورخيصـة، ومـتحركة، وقابلة للتلاعـب بهـا، فقـد كانوا ضروريين للتطور الاقتصادى لدولة إسرائيل، فأصبح الكثيرون مـنهم عمال بناء بأجور منخفضة. ثم أدت الأرباح العالمية، الناشئة عن الأجور المتدنية، إلى توسـع سـريع لشـركات البـناء الـتى يديـرها اليهود الإشكنازيم أو يملكونها. . . وتكشف الوثـائق المنشـورة مؤخـراً الحجـم الـذى كـان فيه التمييز سياسة محسوبة ميزت، عن قصد، المهاجـرين الأوربـيين وأوجـدت، أحـياناً، أوضـاعاً شـاذة يكـون فـيها الـيهود الشرقيون المتعلمون عمالاً غير مهرة بينما يحتل الإشكنازيم الأقل تعلماً مواقع إدارية عالية " [(٣)].

وتكشـف لـنا شـوحط عن دخول النظام التعلىمى فى إسرائيل القائم على الفصل وعدم المسـاواة، دائرة التمييز ضد اليهود السفاراديم، " فللأشكنازيم، على العموم، ثلاثة أعوام مـن التعلـيم أكـثر ممـا للسـفاراديم. وحضورهم فى المدارس العالية الأكاديمية يعادل ٤ر٢ ضعف، كما يبلغ خمسة أضعاف فى الجامعات " [(٤)].

(١) ايلا حبيبة شوحط: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص١٠٦).
(٢) ايلا حبيبة شوحط: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص١٠٩).
(٣) انظر: ايلا حبيبة شوحط: نفس المرجع، (ص١١٠-١١١).
(٤) نفس المرجع، (ص ١١٣).

ويؤكد أفيشاى مرجليت أيضاً على هذه الأوضاع التمييزية بقوله: " أربعة فى المائة فقط من اليهود المولودين فى إسرائيل من ذوى الأصول الشرقية يتجهون الآن إلى التعليم العالى، فى مقابل ١٥ فى المائة من اليهود المولودين فى إسرائيل من ذوى الأصول الإشكنازية " (١).

وقد عبر يهوشواع، باعتباره من اليهود الشرقيين، فى رواية (مولخو) عن ذلك التفاوت الرهيب فى المعاملة من قبل الدولة لليهود الشرقيين، وعن نظرة المجتمع الإشكنازى لليهود الشرقيين على أنهم جيل مساعد ومكمل لهم، إذ يقول على لسان "مولخو" :

" إنني سفارادي قديم، جيل خامس في البلاد، وأوروبا مازالت غريبة عنا " (٢).

وإذا كان يهوشواع يؤكد على سفارادية "مولخو" ، طوال الرواية، فإنما يؤكد على سفاراديته هو، لا سيما أن بعض النقاد الإسرائيليين يشيرون إلي التشابه الكبير بين أوصاف "مولخو" الخارجية وأوصاف يهوشواع نفسه. وإذا كان "مولخو" قد فرضت عليه الثقافة الغربية، فإن يهوشواع أيضاً قد فرضت عليه الثقافة الغربية فى حياته الخاصة، على الرغم من أنه يعتز بسفاراديته. " لقد ذكر يهوشواع في أحد مقالاته أن أمه لم تكن تنتمى للسفاراديم القدامى فى القدس، مثل أبيه، بل هاجرت من المغرب إلى إسرائيل فى عام ١٩٣٢ (ولم تشعر تجاه الطائفة السفارادية بإحساس خاص). ولكنها رأت أن تزرع أبناءها بشكل عملى وعاطفى (فى قلب البلاد التى تعج بالعالم الصهيونى الإشكنازى). وهكذا أرسل يهوشواع وأخته إلي مدرسة (رحافيا) الثانوية، ولم يرسلا إلى المدرسة " تحكمونى " (مدرسة الطائفة السفارادية بالقدس). وقد ذكر يهوشواع فى العديد من اللقاءات التى أجريت معه، أنه لم يعر اهتماماً لهياج أبويه تجاه حنينه للاستيطان السفارادى القديم من العقد السابق (١٩٨٧ وما بعده) " (٣).

ويفسر " أبراهام بلفان " الأسباب التى جعلت والدى يهوشواع يزرعانه داخل المجتمع الإشكنازى فيقول: " لاشك أن علاقة يهوشواع بأبيه نبعت أيضاً من ذلك الوضع المتدنى الذى عاش فيه السفاراديم داخل المجتمع الإسرائيلى وثقافته . . . وتحول التوتر القائم بين الأب والابن إلى موضوع رئيسي فى إنتاجات يهوشواع. كما أن يهوشواع لم يتماثل مع أسرته، ولم يكن أبداً منتمياً لذلك العالم الإشكنازى " (٤). وهو ما يؤكد عليه يهوشواع طوال الرواية على لسان "مولخو" قائلاً : (إننى شرقى) (٥).

---

(١) أفيشاى مرجليت: إسرائيل الأخرى، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٣٦، خريف ١٩٩٨، (ص١٢٩).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص٦٨).
(٣) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيدمانى)، مرجع سابق، (ص٧).
(٤) نفس المرجع، (ص٨).
(٥) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص٢٨).

وقد كشف يهوشواع في هذه الرواية أيضاً عن ذلك الوضع المتدهور الذى يعيش فيه الإسرائيليون الشرقيون وعدم اهتمام الدولة بهم، وبدا هذا واضحاً فى الزيارة التى قام بها "مولخو "إلى منطقة (زروعا) بالجليل، وهى منطقة يعيش فيها يهود شرقيون ترجع أصولهم إلى الهند وتونس وجنوب أفريقيا، ويعمل أفرادها فى الزراعة، بينما يعمل نساؤها فى إصلاح الأحذية، وهو وضع لم يشعر به الإشكنازيم:

" أخذ "مولخو" يفكر فى داخله، إنهم بشر وكذلك إسرائيليون، تدحرجوا إلى هنا فى أقصى العالم، ونحن لا نشعر بهم، وحتى التليفزيون لا يظهرهم "[1].

وهكذا، يعكس لنا يهوشواع حقيقة المناطق التى يعيش بها اليهود الشرقيون فى إسرائيل، والإهمال الواضح من قبل الحكومة الإسرائيلية تجاه هذه الأماكن التى يعيشون بها وهى حقيقة يؤكد عليها شلومو بن عامى، الذى عاش هذه التجربة بنفسه فى أثناء هجرته مع أبويه فى الخمسينيات من المغرب إلى إسرائيل، حيث يقول: " . . وفى الطريق مررنا بكل تلك المستوطنات التى كانت قائمة فى مرج ابن عامر، وفى كل مرة كنا نقول لأنفسنا، ها قد وصلنا مؤكد هنا، مؤكد هنا فى هذا (الموشاف) الجميل، فى هذا الكيبوتس حيث كانت المرشات تروى العشب الأخضر. وعندها وصلنا إلى مكان، هو لا مكان. هو لا شىء، معسكر من الخيام، كان يدعى (معبرات مانسى). لم يكن هناك صنابير للمياه. وقد أدرك الناس فوراً، أنهم ضللوا وأنهم كانوا ضحية عملية خداع، إذ إن أحداً لم يقل لنا إننا سنقيم هنا بخيام، فى شبه لا مكان كهذا. لقد كان إحساساً فظيعاً بالانكسار. وبكت النساء، وشرعن فى العويل كأنهن فى مأتم وقام بعضهن بمهاجمة أزواجهن، ضربنهم وصرخن فى وجوههم: إلى أين أتيتم بنا، إلى أين؟ كان المشهد يمزق القلوب. وببساطة أقول، إنه أمر كان مأساوياً " [2].

ويؤكد يهوشواع كذلك على تلك النظرة الفوقية التى ينظر بها اليهود الإشكنازيم تجاه السفارديم، فالأعمال الحقيرة من نصيب السفارديم فقط، فهم هنا فى إسرائيل لخدمة الإشكنازيم:

" لقد عثروا على شيال، قال "مولخو" فى نفسه، واختاروا حمالاً سفاراديا.
وواصل مرارته بإحساس بالظلم غير ملموس، وانتبه إلى أن الروسية الصغيرة لم تبذل أى جهد لتأتى بالعربة "[3].

---

(١) نفس المرجع، (ص١٤٨).

(٢) آرى شفيط: لقاء مع عضو الكنيست شلومو بن عامى، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٣٦، خريف ١٩٩٨، (ص١٤٣).

(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٧٢).

ولم يقف الوضع المتدهور لليهود السفارادیم داخل إسرائيل عند هذا الحد، بل تعدى الأمر إلى امتيازات أخرى يتمتع بها الإشكنازيم دون السفارادیم فی دولة ترفع شعار الصهيونية المشهور (بوتقة الصهر) ؛ فيقول "مولخو" فی حديثه عن نفسه وعن مجتمع اليهود السفارادیم :

" إنه لم يحظ أبداً بمهمة خارج البلاد على حساب الدولة، اعترف بمرارة، إننا أيضاً لم نحظ بمثل هذا أبداً "[(١)].

ولم يكن بمقدور هؤلاء اليهود السفارادیم فعل شيء تجاه هذا الوضع سوى مسيرات الاحتجاج :

" لقد بدأ الإثيوبيون السود، ممن هاجروا منذ فترة ليست ببعيدة إلى إسرائيل، فی مسيرات احتجاج على طول الطرق الرئيسية "[(٢)].

ومن هنا وقعت الصهيونية، كما حاول أن يؤكد يهوشواع، فی خطأ جسيم بتلك النظرة السطحية لهؤلاء اليهود الشرقيين، فقد كانت تنظر إليهم نظرة فوقية، وترى أنهم يفتقرون إلى أيديولوجية وأنهم خطر على الدولة، تماماً مثلما كانت تنظر زوجة "مولخو" إليه :

" لم تعر حديثه اهتماماً، وعدت ذلك دليلاً على افتقاره للأيديولوجية وعلى سذاجته السفارادية الخطيرة التی ستكون نهايتها كارثة سياسية "[(٣)].

ويؤكد يهوشواع، على لسان "مولخو"، على أن الصهيونية أصابها العطب وأنها فی طريقها إلى الزوال، ليبقى فی النهاية العنصر الشرقی :

" إنها الآن تتعفن فی بطء، فهی فی طريقها للزوال. أما هو، وحيداً فكان يجلس جلسة شرقية مريحة فی أعماق الوادی أمام شلال رائع "[(٤)].

وهكذا، يجسد " مولخو" تلك الفجوة العميقة بين الإشكنازيم والسفارادیم داخل المجتمع الإسرائيلی، التی لم تتوقف عند حد التمييز الطائفی، بل امتدت إلى كراهية الإشكنازيم للسفارادیم ؛ " إذ ينظرون إليهم باعتبارهم إسفين الحضارة العربية المتخلفة المزروع داخل المجتمع الإسرائيلی، ويرون أن هذا الأمر يهدد أساس الوجود الإسرائيلی كدولة تعد امتداداً طبيعياً للحضارة الغربية "[(٥)].

" إن الفجوة بين اليهود الشرقيين والغربيين ليست طبقية اجتماعية بالمعنى المألوف، وإنما هی جزء من طبيعة المجتمع الصهيونی الاستيطاني الإحلالية، باعتباره مبنياً على اغتصاب الأرض، وطرد سكانها، واستيراد عنصر بشری يهودی شرقی فقير، عليه أن يبقى كذلك

---

(١) نفس المرجع، (ص٦٨).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١٨٦).
(٣) نفس المرجع، (ص١٦٦).
(٤) نفس المرجع.
(٥) د. رشاد عبدالله الشامی : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ٩).

حتى يظل قاعدة الهرم، ولذا يمكن القول، إن أزمة اليهود الشرقيين هى عن حق، بؤرة الأزمة الأيديولوجية الصهيونية .[1] ودليل قاطع على تحطم بوتقة صهرها، وإخفاق جديد ينضم إلى قائمة إخفاقات الصهيونية على أرض الواقع.

ثالثاً : فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين:

كان إخفاق الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل الآباء المؤسسين ليستكملوا المشوار، من الأمور التى اهتم بها بعض الأدباء الإسرائيليين، وأولوها اهتماماً كبيراً فى إنتاجاتهم الأدبية. لقد انتحى مشروع المؤسسين جانباً وهجر ودمر على يد الأبناء، ومن هنا باءت محاولات الآباء المؤسسين بالفشل فى إعداد وريث يواصل الهدف الصهيونى بنفس الحماس. وبالتالي، فإن (مرحلة النجاح) فى الاستيطان أعقبتها فى فترة متأخرة من سنوات قيام الدولة (مرحلة الفشل).

ولم تكن مسألة فشل الصهيونية في إعداد ورثة لجيل المؤسسين محور اهتمام يهوشواع فى هذه الرواية، مثلما فعل ذلك بعض الأدباء الإسرائيليين، مثل عاموس عوز الذى خصص روايته (صندوق أسود) بكاملها لتلك القضية. لقد كان جل اهتمام يهوشواع منحصراً فى قضيتى الشتات والانفصال عن الصهيونية الكلاسيكية. إلا أنه لم يترك تلك القضية تماماً، بل تعرض لها من خلال أبناء "مولخو"، ووصف حال ذلك الجيل - جيل الأبناء - بأوصاف سلبية للغاية. لقد قدمهم يهوشواع على أنهم يمثلون جيلاً يفتقر إلى المسئولية والجلد، لا يعتمد على نفسه، ويستهتر بالأمور إلى حد الفشل فى الحياة الشخصية، فيقول يهوشواع على لسان القاص فى حديث طويل عن أبناء " مولخو " :

" لقد عادت الفتاة من رحلتها الصيفية لأوروبا ... وكانت أحياناً لا تعود إلى المنزل، حتى فى يوم السبت. أما ذلك الطالب (عومرى م.) فإنه بدأ يتجول مع امرأة تكبره بسنوات عديدة. . إنها امرأة سمينة ومتعبة. . طلقت منذ عشر سنوات "[2].

وهكذا تبدو " عانات " ابنة "مولخو" الكبيرة، و" عومرى" ابنه الأوسط فى حالة يرثى لها، حتى إن "مولخو" يفكر فى علاج ابنه، ويطلب من ابنته الحديث معه فى ذلك الأمر:

" توسل إلى ابنته قائلاً، يجب أن نرسله للعلاج، تحدثى معه "[3].

---

(١) د. عبدالوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (ص ١٩٤).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٦٧-٢٦٨).
(٣) نفس المرجع، (ص٢٦٨).

ويمضى القاص فى الحديث عن أبناء "مولخو" الذين يمثلون جيل الأبناء، فيتحدث عن ابنه الصغير الذى يتخبط فى حياته ويفشل فى دراسته ويثير أعصاب مدرسيه فى مدرسته :

" فكر "مولخو" بعطف فى حال ابنه الصغير، الذى بعد تخبط كبير ومحادثات طويلة مع المدرسين والمدير تقرر إبقاؤه فى فرقته المدرسية . . . أومأ "مولخو" برأسه موافقاً وهو يقول، ليست هذه بكارثة "[1].

ويذكرنا ابن "مولخو" الصغير بشخصية "بوعز" فى رواية (صندوق أسود) لعاموس عوز، فقد كان بوعز شخصية فاشلة فى حياتها ؛ حيث ينتهج فى أسلوبه القوة والعنف فقط، ويعيش بعيداً عن أبويه، وقد هدد بالفصل من مدرسته عدة مرات بسبب عنفه وفشله فى الدراسة .

لقد كان ذلك الصبى مصدر قلق دائم لأبيه "مولخو" ، فهو ينجح بالكاد فى دراسته :

" كان الابن الصغير مصدر قلق دائم لهم . ففى السنوات الأخيرة، كان ينتقل بصعوبة من فرقة إلى أخرى . وقد تجاهل المدرسون إخفاقاته بسبب مرض أمه ووضعها فى المدرسة "[2].

ولم يتسم ذلك الجيل بالفشل فقط، فهو أيضاً جيل متبلد العواطف، فعندما يذهب "مولخو" لابنه فى كليته، ليتحاور معه فى أمر أخيه الصغير الذى خرج فى رحلة دون أن يعرف إلى أين ذهب، وبدا الابن بارداً ومتبلد العواطف :

" لم يتأثر ذلك النحيف الطويل . إنه بالتأكيد مستقر فى ثمة مكان، لماذا أنت منزعج؟ "[3].

كما وصف يهوشواع ذلك الجيل بالاستهتار والخمول، فـ" جابى " الابن الصغير لـ"مولخو" يأكل من الوعاء مباشرة دون أن يضع مايريد فى طبق :

" انفعل "مولخو" ، وجذب القدر منه وأحضر صحناً، ثم قال له لا تأكل هكذا من القدر مثل الحيوان "[4].

ويتسم ذلك الجيل كذلك بعدم المبالاة تجاه الآباء :

" غاص فى كرسيه ينظر إلى أبيه بعدم مبالاة "[5].

ويعتمد أبناء هذا الجيل أيضاً على الآباء فى كل شىء، ولا يعتمدون على أنفسهم مطلقاً؛ وعلى الرغم من ذلك فهم يرفضون سلطة الآباء :

---

(١) نفس المرجع، (ص٢٦٨).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، ، (ص٥١).
(٣) نفس المرجع (ص٢٤٦).
(٤) نفس المرجع، (ص٢٥٤).
(٥) نفس المرجع، (ص٢٥٤).

" إنـك تغـير حـركة الشبيبة دون أن تبلغنى ، وتخرج مع أصدقاء جدد من مدرسة أخـرى دون أن تخطـرنى ، هل تظن أن أبيك هو مجرد حارس دائم يجب أن ينتظرك دائمـاً ليفـتـح لـك الباب ، ويخبرك كم الساعة ، وبعد ذلك تشتكى للجدة بأننى لا أعطيك مالا " (١).

وهكـذا تـبدو الفجـوة عميقة بين الآباء و الأبناء ، مما يشير إلى صعوبة إعداد ذلك الجيل كورثـة لجيل الآبـاء . لقد أخطأت الصهيونية منذ البداية ولم تعط الفرصة لـهؤلاء الشباب فـى الاعـتماد عـلى الـنفس ورسمـت لــهم الطريق دون أن تسمح لـهم بالمشاركة فى اتخاذ القـرارات ، وكانت النتيجة أنه أصبح جيلاً لا يعتمد على نفسه ، ولا يعرف الـهدف ، جيلا مستهترا لا يحترم الآباء ، ويتسم بالجفاء وعدم المبالاة .

ويـرجع هـذا الفشـل فـى إعداد هذا الجيل ، إلى تشرذم المجتمع الإسرائيلى وعدم توحيد فـئاته تجـاه هدف واحد . فتعدد الأهداف والرؤى وتناحر الجماعات اليهودية المختلفة يؤدى إلى تشـتت الفكـر لـدى النفسية الإسرائيلية ، وبالتالي ، فإن العلاقة بين الدولة وذلك الجيل دائمـاً مـا تصـاب بفـتور ، لا سـيما " أن إسـرائيل تـتكون من عدة أمم تتعدد فيها الأعراق والـثقافات والاتجاهـات الفكـرية ؛ فبالإضـافة إلى البنـية التقليدية للمجتمع الإسرائيلى من عناصـر السـفاراديم والإشـكناز والصـابرا والمهاجرين الجدد والعرب الفلسطينيين ، تتزاحم الأيديولوجـيات المخـتلفة ، حيـث ينقسـم الإسرائيليون إلى يهود متشددين وقوميين ودينيين وتقلـيديين وعلمانـيين وغـير ذلـك من الفئات ؛ وهو ما أدى إلى تشرذم المجتمع الإسرائيلى وتفتـته إلى عـدة ثقافـات ولـهجات " (٢) . ومن هنا تكمن صعوبة إعداد ذلك الجيل ليكون وريثاً للأباء المؤسسين فى ظل كل هذه الصراعات الطائفية بين جموع اليهود ، ويكمن الفشل الذريـع للصهيونية فى إعداد جيل الورثة ، فى أنها لم تحسن أدوات الإعداد ، فقد كان همها الأكـبر هو تجميع اليهود دون مراعاة لاختلاف الـهويات و الثقافات والأيديولوجيات . وهو ما جعل يهوشواع فى إطار تقويمه للصـهيونية ودعوته للانفصـال عنها ، يقر بأن جيل الورثة لن يأتى إلا بعد عدة سنوات وليس الآن :

" تذكـرها وهى تقف ممشوقة مثل علامة استفهام رقيقة ، تحمل فى أنوثتها أعماق ذلك الولد الأخير الذى لم يولد منذ سنوات كثيرة " (٣) .

وهكـذا ، أكـد يهوشـواع عـلى فشـل الصـهيونية فى إعداد ورثة لجيل الآباء كما كانت تحـلم ، وهـى قضية اتفق عليها معظم الأدباء الإسرائيليين ، مثل عاموس عوز الذى " أشار

(١) نفس المرجع ، (ص٢٥٤-٢٥٥) .
(٢) د. محمد خليفة حسن : الشخصية الإسرائيلية واتجاهاتها نحو السلام ، صحيفة الأهرام ، ١١-٦-١٩٩٧ .
(٣) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو " ، رواية ، مرجع سابق ، (ص٢٥٥) .

فـى روايتـيه (راحـة صـحيحة) ١٩٨٢ ، و (صـندوق أسود) ١٩٨٧ إلى فشل الأيديولوجية الصـهيونية فـى إعداد ورثة من الأجيال التى أعقبت جيل المؤسسين ، لكى يواصلوا الـهدف بنفس الحماس والإخلاص ، حيث اهتمت هاتان الروايتان بمسألة الإرث ومشكلة المرشحين لـه الذين يتصفون فى المجتمع الإسرائيلى كورثة غير مؤهلين لـهذا الميراث " [1].

رابعاً : الانفصال عن الصهيونية والبحث عن بديل جديد :

لقـد تكونـت مبادئ الصهيونية فى الغرب وأسسها ، وكانت مسألة قيام دولة يهودية فى الشـرق فـى طلـيعة أهدافهـا . وبعد قيام الدولة ظن مؤسسو الصهيونية أنهم يسيرون بخطى ثابـتة وناجحـة ، ولكنهم سرعان ما اصطدموا بالواقع ، واقع الأرض الشرقية وماعليها من بشـر . وهنا بدأت حسابات الصهيونية تتهاوى ، وكانت حرب ١٩٤٨ هى الخط الفاصل ما بـين رؤى الصهيونية وسـبل تحقيقها . وتمضى السنون لتخوض إسرائيل حرباً بعد حرب مع جيرانهـا العـرب ، وتسـقط مـع هـذه الحـروب أقنعة الصهيونية لتكشف لنا عن أيديولوجية عقيمة تكونت فى الغرب لتبدأ فى الشرق ، وهى أبعد ما تكون عن الزمان والمكان .

ومـع تفـاقم المشـكلات الداخلـية والخارجـية لإسـرائيل كدولة ، واخفاق الصهيونية فى تحقـيق أهدافهـا المختلفة مثل : تراجع معدلات الـهجرة ، وفشل دمج الشتات فى إسرائيل ، وتحطـم بوتقـة الصـهر ، والفشـل فـى إعـداد جـيل ورثـة للمؤسسـين ، وتشـرذم المجـتمع الإسـرائيلى ، بدأ الأدباء الإسرائيليون فى عملية مراجعة دقيقة وشاملة لنجاحات الصهيونية وإخفاقاتهـا ، وبلغـت موجة نقد الصهيونية ذروتها مع تلويح يهوشواع بحل التحرر من هذه الأيديولوجـية الكلاسـيكية الـتى لم تـتوافق أفكارهـا مـع أفعالـها ، وتبتعد تماماً عن الواقع المعاش .

ولـم يقـترح يهوشـواع حل الانفصال فحسب ، بل حاول تصور البديل الجديد . وبسبب إيمانـه بالطبيعـية والخضوع للمكان والزمان ، ذلك المكان الذى توجد فيه الدولة ، فقد حاول البحـث عـن أيديولوجية ذات هوية جديدة تخضع للمكان والزمان ؛ أيديولوجية بديلة تضع فى اعتبارها معطيات الواقع وفرضياته .

وعـن فكـرة الانفصـال هـذه لـدى يهوشـواع ، يقـول يوسـف أورن : " تلـهو روايات يهوشـواع بفكـرة الانفصال عن الأسس التى لم تنجح فى العيش بنجاح ، حيث يكمن الحل فـى الفصـل مـا بـين الأيديولوجـية والحـياة حتى تتمكن الدولة من القيادة طبقاً للإمكانيات الواقعـية الماثلة أمامها ، وذلك بعد أن ثبت ـ وتعتبر الحروب الدورية دليلاً على ذلك ـ فشل

(١) يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية) ، مرجع سابق ، (ص١٧) .

جهودها في العيش طبقاً لتحكمات الأيديولوجية الصهيونية. ولذا يجب أن نستبدل بالأيديولوجية الغربية القديمة أيديولوجية وليدة تخضع للبيئة والزمان والمكان، وتدير الحياة طبقاً للاحتمالات القائمة بالفعل. وهذا ما يعرض في رواية (مولخو) من خلال الطفلة القيادية الثورية العذراء، التي يقسم لها "مولخو" على الإخلاص ويؤكد لها أنه سينتظرها حتى تنضج أنوثتها ويحبها، لكي ينجب منها أطفالاً طبيعيين "[1].

وقد عبر يهوشواع في هذه الرواية عن حل الانفصال والبحث عن بديل من خلال أربع جولات نسائية قام بها "مولخو" طوال الرواية بعد وفاة زوجته ذات الأصول الصهيونية الغربية بهدف البحث عن بديل جديد لزوجته (الصهيونية الغربية)، وباءت الجولات الثلاث الأولى مع النساء الغربيات كلها بالفشل، ولم تنجح إلا الجولة النسائية الرابعة مع طفلة مستوطنة " زروعا " بالجليل، تلك الطفلة الشرقية التي تبلغ من العمر ١١عاماً، أو بالأحرى تلك الأيديولوجية الشرقية الجديدة التي تخضع للمكان (البيئة) والزمان (بعد رحيل الصهيونية الغربية).

وعلى الرغم من علم يهوشواع منذ البداية بصعوبة التأقلم بين العقلية الإشكنازية (النساء الثلاث) و"مولخو" باعتباره سفاراديا، فإنه حاول التأكيد على أن البديل لن يكون أبدا غربياً، لا سيما أن "مولخو" قد تحرر بصعوبة بالغة من القيود الغربية التي فرضتها عليه زوجته الإشكنازية ولم يعد بمقدوره احتمالها مرة أخرى، فاتجه نحو الشرق، واقع بيئته الأصلية التي عاش فيها ومازال.

ويمكن لنا أن نتبين الأيديولوجية الجديدة التي حاول أن يبحث عنها يهوشواع من خلال هذين المحورين:

(١) تحقق الانفصال عن الصهيونية الكلاسيكية:

كانت مرحلتا الخضوع والتحرر التي مر بهما "مولخو" خلال أحداث الرواية، وتحدثنا عنهما سابقاً، هما تمهيد للانفصال التام عن زوجته، وعلى الرغم من خضوع "مولخو" في البداية لقيود زوجته وحبه الكبير لها حتى بعد مماتها، فإنه حاول الانفصال عنها ونجح في ذلك كما يقول أورن: " فما دام من المستحيل أن ندير الدولة طبقاً لوصايا الصهيونية غير الواقعية التي لا تتناسب مع الزمان والمكان، فمن الضروري أن ننفصل عنها مثلما ننفصل عن إنسان توفى على الرغم من أنه قام بدور مهم في حياتك خلال فترة زمنية معينة، وكنت

---

(١) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلي " (الصهيونية والصبارية في الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص١٩).

تحبه وتحتاج إليه خلال تلك الفترة الزمنية. وبإسم الحياة المستمرة فعلى من يواصل الحياة ويتطلع إليها بالارتشاف منها كما ينبغى أن يقّوم حياته من خلال حب جديد لأيديولوجية جديدة " (١).

ولم تكن تلك الرواية هى الأولى التى تحدث فيها يهوشواع عن حل الانفصال لوضع معوج مثل هذا. " فقد كانت جهود الانفصال بين الزوجين، التى حولت حياتهما المشتركة إلى كابوس وجعلتهما غير متزنين، موضوعاً مشتركاً لروايات أ. ب. يهوشواع الثلاثة: (العاشق) ١٩٧٧، و(طلاق متأخر) ١٩٨٢، و(مولخو)١٩٨٧. وبكتابة تلك الروايات الثلاث أكمل يهوشواع الثلاثية التى تمخض عنها، رويداً رويداً، ذلك الاستنتاج بأنه عندما يكون الوضع على هذا النحو فيجب علينا أن نفصل بين الزوجين قبل أن تحدث كارثة تنعكس أضرارها عليهما وعلى أبنائهما " (٢).

ولم يأت حل الانفصال لدى يهوشواع من فراغ، بل رأى أن الصهيونية لم تحقق ما كانت تطمح إليه، ولم تتحقق بعد:

" وأضاف قائلاً، إن امرأة مستقيمة كهذه تبدو، انتقادية للغاية، حتى تجاه نفسها... ولكنها بشكل عام، ليست سعيدة، لأن شخصية متقفة مثلها، كان من الصعوبة بمكان إشباع رغبتها، حيث لم تستطع تحقيق ذاتها " (٣).

ويتفق هذا مع موقف يهوشواع المباشر من الصهيونية، فهو يقول: " لدىّ رغبة فى تقليل حدود الصهيونية داخل حياتنا، وبمفهوم أيديولوجى أيضاً، فإن ذلك ليس لأننى لا أرغب فى رؤية ما ليس فى الصهيونية. فالصهيونية لم تقف ضدى كقضية يجب أن أحسمها فى ذلك العصر: أى أن أكون صهيونياً أو لا أكون، بل هى حدث تاريخى. إننى أتعامل مع الصهيونية مثل إنسان فرنسى يتحدث عن عصر (نابليون)، وأنظر إلى ما فيها من ضرورات وشرعية فقط، وكيف انتهى كل هذا دون أن يؤثر فى الواقع الذى نعيشه فى ذلك العصر " (٤).

وهكذا، حاول يهوشواع من خلال "مولخو" الانفصال عن زوجته التى تمثل الصهيونية الكلاسيكية فى الرواية بعد نقده السلبى لها. وقد تعددت مظاهر الانفصال فى الرواية، فها هو يتخلص من كومة الأدوية التى تكونت لديه خلال سنوات مرضها، ويحاول بيعها، فهو لا يريد أن تذكره تلك الأشياء بها:

(١)يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٢٨).
(٢) نفس المرجع (ص٢٧).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١٢٦).
(٤) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت " (أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص٩٧).

" مازال يحاول التخلص من كومة الأدوية، التى كدرت عليه حياته " (١).

كما أنه قرر خلع خاتم الزواج من إصبعه ليتحقق الانفصال التام، وعلى الرغم من صعوبة خلع الخاتم من إصبعه، فإنه ينجح فى النهاية بمساعدة أمه، فقد اتفق الجميع على حل الانفصال:

" عادت أمه مرة أخرى إلى موضوع خاتم الزواج، فقال لها: ليكن كذلك، وحاول خلعه ولكنه لم ينجح ؛ لأن إصبعه سمن للغاية بعد مرور تلك السنوات الكثيرة، فأحضرت أمه الصابون، ورويداً رويداً وبألم خفيف خلعوه من إصبعه " (٢).

وهكذا، حاول يهوشواع أن يبين لنا مدى صعوبة الانفصال، بالإشارة إلى إصبعه الذى سمن، فقد كانت الدولة تعتمد على الصهيونية فى خطواتها، وتحقق معدلات برامجها الموضوعة، ويصعب عليها الانفصال بسهولة، ولكنه يؤكد على ضرورة الانفصال بنجاح "مولخو" وأمه فى المحاولة، على الرغم من تفكيره فى المستقبل بعد الانفصال وعيشه بدون أيديولوجية، بعد أن تركت الزوجة المتوفاة وراءها الكثير من المشكلات والصعوبات:

" كان هو الوحيد الذى شعر بالحزّ الأبيض الذى بقى فى إصبعه بعد خلع الخاتم، فالطريق طويل وصعب. . . والظلام يزيد الصمت عمقاً " (٣).

ويرى الناقد الإسرائيلى أبراهام بلفان، أنه من الطبيعى أن تكون مسألة الانفصال هى الحل الوحيد، لاسيما أن العلاقة التى تجمع بين "مولخو" وزوجته تتسم بالتوتر الدائم، فهى علاقة تجمع بين نقيضين، حيث يقول: " كان "مولخو" يمثل النقيض المطلق لزوجته الغربية. فهو إنسان بسيط غير مثقف تحكمه عدة أفكار بدائية وحياتية، ومازال مرتبطا بالطبيعة. أما زوجته، فى مقابل هذا، فهى شخصية مثقفة، تتميز بعدم وجود علاقة بينها وبين الطبيعة. . . ومن هنا، فأمامنا نموذج إسرائيلى يمثل المواجهة ما بين الطبيعة والحضارة الغربية. فالحضارة، فيما يتعلق بذلك، تمثل هنا الانقطاع عن الجذور، بعكس الطبيعة التى تمثل الارتباط بالجذور. ولكن "مولخو" السفارادى مرتبط ارتباطاً قوياً بجذوره، فلكى يكون جزءاً من زوجته، فعليه أن يتخلى عن جذوره واستقلاليته. ويتضح هنا أن "مولخو" هو النقيض القطبى لزوجته التى تمثل الصهيونية الغربية، حتى وإن كان يقبلها " (٤).

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٥٧).
(٢) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٦٢).
(٣) نفس المرجع، (ص٦٢).
(٤) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص٩٠).

ومـن هـنا كـان إدراك "مولخـو" لضرورة الانفصال على الرغم من الطريق الصعب فى البحـث عـن أيديولوجـية جديـدة، وعـلى الـرغم من الإخلاص الطويل لـها وتحملـه فوق طاقته، فقد آن أوان التفكير فى المستقبل، مستقبل أبنائه وأمه الشرقية:

" إنـنى مضطر عند هذا الحد للتوقوف. لقد فعلت ما هو فوق طاقتى، واهتممت بها مخلصاً حـتى توفيت، وإن كانت مازالت تجذبنى نحوها بعد الموت، فإننى يجب الآن أن أحافظ على نفسى. فلدىّ أبناء ما زالوا فى حاجة إلىّ، وأم عجوز فى القدس "[1].

لقد أقر الجميع أنه آن الأوان لتوديع الصهيونية وضرورة رحيلـها، بعد أن قامت بدورها ولم تعد الدولة فى حاجة إليها، حتى إن أمر رحيلـها أو موتها أصبح معروفاً لدى الجميع، جمـوع الـيهود فـى العالم، ففى خارج إسرائيل عندما يخبر "مولخو" أم أحد موظفى السفارة بموت زوجته يكتشف أنها تعرف الخبر، على الرغم من عدم معرفته بها من قبل:

"لقـد فقـدت أنـا أيضـاً زوجـتى مـنذ عام تقريباً، ولكن الذى أثار دهشته هو أن العجوز كانت تعرف الخبر بالفعل، و كأن الحقيقة مكتـــوبة على جبهته "[2].

وهكـذا، أمكـن تحقيق الانفصـال الـتام عـن الصهيونية الكلاسيكية المتمثلة فى الزوجة المتوفاة زوجـة "مولخـو". ولم يكـتمل ذلـك الانفصـال إلا بالـبعد كذلـك عن العقليات الإشـكنازية الأخرى المتمثلة فى النساء الإشكنازيات الثلاث اللاتى التقى بهن "مولخو" عد وفـاة زوجـته. فقـد حـاول يهوشـواع التأكـيد على صعوبة التوفيق بين عقليتين مختلفتين " فالـتقى "مولخو" أول ما التقى بـ "مريم "، تلك المستشارة القضائية، وكان تشابهها الكبير مع زوجته الزوجة المتوفاة سبباً رئيسياً فى ابتعاده عنها: " فقد كانت تعشق الموسيقى وتتمتع بعقـل مفكـر، وهـى شخصـية قـيادية متطلعة، تحـرص على النظافة، وتشبهـهـا أيضاً كما يـرى، فى أنها مريضة "[3].

وبالتالي، " كان على سفـــارادى قـــديم مثلـه أن يبتعد عن تلك المرأة التى تشبه الزوجة المتوفاة "[4].

وتحقـق الانفصال كذلك مع " يعراه" حبيبة الصبا، التى التقى بها فى القدس مع زوجها الرجل الدينى، واصطحبها إلى حيفا ليقضى معها عدة أيام على أمل الانفصال عن زوجها، إلا أن زوجها يعود ليأخذها معه عائداً إلى القدس:

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٣٣١).
(٢) نفس المرجع، (ص٣٠٠).
(٣) نفس المرجع، (ص٦٠).
(٤) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٣٣).

" لقـد أدرك "مولخـو" أنه منذ الآن لن يستطيعوا فرض مثل هذه الأيديولوجيات علـيه، واعـترف أنـه، فـى الـنهاية، تحرر من الخضوع لسحر زوجته ذات العقلية الغربية، وتعلم اختيار الحياة كهدف بدلاً منها "[(١)].

وقد اكتمل الانفصال فى تلك المهمة التى قام بها طواعية، وهى مهمة إعادة "نينا" الفتاة الروسية إلى وطـنها. ويقـول أورن عن تلك المهمة واكتمال الانفصال بها: "لم يكن لـهذه المهمـة الغريـبة أى تفسـير واقعـى فـى حـبكة الـرواية، ولكنها توضح لنا جيداً فى مجريات أحـداث القصـة، قصـة الانفصـال بـين "مولخو" (الانفصـــال المادى والشـرقى) والزوجة المتوفاة (العقلـية الغربـية) كمـثال لـلحاجة إلى الانفصـال بـين الدولـة الـتى تقع فى الشرق الأوسـط فـى القرن الحالي وبين الأيديولوجية الصهيونية التى تعودت على أرض أوروبا فى نهايـة القـرن التاسع عشر. وتلقى الرواية الضوء على التشابه بين "نينا" وزوجة "مولخو" المـتوفاة، وعـندما يقوم "مولخو" بإعادة "نينا" إلى المكان الذى وصلت منه، فهو فى الواقع يعـيد بشـكل رمزى الطفلة التى وصلت إليه فى القدس، إلى المكان التى ولدت فيه. وبذلك اكـتمل الانفصـال بـين دولـة إسـرائيل التى يجب أن تعيش طبقاً للظروف الفعلية فى الشرق الأوسط اليوم والأيديولوجية الصهيونية التى صيغ برنامجها بعيداً عن ا لزمان والمكان "[(٢)].

وهكـذا، يمكن القول، إن التحرر من قيود الزوجة المتوفاة، ثم الانفصال عنها، والتأكيد على هذا الانفصال من خلال علاقته بهؤلاء النساء الإشكنازيات الثلاث، هو بمثابة التمهيد الإيجـابي للبحـث عـن الـبديل، أو بالأحـرى البحـث عـن أيديولوجية جديدة، وقد نجح يهوشواع فى التعبير عن ذلك، إلى حد كبير.

(٢) البحث عن بديل من خلال الاتجاه نحو الشرق:

اتجـه يهوشـواع فى بحثه عن أيديولوجية جديدة كبديل للصهيونية الغربية ناحية الشرق، ونجـح فـى تحـريك الشخصـية الرئيسـية فى الرواية نحو هذا الاتجاه، بعد أن حقق الانفصال بشـكل سـليم ومقنع، وبدت أمامنا معالم أيديولوجية جديدة لم تتبلور بعد، ولكنها تمتزج بفضل الطبيعية التى تحدث عنها يهوشواع.

" لقـد أدرك يهوشـواع الخاصـية الطبيعية لدولة إسرائيل: وهى أنها تحل مشاكلـها طبقاً لإمكانـياتها المتواضـعة بـدلاً مـن حلـها وفقاً لادعاءات الأيديولوجية غير الواقعية، التى لا يمكـن تحقـيقها. فالـرواية تدعـو إلى صـهيونية أخـرى، صـهيونية تـتوافق مع الحياة وتمتزج بالطبيعة الشرقية التى امتزجت بها الدولة. ومن أجل إمكانية الحياة يبقى أيضاً التخلص من

(١) نفس المرجع، (ص٣٧).
(٢) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٣١-٣٢).

الأيديولوجية التى أصابتها الشيخوخة، على الرغم من أفضالها الكبيرة، وعلى الرغم من الفكرة التى فجرت ثورة الإحياء القومى لمدة مائة عام وكونت دولة "[١].

وكان البديل الذى بحث عنه "مولخو" طوال الرواية يكمن فى طفلة مستوطنة "زروعا" بالجليل، تلك الطفلة الشرقية التى تبلغ من العمر أحد عشر عاماً، و "هى طفلة ذات أصول هندية، طفلة (أو من الأفضل أن نقول أيديولوجية) ذات عقلية مناسبة - العقلية الشرقية "[٢]. لقد عمل بالنصيحة التى أسندتها له أمه باعتبارها امرأة شرقية مثله وهى ضرورة البحث عن بديل مناسب له:

" لم تتخل أمه عنه، وقالت له، فلتحاول العودة إلى القدس، فلديك هناك عدد من أصدقائك قد يساعدونك على إيجاد زوجة مناسبة، زوجة ذات عقلية مناسبة لك "[٣].

كما كانت أوصاف تلك الطفلة، كما قدمها، يهوشواع تتناقض تماماً مع أوصاف زوجته السابقة ذات العقلية الغربية، فهى جميلة ورقيقة وقوية:

" أخذ ينظر إلى ساقيها الممشوقتين الرقيقتين الطويلتين. . . ولم يستطع "مولخو" أن يبعد نظره عن ذلك الجسد الصغير فى ملابس الرقص السوداء. . . وقد جذبته تلك النظارة الكبيرة ذات الإطار الحديدى الأحمر الموضوعة على الوجه العاجى "[٤].

ويرى الناقد الإسرائيلى بلفان، أن " ذهاب "مولخو" إلى برلين كان فى الشتاء، بمصاحبة المطر له فى رحلته من باريس إلى برلين، كل هذا يشير إلى التجمد الذى أصاب "مولخو" لفترة طويلة، وقد أذيب هذا التجمد فى الربيع عندما ذهب إلى مستوطنة (زروعا) والتقى بتلك الطفلة الهندية الصغيرة، التى شعر بها كامرأة مثالية لم تكن غريبة عنه، فنام فى سريرها عدة مرات، وتطلع إليها وتحقق من أنها واقعية وحقيقية "[٥].

وكان فى كل مرة يلتقى بهذه الطفلة، يطالعنا بأوصاف جديدة لم نجدها قط فى النساء الثلاث اللاتى التقى بهن طوال الرواية بعد موت زوجته، وهو ما يشير إلى إعجابه بها كنقيض تام لزوجته الغربية وللنساء الثلاث الغربيات:

(١) نفس المرجع، (ص٣٨).
(٢) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٣١).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٦١).
(٤) نفس المرجع، (ص١٤٧-١٤٨).
(٥) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص١٠٧).

"لقد خلبت تلك الطفلة التى تنصت إليه لبه، إنها ممشوقة القد هى الأخرى، منبسطة الصدر كلوح خشبى. . . وأخذ يفكر، هل هذه الطفلة مختلفة تماماً، أم أننى ربما لم أر أطفالا منذ فترة بعيدة. . . وأخذ ينظر إلى وجهها البرىء الجاد. . . وإلى ساقيها الممشوقتين مثل عيدان الكبريت "(١).

أما الناقد الإسرائيلى يوسف أورن، فإنه ينظر إلى تلك الطفلة على أنها بديل جديد لم يقابله إلا مصادفة فى فصل الربيع، حيث يقول: " صادف "مولخو" فى طريقه بديلاً آخر لزوجته، وقد تراءى هذا البديل أمامه فى فصل الربيع، عندما التقى بالصدفة مع الطفلة الهندية فى مستوطنة " زروعا " بالجليل. . . وهى طفله قوية وقيادية وصاحبة قرار. وبذلك ينتهى التشابه الذى جمع بين النساء الثلاث الأخريات وبينها، حيث إن الطفلة التى تبلغ من العمر أحد عشر عاماً، تختلف عن الزوجة المتوفاة فى عقليتها، كما أن جلدها فى لون سن الفيل وعيناها سوداوان. إن تلك الطفلة الشرقية هى وريثة الزوجة المتوفاة الغربية. وتلتصق بأوصافها رموز عكسية: حيث تضع نظارة كبيرة على وجهها. . . إن هذه الطفلة الملكة هى ملكة شرقية ستصبح أماً لأبناء "مولخو" الجدد. وسوف تنمو كأيديولوجية وليدة البيئة والزمان. وبشكل رمزى يرتبط "مولخو": فقد كان ينام على سريرها، وفى الليل كان يمشى حافياً فى الظلام ليمسك نظارتها بحرص ويدقق فيها ويفحصها ثم يضعها على المنضدة "(٢).

لقد بات من المؤكد أن هذه الطفلة أصبحت تمثل معنى جديداً فى حياة "مولخو" وجده بعد رحلة البحث عن أيديولوجية جديدة، أيديولوجية المكان والزمان، وأصبح وصفه لها فى كل لقاء يجمع بينهما بمثابة إشارة واضحة إلى أنه استطاع بعد جهود مضنية، الحصول على البديل المناسب له، وآهو بديل مختلف تماماً، أعلن حبه وارتباطه به:

" لقد مرت علىّ سنوات قاسية وأنا صامت، و الآن يجب أن آخذ حذرى، فمنذ عدة شهور كدت أقع فى غرام طفلة صغيرة فى بلدة صغيرة بالجليل، مجرد طفلة صغيرة جداً، سوداء، طفلة هندية مختلفة تماماً "(٣).

وهكذا، يعلن يهوشواع على لسان "مولخو" اتجاهه ناحية الشرق وحبه لتلك الطفلة الشرقية الصغيرة كأيديولوجية أو بديل جديد يحل محل الأيديولوجية القديمة التى وهنت ورحلت بعد صراع طويل مع المرض. وهو ما يبدو فى تفسير " عانار شاليف " لذلك الحب الجديد: " إن حبه للطفلة الهندية يعطى لنا صورة مختلفة تماماً. لقد أثارته تلك

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١٤٩-١٦٣: ١٦٤).
(٢) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت باروماه هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٣٤).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٢٠٠).

الطفلة السوداء بفاعليتها وهمتها، ارتبط بها وتحرى سر جاذبيتها، ولم يدفعه أحد تجاهها، في الوقت الذي لم يكن مهيأً للارتباط بها، فهو ببساطة شديدة يريد ذلك ... ففي رحلاته إلى تلك المستوطنة البعيدة وحبه للطفلة وملاحقته لـ " بن يعيش " (المسئول المالي عن المستوطنة) والمساعدة غير المتوقعة التي أولاها له وعرضته للخطر القضائي، كل هذا خلق إحساساً بالمبادرة والارتباط بالواقع الذي برز غيابه خلال الفترة السابقة من حياته. إنه واقع طفولته السفارادية بالقدس، واقع البلاد البعيدة الغريبة، واقع الوادي أمام بيته، الواقع الذي ابتعد عنه طوال ثلاثين سنة هي عمر زواجه " [1]. ذلك الواقع الذي برز " في تلك الشخصية الوحيدة التي أثارت شهوته، وأحبته بعد عام كامل من الحداد " [2]، وارتبط بها لأنها شرقية مثله.

وعن معنى ذلك الوادي، الذي أحاط ببيت "مولخو"، والوادي الذي وجده في (زروعا) يقول أبراهام بلفان: " هناك ضرورة لأن نستوضح الاختلاف ما بين الوادي الذي وجده "مولخو" في (زروعا) وبين الوادي الذي يقع بالقرب من بيته. ففي مقابل الوادي المظلم الذي اختفت فيه زوجته بموتها، وفي مقابل السرداب المظلم الذي التقى فيه "مولخو"، بالمستشارة القانونية "مريم"، كان الوادي في منطقة (زروعا) يضج بالحياة والنور. لقد كان أول وصف لهذا الوادي في تلك الرواية، يشير إلى الإحساس بالنضارة والحيوية " [3].

وعلى الرغم من ذلك، كان "مولخو" يدرك تماماً أن عليه الانتظار حتى تكبر الفتاة وتنضج؛ ولكنه " حلف لزوجته المستقبلية قسم الإخلاص والولاء " [4]:

" لقد أحببت تلك الطفلة السوداء، ويبدو أن عليّ الانتظار سبع سنوات حتى تنضج من أجلي " [5].

إنه كان على علم تماماً بالمستقبل الذي ينتظرها، فدمعت عيناه ونظر إليها في عطف كبير وأكد أنه لن ينساها:

(١) عانار شاليف: " مولخو أوو شقيعات هامعراف " (مولخو أو غروب الغرب)، مجلة سيمان قريئاه، العدد ٢٠ للمحرر مناحم بيري، ٢٠ مايو ١٩٩٠، (ص٤٦٩-٤٧٠).
(٢) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار ماني " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد ماني)، مرجع سابق، (ص٩١).
(٣) نفس المرجع، (ص١٠٨).
(٤) نفس المرجع، (ص٣٥).
(٥) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص١٥٦).

" عـرف بوضـوح أن هـناك أيامـاً صـعبة فـى انـتظارها . ولـم يكن باستطاعته أن يـتمالك نفسه، فترقرت الدموع فى عينيه، وانحنى عليها وأخذ يحتضنها ويقبلـها قائلاً لـها : إنك طفلة ممتازة، ولن أنساك "[1] .

ويمكن القول أيضاً، إن اتجاه يهوشواع فى بحثه عن أيديولوجية جديدة كبديل للصهيونية الغربية كان واضحاً تماماً فى أوصافه للممرضات الشرقيات فى المستشفى فى أثناء مرض أم زوجـته، وقـد جـاءت أوصافهن لتتناقض تماماً مع أوصاف النساء الغربيات، ولتؤكد على مفهوم الطبيعية التى تحدث عنها يهوشواع فى كتاباته :

" فـى منتصـف الـليل، ووسط إغفاءة خفيفة، سمعت أصوات ضحك خافت، وجاءت ممرضتان جديدتان ؛ لاستبدال المناوبة الليلية. كانتا على مايبدو ممرضتين متعلمـتين بملابسـهن الـزرقاء المكوية وغطاءات الرأس البيضاء. لقد جاءتا بنفحة من الحيوية لذلك القسم الصامت "[2] .

ويستمر "مولخو" فى تلك الأوصاف كلما التقى بممرضة شرقية :

" وسمـع مـن وراء الحـائط همـس الممرضات الجديدات، وما يحدثن من ضجيج صـوتى، ولكـنهن رائعات للغاية، وبخاصة إحداهن التى بدت لـ"مولخو" نضرة للغايـة، شـعرها أسـود، وجلـد بشـرتها ناعم، وعيناها السوداوان تبرقان بنظرة حـادة ... إنها بدون شك من أصل شرقى . . . هؤلاء الفتيات تطورن إلى هذا الحد وصرن جميلات فى السنوات الماضية "[3] .

وهكـذا، " كان طاقـم الممرضات الذى اعتنى بالعجوز أم الزوجة المتوفاة من الممرضات الشـرقيات، التى تـبدو إحداهـن فـتاة عربـية (ناضـرة للغاية، عيناها سوداوان، ذات نظـرة حـادة). ولعلنا نلاحظ أن التفتح والرقة والحرارة صفات لم تكن فى النساء الغربيات "[4] .

ولعلـنا نلاحـظ أيضـاً مـيل "مولخو" منذ البداية للعنصر الشرقى، فعلى الرغم من أن تلك الأوصـاف جـاءت فى نهاية الرواية بعد رحلة بحث شاقة تصور مولخو بعدها إمكانية البديل الشـرقى الجديـد، فإنـه كـان يفكـر فـى هـذا مـنذ بدايـة الـرواية، وهو ما يتضح فى وصفه

(١) نفس المرجع، (ص١٧٦).
(٢) نفس المرجع، (ص٣٤٢).
(٣) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٣٤٢ـ٣٤٣).
(٤) عانـار شـاليف : " مولخو أوو شقيعات هامعراف " (مولخو أو غروب الغرب)، مرجع سابق، (ص ٣٨).

للممرضـة الشـرقية الـتى كانـت تعتنى بزوجته قبل وفاتها، فقد تنبأ "مولخو" بأنها ستكون جسراً لشيء ما فى المستقبل:

" أخـذت تحملـق فيه بعينيها السوداوين الشرقيتين. . . وظن "مولخو " للحظة، أنها ربما ستكون جسراً لشيء ما لم يتضح لـه بعد "[1].

وهكـذا، كان الشرق منذ البداية محط أنظار "مولخو"، بوصفه ابن المكان والبيئة، وكان توجههـ إلـيه بعـد أن جـرّب العلاقـة مع الغرب وثقافاته، وبعد أن بات من المؤكد صعوبة الـتجربة وفشـلـها، وبـدا لـــه وكأنه يعرف الآن الطريق والبديل الجديد لتلك الأيديولوجية الغربية التى عفا عليـها الزمن، وأنه آن أوان تشييعها إلى مثواها الأخير؛ بعد أن أدت دورها فى حينه. لقد تكهن يهوشواع البديل، وعرف من أين تشرق الشمس، وهو أمر واضح فى دعــوتــه عـلى لســان "مولـخـو" للممرضـات الشـرقيات لتحريك سرير العجوز أم الزوجة المتوفاة فى اتجاه النور المتوقع أن يجئ من الشــرق، وهو أمر واضح كذلك فى إعلانه لانتهاء الأفضلية الأوربية:

" كـان يعـرف جيداً مـن أيـن تـأتى الشـمس، فهـو ابن المكان. . . لقد انتهت الأفضلية الأوربية وكأنها لم تكن "[2].

ولعلـنا نلاحـظ أن الرواية تبدأ بالموت (موت زوجة "مولخو")، وتنتهى كذلك بالمـوت (احتضـار أم الـزوجة المتوفاة)، والمـوت هنا يرتبط بأسرة الزوجة الغربية (بدءاً من الانتحار القديـم لـرب الأسـرة فـى بـرلين)، بينما "مولخو" وأمه يظلان على قيد الحياة. " وبذلك تتزعزع علاقات القوى الثقافية. فبالنسبة للغــرب هناك ثمة انهيار، أما الشــرق فما زالت هـناك طاقـة مـن الأمـل مفتوحة أمامه "[3]. لقد وجه يهوشواع الأنظار ناحية الشرق الذى يقـبع فـيه الأمـل، ولعلـنا نلاحـظ ايضاً أن الرواية تنقسم إلى فصول السنة، ويظهر الخريف مـرتين فـى حيفا، والشـتاء فـى أوروبـا، أمـا الربـيع فـيظهر فـى منطقة " زروعا " مدينة المهاجـرين الشـرقيين بالجلـيل. وقـد جعلـت صيحات يهوشواع للشرق النقاد فى حيرة من مقصـد هـذه الـرواية الحافلة بالرموز والاستنتاجات، التى أعلنت وفاة الصهيونية ورحيلـها فـى زمـن لم يعـد هـناك احتياج إليها فى مكان ضاق بها، حيث جعلت " شاليف " يضع علامـات اسـتفهام عديـدة حولـها: " بماذا يتنبأ يهوشواع بالضبط؟ هل يتنبأ بإحياء فلكلور

---

(١) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص٤٧٠).
(٢) نفس المرجع، (ص٣٤٤).
(٣) عانار شاليف: " مولخو أوو شقيعات هامعراف" (مولخو أو غروب الغرب)، مرجع سابق (ص٤٧٠).

غريـب؟ أم بانتفاضـة للـيهود الشـرقين؟ أم بنهضـة دينية أو قومية؟ أم ببوتقة كنعانية لكلا الشـعبين؟ وبخاصـة أنـه لا يوجـد فصـل حقـيقى بـين العـرب والـيهود الشـرقيين طـوال الرواية"[1].

(١) نفس المرجع (ص٤٧١).

الفصل الثالث

إحباط يهود الشتات وفشل المشروع الصهيونى فى رواية
(رواية روسية) لـ"منير شاليف"

رواية روسية

جاءت رواية (رواية روسية)* لمئير شاليف لكى تؤكد على أن الآباء المؤسسين للصهيونية زرعوا الوهم فى نفوس يهود الشتات وزينوا لهم الأحلام الزائفة والشعارات الجوفاء التى روجوا لها، والتى سرعان ما تهاوت عند أول صدام للأجيال التالية بالواقع. وقد تعامل شاليف فى معرض نقده للصهيونية فى هذه الرواية مع الواقع، وأثبت فشل هذه الحركة فى تحقيق كل الآمال اليهودية. ولم يأت نقده هذا من أجل التقويم، لأن هذا ليس هو دور الأدب عادة، بل جاء ليسجل وقائع الإحباط الذريع الذى أصاب جموع اليهود من الأجيال المتعاقبة من ناحية، وليؤكد أن فرضيات هذه الأيديولوجية كانت مضللة وخادعة ولا أساس لها من ناحية أخرى، لاسيما أن شاليف يعد من أبرز الأدباء الإسرائيليين الذين ينتمون إلى (الجيل الواعى**) " هادور همفوكاح "، وهو الجيل الذى تشكلت ملامحه فى السبعينيات بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، واتسم أدباؤه بالكتابة فى موضوعات تتصل بالواقع الإسرائيلى المعاش، رافضين الهروب من مواجهة الواقع مهما كان مؤلماً ومحبطاً، وثائرين ضد تفانى الأجيال الأدبية السابقة فى تناول موضوعات الأحلام القومية متناسين الواقع الحقيقى.

وقد وصف النقاد الإسرائيليون هذه الرواية، بأنها أول رواية عبرية معادية للصهيونية فى الأدب العبرى الإسرائيلى، حيث نظر إليها الناقد الإسرائيلى يوسف أورن على " أنها رواية على عكس كل الروايات السابقة التى اهتمت بنقد الصهيونية، فهى لم تكتف بالكشف عن مواطن ضعف الصهيونية فى المرحلة الحالية من تحقيقها، فى الحاضر، بل إنها تؤكد، أنه منذ البداية كانت نظرياتها خاطئة وباطلة. فبينما أعطت كل الروايات السابقة لأبناء الجيل الحالى حجة ليعلنوا شكواهم تجاه الصهيونية، فقد تجاوزت (رواية روسية) كل هذا، وأرجعت انهيار الصهيونية لكونها (أسطورة) مرهونة بالمؤسسين أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين بدأوا هذا المشروع ووثقوا فيه حتى يئسوا منه. ومن خلال دحض النظريات الأساسية للصهيونية، ترفض الرواية هذه الأيديولوجية "[1].

(*) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، دار نشر عم عوفيد، تل أبيب، ١٩٨٩، (٣٩٤ صفحة).

(**) من أبرز الأدباء الإسرائيليين الذين ينتمون إلى هذا الجيل أيضا: ديفيد شيتس (١٩٤١)، اسحاق بن نير (١٩٣٧)، حاييم بئير (١٩٤٥)، ايتمار ليفى (١٩٥٦ –)، (دافيد جروسمان (١٩٥٤)، ويعقوب شبتاى (١٩٣٤).

(١) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٦٩-٧٠).

وتـدور أحـداث هـذه الـروايـة حول تلك الأيديولوجية التى بنيت على أسطورة زائفة، روج لـهـا الآبـاء الـيهود المؤسسـون ؛ حـتى صـدقوها ؛ وتصوروا أنها ستتحول إلى واقع وحقـيقة، ولم يدفـع ثمـن هـذه " الأسـطورة " إلا هم وأحفادهم الذين فشلوا فى إعدادهم كورثـة مـن بعدهـم، لتـتحول الأسطورة إلى نيران كانوا هم أول من احترق بها، وإلى فشل المشروع الصهيونى وإحباطه وتحطمه بأكملـه.

وتقـول " يونـا بـاحور " الـناقدة الإسـرائيلية فـى معـرض حديـثها عن هذه الـرواية: " إنها روايـة تعطـى انطـباعاً بأنهـا أكـثر من رواية. إن البناء الأدبى لـهـا يفجر عناصر الزمان والمكان، إنهـا لم تخـتص فقـط بـالأوائل والـرواد، بـل شملـت الإنسـان والأرض، الـدم والأرض، والطبيعـية، والصـبى، والشـهوة الجنسـية، والشـيخوخة، ودوائـر الحـياة المتشـعبة، والحمـاس الكـبير الـذى هـزّ المسـتوطنين الأوائل الذين تناسلوا من الأرض القديمة " [1]. وتمضى قائلة: " إنهـا قصـة صـادقة لـثلاثة أجيال يعيشـون فى وادى(يزراعيـل) ولـم تكن (رواية روسية) رواية، بـل هـى كـرنفال حديـدى للأشياء وعكسها، الحب والكراهية، القيم وغيابها، الغرائز والإيمان بالنبوءة، وفى مقابل كل هذا العكس التام الدمار والكفر والانحلال " [2].

أمـا الـناقد الإسرائيلى " يديديا يتسحاقي " فيقول: " إنها رواية تواجه (عالم الأساطير الخـاص بـبداية الاستيطان)، أو لنقل، إنها تتحدث عن (الأساطير) الموجودة فى حياتنا منذ عشـرات السـنين حـول الـبطولة فـوق الإنسـانية لـرواد الـهجـرة والاستيطان والدفاع. إن المشـكلة المرتـبطة بـ (الأسـطورة) هـى أن أبـناء الجيل الثانى والثالث لا يستطيعون مواجهة صـورة الأوائـل دون إلغـاء أنفسـهم وأعمـالـهم الصـغيرة والبسيطة. . وقد أخذ مشروع الأوائـل فـى الدمـار عـندما تـرك دون الاسـتمرار فـيه، وقـد أدى احتضـان الأسطورة كما تصـورها (روايـة روسـية) إلى ذلـك، حيث تحولت البسـاتين الحياتية إلى (مقبرة للـرواد) أو إلـى أرشيف يمتلئ بالأوراق المكدسة " [3].

ولعـل "يتسـحاقى" يشـير هـنا إلى فكـرة التضـارب بين الأسطورة والتاريخ فى المفهوم التاريخى لليهود، ومدى انعكاس ذلك على الرؤية الصهيونية لكل من الأسطورة والتاريخ، حيـث انتهجـت الصـهيونية مـبدأ الأسـطورة لتعضيد وجودها، كما ذهب شاليف فى هذه الـرواية، لاسـيما " وقـد تـبين أن الأساطير والخرافات بعوالمها الغريبة وأشخاصها القذرة منفصـلة تمامـاً عـن عالمـنا الزمـنى، حـتى ولـو كانـت ذات تأثير دائم فى الحياة العامة وفى

(١) يونـا بـاحور: " رشيموت عل هاسفروت " (انطباعات حول الأدب)، دار نشر يارون جولان، تل أبيب، ١٩٩٣ (ص٦٥).
(٢) نفس المرجع، (ص٦٦).
(٣) يديديـا يتسـحاقى: " ميتولوجـيا شـل هاميـتوس " (ميثيولوجـيا الأسطورة)، مجلة "عيتون شيفعيم فشيفع)، إسرائيل، العدد ١٠٥، أكتوبر ١٩٨٨، (ص ١٣).

السلوك النفسي ... إنها قصص خيالية صرفة وتبعد عن التاريخ بمقدار ما يبعد الوهم عن الحقيقة، و من ثم كان منطقها هو اللا منطق " (١).

أما " هليل فايس " فيقول فى معرض تناوله لهذه الرواية: " ذهب بعض النقاد إلى أن هذه الرواية هى محاكاة رخيصة لمائة عام من العزلة، فهناك من رفضها كنتاج من نتاجات الرثاء على نهاية المشروع الصهيوني، وهناك من نظر إليها كعمل يدنس ذكرى الآباء الأوائل، الذين يظهرون فى هذه الرواية كمجموعة من المهرجين الخبثاء أو الاشرار المنحرفين، أضاعت الحماسة من أجل فلسطين الجزء المتبقى من عقلهم، وهناك من فزع من جرأتها. ولكنها، من وجهة نظرى، هى رواية وعمل كبير.. إنها رواية لفيلسوف ساخر. رواية علمانية حقيقية، حرة فى روحها، دون كراهية لشيء فى هذا العالم،.. إنها قصة للموت والحب، تدقق فى غيبوبة الحياة وتفحصها. إنها رواية سليمة العقل وسط كرنفال من الجنون " (٢).

أما بالنسبة لتسمية الرواية بـ " رواية روسية " فيقول " فايس ": " إن المؤلف يعرض أمامنا مجموعة من الرواد تبدو فى بداية تكوينها كشيء واقع تحت مجتمع يواجه مآسي الانسلاخ عن الوطن الروسى واللقاء الوحشى مع ذئاب(•) هذه الأرض " (٣).

وربما ترجع تسمية الرواية، إلى قصة الجد "ميرقين" فى الحبكة الروائية حيث هاجر من روسيا بعد قصة حب فاشلة مع محبوبته " شولاميت "، وتحدثت الرواية أيضاً عن قصص مماثلة كان أبطالها من مهاجرى روسيا، علاوة على أن رواد الاستيطان الصهيوني على أرض فلسطين، فى الرواية، كان أغلبهم من مهاجرى روسيا.

قصة الرواية (عرض مختصر):

تحكى هذه الرواية قصة بعض المؤسسين من الصهيونيين الأوائل الذين أخذوا على عاتقهم مسألة تحقيق الحلم الصهيونى، والصعوبات التى واجهتهم فور وصولهم إلى فلسطين التى حلموا بها ليكتشفوا فى نهاية الأمر أنها أسطورة من الأساطير الصهيونية تحطمت على أرض الواقع، ليلقوا جميعاً حتفهم تحت وطأة المرض والفشل وتحطم الحلم والنبوءة، ويدفن الجميع فى هذه الأرض التى تحولت إلى (مقبرة للرواد).

---

(١) أحمد كمال زكي: الأساطير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، (ص ٥٣).
(٢) هليل فايس: " عليلاه، سفروت هاكلايون هايسرائيليت " (الحبكة، أدب الهلاك الإسرائيلى)، دار نشر بيت أيل، إسرائيل، ١٩٩٢، (ص١١٩-١٢٠).
(•) هذا التشبيه دأب الأدباء العبريون إطلاقه على أهل البلاد الفلسطينيين فى المراحل الأولى من الاستيطان الصهيوني.
(٣) نفس المرجع (ص١٢٠).

وتخرج هذه الرواية عن الإطار المألوف للروايات من حيث التسلسل في السرد والأحداث، لتصبح في النهاية مجموعة من القصص المتفرقة والمختلفة مر بها ثلاثة أجيال ـ جيل الأباء، وجيل الأبناء، وجيل الأحفاد ـ إلا أن جميعها تصب فى هدف واحد، وهو تحطم الآمال مع بداية الاستيطان الصهيونى على أرض فلسطين. وتمثل أيضاً هذه الأجيال الثلاثة مراحل اعتناق المشروع الصهيونى وسبل تنفيذه، ويشير فشل الأسرة بأجيالها الثلاثة إلى فشل الصهيونية.

ويقوم بدور القاص فى الرواية " باروخ شنهار "، وهو من جيل الأحفاد، وهو يأتى بهذه القصص والذكريات من خلال ما سمعه منذ أن كان طفلاً من جده " ميرقين "، ومعلمه " بيناس " وفيها يحاول " شاليف " أن يبين لنا الواقع المرير الذى واجهه هؤلاء الصهيونيون الرواد عبر قصص الحب الفاشلة، وتمهيد الأرض وإعدادها ثم تحولها إلى " مقبرة للرواد "، وفشل هؤلاء فى تحقيق الحلم، والموت المأساوي لجيل الأجداد والأبناء، وفشل الصهيونية فى إعداد الأحفاد كورثة لجيل المؤسسين، ليعطى لنا فى النهاية، على الرغم من فقدان الرواية لتسلسل الزمان والمكان، منظومة متكاملة تعبر عن عالم من الأساطير حول الأرض التى تدر لبناً وعسلاً وادعاء الحق اليهودى عليها، وهو عالم نسجته الصهيونية لتلفت أنظار يهود الشتات، ولكن هذا العالم ما لبث أن تحطم على أرض الواقع، كما ذهب شاليف فى هذه الرواية.

اتجاهات نقد الصهيونية فى الرواية:

كانت الصهيونية فى أطوارها الأولى فى حاجة ماسة للفت أنظار يهود الشتات، باعتبارهم المستهدفين الأساسيين لتحقيق حلم الصهيونية بتجميعهم فى فلسطين، إلى أهدافها وحثهم على تحقيقها، وقد روجت للعديد من النظريات والأساطير بين يهود الشتات، وحاولت من خلالها مداعبة أحاسيسهم فى شتى أنحاء البلاد، واستخدمت من بين ما استخدمت أسطورة الوعد الإلهى لليهود فى أرض فلسطين، وتاريخية علاقة اليهود بهذه الأرض التى تدر لبناً وعسلاً، ونظرية العودة إلى الطبيعية بعودة يهود الشتات، وغير ذلك من النظريات والفرضيات التى كان هدفها الأول هو دفعهم للهجرة والاستيطان فى أرض فلسطين وإنشاء دولة لليهود.

ولأن النظرية شيء والواقع شيء آخر، فإن تلك النظريات والأساطير المختلفة سرعان ما تهاوت حين اصطدمت بأرض الواقع مع دخولها إلى حيز التنفيذ. وهنا فنّد لنا " شاليف " تلك النظريات الصهيونية ووصفها بأنها أساطير. " ولذلك فقد عد مئير شاليف فى روايته (رواية روسية) أكثر الأدباء الإسرائيليين تطرفاً ضد الصهيونية ؛ لأنه لم يحصر فقط مثل الآخرين مواطن ضعف الصهيونية فى الحاضر، بل عرض فرضياتها الأساسية

كفرضيات خاطئة فى أساسها، ووصفها بأنها (أسطورة)، ولم تكن أبداً حقائق صحيحة "[١].

ومن الأهمية هنا، ونحن بصدد التعرض لفرضيات الآيديولوجية الصهيونية التى تعامل معها " شاليف " ووصفها بالأسطورة، أن نتعرف أولاً على ماهية الأسطورة ومعناها، وبخاصة فى التراث الدينى اليهودى.

وبداية، " يشير مصطلح Myth إلى الأسطورة المتصلة بالآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الخرافيين عند شعب ما، كما يشير مصطلح Legend إلى الأسطورة الشعبية بشكل خا "[٢]. كما " يشير المصطلح العبرى " ليجندا " إلى سرد قصصى لايمكن اسناده إلى مؤلف معين يتضمن بعض المواد التاريخية إلى جانب مواد خرافية شعبية "[٣].

" وفى معاجم أدبية أخرى يعرف مصطلح "ميتوس" بأنه إشارة إلى إعداد أدبى للظواهر الطبيعية وقصص تتناول الآلهة وحروبها، وقصص الأبطال الخارقين وآثار الحوادث التاريخية التى طمسها الزمن. وتنتمى الأساطير من هذا النوع لجماعات عرقية أو طوائف دينية ولكنها لا تنتمى إلى مؤلف بعينه "[٤].

ويقول أحمد كمال زكى فى تعريفه للأسطورة: " . . والأعجب أن معالمنا اللغوية تقف عاجزة عن إعطاء المدلولات الحقيقية لكلمتى خرافة وأسطورة، فالأساطير هى (الأحاديث التى لا نظام لها) وهى (الأباطيل والأحاديث العجيبة) و(سطر تسطيرا) ألف وأتى بالأساطير، والأسطورة (الحديث الذى لا أصل له). وقد استعمل القرآن الكريم لفظة (الأساطير) بالذات فيما لا أصل له من أحاديث فقال ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ – (سورة الأنفال: آية ٣١) – أى مما سطروا من أعاجيب الأحاديث وكذبها، وقال أيضاً ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ـ (سورة الفرقان: آية ٥) ـ أى طلب الرسول كتابتها فأملاها عليه جبريل صباح مساء. أما الخرافة فهى خرف خرفا، أى فسد عقله، والخرافة بفتح الخاء حديث الخرف الضحك، وبضمها رجل من غدرة استهوته الجن، فكان يحكى ما رأى فكذبوه ... ولم يستعمل كتاب الله هذه الكلمة قط "[٥].

(١) يوسف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت باروما هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص٢١).
(٢) منير بعلبكى: قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣، ط١٧، (ص٦٠٢).
(٣) د. سعيد عبد السلام: دراسة معجمية لمصطلحات الأدب، كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، ١٩٩٧، (ص٣٢٣).
(٤) عزرائيل أوخمانى: " ليكسيكون موناحيم سفروتييم " (قاموس المصطلحات الأدبية)، دار نشر هاكيبوتس همئوحاد، الجزء الثانى، إسرائيل، ١٩٧٦، (ص٥٣ـ٥٤).
(٥) أحمد كمال زكى: الأساطير، مرجع سابق، (ص ٣٦ـ٣٧).

" ويقسم بعض المفكرين الأساطير من الناحية التصنيفية إلى عدة أنواع مثل الأساطير الطقوسية: وهى التى تتناول طقوس العبادة، والأساطير التعليلية: وهى التى حاول الإنسان البدائى عن طريقها تعليل ظواهر الكون، والأساطير التاريخية: وهى التى تتناول واقعا تاريخيا ممعنا فى القدم وتتعلق بمكان أو أشخاص حقيقيين، وأساطير الخلق: وهى التى تفسر خلق العالم، والأساطير الرمزية: وهى التى تعبر بطريقة مجازية عن فكرة دينية أو كونية " [1].

وحول الأسطورة فى التراث الدينى اليهودى يقول " عيلى ياسيف " : " تشيع الأسطورة بأسلوبها الشعبى الخاص فى المقرا من خلال صورتين مختلفتين، هما: وصف الآلهة وصراعها ضد القوى المختلفة وعلاقتها بالجنس البشرى، والصورة الثانية هى الأسطورة القصصية التى تصف الظواهر المختلفة فى عالمنا، وهى ما تسمى (بالأسطورة السببية) " [2].

ويفرق " ياسيف " بين الأسطورة والهاجاداه. فهو ينظر إلى الهاجاداه على أنها من أهم أنواع الأساطير من حيث الانتشار والأهمية فى المقرا حيث يقول: " الهاجاداه هى قصة شعب فى فترة تاريخية معروفة وفى مكان جغرافى معروف، وكل من يسمع عنها أو يقرؤها يؤمن بأنها حدث وقع بالفعل ... ومعظم قصص الشعب المتضمنة فيها تنتمى إلى هذا النوع من الهاجاداه. والهاجاداه شائعة تقريباً فى كل قصص المقرا والأسفار التاريخية وأسفار الحكمة وفى الشعر المقرائى. وتنقسم الهاجاداه فى المقرا إلى مجموعتين: مجموعة القصص حول الأباء الأولين فى سفر التكوين، ومجموعة قصص الأنبياء فى سفر الملوك. . وتقترب الهاجاداه بصورة كبيرة للغاية من الأدب القصصى التاريخى وتستخدم دائماً لزيادة ثقة المجتمع فى الأحداث المقصوصة بها، وهو ما يجعلها حلقة تربط بين التاريخ والأدب الخيالى وهو الأمر الذى جعل الكثيرين يتساءلون عن مدى حقيقة الأحداث التاريخية فى قصص الآباء بسفر التكوين وإلى أيهما تقترب الهاجاداه، التاريخ أم الأدب الخيالى " [3].

ومن هنا يمكن القول بأن وصف " شاليف " لفرضيات الصهيونية، فى هذه الرواية، بأنها(أساطير)، إنما ينبع من حقيقة تشكك الكثيرين فى حقيقة الأحداث التاريخية الواردة فى التراث الدينى اليهودى، التى تعد فى نظر الكثير من نقاد العهد القديم جمعا من الأساطير. وبالتالى، فإن اعتماد الصهيونية على مثل هذه الأساطير أو غيرها من الأساطير

---

(١) أنظر: د. كمال الدين حسين: التراث الشعبى فى المسرح المصرى المعاصر، الدار المصرية اللبنانية للنشر، ١٩٩٣(ص٢٨: ٣٠)

(٢) عيلى ياسيف: " سيبور هاعم هاعفرى، تولدوتاف، سوجاف، أومشمعوتاف " (قصة الشعب العبرى، تاريخه، جنسه، ومعانيه)، دار نشر جامعة بن جوريون، القدس، ١٩٩٤، (ص١٦).

(٣) نفس المرجع (ص٢٢: ٣١).

الدنـيوية الأخـرى، الـتى تحـدث عـنها شاليف فى تلك الرواية، يمثل معول هدم لفرضيات الصـهيونية الـتى روجت لـها على مدار عقود عديدة. ومن هذا المنطلق، يمكننا أن نشير إلى أن محـاور نقد الصهيونية فى هذه الرواية، وتفنيد ادعاءاتها المبنية على أساطير، حسب رؤية شـاليف، ترتكز إلى القضايا التالية:

أولاً: أسطورة العودة إلى الطبيعية بعودة يهود الشتات:

"استندت الصهيونية، كما صيغت أساساً على أيدى زعمائها، على مجموعة من المبادئ الأساسـية، كـان مـنها، أن الشعب اليهودى عليه أن يتجمع مرة أخرى فى أراض خاصة به وأن المكـان المناسـب لذلـك هـو وطـنه الـتاريخى القديـم (أرض إسرائيل)، التى تكون فيها الشـعب وفـيها تكونـت ثقافـته. وأثبتـت حقـه القومـى فـى البلاد عن طريق تمسكه بها فى صـلواته وفـى عاداتـه عـلى امـتداد الأجيال مـنذ سـبى مـنها بعـد انتصار القوى التى غزته وقمعته، وفيها فقط يستطيع التحول إلى شعب (طبيعى)" [1].

" وقـد حاولـت الصـهيونية تحلـيل الوضـع الـيهودى، وأشـارت إلى عدم الطبيعية التى يعـيش بهـا الـيهود، فهـو يعـيش " ضـيفاً فـى كل مكان، ويقيم كمواطن فى أى مكان، وجاءت النبوءة الصهيونية بهدف تغيير هذا الوضع وضرورة القضاء عليه وتحويل اليهود إلى (شعب مثل كل الشعوب) " [2].

ولكن الصهيونية بهذا الطرح، ناقضت ادعاء " الاختيارية " الخاصة باليهود، بمعنى أن " الاختـيارية " و" الطبيعية " أمران لا يجتمعان لدى اليهود، وهو ما أكد عليه " يهوشواع " فى كتابه " بفضل الطبيعية " قائلاً: " من بين النويات الأولى التى تشكل هويتنا، المطالبة بـأن نكـون مخـتلفين وفـريدين، ولنا خصوصيتنا، ومنعزلين عن أسرة الشعوب. . . وعلى هذا فإن مفهوم (أن نكون شعباً مثل كل الشعوب) هو مفهوم خاطئ بالنسبة لليهودى" [3].

إن الطبيعـية الـتى سـعت إلـيها الصهيونية بمعناها المجرد والبسيط، هى أن يعيش اليهود حياة سليمة مثل أى شعب، وتكمن هذه الحياة فى أن يكون لليهود أرض ولغة خاصة وهى المقومـات الأساسـية لأى شـعب، ولكن ماذا لو كان الشتات هو طبيعة اختيارية تتغلغل فى أعمـاق الـنفس الـيهودية ولا تفارقها، كما يقول يهوشواع. فى هذه الحالة، فإن الصهيونية تحكـم عـلى نظريتها هذه بالفشل قبل أن تبدأ. وهو ما حدث بالفعل، فلم تنجح الصهيونية فى تجميع كل الشتات اليهودى داخل إسرائيل حتى الآن.

---

(١) بوعـز عفـرون : الحسـاب القومـى، تـرجمة ودراسـة د. محمـد محمـود أبو غدير، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، العدد (٢)، ١٩٩٠، (ص ١٤٢).
(٢) مناحم برينكر: "احارى هاتسيونوت" (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، ١٩ مارس-١٩٨٦ (ص٢٢).
(٣) أنظر: أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص٥٣).

وقد عبر " شاليف " عن فشل الصهيونية فى تحقيق هذه النظرية ووصفها، فى روايته هذه، بالأسطورة. وجاء ذلك من خلال عدة مراحل مرت بها مجموعة من الرواد اليهود المهاجرين إلى أرض فلسطين وهم يحاولون بناء كيان يهودى جديد بالاستيطان فى فلسطين، ليصطدموا بالواقع المرير، ويدركوا الخديعة الصهيونية الكبرى، ويأسفوا على المجيء إلى أرض فلسطين، ليتغلغل الفشل والإحباط فى نفوسهم. ويمكن لنا أن نعرض لهذا عبر الرواية فى المراحل التالية:

(١) مرحلة النجاح (جهود الآباء المؤسسين فى الاستيطان):

حاول شاليف أن يبين لنا، فى البداية، كيف صدق الآباء المؤسسون هذه الأسطورة — العودة إلى الطبيعية بعودة يهود الشتات إلى فلسطين ـ وبذلوا قصارى جهدهم من أجل تمهيد الأرض واستيطانها وتحقيق النبوءة الصهيونية بالعودة إلى الطبيعية. وقد جاء لنا بمجموعة من المهاجرين الروس، جيل الآباء، استقر بهم الحال فى إحدى القرى، وأخذوا على عاتقهم مسألة بناء كيان يهودى جديد فى فلسطين بدعوى الطبيعية. وبدأوا فى استزراع الأرض وتمهيدها فى جو من البدائية اللافتة للنظر، لاسيما أن هؤلاء كانوا يعيشون فى مجتمعات غربية متحضرة قبل الهجرة، وإذا بنا نجد " شاليف " يزج بهم بسخرية فى مجتمع قروى بدائى، حيث يعيشون فى أكواخ ويستخدمون الدواب فى تنقلاتهم بين القرى وفى حرث الأرض.

وعلى أية حال، كان لهؤلاء الرواد إسهاماتهم، فى بادئ الأمر، فى تعبيد الأرض وإصلاحها، وقبل بلوغ مرحلة الفشل والإحباط، حقق هؤلاء الرواد نجاحاً نسبياً فى استقطاب بعض المهاجرين والدعوة إلى الهجرة، حيث يقول القاص على لسان " شيبريس " أحد الرواد الجدد المهاجرين إلى فلسطين:

" قال لنا شيبريس: أيها الأصدقاء، يجب أن نحج إلى فلسطين " [(١)].

وبعد الهجرة عبأ المؤسسون الصهيونيون قدراتهم البدنية والمالية لخدمة الأرض وتعبيدها، وعاشوا فى أكواخ وخيام ثم انتقلوا بعد ذلك للعيش فى أبنية مبنية من الطين اللبن:

> " كان الكوخ الخاص بنا من الأشياء الأخيرة التى تبقت فى القرية. فعندما استوطن الآباء المؤسسون هذه الأرض، خصصوا ميزانية البناء الأولى لبناء الحظائر الخرسانية... وعاش الرواد فى خيم من القماش، وبعد ذلك فى أكواخ خشبية. ومرت سنوات إلى أن انتقلوا للعيش فى بيوت بيضاء " [(٢)].

(١) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٠).
(٢) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٩).

وهـنا يشير شاليف إلى أفكار أهارون ديفيد جوردون الداعية إلى استغلال أرض فلسطين بزراعتها وتعبيدها، التى استخدم فيها شعارات مثل (دين العمل) و(العمل العبرى)، بدعوى أن (العودة إلى الطبيعية) وممارسة الزراعة والأعمال الشاقة، هى السبيل الوحيد الذى من شأنه أن يطهر اليهودى من هامشيته كشخصية تعمل فى التجارة والربا. وقد آمن بعض اليهود بهذه الأفكار وأخذتهم حمية استزراع الأرض والعمل اليدوى فى فلسطين كما فعل الجد " ميرقين " ممثل جيل الآباء فى الرواية.

كان الجد " ميرقين "، جد " باروخ " القاص، أكبر الآباء سناً وأكثرهم احتراماً بين الرواد، وكان من أبرز المهتمين بالأرض وزراعتها، فهو يضم فى الكوخ الذى يعيش فيه كتباً عن الزراعة والتشييد والبناء، وهو ما يبين مدى اقتناع الآباء المؤسسين بأفكار جوردون فكانوا حريصين على تعبيد الأرض وفلاحتها، فهى أقرب ما تكون إلى الطبيعية التى ينشدونها:

" قرر الجد البقاء فى الكوخ. . . الذى كان يتكون من حجرتين ومطبخ. . . وفى الحجرة الثانية كانت هناك مجموعة من الكتب، يوجد مثلها فى كل مدرسة ... مثل (كتاب الحشرات الزراعية للمزارع) ... وكتيبات عن (الحقل)، و(الفلاح) ... ونسخة من العهد القديم ذات غلاف أسود "[1].

وكان من بين هذه الكتب، ذكريات كتبها أصدقاء الجد، وهى كتب وطنية تدعو إلى الهجرة وتتحدث عن الأرض والوطن:

" وكانت هناك أيضاً سلسلة من كتب الذكريات كتبها أصدقاء الجد ومازلت أتذكر بعض الأسماء. . . مثل كتاب بعنوان (الطريق إلى الوطن)، وآخر بعنوان أرضى) "[2].

ونظم المؤسسون اليهود أنفسهم وقسموا المهاجرين إلى مجموعات عمل فى محاولة للاستفادة من الجموع اليهودية المهاجرة؛ فيقول " باروخ " القاص:

" مشولام هو ابن تسرقين مندولينا الذى شكّل مع جدى وجدتى فيجا، واليعازر ليبرسون (مجموعة العمل فيجا). لقد كان مندولينا فلاحاً نشطاً، وموسيقاراً عظيماً "[3].

ولم يكن اندفاع مجموعات العمل نحو البناء والاستيطان، إلا محاولة لتطبيق أفكار القادة الصهيونيين على أرض الواقع فى محاولة للتخلص من الوضع السابق والمرفوض. ويعلق

---

(١) نفس المرجع

(٢) نفس المرجع، (ص١٠).

(٣) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢١).

بوعـز عفـرون عـلى هذه المحاولات الأولى لاستيطان فلسطين بقولـه : "كان من الضرورى إيجـاد أسـطورة قومـية جديـدة ، بـل إيجـاد صورة جديدة للإنسان تجئ على عكس النموذج القديـم المعـروف ... وعلى ذلك كان من الضرورى أيضاً تبنى الأسطورة الصهيونية الخاصة بالأمـة الإقليمية التى سبيت من أراضيها وتسعى للعودة إليها وأن اليهودية الحقيقية والبعيدة عن تشوهات الشتات تقوم فوق هذه الأرض " [١].

ومـن هنا حاول شاليف ، بداية ، أن يرسم صورة كاملة لـهؤلاء الرواد الذين اندفعوا نحو تصـديق هـذه الأسـطورة وعملـوا على تحقيقها رجالاً ونساء ، فصور لنا المرأة ضمن طليعة هـؤلاء الـرواد وهـى تعمل مثل الرجال ، وتقودهم فى مجموعات عمل مثل " بسيا تسرقين " ، زوجـة " تسـرقين مندولينـا " التى كان لـها دورها فى بناء القرية ، وكان لـها إساهمها المـالى الـذى يدعــو للفخـر ، وهى تعد من الرواد المـؤسسين الذين بذلوا نشاطاً ملحوظاً فى الاستيطان ؛ حيث يطالعنا القاص فى الرواية قائلاً :

" كانـت بسـيا تسرقين أم مشولام نشيطة فى العمل ، ذات أهمية ، وقليلة الوجود فى المنزل ، لقد احترم مشولام أمه ـ وتفاخر بإسهاماتها فى اقتصاد الحركة " [٢].

لقـد عمـل الجميع بدافع تحقيق الأفكار والمبادئ الصهيونية ، إيماناً بنبؤاتها ، فاهتموا بها وبمطالبها :

" بحثـوا بالصـدفة لـدى تمعـنهم فـى المـبادئ ، ضرورة الاهتمام بمطالب الـهجرة الجديدة عامة " [٣].

وكـانوا يـبذلون كل جهدهم فى حفر الأرض وتمهيدها ، " فريلوف " الحارس وزوجته " تونـيا " ، وكذلـك " بيناس " معلم القرية وزوجته " ليئة " ، ومعهم الجد " ميرقين " ، يعدون من المجموعات الأولى التى جاءت لحفر الأرض واستيطانها :

" كـان هـؤلاء هم المجموعة الأولى التى قامت بالتجول فى الأرض وحفرها . لقد جاءوا إلى الوادى ، وأصبحوا الآباء المؤسسين للقرية " [٤].

وصــور " شـاليف " ، فـى هـذه الـرواية ، مـدى اندفـاع هـؤلاء المهاجرين نحو الدأب والعمـل ، فكـان العمـل الجمـاعى وروح الجماعة التى شددت عليها الصهيونية ، هو شعار هـؤلاء المؤسسين ، فكانوا يزرعون ويحصدون الأرض ، وكان للنساء دورهن فى هذا العمل بالغناء وإحضار الطعام للفلاحين :

---

(١) بوعز عفرون : الحساب القومى ، مرجع سابق ، (ص ٣٢٠ ، ٣٢١).
(٢) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية) ، رواية ، مرجع سابق ، (ص٢١).
(٣) نفس المرجع ، (ص٢٧).
(٤) نفس المرجع (ص٥٥).

" كانوا فى الصيف يدرسون القمح معاً. فثمانية عشر فلاحاً يشغّلون آلة الدرس الكبيرة. . . أما النساء فيأتين إلى الجرن ومعهن فطائر يابسة ونبيذ مصنوع فى البيت، وفى الليل يجمعن أكوام القش الضخمة فى مجموعات، ويتجمعن بعد ذلك للغناء معاً "(1).

كما كان الأمل يراودهم دائماً مع كل نبتة تنضج ومع كل طفل يولد أو بقرة تلد:

" كانت كل نبتة تنضج فى أحواض الخضرة، وكل طفل وبقرة يولدون، مصدراً للأمان والأمل " (2).

ويواصل " شالبف " وصفه لهؤلاء الآباء ومجهوداتهم الكبيرة فى الاستيطان، حيث يواصل الجد " ميرقين " والجدة " فيجا " العمل، على الرغم من كبر سنهما، فى زرع الأشجار والثمار، فقد كانوا شعلة حماس وأمل فى استيطان الأرض:

" ملأ الجد القرية بالأشجار المثيرة، التى بدأت تنمو بسرعة مع بعضها البعض "(3).

" والجدة. . . كانت تحلب البقر، وتطبخ، وتخيط، وتنظف " (4).

وهكذا، يبدو لنا أن " شاليف " قد حاول فى البداية أن يبين لنا كيف بذل هؤلاء المؤسسون جهوداً خارقة لتحقيق ما يسمى بالنبوءة الصهيونية، وكان الجد " ميرقين " أكثر هؤلاء الرواد احتراماً وأكثرهم عملاً، ومعه أدرك الجميع مغزى الفكرة الصهيونية:

" ولقد أدركنا جميعاً معنى العمل والفكرة، وذلك عندما لمس ميرقين شجرة مثمرة " (5).

وقد نجح " ميرقين " فى تشييد بستانه وجنى ثماره بعد مجهودات رائعة بذلها مع ابنه " أبراهام " وحفيده " باروخ ":

" فى نفس هذا العام ازدهر بستان الجد بقوة فريدة. وطلب من حاييم مرجوليس أن يبنى عدداً من المناحل بين الأشجار المثمرة. وكان عسل هذا البستان يميل إلى الاحمرار، ولذيذ المذاق " (6).

وكان هؤلاء الرواد يقومون بدور فاعل فى الاستيطان سعياً وراء تحقيق النبوءة والأمل، وكان لكل فرد منهم دور فى التوجيه والإرشاد والعمل، فنجد " بيناس " معلم القرية يقوم بدوره فى بث الحماس وشرح معنى الفكرة والعمل:

(1) مئير شاليف: "رومان روسى" (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص67).
(2) نفس المرجع، (ص67).
(3) نفس المرجع، (ص64).
(4) نفس المرجع، (ص69).
(5) نفس المرجع، (ص70).
(6) نفس المرجع، (ص112).

" لقد جلسنا بالفعل على أرضنا، كل واحد منا أسفل كرمته، وعرفنا معنى البيت، والأسرة، ورقصنا قليلاً، وغنينا قليلاً، وكرهنا قليلاً "[١].

ويأتي " دانيال ليبرسون "، من جيل الأبناء، ليقوم بدوره في زراعة الأرض، فهو يعمل مرشداً زراعياً للمهاجرين:

" وجه ليبرسون كل طاقاته لفلاحة الأرض. وبعد ذلك توجه إلى مستوطنات المهاجرين وعرف بينهم كمرشد زراعي ماهر ومخلص "[٢].

وهكذا، حقق الآباء المؤسسون بعض النجاحات الأولى في بداية الاستيطان، فقد دفعهم حماس الطبيعة إلى العمل والزراعة، وهو ما أكد عليه أورن بقوله: " لقد نجحت في البداية، حقاً، العودة إلى الطبيعية بحراثة الأرض. فهاهم الرواد يجففون المستنقعات، ويشّيدون البساتين، ويتغلبون على الآفات الزراعية المختلفة ويتعلمون ركوب الدواب بين أشجار البساتين. لقد أوقفوا وحشية الطبيعة، وروّضوا قواها الجبارة وأخضعوها لثقافة الإنسان " (٣).

ويمكن القول، إن هذا النجاح الذى عبر عنه شاليف في الرواية، كان محل خلاف حقيقي بين بعض القادة الصهيونيين، مثل حاييم وايزمان الذى انتقل هو نفسه بروحه وجسمه من الاغتراب عديم الهدف في البلدة اليهودية في روسيا إلى جدية الإنجاز الذاتي والمهني والسياسي. وقد وصف وايزمان هذا الانتقال بقوله: "كان النزاع قائماً بين أولئك الذين آمنوا بأن أرض إسرائيل يمكن أن تبنى فقط بالطريق الصعب، وأن هذه الحرب المريرة والمستمرة في مجال تجفيف المستنقعات وتمهيد الأرض البكر في (أرض إسرائيل) تؤدى إلى بروز الدعوة إلى تعبئة القوى الخلاقة لدى شعب إسرائيل، وأن خلاص هذا الشعب يؤدى إلى فساد الشتات، وبين أولئك الذين تقبلوا وأرادوا العيش في حياة تتسم دائماً بالمعجزة وتكون مرهونة بها "[٤].

كما كان للرواد دورهم في محاولة العودة إلى الطبيعية، وتحقيق بعض الأهداف من تلك العودة، وجاء لنا " شاليف " بتلك الأهداف التى أراد أن يحققها رواد تلك القرية على لسان " بانيا ليبرسون " والجد " ميرقين ":

" كان هدفنا هو خلق طائفة من العاملين، ليرتزقوا من عمل أيديهم دون استغلال . . . "

(١) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٥).
(٢) نفس المرجع، (ص٣١١).
(٣) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت باروما هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية في الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٤).
(٤) بوعز عفرون : الحساب القومي، مرجع سابق، (ص ٣٤٠).

" وكان يجب أن يكون طريقنا من خلال مزج الواقعية بالمثالية " .
" وتقوم المؤسسات العامة بدورها النفسى والاقتصادي للأسرة "[(١)] .

ويمكن القول كذلك، إن مرحلة النجاح التى كانت تكمن فى جهود الآباء المؤسسين فى الاستيطان، والتى تحققت بعض الشيء، كانت مرحلة ضرورية فى الرواية، لتبين لنا الواقع البدائى الذى عاش فيه هؤلاء اليهود بعد هجرتهم إلى فلسطين، ومحاولاتهم لترويض قوى الطبيعة من ناحية، والفارق الاجتماعى والاقتصادى بين البلاد التى جاءوا منها بدعوى الطبيعية، و بين الحالة الاجتماعية والاقتصادية التى عاشوها فى فلسطين من ناحية أخرى، وبخاصة أن بعض الرواد، وكما جاء فى الرواية، كانوا يبحثون عن عمل فور مجيئهم إلى فلسطين. إنه نجاح لا يمكن أن يقارن بالحالة الاجتماعية والاقتصادية التى كان يعيشها اليهود فى بلاد الشتات، وبخاصة أن معظم شخصيات الرواية من مهاجرى روسيا، مما يعنى أن العودة إلى الطبيعية كلفتهم الكثير من المال والجهد ومقارنة بالحالة المعيشية التى كانوا يعيشونها فى تلك البلاد. وربما كان مقصد " شاليف " أن يبين لنا هذا عبر الرواية كتمهيد لمرحلة الفشل التى أصابت هؤلاء اليهود المهاجرين فيما بعد.

(٢) مرحلة الفشل (تحطم المشروع الصهيونى) :

إذا كانت الصهيونية قد آمنت بأن " عودة الشعب إلى الأرض سوف تقوّمه من الانحراف عن الوضع الطبيعى لحياته فى الشتات، وأن الشتات أبعد الشعب عن الطبيعية ؛ وأطاح به بعيداً عن مواكبة الحياة السليمة، وأن فلسطين سوف تعيده إلى الطبيعة والحياة الطبيعية، فإن قصة الرواية ترفض تلك النظرية، وتؤكد أن الطبيعة التى كبحت جماح وحشيتها سوف تعود وتستهزئ برواد القرية وبنسلهم. وإذا كانت الصهيونية قد صاغت نظرية ثالثة، تقول إن عودة الشعب اليهودى إلى فلسطين سوف تنهى مسألة الشتات تاريخياً، فإن قصة الرواية تقول، إن الشتات تغلب على الخلاص. وحول مشروع قبر الحفيد فى إرث الأسرة فسوف تستعيد الأرض دورها التاريخى الذى اشتهرت به فى حياة اليهود فى أثناء فترة الشتات، وستستخدم كمكان للمقبرة القومية. ومنذ (رواية روسية) لم يكتب أبداً فى سنوات الدولة عمل أدبى أعلن أن كل شيء فشل، وأن الصهيونية قد أخطأت من أساسها فى نظرياتها الأساسية، وفطمت الأجيال السابقة على (أساطير) "[(٢)] .

وعلى هذا الأساس، تجلت مرحلة الفشل (تحطم المشروع الصهيونى)عبر الرواية فى المظاهر الآتية :

(١) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٧٤).
(٢) يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٢١).

(أ) انهيار المشروع وتحول الأرض إلى خراب:

حقق الآباء المؤسسون فى المراحل الأولى من الاستيطان على أرض فلسطين نجاحاً ملحوظاً فى تشييد البساتين وزراعة الأرض وحرثها وجنى ثمارها. وفجأة، يطالعنا شاليف بانهيار المشروع الصهيونى كله، حيث تحطمت البساتين والزروع، ولفظت الأرض من عليها وألقت بسمومها فى وجه هؤلاء الرواد الذين عاشوا على أسطورة الأرض التى تدر لبناً وعسلاً:

" وآنذاك اجتاح وباء الكوموز بساتين كاملة ودمرها، ويواصل ليبرسون الحديث قائلاً: فسدت الجذوع، واصفرت الأوراق، وماتت الأشجار "[1].

وامتد الخراب إلى حقول الفلاحين الذين أصيبوا باليأس، ولم تنجح محاولات الجد " ميرقين " فى السيطرة على هذا الوباء:

" أراد الجد أن يأخذ قطعة أرض موبوءة ليجرى عليها تجارب، وخضع له الفلاحون اليائسون، الذين كان معظمهم يخشون الرواد الصغار، واستجابوا له "[2].

ويتحول بستان الجد " ميرقين " هو الآخر إلى خراب، وتموت الأشجار، وينتشر الذباب والنمل فى البستان:

" انتشر النمل الأسود بجنون فى أرضية الفناء. وفى بستان الجد فسدت ثلاث شجرات من اللوز... وهاجم ذباب الماشية المتعنت فناء البستان "[3].

وفى محاولة لدرء الخطر الذى اجتاح هذه الأرض، يقتلع "باروخ" أحد الجذور اليابسة، وإذا بالأرض تلقى بسمومها من جرذان وروث وقوارض من الفئران فى وجهه:

" ورويداً رويداً انتفخت الأرض، وأخذ الجذر المائل للاصفرار فى التفت ؛ وأتى معه بكتل كبيرة من هياكل الجرذان العظمية وروث البوم.. وانفتح جب عميق فى الأرض، وتصاعد منه بخار لبنى سام، وحلق من داخله أزيز البعوض "[4].

ولعله من الملاحظ هنا، أن " شاليف " قد طالعنا فجأة، فى الحبكة الروائية، بخراب المشروع الصهيونى كله وتحطمه. وفى حقيقة الأمر، فهو يعبر بذلك عما روجت له الصهيونية بوجود علاقة خاصة بين أرض فلسطين واليهود ؛ فهو يشكك فى وجود تلك العلاقة ولا يؤمن بمثل تلك الفرضيات التى حاولت أن تروج لها الصهيونية آنذاك، فها هى

---

(١) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٧٠).
(٢) نفس المرجع، (ص١٧١).
(٣) نفس المرجع، (ص٢٦٠).
(٤) نفس المرجع، (ص٢٦١).

الأرض تلفظهـم وتلقى بسمومها في وجوههم، وهو ما يعنى أنهم غرباء ودخلاء عليها من ناحية، وأن الإحساس بالغربة لدى آباء اليهود فى فلسطين كان يلازمهم من ناحية أخرى.

والجدير بالذكر، أن الإحساس بالغربة لدى الصهيونيين الأوائل كان أمراً معروفاً تحدث عنه الرواد الصهيونيون فى كتاباتهم، وبخاصة جوردون الذى راح يتحدث عن جمال البلاد المقدسة وجمال الطبيعة فى فلسطين، ولكنه اعترف فى نفس الوقت بأنه كان ضيفاً فى هذه البلاد، حيث كتب يقول: " . . وبعد أن زرت الموشافوت (المستعمرات التعاونية) لم أشعر بما يجب أن يشعر به كل يهودى فاضل . . فهذا الجمال يبدو وكأنه غير طبيعى، بل يبدو أنه جمال صناعى. إننى أشعر بأننى ضيف فى مواجهة تلك الطبيعة الخاصة بأرض إسرائيل. إنها ليست الطبيعة الخاصة ببلاد روسيا التى تعودت عليها بشيء من الاقتراب النفسى "(1).

ويواصل " شاليف " تحطيم " أسطورة " الأرض والعودة إلى الطبيعية فى الرواية، فعندما يحاول " أورى " أحد أحفاد " ميرقين "، أن يقتلع جذور العرق سوس يكتشف فى دهشة تصاعد وانفجار سموم عتيقة تخرج من الحفرة التى كانت تقع فيها جذور العرق سوس:

" تصاعد صوت قوى من الحفرة. وبدأ المستنقع الذى أحاطه الآباء بثخانة الأرض وجذوع شجر الكينا يطفح أمامى، وبدأ يتنفس ويفور عندما لامسته أشعة الشمس "(2).

ويكرر شاليف الموقف ذاته فى مواضع عديدة فى الرواية، مؤكداً على لفظ الأرض لليهود حيث ظلت الأرض تلقى بسمومها فى وجه الرواد، ففى إحدى تجارب " مشولام " لإغراق الأرض والحقول بالماء تهتز الأرض وتلفظ بالقاذورات والدود والعظام فى وجوههم:

" اهتزت الأرض وتحركت من حوله. وإذا بباطن الأرض يتقيأ وهو يحدث ذبذبات وقرقعات عالية وحلا أسود، وقاذورات وعظاماً وديدان سميكاً "(3).

ولم تكتف الأرض بذلك، بل إنها تثير الرعب والفزع فى قلب من يعبث بها، وهو ما حدث لـ " زيتونى " أحد الرواد المؤسسين:

" كلما تعمق، زاد ضجيج الأرض، وعندما ضربت شفرة المعول قشرة المستنقع المحاصر، تحت أقدام زيتونى تماماً، انفجرت من هناك أوراق البوص الحادة ومعها سحابة من البعوض المخيف أخذت تلدغ جلده الرقيق،

---

(1) بوعز عفرون : الحساب القومى، مرجع سابق، (ص ٣٢٤).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٦١).
(3) نفس المرجع، (ص٣٦٦).

وتسلقت العلقات القاسية ساقيه الضعيفتين، وحاولت ديدان باهتة اللون أن تجره إلى الأعماق "[1].

وهكذا، أعلنت الأرض تمردها ضد الرواد، وكادت أن تبتلعهم، وتتحولت إلى خراب معلنة عصيانها لأية محاولات من قبل هؤلاء المهاجرين الجدد، الذين إذا كانوا قد حققوا نجاحاً بعض الشيء، فهو نجاح وقتي لا يكتب له الدوام، وهو ما جعل " بيناس " معلم القرية ومدرس الطبيعة، يعلن أن الاندماج مع الطبيعة والارتباط بالأرض ما هو إلا بهيمية ويعترف في صحيفة القرية بأنهم أخطئوا في التعليم والنبوءة والهدف:

" لقد أخطأنا في التعليم، وفي النبوءة، وفي الهدف. وظهرنا أقرب إلى البهيمية وغصنا في وحل الأرض حتى رقبتنا "[2].

ويعلق " يوسف أرون " على تلك الكلمات التي تفوه بها معلم القرية ومصدر حماس الرواد بقوله: " هكذا توضح لنا هذه الكلمات ماهية الخطر: وهي أن الصهيونية طوحتنا من عدم الطبيعية إلى صورتها غير الطبيعية المعكوسة. ونظرتيها بأنها سوف تنجح في إعادة الطبيعية لنا، وهو ما افتقدناه في الشتات المستمر، هي في الحقيقة نظرية باطلة، وقد أصدرت هذه الرواية المعادية للصهيونية حكمها عليها "[3].

(ب) الأرض " مقبرة للرواد ":

لم يكن بإمكان الرواد الصهيونيين بعد تحطم المشروع الصهيوني وتحول البساتين والزرع والحقول إلى خراب، سوى تحويل الأرض إلى " مقبرة للرواد " لتعود للقيام بدور المقبرة القومية (جلجول هامحيلوت)* التي كانت تقوم به في أثناء فترة الشتات. وقد آثر " شاليف " عبر معظم صفحات الرواية، التأكيد على هذا من خلال الجد " ميرقين " الذي أمر حفيده " باروخ " بتحويل بستانه إلى مقبرة، معلناً فشل أسطورة العودة إلى الطبيعية بعودة يهود الشتات إلى فلسطين.

وهنا يعيد شاليف لفلسطين دورها الذي كانت تقوم به فلسطين على امتداد فترة الشتات اليهودي، من خلال عادة دينية كانت منتشرة بين اليهود في خارج فلسطين، حيث كانوا يتوقون للدفن في فلسطين لأسباب تتعلق بأن يوم الحساب سيكون في فلسطين، وكانوا يلجأون عن طريق وسطاء من اليهود الذين يسافرون إلى فلسطين إلى شراء كمية من تراب

---

(1) مئير شاليف: " رومان روسي " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٨٢).
(2) نفس المرجع، (ص٢٥٣).
(3) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلي " (الصهيونية والصبارية في الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٦).
(*) جلجول هامحيلوت: عقيدة يهودية تعني (البعث من تحت الأرض). و تؤمن بتجمع الموتى يوم القيامة في الأرض المقدسة عن طريق الأنفاق الأرضية ثم بعثهم أحياء.

فلسطين لتوضع تحت رءوسهم عند دفنهم خارجها لتقرب المسافة بينهم وبين فلسطين يوم الحساب.

ومن هنا تهافت رواد القرية لحجز مكان لهم في هذه المقبرة، ويستغل " باروخ " الموقف لصالحه؛ ليصبح غنياً، ويحصد أموالاً طائلة من وراء إدارة وبيع المقابر بالبستان:

" دفنت جدى وأصدقائه فى البستان، وأصبحت غنياً وتركت القرية "[1].

وهكذا، يتحول البستان إلى مقبرة يدفن فيها كل الرواد، ويمتلأ بشواهد القبور والحشرات والهوام:

" خرب البستان وزرع بالرفات والقبور، واصطفت شواهد القبور على الجانبين ... وفي المنتصف كان يقع قبر جدى الأبيض "[2].

" شيدّ جدى بستانه الكبير فى نفس المكان الذى أصبح اليوم (مقبرة للرواد) "[3].

وفى حقيقة الأمر، لم يكن تحول بستان الجد إلى مقبرة يدفن فيها كل الرواد إلا تأكيدا من " شاليف " على أن الصهيونية أخطأت منذ البداية بترويج شعارات زائفة حول علاقة ما تتسم بالخصوصية بين هذه الأرض ويهود الشتات، وظهرت الحقيقة جلية عندما احتك هؤلاء المهاجرون بهذه الأرض التي شعروا بالمهانة وهم عليها. لقد رفض " شاليف " تلك العلاقة وأرجعها إلى حقيقتها، فهذه الأرض لم تكن يوماً إلا (مقبرة) لليهود فحسب.

ويعلق الناقد الإسرائيلى أورن على أسباب تحول بستان الجد إلى مقبرة جماعية للرواد الصهيونيين بقوله: " إن تحويل الإرث الأسرى إلى (مقبرة للرواد) لم يكن فقط استدارة عجلة التاريخ إلى الوراء، بل بمثابة تصحيح للأخطاء التى وقع فيها ميرقين وأصدقاؤه. لقد كانت الصهيونية من أساسها بمثابة خطأ؛ ولذا فإن ميرقين يوصى حفيده بأن يدفنه فى البستان؛ ليعود مرة أخرى مقبرة قومية "[4].

وهكذا يؤكد شاليف على حقيقة مهمة، هى أن أرض فلسطين كانت ومازالت مقبرة لليهود، مشيراً إلى أن الصهيونية فشلت في تحقيق الأمن لجموع اليهود على تلك الأرض المقدسة بعد أن أصبحت دائرة الحروب والمعارك العسكرية اليومية أمراً لا مناص منه. وهو بهذا يشير أيضاً إلى فشل التجربة الصهيونية مادامت لم تحقق غرضها الذى تعلقت به آمال اليهود المهاجرة إلى فلسطين، بل أصبحت عبأ يتوارثه الأجيال، ويدفعون ثمنه مع كل حرب يخوضونها. وقد عبر شاليف عن ذلك فى الرواية بتحول القصائد القديمة إلى ترنيمات، وانتهاء الشعارات الجوفاء، ليبقى فقط الصمت في " مقبرة الرواد ":

---

(١) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٥).
(٢) نفس المرجع، (ص٣١).
(٣) نفس المرجع، (ص٦٥).
(٤) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٧).

" ساد الهدوء التام هذا المكان. وتحولت الأغانى القديمة إلى ترنيمة هادئة، وصمتت أصداء الشعارات الكبيرة ... وفى سكون الليل كنت أسمع نحيب النساء وأنفاسا تتداخل فى الرياح، وكثيرا ما كنت أسمع انفجارا بائسا من باطن الأرض وقت أن تنتهى مرحلة انتفاخ بطن أحد المدفونين الجدد هنا "[(١)].

لقد كان عدد الرواد الذين دفنوا فى هذه المقبرة كبيراً للغاية:

" لقد دفن فى مقبرتى ٢٧٤ من المسنين والعجائز ... رواد، منجزون، ورأسماليون خائنون "[(٢)].

وإذا كانت الصهيونية قد حاولت فى طرحها التأكيد على أن فلسطين لم تعد لتقوم بالدور التقليدى فى حياة الشعب، ذلك الدور الذى كانت تقوم به فى سنوات الشتات، وهو دور المقبرة القومية، زاعمة أن الأرض لم تستوعب الموتى فقط، بل الأحياء أيضاً، وهو ما يؤكد عليه "بيناس" معلم أطفال القرية قائلاً: " جاء الموتى من الشتات إلى هنا ليدفنوا فى أرض بلادنا ... لكننا نحن الأطفال، هاجرنا إلى هذه البلاد؛ كى نحيا عليها وليس لنموت بها. لقد آمنوا بأن الدفن هنا سوف يطهرهم من خطاياهم ويقربهم إلى جنة عدن. ولكننا نحن لم نؤمن بالبعث من تحت الأرض - جلجول هامحيلوت - أو بتكفير الذنوب. فتكفير ذنوبنا يكمن فى تعبيد الأرض وليس فى حفر القبور. فجلجول هامحيلوت هو الحراثة "[(٣)].

إذا كانت الصهيونية قد حاولت التأكيد على هذا فى شعاراتها، فإن تحول الأرض إلى " مقبرة للرواد " يحطم نظريتها، ويؤكد على أن المقبرة القومية عادت من جديد لتقوم بدورها، وأن الأرض لم تستوعب اليهود إلا أمواتا فقط. وهو أمر يؤكد عليه " شاليف " فى روايته من خلال هرع الرواد إلى " باروخ " صاحب المقبرة لحجز المقابر التى سيدفنون بها بعد موتهم. فها هو " تسرقين " أحد الرواد يؤكد على " باروخ " أن ينتقى له مكاناً بجوار مدفن الجد " ميرقين ":

" قال لى: فلتسمع يا " باروخ "، لن يستمر هذا وقتاً طويلاً، وأنا أريد مكاناً جيداً لديك بجوار الجد "[(٤)].

ويطلب " ليفين " كذلك أن يدفن فى البستان عندما شعر بأن نهايته تقترب:

" عندما شعر ليفين بأن نهايته قريبة، دعانى، واقترح علىّ مبلغاً كبيراً من المال رفضته على الفور، وطلب منى أن أدفنه فى مقبرتى بين الرواد "[(٥)].

---

(١) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٣١٥).
(٢) نفس المرجع، (ص١٩٦).
(٣) نفس المرجع، (ص٢١٠).
(٤) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٠٣).
(٥) نفس المرجع، (ص٣٠٦).

ويأتى " ليبرسون " ليطلب من "باروخ " أن يدفن زوجته " بانيا " فى مقبرته :

" أمرهم ليبرسون أن يأتوا بى إليه ... وأخبرنا أنه يريد أن يدفن بانيا فى مقبرة باروخ الجديدة " (١) .

وبتأكيد شاليف على عودة عجلة التاريخ إلى الوراء إلى ما قبل قيام الصهيونية لتعود الأرض لتقوم بدورها كمقبرة لليهود، يتبين لنا جدية شاليف فى رفض أسطورة العودة إلى الطبيعية، فالطبيعية هنا، من وجهة نظر المؤلف، هى عودة الأرض للقيام بدورها قبل ظهور الصهيونية على مسرح الأحداث ؛ مما يعنى أنها أخطأت فى النبوءة والهدف كما قال أحد أبطال الرواية. ذلك لأن الدفن فى فلسطين له قدسية خاصة لدى اليهود ؛ فيقال فى الفلكلور الدينى اليهودى فى التلمود، إن جثة الميت اليهودى خارج فلسطين تزحف تحت الأرض بعد دفنها حتى تصل إلى أرض فلسطين. وأمام هذه القدسية الخاصة بالدفن فى فلسطين، صور لنا شاليف جميع شخصيات الرواية وهى تتوق للدفن فى فلسطين، ولكن " باروخ " لم يدفن فى البستان إلا أعضاء الهجرة الثانية فقط من أصدقاء جده " ميرقين " . وربما كان الدفن لأعضاء الهجرة الثانية فقط ؛ لأن أفرادها هم الذين أخذوا على عاتقهم مبدأ إرساء الاستيطان الصهيونى على أرض فلسطين، ونادوا بالأعمال الشاقة والعمل العبرى والاعتماد على الذات لتحقيق الخلاص لليهود وإبراز هويتهم اليهودية، ويذكر أن " بن جوريون " كان من أبناء هذه الموجة من الهجرة. وربما قصد شاليف رواد هذه الهجرة فقط لتحطيم ما ترتب على هجرتهم إلى فلسطين من إنجازات فى الاستيطان :

" كره مشولام تسرقين مقبرتى ؛ لأننى رفضت أن أدفن أمه فيها ... لقد دفنت فيها أصدقاء الجد، وأعضاء الهجرة الثانية فقط. أما بسيا تسرقين فقد كانت من الهجرة الثالثة " (٢) .

وعن سبب دفن رواد الهجرة الثانية فقط فى البستان يقول " يوسف أرون " : " جاء لنا مئير شاليف بباروخ القاص لكى ينقل فقط ما سمعه من أحاديث لقدامى الوادى من أبناء الهجرة الثانية. وبظهوره سعى شاليف ليؤكد على بعض من الأحاديث القوية التى سمعها بكلتا أذنيه من أفواه الرواد المسنين الذين التقى بهم فى أثناء الإعداد لكتابة هذه الرواية " (٣) .

ويضيف قائلاً : " جاءت الرواية بحل باروخ شنهار فى المقبرة، حيث سيدفن النبوءة مع مؤسسيها، ويعيد الأرض إلى هدفها الرئيسى قبل أن يستفحل الهوس النبوئى لدى أبناء الهجرة الثانية، فى تحويلها إلى أرض الخلاص " (٤) .

---

(١) نفس المرجع، (ص٣٢٠).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٣).
(٣) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٠).
(٤) نفس المرجع، (ص٧٧).

وقـد كـان مـن بـين رواد الـهجـرة الثانـية من عاد على أعقابه مكتفيا بإرسال المساعدات المالية إلى إخوانه اليهود في فلسطين . ولكي يؤكد " شاليف " على استعادة الأرض لدورها كمقـبرة قومـية فـى الشتات ، فها هي " روزا مـونكين " تصـل من خارج البلاد فى نعش لتدفن فى البستان :

" بعثـت روزا مونكين ردها ، وبعد مرور ثلاثة أشهر ... تصل بنفسها داخل نعش متلألئ " [(١)].

وتـتوالى الطلـبات عـلى " بـاروخ " من خارج البلاد لحجز المقابر ، فها هو " بوسكيلا " مديـر المقـبرة يـتجول مـع اثـنين أرسلـهما أحد المصدرين اليهود الذين يعيشون فى نيويورك لشـراء مدفـن لــه فـى هـذه الأرض ، تأكيداً من شاليف على تحول أرض فلسطين إلى مقبرة لأثرياء اليهود فى الخارج ، وهو نفس الدور الذى كانت تقوم به فى الماضى :

" تجـول بوسـكيلا فـى الممـرات مـع شـابين أمريكـيين ، أبـناء مصـدر عطور من نيويورك ... أرسلـهما ليختارا لـه قبراً " [(٢)]

(ج) الشعور بالخديعة والإحباط لدى الرواد :

كـان الشـعور بالخديعـة والإحـباط لـدى الرواد الصهيونيين ، هو نتيجة طبيعية لما حدث لـهم عـلي هـذه الأرض ، لاسيما وقـد تبددت أحلامهـم وانهار المشروع الصهيونى على أرض الميعاد ، وتحولـت البسـاتين إلى قـبور ، وانكشـفت حقيقة العودة إلى الطبيعية ، وشعر الآبـاء المؤسسـون لأول وهلـة بالخديعـة التى ساقتهم إليها الصهيونية ؛ وتسلل الإحباط إلى قلوبهـم ، واعـترف الجمـيع بالفشـل والخديعـة ، وتـرددت كـلمات الشـك والإحباط على ألسنتهم عبر معظم صفحات الرواية ، كان أبرزها على سبيل المثال لا الحصر ما يلى :

يأس	(الرواية ص ٤٦ ، ١٤١)
تفكيك	(ص ٦٧)
انحلال	(ص ٦٧)
شك	(ص ٨٩ ، ١١٥ ، ١٧٧ ، ٣٣٦)
أمل	(ص ١٠٥)
شك	(ص١١٧ ، ٣٤١)
ألم	(ص ١١٩)
خلاص	(ص ١٤١)

(١) مئير شاليف : " رومان روسى " (رواية روسية) ، رواية ، مرجع سابق ، (ص٢٨-٢٩) .
(٢) نفس المرجع ، (ص١٨٦) .

أساطير (ص ١٤٩ ، ٣٤٤)
إحباط (ص ١٥٣)
الكل باطل (ص ١٦٣)
شك (ص ١٧٧ ، ٣٤٤)
فشل (ص ١٧٩ ، ٢١١ ، ٢٥٨)
كارثة (ص ١٨٠)
تبددت الآمال (ص ٢٦٠)

وقد آثر " شاليف " أن يتغلغل فى أعماق هؤلاء البائسين ؛ ليكشف لنا عن أحاسيس متخبطة يملؤها الخوف والفشل. لقد شعر " ريلوف " القائم بأعمال الحراسة للقرية بالفشل بعد موت " استير " " وبنيامين " ، من جراء قنبلة :

" وقف ريلوف هناك مكتئباً، وقد سحقه الإحساس بالفشل " [(١)].

ووصل الحال بهؤلاء الرواد إلى الاعتماد على عرافة عربية وساحر ، ليؤكدا لهم على فشل النبوءة وتفاقم المشكلات أمام جيل الشباب ، فيزداد إحساسهم بالإحباط والفشل :

" ... أما العرافة فكان من شأنها أن تلقى على مسامعنا بنبوءات لا تتمشى مع نبوءتنا . والساحر هو الآخر ... كان من المشكوك فيه أن يقدم حلولاً سهلة للمشكلات الجارية للشباب " [(٢)].

وشعر " أفرايم " بالعار والمذلة :

" أرخينا أنظارنا إلى الأرض بمذلة وخجل " [(٣)].

وفى شجار حاد لأحد الرواد مع زوجته يخرج لها دفتراً أسود يقدمه فى غضب لها ، وقد سجل فيه كل خطايا الصهيونية :

قال بصوت خافت: " كل أخطاء مجموعة العمل ، مسجلة هنا " [(٤)].

أما الخديعة فقد كان شعورها لدى الآباء المؤسسين قاسياً للغاية ، فقد وجد " مشولام " معلم القرية "بيناس " ملقى على الأرض ، وبجواره إحدى المجلات مفتوحة على عنوان "تاريخ فلسطين واستيطانها " ، فأخذ يتصفحها فى غضب ؛ ليصل بنا إلى مدى الخديعة التى وقع فيها الصهيونيون الأوائل :

---

(١) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية ، مرجع سابق ، (ص١٧٩) .
(٢) نفس المرجع ، (ص١٨٥ـ١٨٦) .
(٣) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية ، مرجع سابق ، (ص١٨٨) .
(٤) نفس المرجع ، (ص٢٢٤) .

" مستنقعات الـوادى – الأسـطورة والواقـع ، وبـدأ يقـرأ وإصـبعه الـذى يرتعد يتخطى السطور "[1] .

ويمضـى "شـاليف " ليبين لـنا مـن خـلال " مشـولام " وهـو يقرأ تلك المجلة، كيف خلقت، الأسطورة وزيفت الحقائق، والأسباب التى أدت إلى ذلك :

" لـدواع تعليمـية وسـياسية أغمضوا عيونهم عن دلائل المستنقع ، وعن الحمى والمـوت فـى وادى يزرعئـيل ، وحولّـوا كـل هذا إلى أسطورة. فتسع وتسعون فى المائة من هذه الأراضى لم تكن بها مستنقعات "[2] .

ويواصل " مشولام " قراءته لـ " بيناس " معلم القرية :

" وهـذا يـتعارض مـع الصورة التى جاءت بها المصادر التى خلقت أسطورة مستنقعات الوادى "[3] .

ويغضـب كـل من " مشولام " و " بيناس " ، ويصف الاثنان القائمين على الصهيونية بالكذب والخداع ، ويسخران من المستطلعين الذين جاءوا ليستطلـعوا الأرض قبل هجرتهم إليها :

" (لقـد تزّيـنوا بقناع الكذب) و (كان صنيعهم كلـه خداع) ... (وضحكوا عليكم طوال هذه السنوات) ... (هؤلاء المخادعون يكتبون عن أبى أيضاً) "[4] .

ويـنظر " مشـولام " إلى الصـحف عـلى أنهـا جـزء مـن المؤامرة، أما " بيناس " معلم القـرية ، الـذى أخذتـه فـى البداية حماسة الاستيطان وظل يدفع الشباب نحوه ، فيصف الأمر بالفضيحة :

" بصق مشولام بغضب على الصحف التى هى (جزء من المؤامرة)، ثم قال بيناس (يالـها من فضيحة)"[5] .

ولعـل شـاليف يشـير هـنا إلى مـا روج لــه الإعـلام والأدبـيات الصـهيونية خـلال فترة الاسـتيطان الصـهيونى فـى فلسطين ، حيث راح المفكرون الصهيونيون يكتبون فى الصحف عن أرض فلسطين والوطن القومى ، وكان هناك من كتب عن جمال طبيعتها دون أن يزورها فـى محاولـة للفـت أنظار اليهود إليها والتشجيع على الـهجرة. فإذا كانت تلك الكتابات أو المقـالات حملـت عـناوين (الأرض الخلابـة) و(الأرض التى تدر لبناً وعسلاً) وغير ذلك فإن شـاليف يرفض ذلك ويصفه بالخداع فى مقال يعبر عن الاستياء والغضب كتبه " بيناس " ،

(١) نفس المرجع ، (ص٢٨٨) .
(٢) نفس المرجع ، (ص٢٨٨) .
(٣) نفس المرجع ، (ص٢٨٨-٢٨٩) .
(٤) نفس المرجع ، (ص٢٨٩) .
(٥) مئير شاليف : " رومان روسى " (رواية روسية) ، رواية ، مرجع سابق ، (ص٢٩٠) .

أحد شخصيات الرواية فى صحيفة القرية يمقت فيه المستطلعين اليهود، الذين جاءوا قبل مجيئهم وأقروا بصلاحية الأرض:

" وفى مقال تحت عنوان (**أرض تأكل سكانها**)، يصف بيناس هؤلاء الباحثين بألقاب مثل (المتشدقون)، و (**المخادعون**) " [1].

وهكذا بيّن لنا " شاليف " كيف خدع القائمون على الصهيونية المهاجرين اليهود، وكيف كانت قصتهم فى الواقع أسطورة، حتى انكشف شراكهم وخداعهم لهؤلاء القادمين من الشتات، حيث يصف " ليبرسون " الرحلة كلها — قصة الخديعة الكبرى — إلى هذه الأرض منذ البداية بأنها مأساوية وخاضعة للكذب والتزييف والأسطورة، وينتهى إلى أنه يكره هذا المكان[2].

وهكذا، " توقف مؤسسو القرية عن الإيمان بالنبوءة، وبرز إحباطهم تجاه الهدف الذى عملوا من أجله فى بداية طريقهم. فإذا كانوا قد روضوا الطبيعة وحجّموا وحشيتها، فمنذ اللحظة التى يئسوا فيها من النبوءة وهم يتخلون عن كل ما حققوه من إنجازات. فها هو الجد ميرقين يتخلى عن بستانه ويأمر حفيده بتحويله إلى مقبرة. ويمتثل المعلم بيناس أمام الجميع بصفته المسئول الأول عن كل النصوص المتشبعة بالأمل، التى تحولت إلى نصوص مشبعة باليأس حول نبوءة الصهيونية. فقد أفسدت الأرض كل هذه الجهود وألقت بسمومها فى وجوه كل الرواد وأفسدت صنع الإنسان وجهوده " [3].

(د) النهاية المأسوية للرواد:

وفى محاولة من " شاليف " لإكمال الصورة القاتمة التى ظهر عليها الآباء المؤسسون بعد تحطم مشروعهم الصهيونى، جاءت نهاية معظم رواد القرية مأساوية، فهناك من مات منتحراً، وهناك من مات من جراء قنبلة يدوية، وآخرون أصيبوا بالجنون وخارت قواهم حتى ماتوا بفعل اليأس والفشل والخديعة.

إن القاص نفسه يتم إنقاذه وعمره عامان، حيث ألقى العرب على والديه "بنيامين" واستير " قنبلة يدوية وهما فى منزلهما ليلقيا حتفهما على الفور فى نهاية مأسوية، يذهب بعدها " باروخ " القاص ليعيش فى كنف جده " ميرقين " :

" . . فستان الزفاف، خطابات أفرايم لبنيامين — كل شىء احترق. ولم يبق سوى بكاء طفل بائس فى الظلام، فأضأنا المصابيح ووجدناك تزحف، شبه عار، على العشب " [4].

---

(١) نفس المرجع، (ص٢٩١).

(٢) نفس المرجع، (ص٣٦١: ٣٦٥).

(٣) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت باروان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٤ـ٧٥).

(٤) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٧٩).

وتعلق يونا باحور على الموت الذى كان من نصيب معظم شخصيات الرواية بقولها: " لقد سمح الكاتب لنفسه أن يقضي على استير وبنيامين على حد سواء، ومرة واحدة فى حدث مروع يهز القرية كلها، ذات ليلة ؛ دون أن نسمع صوت ألم أو نحيبا من الألم، ودون دمعة رمزية واحدة. ففى (رواية روسية) يظهر الموت مثلما نجده فى أفلام الرعب، أو مثلما نجده فى لبنان وفيتنام وأفغانستان، وإسرائيل اليوم. وعلى الرغم من هذا، فإن هذه الرواية تفتقر إلى ألم حقيقى على الموتى "[1] ؛ ربما لأن الموت أصبح أمراً عادياً فى القرية، وربما لأن المؤلف لم يعبأ بهذا ؛ فهو يسرد القصص التى سمعها من رواد الهجرة الثانية فحسب، وربما لأنه غير مشفق على هؤلاء الذين عاشوا على أسطورة أرض الميعاد التى يرفضها، فيمضى ليسرد لنا النهايات المأساوية لرواد القرية والمشروع الصهيونى، حيث يفقد " زيتونى " أحد اليهود الورعين، أسرته فجأة فى طوفان اجتاح البلاد:

" كان زيتونى إنساناً ورعاً من طبريا، فقد أسرته وبيته فى أحد الفيضانات ... وبعد الكارثة قص لحيته، وألقى بقبعته وطاليته فى المياه الساخنة التى قضت على حياته، وباع كتب التوراة التى حافظت عليها أسرته على مدار أجيال عديدة "[2].

قد يكون تجرد زيتونى من تزمته الدينى بعد أن فقد كل شىء، هو محاولة من شاليف لدحض أسطورة المقرا التى اعتمدت عليها الصهيونية فى دفع جموع اليهود تجاه فلسطين بزعم العهد المقطوع بينهم وبين الرب، وبخاصة وقد باع زيتونى التوراة وقص لحيته، بعد أن أدرك تلك الأسطورة، لاسيما أن شاليف يرفض دائماً أساطير المقرا، وهو ما حدث بالفعل فى روايته (عيسو) التى دحض فيها أسطورة المقرا التى اعتمدت عليها الصهيونية فى توزيع الميراث بين (عيسو ويعقوب) كما سنتبين فيما بعد.

أما "بيناس " معلم القرية فيصاب بنزيف دموى فى المخ وينقل إلى عيادة القرية وتسوء حالته الصحية حتى يموت:

" أصيب بيناس بنزيف دموى فى المخ ... وشحب وجهه، وأخذ يتنفس بصعوبة ... كان يجلس على سريره ... أبيض مترهل ضعيف ... يأكل دون حراك، ويحاول طوال الوقت أن ينطق بكلمة "[3].

وفى نهاية مأساوية أخرى تموت زوجته " ليئة " متأثرة بمرض الحمى وفى أحشائها توءم

---

(١) يونا باحور: " رشيموت عل هاسفروت " (انطباعات حول الأدب)، دار نشر يارون جولان، تل أبيب، ١٩٩٣ (ص٦٧-٦٨).
(٢) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٨١).
(٣) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢١١).

" وبعد عام ماتت زوجتي ليئة متأثرة بمرض الحمى. وهي تحمل في أحشائها جنينين "[1].

وتتوالى النهايات المأساوية في الرواية للرواد. فها هو " شلومو ليفين " يموت بعضة بغل:

" .. وعلى شاهد قبره تلألأت تلك العبارة التي طلب تسجيلها: (هنا دفن الطليعي) " شلومو ليفين "، رجل الهجرة الثانية الذي قضى نحبه بعضة بغل "[2].

ويصاب " ليبرسون " هو الآخر بالعمى، وينزل مقيماً في دار المسنين حتى مثواه الأخير:

" وقد وهن المسن بعماه، وأرسل إلى دار المسنين "[3].

ويموت " تسرقين " من شدة الألم والتعجب عما حدث له ولأعوانه الرواد، وقد تجرع مرارة الموت:

" لقد مات تسرقين من الضوضاء والصرخات، وعدم الرضا وبسبب المقاومة الهائلة. وقد سمعته القرية كلها وهو يصارع مرارة الموت "[4].

وهكذا، يكاد لم يمت أحد من الرواية إلا وموته كان مأساوياً حتى الجد "ميرقين" عاش أيامه الأخيرة في دار المسنين، واهن الجسم، يجلس معظم اليوم في سريره أو على كرسي متحرك يتقيأ على الدوام ولا يتحرك إلا بمساعدة حفيده " باروخ " القاص[5]. لقد اهتم " ليفين " بظاهرة الانتحار التي بدأت مع الأيام الأولى للهجرة، وأخذ يتجول بين شواهد القبور في المستوطنات والكيبوتسات ويلقي بكلمات قاسية، وكأن " شاليف " نفسه هو الذي كان يتجول:

" كان ليفين يتجول بين شواهد القبور، ويقرأ تلك الكلمات المريعة التي كتبت عليها: (انتحر)، (لم يتحمل آلامه)، (ذاق الآمرّين)، (أنهى حياته) "[6].

وهكذا، يمكن القول، إن " شاليف " كان موفقاً في رسم صورة النهاية لهؤلاء الرواد، وقد آثر أن يسجل لكل رائد من هؤلاء الرواد الصهيونيين قبل مماته كيف كانت نهايته المأساوية على قبره، وهو ما يتوافق تماماً مع نقد " شاليف " اللاذع للصهيونية.

---

(١) نفس المرجع، (ص٢٩١).
(٢) نفس المرجع، (ص٣٠٩-٣٠٧).
(٣) نفس المرجع، (ص٣٤٠).
(٤) نفس المرجع، (ص٣٢٧).
(٥) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٤٣).
(٦) نفس المرجع، (ص٢٢٥).

وأحياناً قد يشعر القارئ بأن " شاليف " كان موجودا بين هؤلاء الرواد، لاسيما أننا نشعر كثيراً بأنه هو " باروخ " القاص.

(٣) النزوح عن إسـرائيل:

إذا كانت الطبيعية هي نظرية صهيونية تعني عودة الشتات اليهودي إلى فلسطين، فإن النزوح عن إسرائيل، التي تمثلها القرية في هذه الرواية، يعني فشل الصهيونية في تحقيق هذا المطمح، وتحطم أسطورة العودة إلى الطبيعية بمجرد عودة يهود الشتات إلى فلسطين، كما يرى شاليف.

إن هذه المرحلة تجيء بعد مرحلة الفشل التي أصابت المشروع بأكمله، فلم يجد بعض الرواد ممن ظلوا على قيد الحياة مفرا من الموت المحقق والنجاة بأنفسهم إلا بالنزوح عن قرية " يزراعئيل "، تلك القرية التي شهدت نهايات مأساوية للرواد، وتجرع الجميع من كأس الألم والحسرة والخديعة الصهيونية التي عبر عنها " شاليف " ؛ ليؤكد لنا أن الشتات هو ظاهرة طبيعية تتغلغل في النفس اليهودية، وليست حالة مؤقتة، وهو ما أكد عليه " يهوشواع " في روايته (مولخو) وفي كتابه " بفضل الطبيعية " بقوله: " إن الشتات ظاهرة دائمة وطبيعية تقريباً بالنسبة لليهود ... وطبقاً لهذا التطور فإن الشعب اليهودي هو شعب مشتت، وتلك هي قوته الوجودية ... وهو تصور ينظر إلى الشتات على أنه ظاهرة شرعية وطبيعية. وبالتالي، يطل علينا أحياناً هذا السؤال الذي يقول: (لأجل من، في الحقيقة، هذه الدولة؟) [(١)].

كما أن النزوح عن إسرائيل — القرية — في الرواية، هو تعبير عن الوضع المتدهور الذي وجده هؤلاء النازحون الذين اصطدموا بالواقع الحقيقي، ولم يستطيعوا التأقلم معه أو العيش فيه. وربما هو تعبير من شاليف عن سأمه وكراهيته لدائرة الحروب المفرغة التي مازالت مستمرة منذ قيام الدولة وازدياد حدة المعارك العسكرية اليومية، والتي يفقد فيها العديد من الشباب الإسرائيلي سواء في المعارك العسكرية أو في المواجهات اليومية مع انتفاضة الفلسطينيين ومقاومتهم ضد جيش الاحتلال الإسرائيلي. وهو الأمر الذي زادت بسببه الهجرة العكسية من إسرائيل، التي عبر عنها الكثير من الأدباء الإسرائيليين في أعمالهم الأدبية مثل عوز ويهوشواع. وكانت مسألة التأقلم واختلاف الطبيعة التي تعود عليها المهاجر اليهودي، بالإضافة إلى افتقاده للأمن في (الوطن الآمن) التي وعدت به الصهيونية من أهم الأسباب التي جعلت التفكير في النزوح عن إسرائيل أمراً مهماً، مثلما حدث في الرواية مع " روزا مونكين " التي جاءت من أوكرانيا وسرعان ما هاجرت إلى أمريكا:

(١) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص٢٩).

" هاجـرت روزا مونكـين من أوكرانيا، وعملت لمدة أسبوع في بساتين اللوز، ثم وجـدت أن هذا لا يتناسب مع بشرة يديها الناعمتين. فبدأت تثير العالم بخطابات لإنقاذهـا مـن هـذه البلاد. وكان لـها أخ مهاجر إلى أمريكا فأرسل لـها تذكرة إلى هناك "(1).

إنهـا لم تكـتف بالـهجـرة، بل صرفت على دعايات معادية للصهيونية التى تسببت لـها فى ذلك:

" ونشرت على نفقتها الخاصة إعلانات معادية للصهيونية "(2).

ولحق بها " يوسف ميرقين " أخو الجد " يعقوب ميرقين " الذى يأس من الوضع وقرر بعدها السفر إلى أمريكا أيضاً:

" كـنا ثلاثة أصدقاء. تسرقين مندولينا، واليعازر ليبرسون وأنا. أما أخى يوسف فقد مرض وأصيب باليأس، فنزح إلى أمريكا ولم يعد مرة أخرى "(3).

وقـد فضـل بعضـهم الحرب على العيش فى هذه البلاد. حيث استقل " أفرايم " سفينة عسكرية ونزح إلى إسكتلندا:

" لقـد اسـتقر هـو نفسـه، فـى ذلـك الوقـت عـلى ظهـر سـفينة عسكرية أبحرت إلى إسكتلندا "(4).

وتـتوالى عمليات النزوح فى الرواية. ويأتى لنا " شاليف " بنازح آخر قرر بيع ممتلكاته وأبقـاره وبسـتانه، ليذهـب " أبـرا هـام " ومعـه زوجـته " رفقـاه " تاركاً القرية والمشروع الصهيونى بأكملـه:

" بـاع أبـراهام أبقـاره وأجهـزته ... ثـم سافر مصطحباً زوجته... إلى خارج البلاد "(5).

ويحكـى اثـنان قصـة أسرتهما فى هذه البلاد، حيث عملوا فى تجفيف الآبار ثلاثة أسابيع فقط، ولـم يتحملوا الوضع فتركوا البلاد:

" عمل أبانا ثلاثة أسابيع، ولكن أمه مرضت، فاضطر إلى ترك البلاد "(6).

ويقـول " بيـناس " معـلم القـرية، إن تسـعين فـى المائـة من رواد الـهجرة الثانية تركوا البلاد:

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص24).
(2) نفس المرجع، (ص25).
(3) نفس المرجع، (ص33).
(4) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص124).
(5) نفس المرجع، (ص341-342).
(6) نفس المرجع، (ص186).

" ترك تسعون فى المائة من رجال الـهجرة الثانية البلاد "[1].

كان شاليف يستمع إلى قصص الاستيطان من بعض هؤلاء الرواد ممن ظلوا على قيد الحياة ؛ وهو ما ساعده كثيراً فى صياغة روايته بهذه الدقة والسخرية، والتى أكد فيها أن ٩٠٪ من رواد هذه الهجرة تركوا البلاد، وعلى هذا فلنا أن نتصور ما حدث للـ١٠٪ الآخرين من إحباط وفشل وموت مأساوى، وهو بذلك يشير إلى مدى الدمار الشامل الذى لحق بهؤلاء الرواد من ناحية، وسخريته وتأكيده على فشل الصهيونية فى محاولاتها للعودة إلى الطبيعية من ناحية أخرى، حتى إننا نجده يعبر فى سخرية لاذعة عن هذا النزوح بالحيوانات التى يضفى عليها صفات بشرية. لقد هاجرت الحيوانات أيضاً، حيث لم يستطع الحمار، هو الآخر، العيش فى هذه الأرض ؛ فسافر هارباً إلى لندن ليلغى الملك هناك كل مقابلاته ويلتقى بـ" كاتشكا " الحمار العبرى اليهودى:

" كان لدينا حمار أطلقوا عليه كاتشكا ... وذات ليلة، وبينما كان الجميع نائمين ارتدى " كاتشكا " معطفاً على مؤخرته ... وسافر إلى لندن. وبينما كان الملك الإنجليزي يتناول وجبه إفطاره، جاء كاتشكا وطرق باب القصر بحافره. وعلى الفور دعاه الملك للدخول، وقدم له بيضة ... فحكى له كاتشكا عن القرية، فأمر الملك خادميه بإلغاء كل مقابلاته الأخرى ... فاليوم لدى حديث مع " كاتشكا، حمار عبرى من فلسطين "[2].

ومن الملاحظ أيضاً، أن شاليف يضفى دائماً، فى هذه الرواية، صفات بشرية على الحيوانات، وكأن الحيوانات هى جزء من أبطال الرواية. وقد يرجع ذلك إلى سببين: الأول، هو أن " شاليف " كان يكتب قصصاً للأطفال، حيث كتب ثلاث قصص للأطفال، ولذا ظهر فى هذه الرواية تأثره بالكتابة للأطفال، التى دائما ما تستخدم فيها قصص عن حيوانات تتحدث وتقص الحكايات. ثانيهما، قد يكون "شاليف" قد لجأ إلى هذا الأسلوب من باب السخرية من الرواد الصهيونيين، الذين وضعهم فى مرتبة واحدة مع الحيوانات ؛ على اعتبار أنهم انساقوا وراء الادعاءات الصهيونية الزائفة وآمنوا بالأسطورة الصهيونية، وساروا وراءها، كقطيع الأغنام دون تفكير أو تمهل.

ومن هنا، يؤكد شاليف، مثلما أكد يهوشواع، على أن الشتات هو حقيقة قائمة فى النفس اليهودية يحملونها معهم أينما ذهبوا، فهم دائماً فى وضع الاستعداد للهجرة حتى وإن كانت فى الاتجاه المضاد لوطنهم الذين حلموا به عقود من الزمن. وقد ذهب بوعز عفرون أيضاً فى كتابه (الحساب القومى) إلى أن هذه السمة التى تتغلغل فى أعماق النفس

(١) نفس المرجع، (ص٢١١).
(٢) نفس المرجع، (ص٥٥).

الـيهودية تـتعارض تماماً مع السمات القومية التى تحدثت عنها الصهيونية، حيث يقول: " لقـد عـاش يهود اليشوف* القديم فى أرض إسرائيل (فلسطين) ذاتها مثلما يعيش اليهود فى أيـة طائفة يهودية فى الشتات باعتبارهم من المعتمدين على البناء الاجتماعى العام وليس من حملـة أعلامه. و(الشتات) إذاً ليس بالوضع القائم بطريق الصدفة، الذى يمكن التغلب عليه عـن طـريق القرار والعمل البشرى، بل هو وضع دينى حتمى مستمد من حقيقة كون اليهود (يهـوداً). ويحمـل الـيهود الشـتات معهـم كـل مكـان يذهـبون إليـه، فهـل هـذه سمـات قومية؟ "[1].

ثانياً: أسطورة الحق التاريخى لليهود فى فلسطين:

يـرى شـاليف فى روايته (رواية روسية) أن افتراض الصهيونية بأن هناك عهداً خاصاً بين الشـعب الـيهودى وأرض فلسطين، وهو ما يكسب اليهود حق الملكية الخاصة والأزلية على هـذه الأرض، هـو افـتراض خاطـئ وأسـطورة خرافية تنفى حقوق العرب الفلسطينيين فى ملكـية هـذه الأرض، ويـرى أنـه لا توجـد حقـوق مادية للشعب اليهودى فى فلسطين كما تزعم الصهيونية.

ويـرى الأسـتاذ الدكـتور رشـاد الشـامى أن " هـذه الرواية حاولت أن تكشف عن حالة معـاداة الـتاريخ الـتى عاشـها الـيهود فى علاقتهم بفلسطين، وهدم مؤلفها القاعدة الفكرية للصـهيونية حـول (أرض المـيعاد) التى وكأنها ظلت عبر التاريخ خالية فى انتظارهم (أرض بـلا شعب لشعب بلا أرض)، وهو بذلك يفجر المعضلة التى تعترض حل النزاع الفلسطينى الإسـرائيلى، ويعرض حقوق العرب على قدم المساواة مع حقوق اليهود عليها، ويقدم حل التقسيم باعتباره الحل السياسى الذى يقترح دولتين لكلا الشعبين على أرض فلسطين "[2].

ويقـول " يوسـف أورن " عـن ادعـاء الحـق التاريخى لليهود فى فلسطين: " تزعم هذه الـرواية بأنه لا يوجد عهد سابق مثل هذا، ولا يوجد أساس للادعاء بأن هناك علاقة خاصة بـين فلسـطين وشـعب واحد؛ فالأرض فى الواقع مثل " الزانية " لا تحافظ على إخلاصها لـرجل. فالعشـاق يتـبادلون عليها، وكل فرد يضاجعها هو صاحب الحقوق المؤقتة عليها. فـلا توجـد حقـوق لليهود، الذين عادوا قبل مائة سنة تقريباً للتمسك بهذه الأرض أكثر مما لــهؤلاء الذيـن وطـئوها قـبلـهم. ولكـن الإنسـان القديـم فقـط هو الذى لـه حق الادعاء بالحقوق الأولية عليها. إن الرواية التى ترفض نظرية الصهيونية، فى وجود علاقة فريدة بين

(*) اليشوف: اسم كان يطلق على التجمع اليهودى فى فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل.
(١) بوعز عفرون: الحساب القومى، مرجع سابق، (ص ١٨٤).
(٢) د. رشاد عبدالله الشامى: أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٣٧).

الـيهود وهـذه الأرض، وتصـفها بـ (الأسـطورة) التى يجب تحطيمها، هى دون شك رواية معادية للصهيونية " [1].

وتأتى معارضة أورن للتوجه الخاص بتحطيم هذه " الأسطورة " فى الرواية، من منطلق تأكـيد " شـاليف " عـلى ذلـك فـى أحـداث الرواية، مشيراً إلى أنه لا توجد حقوق تاريخية قاصـرة عـلى شـعب بعينه فـى هـذه الأرض مـن ناحـية، وعـلى جذريـة الوجـود العربى الفلسـطينى فـيها من ناحية أخرى. وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتبين معالجة "شاليف" لادعـاء الحـق الـتاريخى للـيهود فى أرض فلسطين ورفض هذه "الأسطورة" الصهيونية من خلال طرحه للقضايا التالية:

(١) العلاقة بين الأرض والشعب:

يمـثل لـنا "شـاليف" العلاقـة بين الأرض والشعب بالعلاقة التى تجمع بين الرجل والمرأة فـإذا كانت العلاقة بينهما شرعية، " فإن الزوج فقط هو الذى يستوعب الزوجة، ولكن إذا تـركها فلـن يستطيع أن يطالـب بحقوقـه علـيها، أما إذا اختارت غيره فقد انقطعت حقوق الـزوج علـيها، ومـنذ الـلحظة الـتى تمسـكت فـيها بغـيره تنـتقل السيطرة عليها إلى زوجها الجديد" [2].

أمـا إذا كانـت العلاقـة بـين الـرجل والمرأة غير شرعية، وتلك هى العلاقة التى يعنى بها شـاليف بـين الأرض والشـعب فـى الـرواية، فـإن هـذه الأرض تخضع فقط لمن يضاجعها. ويـرى شاليف أنه لا يمكن أن نتوقع فى علاقة مثل هذه إخلاصا من المرأة. فالأرض فى هذه الحالـة مـثل المـرأة لا تحـافظ على إخلاصها ؛ لأنه " لا توجد مثل هذه الأرض، ولا توجد مثل هذه المرأة " (الرواية ص ٢٥٨).

وقـد أكـد "شـاليف " عـلى هـذا فى تلك الرواية، وقدم أرض فلسطين على أنها امرأة خائـنة للـرجل اليهودى، وامتلأت صفحاتها بالزانيات، ويكاد لا توجد امـرأة فى الـرواية إلا وكـانت زانـية، حيث كانت العاهـرة الأولى هى " شولاميت " حبيبة الصبا التى جمعتها قصـة حـب بـ " ميرقين " الجد، الذى ظل مرتبطا بها حتى بعد مرور خمسين عاماً ؛ والتى بسـببها تـرك روسـيا قاصـداً فلسـطين، ولكـن كل الرجال الذين ضاجعوها، أضاعوا حق الباكورة التى كانت لـه عليها ؛ فقد كانوا كثيرين:

---

(١) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٤).

(٢) يوسـف أورن: " هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسيبورت هايسـرائيليت " (القـلم كـبوق سياسـى، عشـر مقـالات حول الرواية السياسية فى الأدب القصصى الإسرائيلى)، دارنشر ياحد، إسرائيل، ١٩٩٢(ص٥٩).

" لقد ضاجعت كل الضباط ... وجنرالات عجائز من الجيش الأحمر " (١).

لـذا فـلا توجـد حقـوق مادية للشعب اليهودى على أرض فلسطين، فقد تناوب عليها واطـئوها فـى فـترات مختلفة مـن التاريخ، ولا يستطيع أحد منهم أن يطالب بحقوق خاصة علـيها فالقائمـة طويلة بحيث لا يمكن القول بأن اليهود فقط هم القائمون عليها منذ البداية، فقد كان عليها:

" الكنعانـيون، والأتـراك، وأبـو فصـادة، واليهود، والرومان، والماعز الجبلى، والعـرب وقطـط المسـتنقعات، والأطفـال الألمـان، والأبقـار الدمشـقية، والجنود الإنجـليز الذين تصارعوا من أجل غرس آثارهم فى الكتل الطينية المتفسخة " (٢).

وهكـذا يؤكـد شـاليف عـلى أن ادعـاء اليهود بأحقيتهم فى هذه الأرض دون غيرهم هو ادعـاء بـاطل، حـتى وإن كـان هـذا الادعـاء موجوداً فإنه لا يزيد عن حق أى شعب أو قوم عاشـوا عـلى هـذه الأرض، فقد عاش عليها شعوب عدة وأقوام كثيرة. ومما لاشك فيه أن تقديـم أرض فلسـطين على هذا النحو، يعد نفياً قاطعاً، من قبل شاليف لمفهوم العهد الذى يتشـدق بـه الصـهيونيون حتى الآن. كما أن وصف أرض فلسطين بالزانية فى هذه الرواية، يـأتى فقـط لكـى يثبـت أن الـيهود ليسوا أول من وطئها، فهى لم تكن عذراء عندما وصلوا إلـيها. وهو ما أكد عليه الناقد الإسرائيلى أورن بقولـه: " لقد اهتمت الصهيونية بأسطورة الحـق الـتاريخى لليهود فى الأرض، وفى وجود عهد خـــاص وأبدى بين الأرض والشعب الـيهودى، بيـنما فى الحقيقة وجد أول إنسان ظهـــر عليها أنها أرض عذراء، وقد تخيل كل مـن وطئها والمذكورين فى القائمـــة، أن هذه الأرض هى أرض عذراء، ولكن هذه الأرض كانـت فى حقيقة الأمر (زانية) تعيد المـحاولة فى كل مرة، وتستجيب لكل من يريدها ولمن يتناوبون الاعتداء عليها وهى فى رضا تام " (٣).

ويمكن القول، بأن شاليف تأثر بما ورد من نصوص فى أسفار الأنبياء تصف هذه الأرض بأنهـا زانـية، حيـث كانـت ترتكـب الفاحشـة مع كل الشعوب التى وطئتها مثل المصريين " وزنيت مع جيرانك بنى مصر " (حزقيال ١٦ : ٢٦)، والأشوريين " وزنيت مع بنى أشور " (حزقـيال ١٦ : ٢٨)، والكلدانـيين " وكـثرت زنـاك فى أرض كنعان إلى أرض الكلدانيين وبهـذا أيضـاً لم تشـبعى " (حزقـيال ١٦ : ٢٩). وفى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر حزقـيال يصـف الرب القدس بأنها تضع أصنامها لتتنجس بها، " أيتها المدينة السافكة الدم

(١) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٥٩).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٨٦).
(٣) يوسـف أورن: " هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦٠).

فى وسطها ليأتى وقتها الصانعة أصناماً لنفسها لتتنجس بها " (حزقيال ٢٢ : ٣)، " القريبة إليك والبعيدة عنك يسخرون منك يا نجسة الاسم يا كثيرة الشغب (حزقيال ١٢ : ٥). وفى سفر صفنيا كذلك" ويل للمتمردة المنجسة المدينة الجائرة" (صفنيا ٣: ١). وفى مراثى إرميا " بسطت صهيون يديها. لا معزى لها. أمر الرب على يعقوب أن يكون مضايقوه حواليه. صارت أورشليم نجسة بينهم " (مراثى إرميا ١ : ١٧).

وللتأكيد على هذا، صور لنا " شاليف " كل النساء فى الرواية زانيات يخنّ أزواجهن مع الآخرين. فقد كانت " تونيا " زوجة " ريلوف " تخون زوجها مع " مرجوليس " :

" كانت " تونيا" تقضى وقتها مع "مرجوليس" بين المناحل فى البستان" [(١)]

وزوجة " يعقوبى " سكرتير القرية تخون زوجها مع " أورى " :

" صرخ العاشق الصغير قائلاً: إننى أنكح زوجة يعقوبى "[(٢)].

وزوجة طبيب القرية تخون زوجها مع " أورى " أيضاً:

" سمع "بيناس " والنساء ذلك الصراخ الذى يقول: " إننى أنكح زوجة الدكتور "[(٣)].

وحفيدة " ريلوف " أيضاً يضاجعها أورى فى برج المياه الخاص بالقرية :

" إننى أنكح حفيدة ريلوف "[(٤)].

وكن كل نساء القرية اليهوديات زانيات يتهامسن لبعضهن بعضا عن نزواتهن وانحرافاتهن :

" كانت هناك أحاديث فاجرة وصريحة للنساء، اللاتى اعترفن لبعضهن بعضا عن نزواتهن... حفيدات ريلوف وليبرسون، وزوجة شوكا وابنة جدعون النجار، وأم مرجوليس، وميخل نفسها، وزوجة الطبيب، وزوجة الطبيب البيطري، ... كلهن عاهرات "[(٥)].

وهكذا، يؤكد " شاليف " على عدم عذرية هذه الأرض بالنسبة لليهود بقوله على لسان" بيناس " :

" لقد خدعتنا الأرض ... إنها لم تكن عذراء "[(٦)].

(١) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٩٤).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٤٦).
(٣) نفس المرجع، (ص٢٦٧).
(٤) نفس المرجع، (ص٢٥٢).
(٥) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٥١).
(٦) نفس المرجع (ص٢٨٧).

وهكذا أيضاً، " شبه شاليف العلاقة بين الشعب والأرض بالعلاقة بين الرجل والمرأة وأن الأرض — الزوجة تصبح خائنة وتحتضن عشاقاً كثيرين. وبناء على هذا، فليس للشعب الإسرائيلى حقوق أفضلية على تلك الأرض ؛ لأنه مجرد واحد من العشاق الذين تقلبوا فى عشق فلسطين "[(١)]. وبالتالى، " فإن الشعب اليهودى ليست له حقوق ملكية قاصرة عليه فى هذه الأرض. وليس هذا الأمر سوى أسطورة استعان بها الشعب اليهودى لتفيده هو فقط، واستعانت بها الصهيونية وأقرتها كرؤية أساسية من وجهة نظرها. ولكن من يدرك تماماً تاريخ فلسطين يعرف أن أصحاب هذه الأرض تناسوا مسيرة التاريخ، وكانت هذه الأرض تنتمى فى فترات مختلفة لمن استوطن فيها وتمسك بها. ولا يوجد أحد من أصحابها السابقين له الحق فى المطالبة بها كملكية مقصورة عليه فقط تحت مسمى الحقوق التاريخية "[(٢)].

(٢) جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين:

" كان تاريخ فلسطين القديم عربياً ومازال عربياً حتى الآن، مؤكداً على الحق العربى دون غيره فى هذه الأرض. وفى التاريخ القديم بالذات بدأ تاريخ فلسطين عربياً، وانتهى عربياً، والدعاوى اليهودية فى حقهم فى أرض فلسطين المستندة إلى يهودية فلسطين فى التاريخ القديم دعاوى ليس لها سند من التاريخ العام لفلسطين، كما أن مسيرة التاريخ اليهودى القديم لا تؤكد هذا الادعاء اليهودى ؛ فالتاريخ السياسى لليهود يقدم عدداً من الأدلة والبراهين عن حق العربى فى أرض فلسطين فى التاريخ القديم، وهذه الأدلة تستمد من مسيرة التاريخ السياسى لليهود قبل ظهور الإسلام "[(٣)].

علاوة على ذلك، فإن جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين " تستند إلى أن تاريخ فلسطين القديم بالذات بدأ عربياً من خلال الهجرات العربية المتواصلة على المنطقة السورية من قلب شبه الجزيرة العربية، التى أدت إلى تكوين البنية السكانية الأساسية للمنطقة السورية وبخاصة فلسطين الواقعة على الحدود الشمالية للجزيرة العربية. فعاشوا فى وطنهم الجديد (كنعان) أكثر من ألفى عام قبل ظهور النبى موسى وأتباعه على مسرح الأحداث. وقد أخذ قوم موسى بعد وصولهم إلى أرض كنعان لغة الكنعانيين وثقافتهم

---

(١) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٢٤).
(٢) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٥٩).
(٣) د. محمد خليفة حسن: عروبة فلسطين فى التاريخ القديم، الندوة العالمية لشئون القدس، عمان، الأردن، (١٩-٢٠ / ٦ / ١٩٩٠)، (ص ١).

وحضارتهم وتقاليدهم. وهذه حقيقة تاريخية ثابتة أيدتها المكتشفات الأثرية الأخيرة وأخذ بها العلماء بالإجماع تقريباً " (١).

وحول المعلومات الأثرية الثابتة حول جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين، التى يتجاهلها بعض المؤرخين، يؤكد كيث وايتلام فى كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة) " على أن فلسطين القديمة تعاقبت عليها عدة حضارات، وعلى أن إسرائيل القديمة لم تكن إلا (خيطاً رفيعاً فى نسيج التاريخ الفلسطينى الغنى)، وبعد أن جرد الفلسطينيون من أرضهم فإن خطاب الدراسات التوراتية* متورط فى عملية تجريد الفلسطينيين من ماضيهم أيضاً، وذلك من خلال بحث هذه الدراسات المتواصل عن إسرائيل القديمة، وتكرارها لعدد من الادعاءات التى تربط الماضى بالحاضر، وتجاهلها للمعلومات الأثرية الجديدة التى تعطى صوتا للتاريخ الفلسطينى ... حيث كان الشعب الفلسطينى موجوداً على أرض فلسطين منذ أقدم العصور. وقد أسفرت الكشوف بالفعل عن جوانب متعددة من التراث الثقافى والروحى الضخم الذى خلفته الشعوب العربية القديمة (السامية)، وبخاصة الكنعانية التى استقرت فى فلسطين مع مطلع العصر التاريخى. ولكن السلطات اليهودية المهيمنة الآن على الكشف الأثرى، تعمل على طمس معالم الحضارة العربية الكنعانية " (٢).

ومن هنا، فإنه لا يمكن وضع الحقوق العربية فى أرض فلسطين على قدم المساواة مع الإدعاء اليهودى بالحق فيها. وإذا كان " شاليف " قد وضع الشعب العربى ضمن قائمة الشعوب التى توالت على أرض فلسطين، فقد أكد الكثير من الباحثين على جذرية الوجود العربى فى هذه الأرض، ولعل فشل الحملات الصليبية وصمود عروبة فلسطين فى وجهها خير دليل على ذلك.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإننا أيضا لا نستطيع أن نضع الحق العربى فى فلسطين على قدم المساواة مع ادعاء اليهود بحقهم فيها؛ " لأن اليهود ظهروا غرباء دخلاء على فلسطين، وكل ما يملكون من المقومات الثقافية، ومن ضمنها اللغة، وكتابهم المقدس مقتبس فى أجزاء منه من الحضارتين الكنعانية والآرامية وهما من أصل عربى، وأن الأسماء التاريخية الواردة فى التوراة، سواء كانت أسماء شخصيات أو أسماء أماكن قديمة فى فلسطين هى

---

(١) د. أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ، حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية، سلسلة الكتب الحديثة، العدد ٤١ وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٢، (ص ٣٨١).

(*) يخوض مؤلف هذا الكتاب صراعاً ضد مجموعة من الباحثين ينضمون إلى مايسمى بالمدرسة التوراتية أو الباحثين التوراتيين (BIBLICAL SCHOLARS).

(٢) أنظر: كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة – إسكات التاريخ الفلسطينى، ترجمة د. سحر الهنيدى، مراجعة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٤٩، ١٩٩٩، (ص ٧، ٨).

من أصل كنعانى عربى ترجع إلى ما قبل ظهور العبرية بزمن بعيد "[1]. ولعل ما يؤكد ذلك، أن التوراة كانت تتحدث دائماً عن أرض فلسطين كأرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، " ويعطيك بركة إبراهيم لك ولنسلك معك. لترث أرض غربتك " (تكوين ٢٨ : ٤)، " فصرف إسحاق يعقوب فذهب إلى فدان آرام إلى لابان بن بتوئيل الآرامى أخى رفقة أم يعقوب وعيسو " (تكوين ٢٨ : ٥). كما أن أبناء يعقوب الاثنى عشر ولدوا خارج فلسطين " هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا له فى فدان آرام " (تكوين ٣٥ : ٢٦). وبالتالى فإن الحق العربى فى فلسطين ينفى ادعاء اليهود بحقهم فيها ؛ وهو ما لم يستطع " شاليف " أن ينكره فى الرواية – سواء بقصد أوعن غير قصد – حيث أتى لنا بكثير من الدلائل التى تعبر عن جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين وحداثة الوجود اليهودى.

إن " شاليف " يقدم العديد من الأدلة فى روايته عن جذرية الوجود العربى فى فلسطين، ومن ذلك إشارته إلى النحاتين العرب الذين انبهر بهم " ليفين " المهاجر الجديد، وحاول تعلم فن النحت منهم، فى إشارة منه إلى جذرية الوجود العربى فى هذه الأرض:

" حاول لفترة أن يتعلم فن النحت، حيث أدهشه النحاتون العرب بنظراتهم، حين كانوا يقشرون سطح الحجر وليكتشفوا طبيعته "[2].

وأشار " شاليف " كذلك إلى جذرية الوجود العربى عندما تحدث عن بعثة الأثريات الإنجليزية التى استعانت بعربى مسن وهى تنقب فى إحدى المغارات:

" أوضح لهم بيناس أنه يجب أن يستعين بنحات خبير متمرس فى التعرف على العروق الحجرية. فسافر إلى الناصرة وأتى من هناك بنحات عربى عجوز "[3].

وتتكرر محاولات شاليف، لإثبات أن الوجود العربى على هذه الأرض لم يكن وجوداً عرضياً، وذلك من خلال العربى المسن الذى تستعين به بعثة الأثريات فى مهمتها للتنقيب عن الآثار القديمة، وكأن شاليف ينقب بنفسه فى حقيقة الأسطورة التى تدعى الحق اليهودى فى هذه الأرض، محاولاً الكشف عن زيفها من خلال الكشف عن تلك المغارة القديمة التى وجد بها آثار أقدام وأجنحة طيور وشعوب عدة، وفيها أثبت أن اليهود كانوا مجرد اسم فى قائمة طويلة من أسماء الشعوب التى عاشت فى فلسطين. وما يعنينا فى هذا المقام، هو أن الاستعانة بعربى مسن لمساعدة بعثة للأثريات ما هو إلا دليل قاطع على جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين، وأن أى وجود لشعوب أو أقوام كان وجوداً مؤقتاً، وهو ما

(١) أنظر: د. أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ، مرجع سابق، (ص ٢٣١).
(٢) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٤٨).
(٣) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٨٤).

أكده " شاليف " على لسان " بيناس " حين كان يحكى عن هجرته إلى فلسطين، وإذا به هو ومن معه يلتقون بعربى عجوز فيسألونه عن الأرض وكيفية العيش فيها فيقول لهم العربى:

" لكى تأتوا إلى هنا، سوف تخوضون حرباً لمدة أربعة أعوام ... وبعد أن تنقضى السنوات الأربع وتظلون على قيد الحياة، وقتها سوف تواصلون الحياة "[1].

ولعل هذه الحادثة تشير أيضاً إلى أن العرب هم فقط الذين يدركون طبيعة بلادهم وكيفية الحياة عليها، وأن اليهود جاءوا فوجدوا سكانها العرب الأصليين، ولم تكن أبداً خاوية مثلما روجت عنها الصهيونية بشعارها المشهور (أرض بلا شعب).

وللتأكيد على قدم الوجود العربى وحداثة الوجود اليهودى، كان " شاليف " لا يأتى بكلمة " عربى " فى الرواية إلا ويتبعها بكلمة " عجوز " :

- بعد ذلك التقينا بعربى عجوز[2]

- هنا فى ذلك المكان الذى التقى فيه " بيناس " بالعربى العجوز[3].

- عربى عجوز كان يعمل فى القرية القريبة[4]...

وبالإضافة إلى ذلك أورد " شاليف "، فى الرواية، كلمات كثيرة من اللغة العربية الدارجة التى تعلمها اليهود المهاجرون إلى فلسطين من العرب الفلسطينيين، وهو ما يؤكد أن هذه الأرض كانت تمتلئ بسكانها العرب الفلسطينيين الذين أثروا فى اليهود القادمين وعلموهم لغتهم العربية؛ وتلك بعض الكلمات العربية التى أتى بها " شاليف " على لسان الشخصيات اليهودية فى الرواية:

لصاحبك	(الرواية ص ١٥٠).
يلّلا، يلّلا	(ص ١٩٤).
يا ملعون	(ص ١٩٤).
حسين	(ص ١٩٤).
نمرود	(ص ٢٠٦).
السلطان عبد الحميد	(ص ٢٠٦).
الله ياخدهم	(ص ٢٩١).
رسّية (ضربة رأس)	(ص ٣٠٨)

(١) نفس المرجع، (ص٢٩١).
(٢) نفس المرجع، (ص٢٩١).
(٣) نفس المرجع، (ص٢٦١).
(٤) نفس المرجع، (ص٣٦٦).

عكروت (مشاغب) (ص ٣٠٨).
هس (اصمت) (ص ٣٨٤).

وعلى عكس كثير من الأدباء الإسرائيليين، استخدم " شاليف " كلمة "فلسطينا" التى تعنى فلسطين فى الرواية (ص ٨٠، ١٢٧)، وإن كان قد استخدم " ايرتس يسرائيل " فى أحيان كثيرة. والمعروف أن كلمة " ايرتس يسرائيل " تعنى فلسطين قبل قيام الدولة، ويستخدمها الكثير من الأدباء الإسرائيليين لطمس كلمة فلسطين ومحاولة تهويدها، وقد استخدم كلمة "يسرائيل " (إسرائيل) فى الفصل الأخير فقط، وهى تعنى إسرائيل بعد قيام الدولة، الثمرة الوحيدة للصهيونية، ولكنه ألحق بها كلمة " الفحشاء " فى امتعاض وسخرية كبيرة من ثمرة الصهيونية العطبة التى تمتلئ بالثقوب والفساد:

" لقد مورست الفحشاء مع إسرائيل. فحشاء عظيمة " [(١)].

وبهذا، نجح شاليف إلى حد كبير فى محاولاته للتعبير عن رفضه لوجود علاقة تتسم بالخصوصية بين أرض فلسطين واليهود، رافضاً بذلك ادعاء الحق التاريخى لليهود فيها. وصاغ حبكة الرواية كلها حول مجموعة من المهاجرين اليهود، رواد الهجرة الثانية، التى تتحول علاقاتهم بهذه الأرض إلى جحيم، حيث لفظتهم من أول وهلة، وألقت بسمومها فى وجوههم وانتهت حياتهم بنهايات مأساوية، وتحولت إلى خراب بعد جهود كبيرة فى استصلاحها، ولم يدرك جمالها وجمال طبيعتها سوى أصحابها، ممن عاشوا عليها منذ أقدم العصور. لاسيما وقد أصبحت هذه الأرض بالنسبة لهؤلاء المهاجرين اليهود "مقبرة جماعية"، لتذكرهم بذلك الدور الذى كانت تقوم به فى الماضى تجاه يهود الشتات، كما أوضح شاليف فى الرواية.

ثالثاً: فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين:

تبارى الأدباء الإسرائيليون مع البدايات الأولى لقيام الدولة فى تقديم شخصية يهودية جديدة تتناقض تماماً مع شخصية " اليهودى الجيتوى "، ونتج عن هذا شخصية "الصبار"، تلك الشخصية التى هدفت إليها الصهيونية كجيل جديد للأحفاد، وحلمت بوجودها على مسرح الأحداث كجيل من الورثة يحمل اللواء بعد جيل المؤسسين.

وإذا كان الأدباء الإسرائيليون قد قدموا لنا هذه الشخصية فى معظم إنتاجاتهم الأدبية كنمط جديد للشخصية اليهودية، فإن " شاليف " قدمها لنا كشخصية خاوية ضعيفة النفس والعقل، حتى وإن كانت قوية البنية ومفتولة العضلات، وذلك فى سخرية لاذعة ونقد شديد اللهجة لتلك الشخصية التى افتخر بها الأدباء الإسرائيليون على مدار عدة سنوات.

(١) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٨٧).

وقـد عـبر شاليف عن هذا الإخفاق الجديد للصهيونية من خلال " باروخ " القاص ممثل جيل الأحفـاد فـى الـرواية، الـذى أعـده جده إعداداً جيداً حتى وصل وزنه إلى ١١٠ كيلو جـراماً وهـو فـى الخامسـة عشـرة مـن عمره، فقد كان يمسك بقرون البقرة ويطرحها أرضاً (الـرواية، ص ١٣)، وكان شعره يملأ جسمه كلـه (الرواية، ص ١٣). ولكنه لم يكن شيئاً إلا " برمـيل قصص " (الرواية، ص ٩٢)؛ يخضع لمطلب جده " ميرقين " ويحول البستان إلى مقبرة، ولم يحافظ علي مشروع المؤسسين.

ولم يكـتف " شـاليف " " بباروخ " كـنمط للفشـل الصهيونى الذريع فى إعداد ورثة لجيل المؤسسـين، بـل كـان جيل الأحفاد كلـه فى الرواية دليلاً قاطعاً على فشل الصهيونية وإخفاقهـا فـى إعـداد هذا الجيل، على الرغم مما بذلـه الآباء المؤسسون من جهود فى إعداد هذا الجيل.

ويمكن لنا أن نتبين هذا من خلال مرحلتين، عبر عنهما " شاليف " فى هذه الرواية على غرار (مرحلة النجاح) التى أعقبتها (مرحلة الفشل)، وهمـا:

(١) مرحلة الإعداد (جهود المؤسسين الصهيونيين فى إعداد ورثـة لـهم):

بـذل الـرواد الصهيونيون جهوداً كبيرة فى محاولة تحقيق نبوءة الصهيونية بإعداد جيل من الورثـة كـى يواصـل المشروع الصهيونى من بعدهم. فيطالعنا القاص بجهود " بيناس " فى إعداد هذا الجيل وهو يعلمهم مبادئ الزراعة والفلاحة:

" حوّلنا بيناس جميعاً إلى خبراء فى نمو القمح والنباتات الزراعية فقط "[(١)].

ويواصـل المؤسسـون الآبـاء جهودهـم فـى مـرحلة الإعـداد لــهؤلاء الأطفـال كجيـل للمستقبل:

" ذهـب الجـد مـع ليبرسـون والجـدة بانيا إلى البستان مع الأطفال، وقد علّم الجد الجمـيع كـيف يقلّمـون أشـجار الخـوخ الصـغيرة لكـى تـنمو فـى صـورة كـأس الزهرة "[(٢)].

وكـان " أبـراهام " أول طفـل يولـد فـى القـرية، فاحتفل به الرواد، ووضعوا فيه كل الآمال، وتبادلوه من يد ليد، وباركوه بقلوب مفعمة بالأمل والحياة:

" ولـد عمـى أبـراهام، الابـن البكر لجدى وجدتى فى القرية ... هذا الطفل ربطنا بعلاقـات لا تـنقطع أبـداً ...، فأمسـكنا بـه، وباركـه كل فرد منا، بعضنا بصوت عال، وبعضنا الآخر من أعماق قلبه "[(٣)].

(١) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٧).
(٢) مئير شاليف: " رومان روسي " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٦١).
(٣) نفس المرجع، (ص٥٧-٥٨).

كمـا كان " بيناس " معلم التلاميذ فى القرية يقوم بدوره، ويهتم بالتلاميذ اهتماماً بالغاً فيستمع إليهم، ويدرس لـهم تاريخ الحركة الصهيونية وأشعار الشاعـر العبرى " تشرنحوفسكى " :

" كـان مـن حـين لآخـر يدخـل أحد الفصول دون أن يطرق الباب، ويقول لنا، (استمروا، استمروا) ... وكـان بيـناس يدرس لنا تاريخ الحركة فى وادى الأردن وكذلك أشعار تشرنحوفسكى "[1].

وكـان يـأخذهم أيضاً فى رحلات تعليمية تمتد لعدة أسابيع، ووصلت إحدى زياراته إلى "بيـت شـعاريم" الذى دفن فيه "يهودا هناسى" وفيه شدّد "بيناس" على أن اليهود جاءوا مـن الشـتات ليحـيوا عـلى هـذا الأرض وليـس ليدفنوا بها فى حديث لـه عن " جلـجول هامحيلوت " (بعث الموتى):

" جـاء الموتـى إلى هـذا المكـان من الشتات، ليدفنوا فى أراضى بلادنا ... ففى هذا المكـان عـاش ومات ربى يهودا هناسى ... ولكننا نحن أيها الأطفال ... هاجرنا إلى هـذه الـبلاد لكـى نحيا عليها لا لنموت فيها. لقد آمنوا بأن الدفن هنا سوف يكفر عـن خطايـاهم ويقربهم إلى جنة عدن. ولكننا نحن لا نؤمن ببعث الموتى (جلجول هامحـيلوت) وبالـتكفير عـن الذنـوب. فـتكفير الذنـوب يكمن فى تعبيد الأرض وليس فى حفر القبور "[2].

وهكـذا، أخضـع " بيناس " كل طاقاته لتعليم أبناء القرية مبادئ الصهيونية فى مرحلة مـن الإعـداد الدقـيق لتحقيق الآمال المرجوة. وكان كل أب فى القرية يقوم بدوره فى تعليم أبنائه على أمل إعداد جيل قادم يواصل المسيرة من بعدهم:

" رويـداً رويـداً، كـان الأب يسند عملاً إلى الابن المختار ... ويدقق فى استجاباته وأفكـاره. كمملكـة نحـل تـربى ملكاتهـا، هكـذا أعـدت القـرية جيـل الفلاحـين القادم "[3].

وكـان الجد يقوم بدوره فى تعليم أحفاده، جيل الورثة، فها هو " ميرقين " يعلم أحفاده " باروخ " و " أورى " القراءة والكتابة:

" لقـد تعلمـت أنا وأورى القراءة ونحن فى الخامسة من العمر... ففى الوقت الذى رسـم فـيه الجـد كـلمات عـلى الورق، كان يجلس بجوارنا صامتاً. لم يعلمنا الجد بحـروف منفصـلة مـثل " بيـناس "، بل كان يبدأ مباشرة فى كتابة كلمات كاملة ومشّكلة "[4].

---

(١) نفس المرجع، (ص١٧٦-١٧٧).
(٢) نفس المرجع، (ص٢١٠).
(٣) مئير شاليف: "رومان روسى" (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٣١٠).
(٤) نفس المرجع، (ص١٩٧).

ولكـن " بـاروخ " القـاص، كـان يلقى عناية فائقة من جده " ميرقين " بصفة خاصة، فقـد وضـع فـيه الجد أملاً كبيراً، فكان يعتنى بمأكلـه وملبسه، ويطمأن عليه يومياً، ويحكى لـه قصصاً كثيرة ويعتنى بنظافته وطعامه:

" إنـنى أتذكر كيف كان يهتم باستحمامى في كل مساء، مستخدماً ليفا خشنا وصابونا ... وعـندما بلغـت الثالـثة مـن عمــرى، كان يضـع لى وجبتى على المـائدة، ويخرج إلى العمل " (1).

(٢) مرحلة الفشل (فشل الصهيونيين فى إعداد جيل من الورثة):

يـبدو أن مسألة إخفاق الصهيونية فى إعداد وريث من جيل الأحفاد باتت أمراً يتفق عليه معظـم الأدبـاء الإسـرائيليين، ويعـبرون عـنه فى كتاباتهم الأدبية، مثل يهوشواع فى روايته (مولخـو) وعاموس عوز فى روايتيه (صندوق أسود) و (الحالة الثالثة). وفى (رواية روسية) كانـت الأحـداث مـتلاحقة لا تنبىء بقدوم جيل ناجح من الورثة، فكان الفشل أمراً طبيعياً فـى ظل الانهيار التام الذى لحق بمشروع المؤسسين، وفى ظل مجموعة من القصص والأوهام الـتى تـرددت عـلى مسامع هؤلاء الأحفاد، والتى كانت كفيلة بخلق جيل يفتقر إلى الاعتماد على النفس، ويتصف بالسلبية والفشل الذى مثلـه " باروخ شنهار ".

" فـليس مـن بـاب المصـادفة أن يلقى دور التخليد ومجمل تاريخ القرية على حفيد أسرة ميرقـين. ففـى إعـداد بـاروخ شنهار سواء النفسى أو البدنى، كان باروخ يمثل فشل النبوءة الصـهيونية. لقـد خصـص جسـده وشـعره المبالغ فيهما لأجل إبراز الـهدوء النفسى المفقود لديـه. فهـو يتميز بقدرته على مسك قرون عجل ضخم حتى يلامس رأسـه بالأرض، وفى مقـابل هذا يصعب عليه أن يعبر عن فكرة لديه أو حتى عن رغبة تراوده. كما أن سكوته فى مجتمع البشر يثير الشكوك لديه بكل بلادة و بلا شفافية. علاوة على أن نفسيته البائسة تصور لنا فشل الصهيونية " (2).

ولـم يسـتطع " بـاروخ " أن يثـنى جـده عـن رغبـته فى تحويل البستان إلى مقبرة للرواد، فـاندفع وحمـل جده " ميرقين " ودفنه فى البسـتان، فهـو " حفيد مطيع وقوى " (الرواية، ص ٣٢٧)، أطعمه جده ومعلمه "بيناس " بذكرياتهما وقصصهما، ونتج عن ذلك إنسان ليست به ثمة ثقة فى نفسه؛ يعيش وحيداً منعزلاً، يتسم بالعدوانية والقسوة:

" إنـك تبـنى حـول باروخ تلالاً من الخرابات. إننى لا أراه يلعب فى المدرسة، فى وقت الراحة...ولا يتحدث مع أحد، ويزحف على العشب بمفرده " (3).

ويقول " باروخ " واصفاً نفسه:

---

(١) نفس المرجع، (ص١٦٦-١٦٧).

(٢) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٠).

(٣) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢١٧).

" أحيانا كنت أرفع عينى، فأرى نفسى محاطاً بدائرة صاحبة وساخرة ... وعندما كنت فى الفرقة الدراسية (ب) كسرت إصبعين لعوزى حفيد ريلوف " •[1].

ولم يذهب " باروخ " للجيش لأنه مصاب بعقد نفسية:

" فى تلك السنة أخبرونى بأننى معفى من الخدمة العسكرية لأننى يتيم. وفى القرية قالوا بأنهم وجدوا بى عيوبا نفسية " [2].

إنه يبكى حاله ويدعو الرب أن يخلصه من آلامه ووحدانيته المخيفة:

" والآن أعيش بمفردى فى البيت، أسير بين الحوائط المتآكلة، أتألم من أشواقى لجدى الذى تركنى، ووالدىّ الموتى، وعمى أفرايم الذى ذهب دون عودة، وأتوجه إلى نجوم السماء حتى تأتى وتخلصنى من آلامى ووحدتى " [3].

" لقد كانت سلبية (باروخ) النفسية هى الصفة الرئيسية التى أثرت على عمله كقاص. فكان نادراً ما يأخذ زمام المبادرة ويصيغ أفكاره، حيث كانت قصته مكونة من شهادات سمعها من أفواه الآخرين، الذين تعود على الاستماع إليهم، وأكثر من الاستشهاد بأقوالهم. وبهذا الأسلوب حققت الرواية هدفها: فقد نصّلت (القاص) من مسئولية صياغة النصوص الصعبة والمتشبعة باليأس حول آمال نبوءة الرواد الصهيونيين، فهو يستشهد بأقوال الإحباط واليأس الخاصة بجده ومعلمه " [4].

وربما يكون باروخ يمثل شاليف نفسه؛ فقد " أكد شاليف فى أحد اللقاءات الصحفية التى أجريت معه، أنه سمع بنفسه من الطلائعيين المسنين الذين التقى بهم خلال إعداده لهذه الرواية نقداً حاداً وكلاماً لاذعاً عن الصهيونية، ولكنه اكتفى بما جاء به فى الرواية " [5].

ولم يكن " باروخ " فقط الذى بكى حاله، فقد عاد " أفرايم " بعد أن اختفى دون أن يعرف طريقه أحد فى القرية، ولكنه عاد مشوها بلا شفتين، عينه مقلوعة، وهو ما أدى إلى عيشه وحيداً منعزلاً لا يخرج إلا فى الليل حتى لا يراه أحد:

(•) يذكرنا هذا بشخصية " بوعز " فى رواية (صندوق اسود) لعاموس عوز، حيث اتسم بوعز بالقسوة والوحشية، وكان يضرب مدرسيه وأصدقاءه فى المدرسة ويحدث بهم جروحاً قطعية شديدة.

(١) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢١٧).

(٢) نفس المرجع، (ص٢٦٢).

(٣) مئير شاليف: " رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٦٣).

(٤) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٠).

(٥) ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، دار نشر يديعوت احرونوت، القدس، ١٩٩٥، (ص٣٦٨).

" اقتلعـت إحـدى عيـنى عمـى، واختفـت شـفتاه ... إن أفرايم الذى جذب جمالـه كل الفضـولين بـالوادى كلــه ... تحـول إلى وحـش ... ودخـل حجرته ولم يخرج منها ... إنه يقول، حتى الأبقار تخاف منى ... إننى أخرج فى الليل فقط "(1).

وهكـذا، فعلت الصهيونية فى أبناء المؤسسين. إن "أفرايم" عم " باروخ " لم يستطع تحمـل الوضـع المأسـاوى الـذى عـاش فيه آباؤه بعد تحطم مشروعهم، وفضل الاشتراك فى الحرب مع الإنجليز على العيش فى هذه الأرض، ليعود منها مشوهاً ويعيش وحيداً منعزلاً.

ويـأتى " زيـتونى " الـذى فقـد أسـرته فـى الطوفان لينضم إلى قائمة (الورثة الفاشلين) لـيقص لحيته ويلقى بقبعته اليهودية وطاليته فى مياه الطوفان ويبيع كتب التوراة التى احتفظ بهـا والـداه سـنوات عديـدة. ولم يكن ذلك فحسب، إنه يتحول إلى لص، يعول نفسه من السرقات، ويقوم بأعمال الدجل والشعوذة:

" كـان زيـتونى يعـول نفسـه مـن بعض السرقات الصغيرة، وأعمال الدجل التى تذكرها خلال فترة دراسته "(2).

أمـا "دانـى" حفيد " ريلـوف " فيعـبر عن سخطه وغضبه بقصيدة يكتبها فى صحيفة القـرية عـبر فـيها بسـخرية عـن " بيـناس" معـلم القـرية، والحالة التى أصبح عليها معظم الرواد:

" دجاجـة دجاجـة / تـأكل قمحـا مجروشـادجاجة مسـكينة / صـارت عجوزاً / سوف يذبحونها " (3).

إنه يتسم أيضاً بالحيرة والتردد ويثير دائما المشكلات:

" كـان دانـى ريلـوف يتسم بعقل صغير، مثل عقل الحشرة، ويثير مشكلات غير متوقعة ... فكل صباح كان يغير رأيه ويأتى إلىّ متردداً ودامعاً "(4).

أمـا " أورى " فقـد كـان أكـثر أحفـاد "ميرقـين " طيشاً وفوضوية ؛ فقد ذاع صيته فى القـرية كلـهـا بمغامـراته النسائية – كما رأينا من قبل – فلم يترك واحدة من نساء القرية إلا وضاجعها مطلقاً نداءه العابث من فوق برج المياه (إننى أضاجع فلانة)، حتى " نحماه " ابنة الحـزّان لم تسـلم مـنه فيضـاجعها ويهـرب، ويتوعده الجميع بالانتقام من جراء فعلته مع " نحمـاه ". ولكنه يعود، ويطلب الزواج منها، ويتوجه " باروخ " للذهاب إلى قرية المتدينين

(1) مئير شاليف: "رومان روسى" (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٢٨ : ١٣٠).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى" (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٨١).
(3) نفس المرجع، (ص٢٣٤).
(4) نفس المرجع، (ص٣٧٨).

ليطلـبها للزواج. ثم يأتى إليه ثلاثة حاخامات ويخبرونه بأنها " حبلى "، ثم يأخذونه معهم ؛ ليـتزوجها فـى حفـل هـادئ، يحضـره أبوه وأمه بعد عودتهما من الخارج، ويعود بها إلى القـرية وهو سعيد، ليبدأ حياة جديدة بالعمل مع " باروخ "، وتعمل " نحماه " معهما فى حظـيرة " أبـراهام " [(١)]. وهى بداية جديدة لأورى لم تكن متوقعة فى نهاية الرواية، يقول عـنها " يوسـف أورن " : " ليس مصادفة أن يعود أورى فى نهاية الرواية إلى إرث الأسـرة فـى القـرية، الـذى يعـد أكـثر أحفـاد " ميرقـين " فوضوية ؛ فهو يقيم بداية أخرى غير صـهيونية فـوق خـراب ودمار الطليعية الصهيونية : بداية بلا أشواق (لتجديد العهد الخاص مـع الأرض)، بدايـة بـلا هـدف (مثل هدف تحرير الشعب من نير الشتات وضمان مستقبل أفضل لـه في وطنه)، بداية بلا نبوءة (مثل نبوءة ارتباط الشعب بأرضه للأبد) " [(٢)].

أمـا يديـا يتسـحاقى فـيرى " أن الأجيال المتعاقبة وأعمالـهم موصوفة فى الرواية بتشويه كـبير. والوحيد الذى أنقذ من هذا التشوه هو (أورى) من أبناء الجيل الثالث، الذى يتحدى (الأسـطورة) بكل صورها، ويحقق الخيار الممنوح دائماً ببدايـة جديدة " [(٣)].

ويعـترف " بيـناس " معـلم القرية ومربى الأجيال بالخطأ فى إعداد هذا الجيل وفشلـهم كـرواد فـى تحقـيق هدف الصهيونية المنشود في إعداد جيل من الورثة، وكيف يتأتى ذلك فى ظـل مجموعـة مـن الأساطير، وادعاءات باطلة، أدركها هؤلاء الأحفاد على أرض الواقع ؛ لتصبح دلـيلاً قاطعـاً عـلى الفشل والخراب والأوهام والقصص وزيف النبوءة، فيـقول فى صحيفة القرية :

" لقـد أخطأنـا فـى التعلـيم، وفـى النـبوءة، وفـى الـهدف. وظهـرنا أقرب إلى البهيمية، وغصنا إلى الرقبة فى وحل الأرض " [(٤)].

رابعاً : موقف " شاليف " الساخر من الصهيونية :

" كـان شاليف يعرف جيداً كيف يكوّن (رواية جيدة)، وكيف يسيطر بصورة رائعة على التكنـيك الخـاص بتحطـيم التسلسـل الزمـنى، طـبقاً لحاجيات النص، ويعرف كيف يربط الحـالات المخـتلفة بأسـلوب واحـد وموضـوعى، وكـيف يضـع النهايات، وكيف يوظف الشخصـيات المخـتلفة فـى الأماكـن الصحيحة للتسلسل المعقد للحبكة الممتدة لأعمال ثلاثة

(١) نفس المرجع، (ص٣٨٧ : ٣٩٠).
(٢) أنظر : يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٧).
(٣) يديديا يتسحاقى : " ميتولوجيا شل هاميتوس " (ميثيولوجيا الأسطورة)، مرجع سابق، (ص١٣).
(٤) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٥٣).

أجيال وثلاث أسر خلال عشرات السنين، وكذلك تركيز مادة غزيرة من خلال قاص واحد، لا هو قاص بطل ولا هو قاص شاهد في إنتاج يحمل عنوانا تظاهريا (رواية روسية)"[1].

إذا كان شاليف يعرف كل هذا، فإنه يعرف أيضاً كيف يكون كاتباً ساخراً، لاسيما أنه لم يكتف بنقد النظريات الصهيونية القائمة منذ سنوات ودحضها ووصفها " بالأساطير "، بل تطرق إلى الشعارات الصهيونية، وعبر عنها في الرواية في سخرية لاذعة، وامتلأت صفحات روايته بمواقف كوميدية ساخرة، عبرت عن سخطه الشديد على الصهيونية وشعاراتها، حيث عبر " شاليف " في سخرية عن شعار الصهيونية الذي يقول " تلك الأرض التي تدر لبناً وعسلاً " على لسان " شولاميت " محبوبة الجد " ميرقين "، إذ كانت تقول:

" جميل يا ميرقين. فلتشرب ؛ فهل هذا صحي، يا ميرقين؟ هل اللبن صحي للغاية "[2].

ويمضي " شاليف " في سخرية ليقول: إن اللبن طعام للقطط فقط، أما العسل فهو طعام ترفضه القطط ؛ وأحياناً فإن القطط ترفض اللبن أيضاً:

" كان القط هو الوحيد في الوادي الذي رفض شرب اللبن "[3].

" إن اللبن الخاص بك ... عمل رائع دون شك، ولكنني أستطيع إنتاجه من ماكينة تدر لبناً وعسلاً "[4].

إنه لم يسخر من الشعارات الصهيونية فحسب، بل مضى " شاليف " ليسخر من المؤسسات الصهيونية التي تكونت قبل قيام الدولة لمساعدة يهود الشتات، من خلال حوار بين اثنين من يهود أمريكا جاءا إلى " بوسكيلا " مدير المقبرة لشراء قبر لأبيهما، ويتجادلان معه حول سعر القبر، ويعززان موقف أبيهما بأنه كان يعمل مع الجد " ميرقين " صاحب المقبرة، فيرد عليهما قائلاً " كل يسرائيل حفيريم "[5] في إشارة إلى الشركة اليهودية " كياح " التي تأسست في فرنسا عام ١٨٦٠ لمساعدة يهود الشتات بعد الأحداث التي تعرضوا لها في فرنسا وبلاد أخرى.

---

(١) يديديا يتسحاقي: " ميتولوجيا شل هاميتوس " (ميثيولوجيا الأسطورة)، مرجع سابق، (ص١٣).
(٢) مثير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص١٣٧).
(٣) نفس المرجع، (ص١٤٥).
(٤) نفس المرجع، (ص٣٠٠).
(٥) نفس المرجع، (ص١٨٧).

ولم يترك " شاليف " أدباء فترة الإحياء القومى، بل وصفهم فى سخرية لاذعة بـ " أدباء القبور "[1] ؛ لأنهم كانوا شركاء فى صنع الأسطورة التى جاءت بهؤلاء الرواد إلى أرض الخراب والرماد، من خلال إنتاجاتهم الأدبية التى تحدثت عن لهيب العودة إلى أرض الميعاد.

وفى موقف كوميدى ساخر يصف " شاليف " مجموعة من الرواد وهم يهاجمون الدجاج فى محاولة لجمعهم بالحظيرة، وهم يفرقون بين ذكور الدجاج والإناث:

" هوت الدجاجات فى منتصف الفناء، *ورفضت القيام أو الذهاب إلى الحظيرة.
فقام يوسى وأفراهام بركلهن ... لأن الذكور الأقوياء كانوا ينقرون جلد الإناث محاولين القفز عليهن "[2].

ويأتى لنا " شاليف " بحوار طريف و ساخن بين " ريلوف " و ليبرسون " يتحدثان فيه عن الحمير التى تشرب البيرة، والدجاج الذى يشرب خمراً، وينهى تسرقين الحديث بينهما قائلاً:

" لم نأت إلى فلسطين لكى نسقى البهائم الخمر "[3].

وهكذا، كان " شاليف " ساخراً إلى أبعد الحدود فى معرض نقده الشديد للصهيونية، فقد صور هؤلاء الآباء المؤسسيين أحياناً وكأنهم جاءوا إلى فلسطين فى نزهة مع الحيوانات ووصل حد السخرية إلى أنه كان يضفى صفات بشرية على الحيوانات عبر صفحات الرواية كلها، مساوياً الرواد الصهيونيين فى القرية بهم.

وكانت سخريته تشير إلى قدرته العالية فى صياغة الحبكة الدرامية، وهو ما لم يستطع إنكاره بعض النقاد الإسرائيليين الذين يشنون هجوماً عنيفاً ضد الرواية ؛ حيث " يتهم الناقد الإسرائيلى أورتسيون شاليف بالسطحية الثقافية، ولكنه يعترف بأنه نجح فى التغطية عليها بقدرته الفائقة على صياغة حبكة الرواية بأسلوب خيالى ساخر "[4].

" ولعل ما يدل على ذلك تلك الكلمات المستخدمة فى النص الروائى، التى تتحدث عن إقامة القرية بمجموعة من المصطلحات المقبولة فى التعامل مع الصهيونية، مثل مشروع، ووعد ونبوءة. وكذلك فإن القصة الفاشلة للأسرة وميراثها العائلى تفسر بدراسة منهجية مجموعة من الكلمات، التى يمكن من خلالها قبول نقد شاليف الشديد للصهيونية: مثل ريبة، وإثارة، وشك "[5].

---

(١) نفس المرجع، (ص٣٢٨).
(٢) نفس المرجع، (ص٩١).
(٣) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص٩٧).
(٤) أورتسيون برتا: " هيفل " (هراء)، مجلة موزنايم، العدد ١، سبتمبر ١٩٩١، (ص٩٧).
(٥) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص٧٠).

الفصل الرابع

الصهيونية فى ميزان النقد من المنظور الدينى
الأسطورى فى رواية (عيسو) لـ "مئير شاليف"

عيسو

لم يعبأ مئير شاليف بموجة الغضب العارمة التى شهدتها الساحة الأدبية في إسرائيل بعد صدور روايته (رواية روسية) ؛ وفوجئ النقاد الإسرائيليون برواية جديدة له تواصل تهكمها على المشروع الصهيونى، وتدحض كل الأساطير التى روجت لها الصهيونية، لتأتى لنا بعملية تقييم أخرى لكل الإخفاقات التى وقعت فيها الصهيونية على كل المستويات السياسية والأيديولوجية.

لقد شهدت الساحة الأدبية فى إسرائيل سجالاً جديداً بين النقاد حول رواية (عيسو)[1]، وهدف شاليف وراءها ؛ وبخاصة أنه تعامل مع العهد القديم فى الرواية على أنه مجموعة من القصص الأسطورية غير الموثوق فيها. وهو الأمر الذى جعل شاليف يتعرض لهجوم عنيف من قبل بعض النقاد الإسرائيليين، ومن دوائر اليمين الصهيونى المتطرف، واتهمه بعض النقاد بأنه يعمل من أجل هدم الأساطير القومية التى آمن بها الشعب اليهودى على مر العصور، واعتبرها مصدراً مهما للتاريخ اليهودى.

ويشير لنا عنوان هذه الرواية إلى أنها تتعرض لقصة الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين على خلفية قصة اغتصاب " يعقوب " للباكورة من أخيه البكر "عيسو"، وهو ما أدى إلى احتدام الصراع بينهما. كما أنها تتناول قصة الخصومة بين توءمين على تركة والدهما من خلال التعرض لأسرة خبازين، ولم تقتصر الخصومة على التركة فقط، بل امتدت لتشمل المرأة أيضاً والصراع عليها باسم الحب.

ويقول الناقد الإسرائيلى " هليل فايس " فى معرض تناوله بالتحليل لهذه الرواية: " إنها رواية تحكى لنا عن التنازل الكبير الذى حدث، والذى لم يكن تنازلاً عن الباكورة فحسب، بل هو تنازل عن المرأة والحب، وعن المخبز والخبز. إن هذا التنازل لم يكن فقط تنازلاً عن الأرض، أى فلسطين، بل أيضاً تنازل خاص عن الحياة بصفة عامة "[2].

أما " حنة يعوز " فيرى " أن هناك متعة فى قراءة هذه الرواية، لأنها تثير العواطف لدى قطاع معروف من القراء. بينما ينصب قطاع آخر من القراء من نفسه هيئة قضائية للحكم عليها، وأحياناً يكون الحكم فى صالح الرواية ... وأحياناً أخرى فإن الحكم لا يقتصر على كلمات الثناء والمديح فقط "[3].

---

(١) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، دار نشر عم عوفيد، الطبعة الـ ١١ تل أبيب، ١٩٩٦، (٣٩٧ صفحة).

(٢) هليل فايس: " عليلاه، سفروت هاكلايون هايسرائيليت " (الحبكة، أدب الهلاك الإسرائيلى)، مرجع سابق، (ص١٢٥).

(٣) حنا ياعوز: " رومان عيساف " (رواية عيسو)، مجلة " عيتون شيفعيم فشيفع " العدد ١٤١، أكتوبر ١٩٩١ (ص١٦).

" ورواية (عيسو) هي بمثابة امتداد طبيعي لرواية (رواية روسية) في محاولة تحطيم الأساطير التي اعتمدت عليها الصهيونية ورفضها ؛ حيث تواصل رواية (عيسو) هذا النهج من حيث انتهت رواية (رواية روسية) ؛ فبعد أن جعل شاليف حقوق الشعبين (الفلسطيني واليهودي) في (رواية روسية) على قدم المساواة، انتقل في رواية (عيسو) ليفند مزاعم اليمين الصهيوني المتطرف الذي يقوم بنهب الميراث، مطالبا برفع الغبن الذي وقع على نسل عيسو من الأبناء الذين ذاقوا مرارة أطماع يعقوب ونسله. وهكذا فقد اهتم شاليف في الروايتين بالإعلان عن فشل الصهيونية وفشل مشروعها الأساسي، وهو دولة إسرائيل " [١].

القصة التوراتية:

إن التعرف على الخلفية التوراتية لرواية (عيسو) هو أمر مهم، يتسنى لنا من خلاله إدراك عملية الإسقاط التي حدثت في هذه الرواية، لاسيما أن شخصيات الرواية تتفق تماماً مع شخصيات العهد القديم في الاسم والقصة تقريباً، حيث تعتمد هذه الرواية على شخوص وأحداث القصة التوراتية في عملية السرد الروائي.

يحكى لنا سفر التكوين في الإصحاحات من ٢٧ إلى ٣٣ عن قصة الخديعة التي تعرض لها " عيسو " من قبل أمه " رفقا " وأخيه " يعقوب "، حيث شاخ " إسحق " أبوهما وضعف بصره، وكان على وشك أن يبارك ابنه " عيسو "، " إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه " (إص ٢٧ : ٥) فلما سمعت " رفقا " ذلك الحديث، اتفقت مع " يعقوب " في أمر اغتصاب الباكورة من أخيه " عيسو " فألبسته ملابس " عيسو " وقدم له يعقوب الطعام على أنه "عيسو " فباركه " إسحق "، فلما علم " عيسو " بهذا الأمر صرخ صرخة عظيمة، وقال له " إسحق " : " إني قد جعلته سيداً لك، ودفعت إليه جميع أخوته عبيداً " (إص ٢٧ : ٣٧). بعدها " رفع عيسو صوته وبكى " (ص٢٧ : ٣٨) ثم قرر قتل يعقوب، فخافت "رفقا" على ابنها الأصغر يعقوب وقررت أن تهرب به إلى حاران حيث يقيم أخوها لابان هناك. وفي طريقه إلى حاران يبيت "يعقوب" في مكان ما ويحلم حلماً يباركه فيه الرب، " الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك " (ص ٢٨ : ١٣). وعاش يعقوب لدى خاله وتزوج من ابنتيه" راحيل وليئة "، أما "عيسو" فقد تزوج من بنات إسماعيل بن إبراهيم.
ولما حاول يعقوب العودة إلى حيث يقيم أبوه أرسل رسلاً إلى أخيه "عيسو"، وجاءه الرسل ليخبروه بأن "عيسو" قادم للقائك ؛ فخاف وضاق به الأمر (إص ٣٢)، وقسم قومه وغنمه وبقره إلى جيشين، ودعا الرب أن ينجيه من خطر أخيه "عيسو"، ونيته في الانتقام لسرقة

(١) د. رشاد عبدالله الشامي: أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٣٨).

الـباكورة والـبركة، " نجنى مـن يد أخى من يد عيســو ؛ لأنى خائف منه أن يأتى ويضربنى " (ص٣٢: ١١)، ثـم حـاول أن يكســب ود أخيه ؛ وبإرسـال هدايـا وفـيرة لــه " مائتى عنز وعشـرين تيسـاً ومئتى نعجـة وعشـرين كبشـاً. ثلاثـيـن ناقـة مرضـعـة وأولادهـا أربعـين بقرة وعشـرة ثـيران وعشـرين أتاناً وعشرة حمير " (ص ٣٢: ١٤ -١٥) وعندما يلتقى الاثنان، حيث كـان "عيسـو" عـلى رأس جيش مكـون من أربعمائة رجل، يسجد يعقوب على الأرض سبع مـرات، فـيعانقه "عيسـو" ويقـبلـــه، " فـركـض عيسو للقـائـه وعانقـه ووقـع على عنقـه وقـبـلـه باكـياً " (ص ٣٣: ٣٤). ثـم تمضـى أحـــداث القصـة التـوراتـية ويموت "إسحق" فيدفنه "عيسو" ويعقوب معاً.

وهكـذا تنـتهى القصـة التوراتـية، بعـد أحـداث دراميـة، شـكلت الوجـدان الـيهودى على مر العصـور وجعلـت الصـراع عـلى الأرض يمكـن حلــه، من خلال رحيل أحد الطرفين بكل بساطة لينعم الآخر بالأرض وينعم بالحياة لتصبح أرض الوعد الإلـهى ليعقوب وأحفاده فقط.

القصة الروائية (عرض مختصر):

تمضـى أحـداث روايـة (عيسـو) لـتحكى لـنا عـن أسـرة " أبـراهام لـيفى " وهى أسرة خـبازين، حيـث تزوج أبراهام من " سارة " التى تعود جذورها إلى إحدى الأسر المتهودة، وينجـبان الـتوءمين " عيسـو " و " يعقـوب " اللذيـن يقومـان بمسـاعدة أبيـهما فى المخبز الخـاص بهم، ويقومان بتوزيع الخبز على سكان المدينة. ويلتقى الاثنان بـ "ليئة " فيتنافسان عـلى حـبها. وتسـير بـنا أحـداث الـرواية لـتذكرنا بقصـة الخديعـة الـتى حدثت فى القصة التــوراتـية بـين " رفقـا " و " يعقـوب " ضد " عيسو " ؛ حيث تقف الأم فى الرواية مع ابـنها " يعقـوب "، وتسـاعده فـى الزواج من محبــوبته " ليئة " والفوز بها. ولم يكن هذا فحسـب، بـل لعنت " عيسو "، وجعلت " يعقوب " يرث المخبز بمفرده، ويسافر بعدها " عيسـو " إلى أمـريكا دون أن تودعـه أمـه "سـارة"، وتفتح أمريكا ذراعيها إليه ؛ فيعمل هـناك فـى مجـال الكـتابة ؛ ويؤلـف كتـباً عـن الخبز والخبازين، وينشر مقالاته فى المجلات الأمريكية.

وبعد زواج " يعقوب " ينجب ابنه البكر " بنيامين "، الذى يجند فى الجيش ويقتل خطأً بعـد تـبادل لإطـلاق الـنار بـين وحدتين عسكريتين إسرائيليتين، بعدها تحزن " ليئة " على ابـنها، وتنام فى فراشه سنوات عديدة، ويفكر " يعقوب " فى من سيرث المخبز من بعده، فيضاجع " ليئة " عنوة وينجب منها " ميخائيل " الذى يولد مريضاً ؛ فهو لا يشعر بالألم مطلقاً، حتى فى أثناء ختانه لم يصرخ أو يتألم. ويسعد "يعقوب" بميخائيل ويحافظ عليه، ويـرعاه رعايـة كاملـة، حيـث كـان يفحـص جسـده يومـياً خشــية أن يكــون مصاباً أو مجـروحاً، ويأمـر " شمعـون " ابن شقيقته " دودوتش " بمراعاته، حيث تعيش فى بيت "

يعقوب " وتشتهر برضاعة أطفال المدينة، لأن أحد ثدييها يدر لبناً منذ أن قطع الآخر على يد أعرابي.

ويبدو أن "ميخائيل" لم يكن مناسباً ليصبح الوريث البديل لبنيامين، فيتم استدعاء "عيسو" من الولايات المتحدة؛ ليرعى والده المسن "أبراهام ليفى" بعد موت زوجته "سارة". وتقف "رومى" ابنة "يعقوب" مع عمها "عيسو"، حيث تربطها به علاقة حب وود منذ أن كان فى أمريكا، فى إشارة من "شاليف" بأن الجولة الثانية فى الصراع بين "عيسو" و"يعقوب" سوف تكون فى صالح "عيسو" بعد خسارته للجولة الأولى.

وتتكون الرواية أيضاً من ثلاث قصص فرعية مستقلة، إلا أنها تخدم حبكة الرواية وموضوعها، وتضيف غرابة فى السرد الروائى والبناء القصصى. وقد حملت القصة الأولى عنوان (الدوق انطون والخادمة زوجا) وتحكى عن الدوق، وغرامه بالعاهرات فى القدس، والتردد على أماكهن. أما القصة الثانية فكانت بعنوان (إلياهو سالومو ومريام إشكنازى – قصة قريبة من الحقيقة عن أشخاص غير حقيقيين) وفيها نجد "سالومو" وقد تخصص فى كتابة بعض إصحاحات العهد القديم من سفر التكوين الذى تتحدث عن الخصومة بين "عيسو" و"يعقوب"؛ وتدور أحداثها فى القدس أيضاً. والقصة الثالثة فى الرواية جاءت بعنوان (شمعون ناتان وبنات ايلدمان) ويبدو أن شاليف اختصر أحداث الرواية الرئيسية فى هذه القصة، حيث تعرض باختصار لزواج "أبراهام" من "سارة" وإنجابهما لـ"عيسو" و"يعقوب"، ثم زواج يعقوب وانجابه "لبنيامين" و" ميخائيل". وتتحدث هذه القصة عن العمة "دودوتش" وثديها الذى لم يتوقف عن إرضاع الأطفال وعن ابنها "شمعون ناتان" الأعزب والأعرج وإعجابه ببنات "ايلدمان" الذى كان يعمل لدى "يعقوب" فى المخبز.

ولعله من الأهمية، ونحن بصدد تحليل إحدى الروايات التى تفند مزاعم الصهيونية بادعاء الحق الدينى لليهود فى أرض فلسطين، أن نتعرف على موقف الصهيونية من العهد القديم وعلاقتها به فى مسألة الصراع حول الأرض، لاسيما أن الحبكة الروائية تدور كلها حول الوعد الإلهى الذى منحه الرب ليعقوب، وحول اغتصاب الباكورة من "عيسو" واعتماد الصهيونية على بقاء التركة فى يد أحد الأخوين كحل نهائى لقضية الصراع بين "عيسو" و"يعقوب" حول الأرض. وهو حل وصفه "شاليف" فى روايته هذه بالأسطورة".

موقف الصهيونية من التراث الدينى اليهودى:

تعامل المؤرخون اليهود مع الأيديولوجية الصهيونية على أنها حركة قومية مثل الحركات القومية الأوربية التى نشأت فى القرن التاسع عشر، ولكنهم لم يستطيعوا فى نفس الوقت،

إنكار أنها تختلف عن سائر الحركات القومية الأوربية فى افتقارها لبعض مقومات القومية مثل الأرض واللغة. ومن هنا صارت الصهيونية إشكالية معقدة لم يدرك المؤرخون بعد، كيفية تصنيفها ووضعها فى مقام الأيديولوجيات الأخرى، وتساءل الكثيرون عن ماهية الصهيونية وتحديد طبيعتها كحركة قومية.

وبدت التساؤلات تثير نوعاً من الإشكاليات المعقدة حول ربط الصهيونية بالتاريخ العام لليهود وبتراثهم الدينى أيضاً، سواء فى الماضى أو فى الحاضر. وفى حقيقة الأمر، كانت الصهيونية دوماً سبباً فى وجود هذه الإشكاليات المعقدة بتبنيها كثيرا من الاتجاهات السياسية والدينية والثقافية على كافة الأصعدة، وباختلاف روادها تجاه مناحى التقدم نحو تحقيق الهدف فى إقامة وطن لشتات اليهود.

ولم يكن موقف الصهيونية من التراث الدينى اليهودى إلا إبحارا فى قضية شائكة جعلت الكثير من الباحثين يتساءلون، " هل هى حركة قومية تعبر عن الواقع السياسى لليهود ومتأثرة بالحركات القومية الأوربية التى نشأت بينها أم أنها حركة دينية نابعة من الفكر الدينى اليهودى، ومستمدة لأفكارها ونظرياتها من التراث اليهودى "[١].

وأدت هذه التساؤلات فى نهاية الأمر إلى نوع من اللبس لدى بعض الباحثين، فقد استخدم الكثيرون كلمتى صهيونية ويهودية ككلمتين مترادفتين، على الرغم من أنهما تختلفان تماماً ؛ فالصهيونية هى حركة سياسية دنيوية، بينما اليهودية هى دين سماوى استغله بعض القادة الصهيونيين كأداة أو وسيلة فى تحقيق هدفهم، حينما استخدموا التوراة والنصوص الدينية الخاصة بالأرض كوسائل لازمة لتقوية الروح الجماعية الدينية بالشعور القومى.

" ومعظم القادة الصهيونيين لم يعيروا اليهودية أى التفات إلا باعتبارها مشكلة تبحث عن حل، وعنى المستوطنون الصهاينة عناية غير عادية بالتأكيد عن الطبيعة اللا دينية وغير التقليدية لمشروعهم، ولعل هذا هو ما دفعهم إلى أن يتخلوا عن لقب (اليهود) وتبنوا لقب (العبرانيين) بدلاً منه، أى أنهم حاولوا إعادة تعريف أنفسهم على أساس قومى محض يحل محل الأساس الدينى التقليدى. ولعل ما يشير إلى ذلك، هو أن ارتباط اليهودى بصهيون (فلسطين) هو ارتباط دينى فحسب، فصهيون هى المكان الذى اختاره الرب واصطفاه، ولذا عدّ الاستيطان فى الأرض المقدسة واجباً دينياً أو عملاً خيرياً بالمعنى الدينى للكلمة. ومن هنا تكون فلسطين، كما يقول المهاتما غاندى، ليست موقعاً جغرافياً – بالمعنى الدينى – وإنما هى فى قلوب اليهود، وصهيون هنا مفهوم دينى يتجاوز حدود الطبيعة والتاريخ وكل ما فيها من نظام أو فوضى. وهذا التمييز الدقيق بين الواقع المادى والمفهوم الدينى لا

(١) د. محمد خليفة حسن: الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدين اليهودى، مرجع سابق، (ص ١٧).

يتفق مع الرؤية الصهيونية، لقد أصيب الصهيونيون بالحيرة عندما اكتشفوا معارضة الحاخامات للدعوة الصهيونية الخاصة بالعودة (المادية) والجسدية إلى صهيون، لأنهم كانوا يحثون اليهود على حب صهيون، ولكن بالمعنى الدينى للكلمة "[1].

ولكن من الأهمية أن نشير إلى أن هذه المعارضة للصهيونية من قبل اليهود الدينيين " كانت ذات طبيعة برجماتية، ولا تنصرف أبداً إلى طبيعتها كحركة استعمارية استيطانية إحلالية. وعلى الرغم من نجاح الصهيونية فى تسلم مقاليد القيادة فإن موقف أعضاء الجماعات اليهودية من الحركة والدولة الصهيونية يتسم بكثير من التركيب، فبعض اليهود يرفضون الصهيونية من منظور دينى وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى قسمين: (الأرثوذكس)، الذين يعدون الحركة الصهيونية حركة علمانية، تجعل من اليهود أمة بالمعنى العرقى العلمانى للكلمة بما يتنافى مع تعاليم الدين اليهودى، التى تجعل اليهود شعباً بالمعنى الدينى، ترتبط هويته بمدى تنفيذه للأوامر والنواهى، ويرى الأرثوذكس أن الصهيونية حركة (مسيحانية) زائفة تتحدى الإرادة الإلهية، فيما يسقط (الإصلاحيون) الجانبين (الإثنى والقومى) ويجدون فى الصهيونية دعوة إلى القبلية وضيق الأفق وحرفية التفسير "[2].

وقد تجاوزت الصهيونية كل هذه الخلافات، ورأت أن المصلحة القومية تقتضى العمل على استخدام كافة الوسائل لتحقيق كل الغايات؛ فاستقلت قطار اليهودية، وحاولت إرضاء الحاخامات اليهود وتقريبهم إلى برنامجها الاستيطانى القومى.

وفى حقيقة الأمر، لم يكن إقحام الطابع الدينى على الحركة الصهيونية إلا وسيلة من وسائل جذب شتات اليهود نحو هذه الأيديولوجية، وإضفاء طابع دينى قومى عليها، ومحاولة من قبل القادة الصهيونيين لمداعبة مشاعر اليهود الدينية باستخدام النصوص التوراتية التى تتحدث عن الوعد الإلهى بمنح بلاد كنعان لليهود، لتتزين الحركة الصهيونية، فى النهاية، بادعاء الحق الدينى لليهود فى فلسطين. وهى إشكالية تعنى فى نهاية المطاف، أن اتجاه القادة الصهيونيين نحو فلسطين لم يكن نابعاً من محاولة تحقيق ما يسمى بالوعد الإلهى، ولعل مشروع (أوغندا) لتوطين اليهود فيها الذى قبله هرتسل وبعض القادة الصهاينة الدينيين باعتبار أن الاستيطان فى صهيون لا يمكن أن يتم إلا بعد عودة المسيح المخلص، خير دليل على ذلك.

ولا يمكن أيضاً إنكار حقيقة معارضة الحاخامات اليهود لهذه الحركة التى رأوا أنها تعجل بنهاية اليهود كما ردد بعضهم، وقد حاول "هرتسل" تخفيف حدة التوتر التى

(١)انظر: د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (١١٠-١١٢).
(٢)د. عبد الوهاب المسيرى: يهود العالم، دليل إسرائيل العام، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٦ (ص١٥٠).

اجتاحت الأوساط الدينية بمقولته الشهيرة بأن (الصهيونية هى العودة إلى اليهودية قبل العودة إلى دولة اليهود) وهو بذلك، " لم يخاطب اليهودية وفق المفهوم الروحانى أو الدينى بل كان يسعى إلى ما يمكن أن يسمى بـ(اتفاق قومى)، أى الاستعداد للاعتراف بإطار قومى عام على الرغم من الاختلافات فى المعتقدات وفى الآراء " [(١)].

ويعلق شموئيل الموج على مجهودات هرتسل فى تقريب الحاخامات الصهيونيين إلى الصهيونية دون تسليمهم الحركة وعلاقته بهم بقوله: " برزت هذه العلاقة فى القصة التى رواها رءوبين برينين (١٨٦٢ – ١٩٣٩) عن المؤتمر الصهيونى الأول والتى جاء فيها: أقبل عدد من الحاخامات على هرتسل لسبر غوره، ولكنهم خرجوا من المقابلة مسرورين ومرتاحى البال. وعندما سئلوا عن سبب هذا السرور من جانبهم قالوا بأن هرتسل أبلغهم أنه لا يعتزم مراعاة التقاليد اليهودية. لماذا إذن هذا السرور ؟ قالوا: إذا لم تكن لدى هرتسل الرغبة فى مراعاة التقاليد اليهودية فإن هذا يعنى أنه لا يريد أن ينظر إليه أحد على أنه (المسيح المخلص) بل يريد أن ينظروا إليه على أساس أنه مجرد زعيم لحركة سياسية. وهدأت نفوس الحاخامات " [(٢)].

وعلى الرغم من كل هذا، " كانت الصهيونية كأى أيديولوجية، تود أن تكتسب شرعية، وأن تجند الجماهير وراءها، ويمكن أن تستخدم ديباجة مفهرسة لديها. ومن هنا تستقل الصهيونية اليهودية لتضفى على نفسها صبغة دينية تحبب الجماهير فيها، وتظهر الصهيونية كما لو كانت امتداداً لليهودية وليست نقيضها. وهذا ما عبر عنه بعض المفكرين اليهود حين قال: إن الدين اليهودى يمكن أن يسهم فى بلورة الروح القومية للشعب اليهودى ... ومن هنا استخدم الصهاينة ديباجات دينية، فكان هرتسل يتحدث عن الاستيطان فى فلسطين باعتباره الخروج. وسميت الهجرة إلى فلسطين بـ(عاليا)، وهو اصطلاح يفيد العلو والصعود لأسباب دينية ... وأصبح من الواجب على اليهودى ألا ينتظر المسيح، بل أصبح عليه أن يعود لفلسطين للإعداد لمقدمه " [(٣)].

" وغيرت الصهيونية من المعنى العام لفكرة الخلاص، وحولته إلى حوار بين اليهودى والعالم بدلاً من كونه تعبيراً عن اللقاء الأخروى بين الإنسان اليهودى وربه، واضطرت الصهيونية إلى تحوير معنى المسيح المخلص الذى سيأتى فى نهاية الأيام لتنفيذ الخلاص. واضطرت الصهيونية إلى إعلان أن هذا المسيح المخلص ليس إنساناً أو شخصاً من نسل

---

(١)د. انيتا شابيرا: الصهيونية الدينية –مدخل تاريخى، ترجمة د. محمد محمود أبو غدير، مركز الدراسات الشرقية، ج القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد (٣)، مارس ١٩٩٨، (ص ٧١).
(٢)نفس المرجع، (ص٧٢).
(٣)د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (١١٧، ١١٦).

داوود لـه قوى خارقة للعادة، ولكنه فكرة أو رمز إلى حرية الإنسان اليهودى الفردية، وحريته القومية. كما أنه إشارة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية لجموع اليهود ... فالمسيح المخلص إذن أصبح تشخيصاً لأبطال الحرية، أشبه بهؤلاء الذين حققوا مبادئ المساواة والحرية والقومية لشعوب أوروبا فى القرن التاسع عشر " (١).

وهكذا، " تلقفت الصهيونية الأفكار الدينية اليهودية، ووجدت فى مكوناتها أداة مهمة وفاعلة لشحن وتعبئة قطاعات مؤثرة من اليهود المتدينين، خدمة لأهدافها السياسية، وتحقيقاً لمطامعها الاستراتيجية، فليس هناك ما هو أكثر تأثيراً فى النفس المكلومة، ولا أشد وقعاً فى الأرواح المعذبة والمهانة على مدى قرون وقرون، من التلويح بالمهمة المقدسة الملقاة على عاتقهم، وبفكرة (الخلاص) و(العودة) إلى أرض (اللبن والعسل) والبلاد الموعودة التى وهبها الرب لهم ... ولذا، فإن الصهيونية السياسية، وإزاء إدراكها لأهمية العنصر الدينى الكامن فى النفس اليهودية وحيويته، التى نمت فى الشتات على امتداد أحقاب طويلة، استخدمت خليطاً من العقيدة والبعد السياسى، واستغلته بذكاء وحنكة لعزل العناصر التى كانت تدعو إلى (الاندماج) من جهة، وإلى ضرب فكرة (الخلاص المسيحانى) النقية، التى كانت تربط بين هذه الفكرة وبين (التدخل الإلهى) المباشر، كشرط لإنجازها، من جهة أخرى، فقد كان الزعيم الصهيونى بن جوريون يرى أنه (العقيدة اليهودية) هى (التعبير القومى) عن تطلع (الشعب اليهودى) لتحقيق غاياته الوطنية " (٢).

" إذن كان بن جوريون يرى أن الدين اليهودى وظيفة، عليه القيام بتأديتها وكفى، وهو ما عبر عنه بوضوح عندما قال: (إن الدين هو وسيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت، لا كل الوقت). ولم يكن يرتاح للمتدينين والحاخامات ؛ فكان يقول: (إن حياة اليهود لو تركت لحاخامات اليهود لظلوا حتى الآن كلاباً ضالة فى كل مكان، يضربهم الناس بالأقدام، ويحتمى اليهود من أقدام الأغلبية الساحقة لهم فى كل مكان بأحلام العودة إلى أرض الميعاد والأجداد، وانتظار المسيح، الذى سيهبط عليهم من السماء، لينقذهم ويقوم لهم بكل العمل، بينما هم يصلون الفجر والعشاء، ويبكون ليلاً ونهاراً " (٣).

فبعد أن رفض الصهيونيون، فى البداية، استخدام الدين اليهودى ضمن المبادئ الأساسية للحركة الصهيونية خوفاً من سيطرة الحاخامات عليها والابتعاد عن العلمانية،

(١)د. محمد خليفة حسن: الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى، مرجع سابق، (ص٢٢).
(٢)أحمد بهاء الدين شعبان: حاخامات وجنرالات ـ الدين والدولة فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ٢٩، ٢٨).
(٣)د. رشاد عبدالله الشامى: القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، مرجع سابق(ص٥٤).

حـل القبول محل الرفض، وباتت النصوص المقرائية التى تتحدث عن الوعد الإلهى بالأرض – أرض فلسطين – فى طليعة شعارات الصهيونية السياسية. وهكذا، انتبه القادة الصهيونيون إلى أهمية الدين كعنصر مهم فى خططهم السياسية.

وعلى سبيل المثال، " يستند النشيد الوطنى الإسرائيلى على الادعاءات الصهيونية المرتبطة بالأرض وبقدسية الشعب مردداً دعاوى الحق التاريخى والدينى فى الأرض، المستندة جميعها على تعبيرات توراتية منقاة بعناية ؛ لتغذية النشء على كل المستويات دينية كانت أم علمانية "[(١)].

فكرة الوعد الإلهى بين العهد القديم والحاخامات اليهود:

يرجع ادعاء الصهيونية بالحق الدينى لليهود فى أرض فلسطين إلى فكرة الوعد الإلهى لليهود بتخصيص هذه الأرض لهم وفقاً لما جاء فى العهد القديم من وعود، " ويتلخص مضمون هذه الفكرة فى أن الآباء الإسرائيليين، ابتداء من آدم إلى نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، قد تلقوا وعوداً إلهية، وأن التاريخ الإسرائيلى اللاحق يعتبر المسرح الذى تحققت عليه هذه الوعود ... وقد تمت عملية ربط التاريخ اليهودى الحديث بالماضى من خلال التأكيد على تكرار هذه الوعود بتكرار العهد المعطى لموسى مع عدد من الآباء السابقين، ومن أهمهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بل العودة بفكرة العهد إلى نوح وآدم ؛ حتى يصبح التاريخ اليهودى وحدة واحدة لا تتجزأ "[(٢)].

وتتضح فكرة الوعد الإلهى مع إبراهيم فى سفر التكوين ؛ حيث يقول الرب لإبراهيم فى الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين: " وقال الرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك " (التكوين إص ١٢ : ١)، " وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ؛ ليعطيك هذه الأرض لترثها " (التكوين إص ١٥ : ٨)، " لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات " (التكوين، إص ١٥ : ١٨).

ويتكرر هذا الوعد الإلهى مع إبراهيم فى الإصحاح السابع عشر أيضا من هذا السفر، حيث كان إبراهيم يبلغ من العمر تسعا وتسعين عاما، فظهر له الرب، وأمره بالسير أمامه ؛ ليقيم معه عهداً، وقد أسماه الرب إبراهيم بعد أن كان يدعى أبرام، ثم وعده بأرض كنعان ملكاً أبدياً له " وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً

---

(١)د. عبد الخالق عبدالله جبة: المضمون التوراتى والأيديولوجى للنشيد الوطنى الإسرائيلى (الأمل)، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، أغسطس ١٩٩٢، (ص٧٧).

(٢)انظر: د. محمد خليفة حسن: دراسات فى تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥، (ص٥٦، ٥٥).

أبديا. لأكون إلـها لك ولنسلك من بعدك. وأعطى لك ولنسـلك من بعدك أرض غـربتك ملـكاً أبديا " (التكوين، إص ١٧ : ٧ـ٨).

ويـتجدد العهـد مـع إسحاق فى الإصحاح السادس والعشرين من نفس السفر، " فظهر لـه الرب فى تلك الليلة، وقال أنا إلـه إبراهيم أبيك. لا تخف ؛ لأنى معك وأباركك وأكثر نسـلك، مـن أجـل إبراهـيم عـبدى " (الـتكوين إص ٢٦ : ٢٤). وفى الإصحاح الخامس والـثلاثين مـن سـفر الـتكوين يظهـر الرب ليعقوب وهو فى طريقه من فدان أرام ويباركه، وبعـد أن أسمـاه الـرب إسـرائيل بـدلا مـن يعقوب يجدد العهد معه ويمنحه أرض أجداده " والأرض الـتى أعطيـت إبراهـيم وإسحق لك أعطيها. ولنسلك من بعدك أعطى الأرض " (الـتكوين إص ٣٥ : ١٢). ويـتكرر العهـد مـع موسى، " وكلم الرب موسى فى عربات مـوآب عـلى أردن أريحـا قـائلا كـلم بنى إسرائيل وقل لـهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان " (العدد ٣٣: ٥٠ـ ٥١).

ولعلــه من المثير للدهشة هنا تكرار هذه الوعود، وكأنها محاولة من مدون هذه النصوص للتأكـيد عـلى هـذا الوعـد بـتلك الأرض، " وربما نلاحظ، أيضا ذلك التقارب الشديد فى الأسـلوب والألفـاظ المسـتخدمة فـى هـذه العهـود المـتكررة عـلى الـرغم من المسافة الزمنية الفاصـلة بـين كـل أب مـن هـؤلاء الآباء. وهذا يدل على أن هذه الصيغ المتكررة للعهد إنما وضـعت جميعها بيد كاتب واحد. ويظن بعض الدارسين أنه موسى، بينما يظن آخرون أنها من نتاج عصر النبوة فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد " [١].

كمـا أن تنفـيذ هذا العهد مرتبط بعمليات قتل وتشريد وسفك للدماء، والمثير للشك هنا أن هذه العمليات تتم بأمر من الرب ذاته، فحين كلم الرب موسى – كما ذهب مدون العهد القديـم – أمـره بطـرد سـكان كـنعان وقـتلـهم، " فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم، تملكون الأرض وتسكنون فيها، لأنى قد أعطيتكم الأرض لكى تملكوها " (العدد إص ٣٣: ٥٢)، " فـالآن اقـتلوا كـل ذكـر مـن الأطفـال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها " (العـدد إص ٣١: ١٧). وتحـدث سـفر التثنـية عن أسلوب تحقيق هذا الوعد الإلـهى الذى منحهم تلك الأرض من خلال الاستيلاء على المدن وسفك دماء أهل البلاد [٢].

وفـى حقـيقة الأمر، تثير عملية ربط هذا الوعد بالقتل والطرد والإبادة نوعا من الشك أو الافـتراء عـلى الـذات الإلـهـية. وبالطبع، فإن صياغة مثل هذه الوعود وما تبعها من أوامر بالقـتل والطـرد عـلى هـذا الـنحو يكـون الـهدف منها واضحا، فمن غير المعقول أن يوحى

(١)د. محمد خليفة حسن: دراسات فى تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة، مرجع سابق، (ص٥٦).
(٢)انظر: سفر التثنية: (الإصحاحات ٢٠، ٢١: ١٠ـ١٤، ٢٣: ١٠ـ١٦، ٢٥: ٥).

الرب لنبى من أنبيائه بالقتل وسفك الدماء والتخريب. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن هذه القوانين الخاصة بأسلوب التعامل مع سكان هذه الأرض " يتسلمها القادة الإسرائيليون كمصدر وحى، وكشريعة مقدسة لاستئناف البعث الإسرائيلى فى فلسطين، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية وقانونية من أجل تحقيق وعد الرب " [(1)].

والمثير فى هذا التناقض، الذى وقع فيه مدون العهد القديم، أن التوراة تحدثت أيضا عن أرض فلسطين كأرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ حيث تحدثت عنهم بصفتهم غرباء ووافدين على فلسطين. كما أن التوراة تعترف بأن الرب نفسه نقض هذا العهد حين عاقب اليهود، " ففى سيناء عقد يهوه عهداً مع إسرائيل. وهذا العهد هو من فعل يهوه فهو اختار إسرائيل ودخل معها فى علاقة وطيدة من خلال العهد وتحت حمايته الخاصة، وقطع العهد من جانب الإسرائيليين له عواقبه التاريخية فى رأى الأنبياء والمؤرخين. فالإسرائيليون لم يعيشوا حسب شروط العهد ولم ينفذوا الوصايا، بل لم يقبلوا يهوه إلها واحداً بل عبدوا آلهة أخرى، ولهذا فقد قرر يهوه عقابهم عن طريق تسليط الشعوب الأخرى عليهم " [(2)].

ومن ناحية أخرى، وفى محاولة لمضاهاة الأحداث التاريخية الحقيقية بما ورد فى العهد القديم، يقول سيد القمنى فى كتابه (إسرائيل- التوراة، التاريخ، التضليل): " إن التناقضات التى ينطوى عليها العهد القديم، يمكن أن تؤلف وحدها كتاباً قائماً بذاته، لا يقل حجما عن الكتاب المقدس ذاته، لو أردنا أن نجمعها فى مدون واحد، وهذا بحد ذاته كفيل بنزع الثقة عن التوراة وأخبارها منذ البدء، وحتى الأحداث التى ترويها، كوقائع حدثت فى القرن التاسع قبل الميلاد على الأقل، ففى التوراة مبالغات لا يمكن قبولها إطلاقا، وهى أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ الصادق ... وعليه فإن النص التوراتى من وجهة نظرنا ليس أكثر من وثيقة أسطورية " [(3)].

وفى العصر الحديث، اتخذ الحاخامات اليهود من هذه الوعود ذريعة من أجل شحذ همم الإسرائيليين نحو التمسك بهذه الأرض التى وعدهم الرب بها حسب ادعائهم، واتخذت فتاواهم منحنى خطر تجاه التعامل مع الفلسطينيين أصحاب هذه الأرض بكل قسوة وعنف، بحيث أصبح القتل والهدم والتخريب، وكأنه طقس من الطقوس البدائية التى عادت لتقدم قربانا للرب طمعا فى إرضائه. وعلى سبيل المثال " أعلن الحاخام العسكرى

(1)د. رشاد عبالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٧٠).
(2)د. محمد خليفة حسن: التفكير التاريخى والحضارى عند الشعوب العربية (السامية)القديمة، كلية الآداب ج القاهرة، ٢٠٠٠، (ص٢٠٤).
(3)سيد القمنى: إسرائيل- التوراة. التاريخ. التضليل، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، قبرص، ١٩٩٤، (ص ٣٦، ٤٠).

لإسرائيل موشيه جورن أن الحروب الثلاثة التى جرت بين إسرائيل والعرب خلال السنوات ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، هى فى منزلة (الحرب المقدسة)، فأولها لتحرير أرض إسرائيل، والثانية لاستمرار دولة إسرائيل، أما الثالثة فقد كانت لتحقيق نبوءات أنبياء إسرائيل " (١).

وثمة نظرة عابرة تجاه دور الحاخامات داخل المجتمع الإسرائيلى، تكشف لنا عن الرعب الذى يتأجج فى قلوب اليهود من هؤلاء الحاخامات الذين تعد فتاواهم أمرا واجب التنفيذ دون أدنى مناقشة أو اعتراض. وربما يبين لنا حادث مقتل رئيس الوزراء السابق إسحاق رابين، مدى خطورة الدور الذى يلعبه الحاخامات اليهود، حيث كشفت التحقيقات التى أجريت مع " يجال عامير " قاتل رابين، أنه قتل رئيس الوزراء بناء على فتوى من أحد الحاخامات أبيح فيها إهدار دم رابين ؛ لأنه كان بصدد التخلى عن الأرض الموعودة بموجب اتفاق مع الفلسطينيين.

وفى حقيقة الأمر، يلعب الحاخامات دوراً مهماً ورئيسياً فى تشكيل الوعى الدينى والسياسى كممثلين للديانة اليهودية بطابعها الكهنوتى المغلق، لاسيما أن من أهم وصاياها (اتخذ لنفسك حاخاماً). وهكذا ، يفرض النص الدينى على اليهودى أن ينتمى لحاخام معين ويتبنى آراءه ويعمل على تنفيذ الفتاوى التى تصدر عنه، ويكون من مريديه واتباعه الدائمين الذين يترددون على دروسه وخطبه اليومية أو الأسبوعية.

وهكذا أيضاً، أقام الحاخامات دولة داخل دولة -إن صح التعبير- وتغلغلوا فى شتى نواحى الحياة وفرضوا كلمتهم التى يخشاها اعتى المسئولين الإسرائيليين بما فيهم رئيس الوزراء. ومن هنا تبقى الفتاوى الخاصة بـ(أرض الميعاد) مسألة غاية فى الخطورة يضعها أى رئيس وزراء إسرائيلى فى الاعتبار وهو ذاهب إلى مائدة المفاوضات، فما زال شبح مصرع رابين يطارد المسئولين الإسرائيليين المعنيين بالمفاوضات مع العرب، وبخاصة أن حاخامات اليهود ينظرون إلى من يعيد (للأعداء) أراضى تم تحريرها يعد خائناً يجب قتله.

ودائماً ما تتسم الانتخابات الإسرائيلية بمحاولات لمغازلة الحاخامات وأحزابهم الدينية. فالحاخامات فى كل مكان، فى المحكمة الشرعية، وفى دور العبادة، وفى الجيش، وفى الكنيست، يرفضون ويقررون ما يشاءون. إنهم يلعبون دوراً بارزاً فى تشكيل السياسات التى تتبناها الحكومات الإسرائيلية. ويذهب بعض المحللين إلى أن عدد اليهود المتدينين فى تزايد مستمر، وذلك لنجاح الحاخامات فى ضم عشرات اليهود المأزومين نفسياً واجتماعياً إلى معسكرهم الدينى، ولدعواهم بزيادة النسل ؛ حتى وصل عدد بعض الأسر اليهودية المتدينة إلى عشرة أو ثلاثة عشر فرداً.

---

(١)د. رشاد عبالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرحع سابق، (ص١٧٣).

لقد شكلت فتاوى هؤلاء الحاخامات وجدان النفسية الإسرائيلية، وتعاظمت، إلى أن تخطت حدود المعقول، حين تحدثت عن فتاوى الدم والقتل فى سبيل المحافظة على (الأرض المقدسة) أو (أرض الميعاد) التى وعدهم الرب بها، والمحافظة عليها تعنى إقامة وصايا الرب وإرضاءه، حتى وإن كان ذلك عن طريق قتل (الأغيار) واحتلال ديارهم وطردهم، معتمدين فى ذلك على بعض النصوص التوراتية التى يأمر فيها الرب بقتل النساء والأطفال وتخريب المرتفعات، كما جاء فى النصوص المقدسة (سفر العدد، ٣١: ١٧).

وفى إطار ادعاء اليهود بالحق الدينى فى أرض فلسطين، الذى تعتمد عليه الصهيونية فى نظرياتها، مثلت فتاوى الحاخامات اليهود خطراً كبيراً على مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى من ناحية، والصراع الفلسطينى الإسرائيلى من ناحية أخرى. وثمة نظرة أخرى على فتاوى الحاخامات اليهود الخاصة بالأرض، تكشف لنا عن مدى خطورة هذه الفتاوى، لاسيما أنهم يستندون فى فتاواهم إلى ما ورد على لسان الرب، الذى من المفترض أن تكون كلماته موضع التنفيذ الدائم، فهذه الأرض هى أرض اليهود - حسبما يذهبون - وهى أرض مقدسة وعدهم الرب بها ولا يمكن التفريط فيها تحت أى مسمى. وعلى سبيل المثال، يضع الحاخام الإسرائيلى مئير كاهانا شرعية دولة إسرائيل موضع السؤال، " فهى فى نظره مستندة إلى أمر الهى، حيث يقول: (لو لم يكن الرب قد أمرنا بالعيش فى هذه البلاد، فما الذى أفعله هنا. إن هذه البلاد كارثة حقيقية سواء أكان ذلك على الصعيد الجغرافى أم المادى.. أنا لا أعيش هنا إلا لأن هناك وصية مقدسة بذلك) "[1].

ويذهب مئير كاهانا بتطرفه الدينى إلى ضرورة تطهير هذه (الأرض المقدسة) من أى وجود غير يهودى، " وهو يرى أن السبب فى أن يكون المرء يهودياً، والسبب الذى يجعله يعيش فى إسرائيل لهما أصل مشترك هو الأمر الإلهى. وعليه فإن إقامة دولة يهودية - وهى وصية إلهية - وسيلة الحصول على ثقافة يهودية حقة، ولابد لذلك من تطهيرها من أى وجود غير يهودى " [2].

ويذهب " إسحاق نسيم " حاخام إسرائيل الأكبر السابق، إلى أن " أرض إسرائيل هى الميراث المقدس لدى كل يهودى، ولا تملك أية سلطة دنيوية أو دينية القدرة على انقاض هذا الدعاء أو التقليل من شأنه "[3]. كما أن بعض الحاخامات لا يعترفون بوجود أراض عربية، ويستندون فى ذلك إلى ما ورد فى التوراة على أنها تراث الآباء إسحق ويعقوب،

(١) رافائيل ميرجى، فيليب سيمونو: مئير كاهانا، الحاخام الذى يخيف اليهود، عرض: علبة البرشومى، سلسلة كتاب قضايا فكرية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الكتاب السادس، أبريل ١٩٨٨، (ص٢٦٦).
(٢) نفس المرجع.
(٣) أحمد بهاء الدين شعبان: حاخامات وجنرالات، مرجع سابق، (ص١٥).

حيث يقول الحاخام تسفى يهودا كوك الابن: " إن هذه البلاد لنا، ولا توجد هنا أية مناطق عربية أو أراض عربية، بل أراض إسرائيل. تراث الآباء الخالد، وهى - فى جميع حدودها الواردة فى التوراة - تابعة للحكم الإسرائيلى "(١).

" ويمتد هذا التعصب الدينى إلى التلاعب بالسياسة على المستويين الخارجى والمحلى، كما هو واضح فى حالة (جوش أمونيم)*، تلك الجماعة الصغيرة التى تدعو إلى ضم الأراضى المحتلة ... وكما هو واضح فى كلمات الحاخام موشى بن تسيون، لقد أدى به تفسيره الدينى الصهيونى للتلمود إلى العودة للقضاء على الفلسطينيين واستعمار كل أرض إسرائيل التاريخية "(٢).

وينظر الحاخامات اليهود إلى الاتفاقيات المبرمة مع الفلسطينيين على أنها ملغاة ولا يمكن الاعتراف بها؛ لأنها تعطى أراضى الرب للغير، حيث يقول الحاخام شلومو افنيرى: " السلام فى حد ذاته أمر محمود، لكن هذا لا يعنى تسليم أراضينا المقدسة للأعداء، أبناء إسماعيل، وتقضى الشريعة اليهودية بأن ما يحرره ملك إسرائيل من أراض لا يمكن التخلى عنها البتة، واليوم تقوم دولة إسرائيل مقام الملك، ومن ثم فالأرض التى يفرط فيها رئيس وزراء إسرائيل يجب استعادتها، والقصاص منه بتهمة الخيانة، أما الاتفاقية فهى باطلة، حيث سلم خائن من اليهود أراضى الرب للعرب، وعليه لانلتزم بمثل هذه الاتفاقيات التى تخالف نصوص الدين اليهودى "(٣).

ويتضح موقف الشريعة اليهودية من إعادة الأراضى المحتلة إلى الفلسطينيين فى كلمات الحاخام "يوسف النكفاه" الذى يتعجب من إعادة تلك الأراضى التى تعنى إعادتها مخالفة للشريعة اليهودية، ويتساءل: " إننى لا أفهم من ذلك سوى أن يعيد لنا الجوييم (الأغيار) أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات، أو على الأقل من الفرات حتى وادى العريش، وبالطبع يا حبذا لو حتى وادى النيل. وتسليم أرضنا للعرب حرام حرام أن نتخلى عما وهبنا الرب إياه. ويؤكد ذلك ما جاء فى كتب الحاخام موشيه بن نحمان، وكتاب (نور الحياة) الذى تؤكد كل فقراته أن الرب وعد إبراهيم وإسحق ويعقوب بأرض إسرائيل. وإننى أتبنى مبدأ (الأرض مقابل الأرض)، بعبارة أخرى فى إسرائيل ملايين

---

(١) نفس المرجع (ص٣٣).

(*) جوش إمونيم: كتلة من رجال الاستيطان اليهودى من المتدينين، نشأت فى القدس عام ١٩٦٧، ومعظمهم من مدرسة الرب كوك الذين يحافظون على إخلاصهم لأرض إسرائيل، ويؤيدون انتهاج خط سياسى أكثر حزماً بالنسبة لشئون أرض إسرائيل وينتمى معظم أعضائها للحزب الدينى القومى (المفدال)، ويرفضون الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة.

(٢) د. رشاد عبدالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٧٤).

(٣) أنظر http:\\www.yeshiva.org.il\2002) : web site) .

اليهود الذين تركوا بيوتهم فى مصر واليمن والمغرب وتونس وبغداد والهند، فليذهب الفلسطينيون إلى هناك وسيجدون مأوى بكل تأكيد. وقد ورد فى سفر العدد الإصحاح الثالث عشر: (ورثتم الأرض وأقمتم فيها، وقد منحتها لكم لتعمروها) " (١).

وهكذا، تبدو ملامح هذه الفتاوى الحاخامية، التى تبين لنا مدى عبادة (الأرض المقدسة) لدى هؤلاء الحاخامات وأتباعهم، وقد اتخذوا من نصوص الكتاب المقدس والتلمود حجة ليملوا على اليهود حتمية العمل بهذه الفتاوى، فالدفاع عن هذه الأرض هو واجب دينى مقدس لا يمكن التخلى عنه، بل محاربة الذين ينقضون هذا الواجب، وإن كانوا يهوداً، هو أمر مقدس حتى وإن كان هناك اضطرار لقتلهم. وقد وصف أحد الحاخامات الصراع العربى الإسرائيلى بأنه حرب دينية مقدسة تستلزم الدفاع عن الأرض المقدسة التى وهبها الرب لهم، حسب ادعائهم، وقد آثرنا أن نأتى بهذه الفتاوى بصرف النظر عن الانتماءات الحزبية أو السياسية لهؤلاء الحاخامات وموقعهم على خريطة الأحزاب والقوى الدينية فى إسرائيل، فما يهمنا فى المقام الأول هو موقف الدين اليهودى والحاخامات اليهود من النصوص التوراتية التى تحدثت عن الأرض، وكيف طوعوها لخدمة أهدافهم وأغراضهم السياسية التى تخدم اليمين الصهيونى المتطرف فى إسرائيل، وكيف تم توظيف هذه النصوص للاستماتة على هذه الأرض من قبل الصهيونية التى اعتمدت فى الكثير من نظرياتها على ادعاء الحق الدينى لليهود فى فلسطين، وكرست كل جهودها من أجل استقطاب حاخامات اليهود للتأكيد على هذا الحق الدينى المزعوم، مستغلة نفوذ هؤلاء الحاخامات وأهميتهم بالنسبة لقطاعات لا بأس بها من المجتمع الإسرائيلى. ولنا أن نتصور مدى النشوة الدينية التى عاشها حاخامات اليهود بعد حرب ١٩٦٧، التى احتلت إسرائيل على أثرها أجزاء كبيرة من الأراضى العربية، فقد أرجعوا هذا الانتصار إلى (معجزة إلهية) ونظروا إلى هذه الأراضى على أنها (أراض محررة) من يفرط فيها خائن وجب قتله.

ويالها من إشكالية معقدة اتسمت بها العلاقة بين الدين اليهودى والصهيونية من ناحية، والدين والدولة من ناحية أخرى. ولكنها تبدو فى غالب الأحيان واضحة حينما نتدارك الاستدعاء المستمر من القيادات الصهيونية للتراث الدينى التوراتى، باعتباره وسيلة مجربة وناجحة، يسهل من خلالها خدمة الأهداف السياسية تجاه العديد من القضايا الشائكة فى مسألة الصراع العربى الإسرائيلى.

وتبدو هذه الإشكالية غير معقدة أيضا حينما نأخذ " دافيد بن جوريون " مؤسس دولة إسرائيل مثالا ؛ " فلم يكن بن جوريون ملحداً، بل كان يؤمن بالله على طريقته الخاصة.

---

(١)أنظر http:\\www.yeshiva.org.il\2002) : web site) .

وقـد سـئل مـرة عمـا إذا كان يؤمن بالله فأجاب: (السؤال هو من الله ؟)... وبالرغم من هـذه الـنظرة السـلبية إلى الدين، فقد كان بن جوريون يدرك أهمية استغلال الدين فى سبيل تدعـيم الفكـرة الصـهيونية، واجتذاب المهاجرين إلى فلسطين، فأعلن ذات مرة: (إن خلود إسرائيل يتميز باثنتين: دولة إسرائيل والتوراة) "[1].

اتجاهات نقد الصهيونية فى الرواية:

تشـير أحـداث روايـة (عيسو) والحبكة الدرامية بها إلى أن شاليف اعتمد فى كتابته لـهذه الـرواية عـلى الخلفـية التوراتـية لقصـة الوعد الإلـهى بالأرض التى منحها الرب ليعقوب، والخصـومة والـنزاع بـين عيسـو ويعقـوب، واتخاذهـا رمـزاً للصراع الدائر بين الفلسطينيين والإسـرائيليين فـى العصر الحديث. وبدا أمامنا المثلث التوراتى (عيسو، يعقوب، ليئة) فى مقـابل المثلـث الـروائى (عيسو، يعقوب، ليئة)، والذى يقابلـهما على أرض الواقع مثلث آخر يتمثل فى المثلث السياسى (الفلسطينيون، اليهود، الأرض)، لاسيما أن المرأة قد لعبت دوراً مهمـا فـى هـذه الـرواية تجـاه مسألة الصراع، فهى شخصية تمثل لنا أرض فلسطين فى مقـابل اثنين يدعيان ملكيتهما لـها. وهو نفس الدور الذى لعبته المـرأة فى رواية " شاليف " السابقة (رواية روسية).

ويقـول يوسف أورن فى معرض تعليقه على هذه الرواية: " هناك توءمان يتنافسان فيما بيـنهما عـلى امـرأة واحـدة. وعـلى هـــذا، فـإن المواجـهـة بين المتنافسين على حب امرأة واحـدة، هـى مواجهـة متوقعة. وهنا نصل إلى الحكمة الموضوعة فى بؤرة هذه القصة لتلك الرواية، حيث يبرز أمامنا التناظر السياسى لـها: وهو الصراع على أرض فلسطين "[2].

ويـنعكس موقف شاليف من الصهيونية، مرة أخرى فى هذه الرواية، من خلال لـهجته الحـادة فى التعامل مع فرضياتها التى ينظر إليها على أنها مجموعة من الأساطير، ولعل جرأة شـاليف فى هذه الرواية، كانت تكمن فى إشاراته المباشرة إلى الصهيونية، فلم يجهد القارئ كثيراً فى الربط بين أحداث الرواية والواقع الفعلى التى تعيش فيه إسرائيل ثمرة الأيديولوجية الصـهيونية، حيـث يقـوم الأمير " أنطوان " برحلته إلى القدس عام ١٨٩٨، بعد عام واحد مـن انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل، ويشهد زواج " سارة " من ابن أسرة " ليفى " الـتى تعـد مـن أقدم الأسر اليهودية فى القدس، وقد أجبرت " سارة " زوجها " أبراهام " عـلى قطـع شـجرة الأنسـاب القدسـية، وفى عام ١٩٢٧ تجعلـه يسافر هو وتوءميهما بعربة

---

(١)د. رشـاد عبالله الشـامى: القـوى الدينـية فـى إسـرائيل بـين تكفير الدولـة ولعبة السياسة، مرجع سابق، (ص٥٣).

(٢)يوسـف أورن: " هاعـبط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٥٨).

البطريرك إلى القرية. ويعلق " يوسف أورن " على تلك التواريخ الواردة فى الرواية بقوله: " إن إقحام تاريخ بداية قصة الأسرة الذى يقترب من تاريخ نشأة الصهيونية لم يكن أمراً عفوياً أو غير مقصود. لقد تقرر فى المؤتمر الصهيونى الأول هجر الخلاص الدينى المسيحانى من أجل الخلاص العلمانى الدنيوى ... ويرمز ترك القدس إلى هذا التحول ... لاسيما أن القرية هى ثمرة تمجيد الصهيونية، والقدس كانت رمزاً للخلاص الدينى المسيحانى حتى نشأة الصهيونية " [(١)].

كما أن فوز " يعقوب " بالمخبز و" ليئة " حدث عام ١٩٤٨، عام قيام دولة إسرائيل. ففى هذا العام حسمت الجولة الأولى من الصراع لصالح " يعقوب "، فقد أثمرت جهود الصهيونية عن تحقق حلمها فى إقامة كيان وطنى لليهود على أرض فلسطين.

ويمكن القول أيضاً؛ إن شاليف يواصل فى هذه الرواية ما انتهى إليه فى روايته السابقة (رواية روسية) حول نقده للصهيونية فى اعتمادها على الأساطير الدينية والتاريخية واتخاذها كحل للصراع الدائر بين الفلسطينيين واليهود، فإذا كان قد فند ادعاء الحق التاريخى لليهود فى فلسطين فى (رواية روسية)، فإنه يفند هنا ادعاء الحق الدينى أيضاً، فى تأكيد شديد اللهجة على رفضه لهذه الأساطير التى فطمت الصهيونية الأجيال اليهودية اللاحقة عليها. وهو بذلك يعبر عن فشل الصهيونية، ويحذر اليمين الصهيونى المتطرف من الاعتماد على مثل هذه الأساطير؛ لأن إبقاء التركة فى يد أحد الأخوين كحل سهل للصراع لن يبقى طويلاً، ويؤكد على أن الجولة الثانية فى الصراع سوف تكون لصالح الفلسطينيين (عيسو). وسنعرض هنا لأبرز النقاط التى تناولها شاليف فى معرض نقده للصهيونية فى هذه الرواية والتى تكاد تنصب كلها فى:

اعتماد الصهيونية على أسطورة المقرا فى حل الصراع:

لم يجهد شاليف القارئ كثيراً فى محاولة الكشف عن هدفه فى هذه الرواية، فقد كان صريحاً ومباشراً منذ عنوان الرواية فى أن قضيته الأولى عبر أحداث الرواية هى أسطورة المقرا الشهيرة (قصة عيسو ويعقوب والوعد الإلهى ليعقوب بالأرض) التى اتخذتها الصهيونية كمبدأ لحل الصراع بين الفلسطينيين واليهود على أرض الواقع.

ففى القصة الأولى (الدوق أنطون والخادمة زوجا)، يقضى الدوق ليلة كاملة مع العاهرات بالقدس، يعود بعدها ليجد أنفه وقد وشم عليها بكتابة ما. وعندما ينزع الأطباء هذه الكتابة يتضح أنها منمنمات خاصة، تتضمن الفقرات الاثنتى عشرة الأولى من الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين. وتحكى هذه الفقرات عن إبراهيم وقومه،

(١)نفس المرجع، (ص٧١).

وأسلوبه فى حل نزاع الميراث بين ابنيه إسحق وإسماعيل ؛ فقد " أعطى إبراهيم إسحاق كل ما كان له " (سفر التكوين، إص ٢٥ : ٥).

" فحص جلد أنف الدوق، وتبين أن هذا الوشم لم يكن إلا اقتباسا صغيرا للغاية من الفقرات الاثنتى عشرة الأولى من الإصحاح الخامس والعشرين لسفر التكوين ومكتوبة بالعبرية "(١).

وفى القصة الثانية (إلياهو سالومو ومريم إشكنازى) يحدثنا شاليف عن "سالومو" والد "إلياهو" الذى برع فى كتابة إصحاحات العهد القديم الخاصة بحل النزاع بين كل من "عيسو" و "يعقوب" ؛ فهو يكتب فقرات العهد القديم بدقة بالغة وبصورة مصغرة للغاية :

" بعد ذلك اقتلع شعرة رقيقة من مؤخرة رأس الطفل ... وألصقها فى ثقب بطرف ريشته، ثم دلى لسانه وكتب الفقرات الخمس الأولى من الإصحاح على ظافر إصبعه "(٢).

" لقد تخصص سالومو فى هذا المجال، وهو الكتابة الدقيقة، منذ أن كان فى التاسعة من عمره. وقد ظهرت خبرته الرائعة فى كتابة بعض فقرات المقرا فى الجزء الأعلى من إصبعه الذى قطع بأمر حاكم تركى. وفى المقدمة التى تتحدث عن قائمة لنسل (عيسو) يشرح لنا الإصحاح الخامس والثلاثون كيف نحل مرة أخرى بالتاريخ النزاع بين الأخوة حول الميراث. ويحكى لنا هذا الإصحاح عن عيسو الذى ترك (الأرض التى كان يقطن بها آباؤه فى أرض كنعان) وسكن (فى جبل مدينة آدوم)، وقد اضطر لذلك بسبب أخيه يعقوب وإرثهم، وذلك لأن الأرض، أرض آباءهم، لم تستطع تحملهما معاً بسبب نزاعهما " (٣).

وربما يشير شاليف هنا إلى فكرة الترانسفير فى العهد القديم التى تحل النزاع بين الأخوين حول الميراث من خلال رحيل أحد الأخوين، وهى نفس الفكرة التى تنادى بها بعض دوائر اليمين الصهيونى المتطرف فى إسرائيل كحل لمسألة الصراع الدائر بين الفلسطينيين والإسرائيليين على الأرض. وتأتى إشارة شاليف هنا كمقدمة لرفضه لهذا الحل المقرائى الذى تبنته الصهيونية فى براجها السياسية.

ويعلق الناقد الإسرائيلى "يوسف أورن" على هذه الفكرة ومقصد شاليف من التعرض لها بقوله : " لقد تبلورت فكرة الترانسفير من خلال مثل هذه النماذج، ولأكثر من مرة يعرضها الكاتب المقرائى كحل معقول لمثل هذه النزاعات فى تاريخ فلسطين ... إن فكرة

(١)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٤).
(٢)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٢٣).
(٣)يوسف أورن : " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦٣).

الترانسفير هى فكرة سياسية تظهر فى الواقع كأحد الاقتراحات التى تجىء لحل النزاع العربى الإسرائيلى. وهناك بعض التيارات السياسية فى المجتمع الإسرائيلى ترفض هذه الفكرة ؛ لأنها تجعل الميراث كله فى يد أحد الأخوين، وتنزع الجزء الثانى تماماً من الآخر. وتقترح بعض التيارات السياسية حل مختلف لهذا الصراع حول الأرض، وهو تقسيم الأرض بين الوريثين. ويأتى شاليف بهذا التنويه الخاص بالحلول المقرائية لنزاع الميراث بين الأخوين فى قصة (عيسو) لكى يعضد رفضه لمثل هذه الحلول " [١].

" ومن المعروف أيضاً، أن فكرة الترحيل الجماعى للفلسطينيين التى عرفت باسم(الترانسفير) وأصبحت مصطلحاً تردد كثيراً فى الثمانينيات، من القرن العشرين، من جانب دوائر يمينية متطرفة، هى الفكرة التى أطلقها ويركز عليها رحبعام زئيفى أحد أعضاء حزب(موليدت) اليمينى المتطرف، حيث طالب بترحيل الفلسطينيين إلى الدول العربية فى(شاحنات) على حد تعبيره، بل وذهب إلى أبعد من هذا بالمطالبة أيضاً بترحيل العرب الفلسطينيين الذين يعيشون فى دولة إسرائيل ويعتبرون فى عداد مواطنيها " [٢].

كما أن الأسماء الواردة فى أحداث الرواية تؤكد لنا على هدف شاليف فى دحض أسطورة المقرا ؛ فهو يأتى بالأسماء التوراتية ويسقطها على القصة الروائية. ولدينا فى الرواية " أبراهام " وزوجته "سارة"، و"يعقوب" وزوجته "ليئة"، و "عيسو" بطل الرواية، وهى نفس أسماء القصة التوراتية. كما أننا نلاحظ هنا شخصيات سياسية فى الرواية يرمز إليها شاليف على أرض الواقع، مثل "ميخائيل" (يتسحاق شامير)، و "بنيامين"، و "شمعون" (بيرتس) وعلى هذا الأساس، يمكن القول، إن شاليف يمزج بين الأسماء التوراتية والأسماء السياسية فى " إشارة إلى تلك القوى السياسية الصهيونية اليمينية المتطرفة التى تتخذ من النص التوراتى حل قضية الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين على الأرض، أنموذجاً تتبناه وتدعو له، وهو ما عرف باسم الترانسفير أو الترحيل الذى يضع الميراث كله فى يد أحد الأخوين " [٣].

ويمكننا أن نعرض لأسطورة المقرا التى تبنتها الصهيونية، واتخذتها كمبدأ لحل النزاع بين الفلسطينيين والإسرائيليين على الأرض عبر أحداث الرواية، حسب رؤية شاليف، من خلال هاتين الجولتين :

---

(١)نفس المرجع، (ص٦٣).

(٢)د. عبد الوهاب محمود وهب الله : الرواية السياسية فى الأدب العبرى المعاصر، دراسة فى رواية (عيسو)لمئير شاليف، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، ج القاهرة، المجلد الرابع، الأعداد (٤ : ٢)، ١٩٩٥، (١٢٥).

(٣)د. رشاد عبدالله الشامى : أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٣٨).

(١) الجولة الأولى من الصراع (موقف الصهيونية من الأسطورة التوراتية) :

سـعت الصهيونية، منذ البدايات الأولى لتكوينها كحركة، إلى تبنى كل ما يعضد موقفها ويحقـق أهدافهـا ضـد الطـرف الآخـر فـى الصراع . ولم تكن فى حل من مداعبة أحاسيس الـيهود الدينـية والعقائديـة فـى إطـار ما يسمى بالحماس الدينى تجاه أرض فلسطين كأرض الميعاد. وعـند اصـطدامها بـالواقع والمواجهـة مـع الفلسـطينيين عـلى الأرض، اتخذت من الأساطير الدينية ذريعة وحجة لتعضيد موقف اليهود وإثارتهم، ورفعت شعار (عيسو يكره يعقـوب). كمـا أنهـا كـررت عـلى مسـامع الـيهود الوعد الإلـهى بالأرض (أرض كنعان) "لـترث أرض غربتك التى أعطاها اللـه لإبراهيم" (تكوين٤ : ٢٨)، وأكدت فى أسطورتها عـلى أن فلسطين هى ملك لليهود طبقاً للوعد الإلـهى المتكرر مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فـى العهـد القديـم. ومـن هـنا كان رحيل أحد الأخوين هو أمر حتمى وضرورى لحل هذا الصراع بكل سهولة ويسر ؛ ليفوز " يعقوب " بالجولة الأولى فى الصراع. وهو مبدأ اتخذته الصهيــونية ولم تحد عنه.

وقـد تعـرض شـاليف لـهذه الأسطــورة الدينية فى روايته (عيسو) من خــلال أسرة " أبـراهام لـيفى " وزوجـته "سـارة " ، وهـى أسـرة خـبازين، تصـارع ابـناهما " عيسـو " ويعقـوب " على وراثة المخبز، وامتد الصراع إلى " ليئة " تلك الفتاة التى تزوجها "يعقوب " على الرغم من أنها كانت مرتبطة بقصة حب مع أخيه " عيسو " .

وأخذ الصراع فى الرواية منحنىساير منحنى الأسطورة التوراتية، كمحاولة من شاليف للتأكـيد على أنه إذا كانت الجولة الأولى فى الصراع قد حسمت لصالح " يعقوب " ، فعلينا أن ننتظر نتيجة الجولة الثانية.

وقـد لعبت العلاقات الأسرية بين أفراد أسرة " ليفى " دوراً فاعلاً فى حسم نتيجة الجولة الأولى مـن الصــراع، التى يمكن من خلالـها أن نتبين كيف فاز "يعقوب" بالمخبز والزوجة فى آن واحد:

(أ) العلاقة بين " عيسو " وأمه "سارة" :

لعبت الملامح الشخصية لـ " سارة " الأم دوراً مهما فى صوغ العلاقة بين ابنها "عيسو" و" يعقـوب " . فهـى شخصـية مستبدة أجبرت الأسرة كلـها على ترك القدس، ودائماً ما تتسـم العلاقـة بينها وبين زوجها أبراهام بالشدة والقســـوة. فيصفها " عيسـو " القاص بالشخصية المعقدة التى يصعب على أحد فهمها:

" كانــت أبسط امرأة وأعقد شخصية عرفتها. فالنساء كان يجدن صعوبة دائماً فى فهمـها، أما الرجال فقد فهموها كل بطريقته الخاصة "[١].

(١)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص١٩١).

وكـان اليأس والإحباط يتسلل إلى نفسها بكل سهولة ويسر ، فقد فشلت فى تعلم القراءة والكتابة :

" لقـد طلبـت منى أن أعلمها القراءة والكتابة ولكنها لم تتمكن من ذلك ، فانهار أملـها وتحطم " .

وربمـا انعكست شخصية الأم المعقدة فى التعامل مع ابنيها " عيسو " و " يعقوب " فقد كانت تهتم " بيعقوب " دائماً ، وتداعبه حتى وهو شاب كبير :

" أجلسـت أمـى يعقـوب عـلى الكرسى ، وركعت على ركبتيها ، وفتحت أزرار قميصـه ، وخلعت نعليه ... وبعد ذلك قامت وأسندت جبهته على بطنها وخلعت قميصه ... وفكت حزام سروالـه ... وأخذت تحرك يديها على كتفيه وظهره وبطنه وركبتـيه ، لتفحصـه مـن رأسـه حـتى إخمـص قدمـيه ، باحـثة عـن جـروح أو إصابات " [(١)] .

وفى مقابل اهتمامها بيعقوب فتاها المدلل ، كانت تسب " عيسو " وتلعنه وتتوعده :

" كانت أمى تسبني طيلة حياتها ، وتدعونى (الخائن) " [(٢)] .

لم يشـر شـاليف فـى هذه الرواية إلى سبب هذه العلاقة المتوترة التى جمعت بين "عيسو" وأمـه ، وربما كان التوتر هنا فى هذه العلاقة وحب " سارة " لابنها " يعقوب" ضرورة فى الحبكة الروائـية كتمهـيد لفـوز " يعقـوب " بالجولـة الأولى فـى الصراع . كما أن بقاء هذه العلاقـة عـلى هـذا الحـال ، يعـد مقدمة لدور المرأة المغاير فى الجولة الثانية من الصراع الذى مثلته " رومى " ابنة " يعقوب " كما سنتبين فيما بعد .

لقـد كـان " عيسـو " يحـلم بأمـه ، وهـو فـى أمريكا ، تحدثه فى التليفون ، وتؤكد لـه أن سبابها قائم :

" فـى حـلمى كـان الـهـاتف يدق . فإذا بى أجدها تنادينى باسمى مرتين عند رفع سماعة الـهاتف كما لو أنها تؤكد لى على أن لعنتها ما زالت قائمة " [(٣)] .

ولم يـنس " عيسـو " طـوال حـياته سـباب أمـه لـه ، فدائماً ما يتذكر أنها كانت تصفه بالكذاب والشرير :

كانت تقول لى " أيها الشرير الكذاب " [(٤)] .

ولم تكتف " سارة " بالسباب فقط بل إنها توعدت " عيسو " وهددته بأنه لن يكون لـه زوجة أو طفل أو أرض :

---

(١)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو) ، رواية ، مرجع سابق نفس المرجع ، (ص٢٦٤) .
(٢)نفس المرجع ، (ص٩٦) .
(٣)نفس المرجع ، (ص٣١١) .
(٤)نفس المرجع ، ، (ص٣١١) .

" لـن تكـون لـك أسرة. ولن تكون لك زوجة. ولن يكون لك ولد. ولن تكون لك أرض "(١).

ومـن الملاحـظ أن هذه الكلمات التى ألقتها " سارة " على مسامع ابنها " عيسو " تتفق مـع مـا ورد فـى الإصـحاح السابع والعشرين من سفر التكوين، حينما اكتشف " عيسو " سرقة الباكورة منه فذهب إلى أبيه لكى يباركه هو الآخر، فأجابه: " بلا دسم الأرض يكون مسـكنك. وبلا ندى السـماء من فوق. وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد " (التكوين ٢٧ : ٣٩ـ٤٠).

وبالفعل، قررت " سارة " أن تزوج " يعقوب " لمحبوبة أخيه " عيسو ":

" ليئة سوف تكون ليعقوب "(٢).

وكـان لسارة دورها الكبير فى ضياع " ليئة " من "عيسو "، ولم يكن هذا فحسب، بل إنهـا عزمـت على أن يكون المخبز أيضاً من نصيب " يعقوب "، حتى إننا نجده يطلب منها الكف عن هذا طوال الزمن:

" إنـنى لا أريـد ليـئة، ولا أريـد المخـبز، وأرجـو أن تكفى عن قول هذا لى طوال الزمن "(٣).

وتمضـى أحـداث الـرواية، ويـتزوج "يعقوب " من " ليئة " حسب رغبة أمه "سارة " لتحقق نبوءتها ويفوز "يعقوب " بالزوجة، ويحرم منها "عيسو ":

" كانت أمى متأثرة للغاية بزواج يعقوب وليئة "(٤).

وهكـذا، لم يكـن أمـام " عيسـو " بعـد ضياع محبوبته والمخبز سوى الرحيل، فقد قرر السـفر إلى أمريكا ليعمل هناك، وساعده فى ذلك أمين المكتبة الذى كان يتردد عليه دائما فى مكتبته. وفى الميناء كان يصاحبه الجميع فيما عدا أمه "سارة " ويصف وقتها أخاه "يعقوب " بالخائن هو وأمه:

" سـوف أحكـى لـك فقط أن أمى لم تأت لمرافقتى إلى الميناء ... أما ذلك (الخائن) حبيبها فقد أطل علىّ من وراء النافذة "(٥).

ولعلـنا نلاحـظ هـنا أيضـاً، التشابه الكبير بين القصة التوراتية والخطوط العريضة لرواية (عيسـو) مـن خلال تلك العلاقة التى جمعت بين " عيسو " وأمه " سارة " التى كانت سبباً فـى حـرمان ابنه البكر من الميراث، وافتعلت الخديعة الكبرى مع توءمه "يعقوب ". وتشير

(١)نفس المرجع، (ص٣١١).
(٢)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٣١١). ، (ص١٩٢).
(٣)نفس المرجع، (ص٢٧٣).
(٤)نفس المرجع، (ص٣٢٢).
(٥)نفس المرجع، (ص٣٠٨).

كـل هـذه الأحـداث إلى مـدى الظـلم الـذى وقـع على " عيسو " بعد حرمانه من الميـراث وزواج توءمه " يعقـوب " من المرأة التى أحبها. وتقوم المرأة هنا بنفس الدور الذى قامت بـه فـى روايـة " شـالبف " السابقة (رواية روسية) ؛ فهى ترمز إلى الأرض، وقد فاز بها " يعقـوب " وهـو مـا يعكـس التناظر السياسى للصراع على أرض فلسطين بين اثنين يدعيان ملكيتهما لـها.

" وربمـا يمـثل هـذا مضـمونا سياسـيا، يشـير إلى تمكـين بريطانيا والدول الكبرى لليهود والصـهيونية مـن الاسـتيلاء على فلسطين، ابتداء من وعد بلفور ١٩١٧ ومروراً بالانتداب الـبريطانى وحـتى حـرب ١٩٤٨ واعـتراف الـدول الكـبرى بإقامـة دولـة إسـرائيل ورفض الفلسطينيين والعرب لقرار تقسيم فلسطين " [١].

وتشـير الأحـداث الروائية إلى قوة شخصية " سارة" بين أفراد أسرتها ؛ فقد خضع لـها زوجهـا " أبـراهام " فـى مطلبها بالرحيل عن القدس، ونجحت فى تمكين " يعقوب " من الفـوز بـالميراث والـزوجة، وكراهيـتها لــ"عيسو" كانت ضرورة ملحة، من أجل مسايرة أحـداث القصـة التوراتـية فـى الدور المهم الذى لعبته الأم فى اغتصاب الباكورة من عيسو، لاسيما أن "سارة " لم ترسل لابنها خطاباً واحداً بعد سفره إلى أمريكا:

" يكفـى أن أقـول لك، إنها لم ترسل لى خطاباً واحداً فى العام الماضى، منذ أن سافرت وحتى موتها فى نفس العام " [٢].

وبعد عام من رحيل "عيسو " إلى أمريكا تموت أمه "سارة " ولم يحضر جنازتها:

" لم أحضر جنازة أمى " [٣].

وهكـذا، لعبـت المـرأة فـى الـرواية دوراً فـاعلاً فى صوغ الأحداث، فسارة الأم تساعد "يعقـوب " ابـنها عـلى اغتصـاب حـق "عيسـو " فى المخبز وفى الزوجة، و" ليئة " التى كانـت تحـب "عيسو " تتزوج من " يعقوب " أخيه. ليؤكد لنا شاليف على مفهومه للمرأة فـى أنهـا تسـتجيب لكـل مريديها كما أكد فى روايته السابقة (رواية روسية). ولم يذكر لنا شـاليف فـى الـرواية سـر هـذه العلاقة المتوترة التى جمعت بين "عيسو " و " أمه "، بيد أنه يصـوغ الأحـداث لتساير الأحداث المقرائية، فلم يكن هدفه العلاقات العاطفية بقدر ما كان هدفـه البحـث فـى الصـراع بين " عيسو " و يعقوب " وإضفاء هذا على الأحداث الجارية فى القرن العشرين ؛ حيث يقول يوسف أورن: " إن وجود هذا السباب على لسان الأم فى

(١)د. عبـد الوهـاب محمود وهب اللـه: الرواية السياسية فى الأدب العبرى المعاصر، مرجع سابق، (ص ١٣٣).
(٢)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٢٩).
(٣)نفس المرجع، ، (ص٩٢).

قصـة تقـع أحداثهـا فـى القرن العشرين وفى مقابل لتاريخ الاستيطان الجديد، الصهيونية، للشـعب الـيهودى عـلى أرض فلسطين يشير إلى أن مثل هذه الرواية لم تهتم قصتها بالغرائز الإنسـانية، وبحـب الأخوين لامرأة واحدة، بل اهتمت وبحثت فى الصراع بين نسل يعقوب ونسل عيسو على هذه الأرض " [1].

(ب) العلاقة بين " عيسو " وأخيه " يعقوب ":

لم تكـن العلاقـة الـتى جمعت بين " عيسو " و " يعقوب " منذ نعـومة أظافرهما علاقة تـوءم، بل كانت تتسم بالأنانية والغيرة من جانب " يعقوب " الذى لقى معاملة خاصة من جانـب أمـه " سارة " انعكست، بالطبع، على علاقته بأخيه " عيسو ". وقد أثرت معاملة الأم المـزدوجة تجاه ابنيها على مجريات الأحداث فى الرواية كما رسمها شاليف؛ حيث شعر " عيسـو " بالظلم والقهر منذ أن كان طفلاً، وانتهى به المطاف إلى الرحيل بعيداً بعد أن غبن حقـه فـى المخبز والزوجة والأرض. وقد نجح شاليف فى استعطاف القارئ وهو يحكى على لسـان " عيسـو " القاص مدى الظلم الذى شعر به عيسو طوال أكثر من أربعين عاماً تقريباً عاشـها فى المنفى، ليؤكد لنا على مركزية الصراع حول الميراث فى تاريخ الأسرة؛ فيقول " عيسـو " عن أخيه ملخصاً القصة كلـها:

" إنه إذا تحدثت باختصار، تزوج من المرأة التى واعدتنى بها، وورث المخبز الذى أعده أبى لى، وأنجب ثلاثة أبناء وثكل البكر. أما أنا فقد سافرت إلى أمريكا، ولم أتـزوج، ولم أنجـب أولاداً ولم أثكـل أحـداً. هـذه، فـى الحقـيقة، هـى كـل الحكاية " [2].

ويمضـى " عيسـو " فى حديثه، بكلمات تعبر عن الأسى والظلم الذى شعر بهما طوال حياته:

" لقـد مـر خمسـون عامـاً، ولم تجعلـنا عقـارب القـدر أنا وأخى التوءم متشابهين كثيراً " [3].

وهكـذا، " يـبرز حديث عيسو مدى الظلم الذى وقع عليه، فقد حظى يعقوب بكل نعم الحـياة الماديـة: امـرأة، وأسرة، ومخبز، ووطن. أما حياة عيسو فكانت فى المنفى وفى كيان مجـرد فـى وطـن الكـلمات. إن الأحداث التى صاغها التاريخ تتضح الآن، فقد عاش نسل يعقـوب ألفـى عـام فـى المـنفى كـ (مفكرين) حتى أنقذتهم الصهيونية من هذا الكيان. وقد

(١) يوسـف أورن: " هاعيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦٤).
(٢) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٩٥-٩٦).
(٣) نفس المرجع، ، (ص٩٦).

أسس أبناء يعقوب ثمن تطبيعهم على نسل عيسو. وأتعس الخلاص الصهيونى مواطنى الأرض العرب الذين اضطروا للعيش فى المنفى وبدءوا يعيشون هناك كـ (مفكرين) ويظهر التأكيد على تلك الأحداث مدى العبء الأخلاقى تحت مسمى (الشتات الفلسطينى) الذى لم يكن بالأمر الجديد بالنسبة لليهود "(١).

وهكذا، بدت العلاقة بين "عيسو" و"يعقوب" منذ الطفولة متوترة للغاية، فقد كان يعقوب يسيطر على كل شئ، ويأتى "شاليف" بحادث النظارة ليبين لنا ذلك؛ فقد اشترى لهما أبوهما نظارة واحدة يبادلانها فيما بينهما، ولكن "يعقوب" يسيطر عليها بمفرده دون مراعاة لأخيه فهو يتسم بالتبلد والأنانية:

" وضع يعقوب على الفور النظارة الخاصة بنا على عينيه، وفر بها إلى الخارج كالمنتصر "(٢).

ويذهب بها "يعقوب" إلى مدرسته ويسير "عيسو" بجانبه:

" كنت أصاحبه عندما عرف الطريق من البيت إلى المدرسة ذهاباً وإيابا. فقد كان يقفز من حولى فى سعادة، ويصف لى فى حماس المعالم الجديدة للطريق الذى نسلكه "(٣).

ويعترف عيسو، منذ حادث النظارة، بأنهما ليسا بتوءمين:

" لسنا نحن بتوءمين منذ ذلك اليوم الذى تلقينا فيه نظارة واحدة ونحن لسنا بتوأمين "(٤).

كان حادث النظارة هو بداية الشجارات بين الأخوين وظهور أنانية "يعقوب" تجاه أخيه " عيسو " كما يقول يوسف أورن محللاً الوضع القائم لتلك العلاقة بينهما: " لقد برزت لدى يعقوب منذ الطفولة النزعة فى العيش على ظلم أخيه التوءم، فها نحن نجده يسيطر على النظارة التى كان عليه أن يستخدمها مع عيسو. وبهذا الحدث الأول من الممكن أن نشير إلى بداية الشجارات بين الأخوين... وفى وقت متأخر للغاية يأخذ منه ليئة. وبهذا السلوك من جانب يعقوب يبرز خط دائم، وهو أنه غير مستعد للتصالح مع أخيه، فعندما يتنافس كلاهما على شئ واحد فهو يسلب من أخيه مراراً وتكراراً كل حقوقه. إنه مهتم

(١)يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦٤).
(٢)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص١١٩).
(٣)نفس المرجع، ، (ص١١٩).
(٤)نفس المرجع، ، (ص١٨١).

ببذل كـل جهد لاستمرار هذا النهج مع أخيه. وهكذا يفسر لنا عيسو قلقه الخاص بيعقوب لإصراره على أن يكون الوريث الوحيد، الذي يؤكد تمسك أنساله بالميراث " (١).

ويشـير " جيمس فريزر " فى كتابه (الفلكلور فى العهد القديم) إلى أن الجشع والمكر من أهـم الصـفات الـتى اتسمت بها شخصية " يعقوب "، حيث يقول: " كان يعقوب مثالاً للـتاجر السـامى اللـين الحـاذق والوافـر الحـيلة، الـذى يحرص على المكسب، وعلى أن يتم صـفقاته لا بـالقوة، بل بالحذق، دون أن يتردد كثيراً فى اختيار الوسائل التى يبز بها منافسيه ويـتفوق بهـا علـيهم. هـذا الجمع غير المرغوب فيه بين الجشع والمكر، يكشف عن نفسه فى الحـوادث المـبكرة فـى حـياة يعقـوب الـتى دونهـا سفر التكوين، أعنى الحيل التى سعى عن طـريقها لأن يخـدع أخـاه الأكـبر عيسـو، ويسلب منه حقه فى الميراث، كما يسلبه من بركة أبيه " (٢).

وبشـأن أنانـية " يعقـوب المفـرطة تجاه أخيه " عيسو " يضيف " فريزر " قائلاً: " كان يعقـوب وعيسـو توءمـين، ولكـن حيـث إن عيسـو كان أكبر الأخوين، فقد كان حقه وفقاً للـنظام الشائع أن تخلع عليه بركة أبيه وأن يرثه. أما الوسائل التى سعى يعقوب عن طريقها أن يسـلب أخاه الأكبر من حقوقه، فكانت ببساطة مواقف حادة من المؤامرات، فقد استغل فـى بدايـة الأمـر جوع أخيه، فاشترى منه حقه فى الوراثة مقابل أكلة الثريد، ثم ارتدى بعد ذلـك ملابـس أخـيه واصـطنع مـلمس جلـده الكثيف الشعر ثم تظاهر لأبيه الكفيف أنه هو عيسو، وبذلك اغتصب بركة أبيه التى كان يعنى بها أخوه " (٣).

ويشـير " شـاليف " أيضاً إلى السمات الشخصية لـ" يعقوب " فى الرواية، فهو شخصية متغطرسـة، فـلم يـتوان " يعقـوب " عـن ضـرب أخـيه الأكبر إذا تطلب الأمر ذلك، فهو يضربه إذا هم وأخذ النظارة:

" نظـر إلىّ يعقـوب نظرة حادة، ثم انقض علىّ وبقوة غير متوقعة طرحنى أرضاً، وأخذ منى النظارة " (٤).

لقـد كـان يـتعامل مـع أخيه، دائما، بالضرب والتشاجر، وربما كان تدليل أمه لـه على حساب أخيه الأكبر سبباً فى ذلك:

" انقض علىّ يعقوب ليضربنى، و لكننى أمسكته بقوة " (٥).

(١)يوسـف أورن: " هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦٥).

(٢)جـيمس فريـزر: الفلكلـور فـى العهـد القديـم (الـتوراة)، الجزء الثانى، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢، (٣٧٤، ٣٧٣).

(٣)نفس المرجع، (ص ٣٧٤).

(٤)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص١٤٤).

(٥)نفس المرجع، (ص١٩٨).

ولم يكن أمام "عيسو" سوى أن يصف أخاه المدلل بالوحشية والقسوة، على الرغم من أنه كان يملك من القوة الجسمانية ما يمكنه من إيقافه عن ذلك :

" يجب أن أذكر نفسي، بأن أخي يتسم بالوحشية والقسوة أكثر مما كنت أتوقع "[1].

وهكذا، كان من الطبيعي أن تتوتر العلاقة بين الأخوين، وبخاصة أن يعقوب يمثل لنا شخصية مستبدة أنانية تسيطر على كل شئ ولو بالقوة وتساعده أمه في ذلك، فورث المخبز وتزوج من محبوبة، أخيه وحظى بالميراث كله دون أن يعبأ بمشاعر أخيه وحقه في الميراث :

" ورث يعقوب المخبز، وحظى بليئة، وظل في الداخل "[2].

أما " عيسو " فقد رحل وترك كل شيء، ولم يدافع حتى عن محبوبته التي كانت تحبه هي الأخرى. ويبدو أن قوة شخصية أمه كانت أكبر من أن يدافع عن حقوقه الشرعية. وقد آثر " شاليف " أن يسبغ على " عيسو " هذه الصفات السلبية حتى يساير أحداث القصة التوراتية، فعلى الرغم من قوته الجسمانية التي تفوق توءمه " يعقوب " ؛ فقد تركه يضربه، وعوّده على أخذ ما لغيره، حتى وإن كان أخاه. وهي أمور ساعدت على تكوين شخصية " يعقوب " بالإضافة إلى تدليل أمه، وأدت في النهاية إلى غبن حق " عيسو " في أشياء كثيرة.

ويعلق الناقد الإسرائيلي " هليل فايس " على كل هذه الأشياء التي حظى بها "يعقوب" دون أخيه بقوله :

" بعد أن سيطر يعقوب على النظارة، وساعده في ذلك استماتة أمه المتعنتة، لم يكن أمام عيسو سوى الرؤية غير الواضحة، التي هي الرؤية الصحيحة لقاص ينادي بالعدمية مثله، أنه تخلى عن محبوبته ليئة، التي كانت له. بينما يتزوجها يعقوب المتعنت ويحظى بها. والسؤال هنا، لماذا اختارت ليئة يعقوب، وخضعت له. وهو سؤال لم تكن له إجابة معروفة في الرواية "[3].

(ج) دور المرأة في حسم الصراع :

لعبت " سارة " أم التوءم دوراً كبيراً في حسم الجولة الأولى من الصراع لصالح ابنها "يعقوب" على حساب توءمه "عيسو" الذي لقى معاملة سيئة من قبل أمه التي كانت سبباً في رحيله وخسارته للأرض والمخبز والزوجة.

(١) نفس المرجع، (ص١٣٧).
(٢) نفس المرجع، (ص٣٢٢).
(٣) هليل فايس: " عليلاه، سفروت هاكلايون هايسرائيليت " (الحبكة، أدب الهلاك الإسرائيلي)، مرجع سابق، (ص١٢٥).

ويـأتى دور المـرأة – سـارقـ هـنا مكمـلاً لحـبكة الرواية، حيث رسم لـها شاليف صورة لشخصـية قويـة متسلطة سيطرت طيلة حياتها على الأب والأبناء. ويبدو أن تلك هى سمة المـرأة الإشـكنازية الـتى ترتـبط بـزوج سـفارادى، وهـى تذكـرنا بـزوجة مولخـو فى رواية (مولخــو) لــ أ. ب. يهوشـواع. وسـارة فـى هذه الرواية " امرأة تعود جذورها إلى أسرة مـتهودة روسية تعيش فى الجليل، بينما ينتمى الأب إلى أسرة سفارادية الأصل ... لقد كانت شخصـية الأم حاضرة فى كل مكان " (١). وهو ما مكّنها من " مساعدة يعقوب ضد توءمه عيسـو. وبـتأثير مـنها يحظـى يعقوب بكل شئ، ويعيش عيسو بعد ذلك حياة المنفى بعد أن تتدخل الأم فى قدره وتسبه وتلعنه " (٢).

ولـم تكـن سـيطرة الأم عـلى "عيسـو" و"يعقوب" فقط بل شملت الأسرة كلـها، فقد أجـبرت الجمـيع عـلى ترك القدس، فعلى الرغم من أن أسرة ليفى التى ينتمى إليها أبراهام زوجهـا هـى من أقدم الأسر اليهودية فى القدس التى تمثل خمسة عشر جيلاً فى المدينة ... فقد أجـبرت أبـراهام عـلى قطع شجرة الأنساب القدسية لأسرته، وفى يوليو ١٩٢٧ تجبره على السفر إلى القرية هو وتوءميها فى عربة البطريرك " (٣).

وعـلاوة على ذلك، كانت "سارة" تتمتع ببنيان جسمانى قوى جعلـها تتعامل بعنف مع الـبائعين وتطرحهم أرضاً، ولـم يهدها بعد ذلك إلا المرض كما يقول شاليف ذاته: " عندما كتبـت أن سـارة توفيـت مـتأثرة بالسـرطان القاتل والمؤلـم، فإن هذا أمر يتناسب ببساطة مع امـرأة قويـة مـثل سـارة الـتى لم تعرف الألم منذ ولادتها، وأن الأمر الوحيد الذى يمكن أن يقـتلـها هـو المرض ... وفى المقابل كان هناك أبـراهام ليفى زوجـها، الذى توهـم المرض، وكان يعانى من آلام لم تكن موجودة " (٤).

أمـا " حـنة يـاعوز " فـيرى فى " سارة " أنها شخصية تفتقر إلى الحكمة والعقل، فهى شخصـية طائشـة لا تحسـب عواقـب مـا تفعلــه، حيـث يقـول: " تعرض هذه الشخصية النسـائية فـى الـرواية كشخصية ذات قوة بدنية غير عادية وجمال غريب لمتهودة شقراء قبلت الـيهودية بـناء عـلى رغـبة أبـيها المـلحة ... ولكنها تفتقر إلى الحكمة والعقل ... لا سيما أنها دفعت نفسها إلى عربة البطريرك اليونانية هى وزوجها (بدون رغبة منه) ومن توءميها لتخرج من القدس فى ليلة حدثت بها هزة أرضية " (٥).

---

(١) ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص٣٦٩: ٣٦٧).
(٢) يوسـف أورن: " هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦٣).
(٣) يوسـف أورن: " هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٧١).
(٤) ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص٣٦٩).
(٥) حنا ياعوز: " رومان عيساف " (رواية عيسو)، مرجع سابق، (ص١٦).

وقد تشير كل هذه الصفات التى جمعها " شاليف " فى شخصية الأم إلى الحكمة الموضوعة فى الرواية من قبل المؤلف، فأمامنا شخصية مثل " سارة " التى لا تعرف سوى لغة القوة، وتفتقر لأدنى درجات الثقافة، حيث لا تعرف القراءة والكتابة وقد فشلت فى تعلمها، وعلى الرغم من ذلك تلعب دورها الفاعل فى حسم الصراع فى الجولة الأولى لصالح ابنها " يعقوب " . ويربط " شاليف " هنا افتقارها للحكمة والعقل بما يمكن أن يحدث فى الجولة الثانية من الصراع، فهى لم تحسب عواقب ما يمكن أن يحدث لابنها المحبوب " يعقوب " . وإتيان " شاليف " لها بتلك الصفات إنما هو تحذير منه من الإقدام على حل لصراع مثل هذا دون تأمل أو دراسة، أو اعتماد على أساطير لا تمت للواقع بصلة، فمن يقدم على مثل هذه الحلول، فهو يفتقر إلى العقل والحكمة وعليه فلينتظر ما يمكن أن يحدث فى الجولة الثانية.

(٢) الجولة الثانية من الصراع (موقف شاليف من الأسطورة التوراتية):

كان موقف شاليف من أسطورة المقرا مغايراً تماماً لموقف الصهيونية والمعسكر الصهيونى اليمينى المتطرف فى إسرائيل؛ فبينما حسمت الجولة الأولى لصالح يعقوب، واتخذها اليمينيون الإسرائيليون ذريعة لحل الصراع بكل بساطة، فإن شاليف يحذر فى هذه الرواية من الاعتماد على مثل هذه الأساطير التى تحل الصراع بامتلاك أحد الأخوين للميراث كله _ الترانسفير_ مشيراً إلى أن مثل هذه الحلول التى تفتقر للحكمة والعقل، وتستند إلى أوهام وأساطير، تنذر بعواقب وخيمة، قد تحدث فى الواقع المعاش وكأن لسان حاله يقول (علينا الانتظار حتى نرى ما يمكن أن يحدث فى المستقبل، أو فى الجولة الثانية من الصراع)؛ لأن الجولة الثانية ستكون لها كلمة أخرى وربما تحسم لصالح عيسو بعد سنوات عديدة راح فيها ضحية للظلم والقهر واستلاب الحق.

وتبدو المراحل التنبؤية والتمهيدية لاحتمال فوز "عيسو" بالجولة الثانية كما رسمها شاليف فى بعض المظاهر التى أكد من خلالها "شاليف" على رفضه لادعاء الحق الدينى لليهود فى أرض فلسطين، حيث تشير بقية أحداث الرواية إلى أفول نجم الصهيونية وميل كفة الصراع فى اتجاه "عيسو"، ويمكن أن نوجز بعض هذه المظاهر فى النقاط التالية:

(أ) العلاقة بين "رومى" و "عيسو":

ارتبطت " رومى " ابنة "يعقوب" التى تشير، فى الرواية، إلى معسكر السلام فى إسرائيل بعلاقة طيبة مع عمها "عيسو"، واشتدت أواصر العلاقة بينهما بعد عودته من المنفى (أمريكا) حيث تم استدعاؤه ليرعى أباه "أبراهام" بعد أن هده المرض، فى إشارة من شاليف إلى البدايات الأولى لفوز "عيسو" بالجولة الثانية، وبخاصة وقد ساءت العلاقة بين

"يعقـوب" وزوجـته "ليئة" بعد مقتل ابنهما البكر "بنيامين" فى حرب ١٩٦٧ عن طريق الخطأ بعد تبادل لإطلاق النار بين وحدتين عسكريتين إسرائيليتين.

وتشـير هـذه العـودة، مبدئياً، إلى عودة "عيسو" للقيام بدور ما فى حياة الأسرة بعد أن انـتهى دور "يعقـوب" بوفـاة أمـه "سارة" متأثرة بمرض السرطان وفشلـه فى إعداد وتربية أبـناءه، حيـث تـتعاطف "رومـى" مـع عمهـا، " وتـرفض كذلك نتائج الجولة الأولى في صـراع المـيراث، وتعاطفهـا مع عيسو يعبر عن ما هو متوقع فى الجولة الثانية، حيث سيقوم الظلم الذى وقع على عمها من أبيها. وبذلك تستمر رومى فى القيام بالدور الرمزى السابق للنسـاء، الـذى قـام بـه مـن قبلـها كل من سارة وليئة، وهو أن السيادة على المرأة هو بمثابة السيادة على الأرض. وبخاصة أننا نجد أن رومى تعرض على عيسو إعادة الميراث كلـه الذى سـلبه مـنه أبوهـا. وتـتعامل معه بلطف، وفى النهاية تصل إلى فراشه. وهى تصحح بذلك أخطـاء ليـئة الـتى سـحبت حـبها مـنذ أربعـين عامـاً – ١٩٤٨ – مـن عيسـو وأعطـته ليعقوب"؟[١].

وربمـا أيضـاً تصحح هـذه العلاقـة أخطـاء كـل من يعتقد فى أن الصراع انتهى به المطاف إلى هـذا الوضـع، وقـد كتبـت هـذه الـرواية للسـخرية من الأسلوب السياسى للمعسكر الصهيونى القومـى فـى السياسـة الإسـرائيلية فـى حـل الصـراع مـن خـلال أوهـام مـثل (أرض إسـرائيل الكاملـة). وتـأتى شخصـية " رومـى " فـى الحبكة الروائية كممثلة لمعسكر السلام الإسرائيلى الـذى يقـترح اقتسـام الأرض بـين الشـعبين الفلسـطينى والإسـرائيلى. وتـتجه رؤيـة شـاليف – حسبما يـرى أورن – إلى القـول: " يخطـئ كـل مـن يعتقد أن الحل المقرائى حول مستقبل أرض فلسـطين مـن الممكـن تحقيقه بـين نسـل يعقوب وعيسو، لأن هذا النزاع لن ينتهى بتخلى عيسو عـن حقوقـه فـى المـيراث، ومن الخطر الاعتماد على أسطورة المقرا التى تحل حالات النزاع حول المـيراث بمـثل هـذه البسـاطة، حيث إن القصص المقرائية التى حكت عن إمكانية حلول مثل هذه تعتـبر (أسـاطير) وتقـترب كـثيراً مـن الخـيال المخـتلق الـذى يحقـق حلـولاً لن تحدث على أرض الواقـع مـدى الحـياة ... لأن مـثل هـذه الحلـول مـن شـأنها إراقة الدماء فى الحروب التى لا فائدة منها والتى سوف تستمر حتى يفيق البعض من أوهامهم حول أرض إسرائيل الكاملة "[٢].

وقـد تعـددت مظاهـر هـذه العلاقـة الوديـة الـتى جمعـت بين عيسو وابنة أخيه يعقوب، فيطالعنا القاص بوصفه لرومى الجميلة التى تحب عمها وتسعد بلقائه:

" كانـت ناصـعة، طويلـة، جميلة عريضة الكتفين. وفى قفزة واحدة من فوق درجات السلم الأربع طوت يديها القويتين حول عنقى وقبلتنى فى فمى "[٣].

---

(١) يوسـف أورن: " هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٧٠).
(٢) نفس المرجع، (ص٦٩).
(٣) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٩٣).

وإمعانـا فـى إضـفـاء صـفة الطبيعـية عـلى هـذه العلاقـة، كانت رومى تشبه عمها فى ملامحها، وكانت تراسلـه وهو فى أمريكا وتخبره بكل ما يحدث فى بيت أخيها، ولـم تنقطع أحاديث الود بينهما:

" إنهـا طويلـة القامـة مثـلى، وشـقراء مثـلى أيضاً ... إنها تنادينى عمي ... عمى اللطـيف ... وحـتى تلـك الـلحـظة لم أره إلا مـن خـلال الصـور التى أرسلتها لى رومى " (1).

" وفـى إحـدى الصور المريعة للغاية التى التقطتها لأبيها وأرسلتها لى فى أمريكا، بدا يعقوب فى الصورة وهو راكع على يديه وركبتيه " (2).

وتذكـرنا هـذه الصـورة الـتى التقطـتها " رومـى " بالمشهد المقرائى الوارد فى الإصحاح الثالـث والثلاثين من سفر التكوين الذى يصور " يعقوب " وهو يرتعد من الخوف من أخيه " عيسو "، وتحايلـه على هذا الخوف بإرسال رجالـه مع هدايا وفيرة إلى " عيسو "، وما أن التقـيا حتى ركع أمام " عيسو ": " وسجد إلى الأرض سبع مرات، حتى اقترب إلى أخيه " (الـتكوين إص ٣٣: ٣). " وهـذا الخـوف هـو الخـوف الذى ظل ملازماً لليهود على مدار تـاريخهم من كافة (الجوييم) أو (الأغيار) أو الشعوب غير اليهودية التى كان يرمز لـها بنسل عيسو من الأدوميين " (٣).

وكانـت رومى من هواة التصوير، فهى تصور كل شئ وتبعث بصورها إلى "عيسو" فى أمريكا، وكأنها تصور الأحداث فى صور فوتوغرافية لعمها وهو بعيد:

" ... وعـلى كـل صـورة كانت تكتب عدة كلمات تعبر عن الحدث فيها: (جدى يجلـس عـلى الأريكـة)، (أبـى يجمـع مـياه المطـر فـى صـفائح)، (بنيامين يتسلق الشجرة) " (4).

ومـن الملاحظ هنا، أن هواية " رومى " فى التصوير لـم تأت عفوية من قبل " شاليف " فهـى تصـور لعمهـا " عيسـو " وهـو فـى المنفى أدق تفاصيل الحياة التى تحدث على أرض فلســطين، وكأن " شاليف " يؤكد من خلال تلك الصور الفوتوغرافية على أن " عيسو " لـيس بعـيداً عـن هـذه الأرض، وسوف يعود إليها فى وقت ما، مؤكداً على أن الصراع لن ينتهى كما توهم القادة الصهيونيون.

(١) نفس المرجع (ص٩٥ : ٩٣).
(٢) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص١٠٦).
(٣) د. رشاد عبدالله الشامى: أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٣٦).
(٤) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٦٩).

وعـن موقـف "يعقوب" من هذه العلاقة، يذكر لنا "عيسو" بأن يعقوب أرسل إليه فى المنفى خطابـاً كتـب فـيه، إنه يشعر بأن رومى ابنة "عيسو" وليست ابنته، وكأنه نادم على زواجه من ليئة محبوبة "عيسو":

" لدى إحساس بأنها يجب أن تكون ابنتك " (1).

وربمـا هذا ثمة مشهد مقرائى آخر يذكرنا به "شاليف" من خلال الخطاب الذى أرسلـه " يعقـوب " لأخـيه " عيسو " حينما كان يرسل إليه بالرسل، " وأرسل يعقوب رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه إلى أرض سعير بلاد آدوم " (التكوين ٣٢ : ٣).

وكـان "عيسو" هو الآخر يحبها كثيراً، وأرسل لـها بناء على رغبتها للسفر إلى أمريكا. ولم تلعب أو تلـه إلا معه:

قالت لـه: " هيا نلعب أنت الفأر، وأنا قطة جائعة " (2).

ويعلق يوسف أورن على ملاحقة "رومى" لعمها "عيسو" وعلاقتهما معاً، بقولـه: " فـى مقـابل ملاحقـة رومـى لعمهـا عيسو، فهى تحرص على تخليد أبيها يعقوب، وتعبر من خـلال هذه التخليد عن توقعاتها للنهاية المفاجئة والدرامية للنزاع بين الأخوين: سوف يدفع يعقـوب ثمن خطئه تجاه عيسو الذى حدث منذ أربعين عاماً، فلن يكون لـه وريث من نسلـه يقـوم بتشـغيل المخبز والاستمرار فى صنع الخبز. وفى الجولة الثانية سوف يكون عيسو على وشـك الفـوز بالمخبز. هكـذا يخّمـن شاليف ما يمكن حدوثه، عن طريق رومى، من نتائج الـنزاع بين العرب واليهود على أرض فلسطين، إذا استمر اليمين الصهيونى فى قيادة الدولة " (٣). وبخاصة أن " رومى " تشير فى الرواية إلى حركات السلام فى إسرائيل وترى أن ما حـدث لعمهـا مـن ظـلم هـو بمثابة خيانة لـه لا يستحقها، ويمكننا أن نلاحظ هذا فى عنوان إحدى معارضها للصور الفوتوغرافية الذى يعبر عن تلك الخيانة:

" لدى بالفعل اسم لـه: طلقة فى الظهر " (4).

كمـا اسـتطاع شـاليف أن يصـور لـنا رومـى المصـورة بنجاح " لا سيما أن موضوعات التصـوير تبرز فى الرواية بشكل كبير، ولكى ينجح فى رسم شخصية رومى كمصورة التقى شـاليف وتحـدث مـع المصـورات عاليزا أورباخ وميخل هيمان " (٥). وجاء لنا برومى ابنة يعقـوب الـتى كـان شـاغلـها الشـاغل هـو أن تصـور حـياة أبيها اليومية فى معرض " فهى

---

(١)نفس المرجع (ص٢٦٩).

(٢)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٩٥).

(٣)يوسـف أورن: " هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٧٠).

(٤)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٤٨).

(٥)ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص٣٧١).

تصـوره يومـياً وفـى كـل الحالات. لقد كان حلمها هو عمل معرض للصور، لتعرض فيه أباهـا يعقـوب سـواء أكان ذلك وهو فى وضع لطيف أم مربك. وتلك هى طـريقة التغلب عـلى الألم. فهى تتبع أباها وتلاحقه بجنون، فالتصوير هو تجربة أخرى لجمع وادخار الحياة بأسلوب موسـوعى، مـن خـلال تجميـد الحـياة فـى لـوح التصـوير الموضوعة فى عشرات الأدراج " (١).

وربمـا كانـت تصـور الخـيانة التى وقعت ضد عمها عيسو، وتصور ما آل إليه الخائن من حياة تعسة مريرة، وبخاصة وأن عيسو كان يصـور الطرف الآخر فى الخيـانة بأسلوب آخر " حيـث كـان يجمـع بنفسه صوراً لنساء تشبه أمه: نساء طويلات القامة عريضات الكتف، وذات عضلات قوية " (٢).

ومـن خلال هذه العلاقة الوطيدة التى جمعت بين "عيسو" وابنة أخيه "يعقوب"، يمكن القـول، " إن شـاليف يـرفض فـى روايـته (عيسـو) نتائج الجولة الأولى، ويرفض المرجعية التوراتـية فـى حل الصراع، ويجعل سياق الحبكة الدرامية فى روايته (عيسو) ينحو نحو عودة الميراث لمـن سـلب مـنه وهو عيسو، بمساعدة من رومى ابنة يعقوب التى تقتنع بقضية عمها وتتعاطف معه " (٣).

(ب) فشل يعقوب فى إعداد وريث للمخبز (فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين):

عـبر شـاليف فـى روايـة (عيسـو) عـن إخفاق الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين مؤكداً على ما طرحه من إخفاق لـها فى روايته السابقة (رواية روسية). ويعد فشل يعقوب فـى إعـداد أبنائه كورثة للمخبز من بعده والذى يعبر عن فشل الصهيونية أيضاً مظهر جديد من مظاهر احتمالية فوز " عيسو " بالجولة الثانية فى الصراع.

" وفـى عملـية المضـاهاة بـين القصـة الأسطورة وبين الرواية المعاصرة التى تحاول صوغ القصـة الأسـطورة بمـا يـتفق مع العدل الذى جافته هذه الأسطورة، نجد أن القاص يلجأ إلى جعـل كافـة أبـناء يعقـوب الذيـن تمـنى أن يكونـوا ورثـته، إمـا أنهم يموتون فى الحرب أو يكـبرون، وهـم غـير مؤهلـين لـتحمل تبعات التركة، ويعيشون فى جو من أساطير مختلقة تستدعى أساطير التوراة فى ثوب معاصر، فهم خارج الواقع المعيش " (٤).

---

(١)هلـيل فـايس: " علـيلاه، سـفروت هـاكلايون هايسـرائيليت " (الحـبكة، أدب الـهلاك الإسرائيلى)، مرجع سابق، (ص١٢٨-١٢٩).
(٢)هلـيل فـايس: " علـيلاه، سـفروت هـاكلايون هايسـرائيليت " (الحـبكة، أدب الـهلاك الإسرائيلى)، مرجع سابق، (ص١٢٩).
(٣)د. رشاد عبدالله الشامى: أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص ٣٨).
(٤)نفس المرجع، ، (ص ٣٨).

وفي البداية، وعلى غرار (مرحلة النجاح) التي يعقبها (مرحلة الفشل)، كان "يعقوب" سعيداً للغاية بإنجابه ابنه البكر "بنيامين" كوريث للمخبز من بعده، وأخذ يعده إعداداً جيداً، فهو يأتي به إلى الأرضية الخرسانية الجديدة للمخبز ويغرز كف يده في الخرسانة الرطبة بجوار كفه هو الآخر. لقد وضع به كل الآمال كوريث للتركة والمخبز:

" حينئذ جاء يعقوب بابنه بنيامين إلى الأرضية الجديدة، وجعله يبرك أرضاً، ثم ألصق كف يده وضغط بها على الخرسانة الرطبة ... وبجوار بصمة يد ابنه، غرس يعقوب كف يده هو الآخر ... وتحت بصمات يديهما في الخرسانة، أخذ أخي يكتب بالمسمار: (يعقوب ليفي وابنه بنيامين، خبازون، أبريل ١٩٥٥) ثم قال له: من الآن، يابنياميكو، هذا مخبزك أيضاً، سوف تكبر وتعمل هنا مثل أبيك وجدك " [1].

وعلى الرغم من أن المخبز كان يعد لـ" بنيامين" ، فهو الوريث المنتظر الذي وضعت فيه كل الآمال، فإن "شاليف" آثر أن يصوره كشخصية غير مؤهلة لذلك، حيث كان يتسم بالحيرة والتردد، ولا يعرف ماذا يريد ؟، وهي نفس الصفات التي اتسم بها جيل الأبناء في رواية (رواية روسية):

"لم يجب كان ينظر إليّ دون أن يجيب ثم قال: لا أريد هذا، وسأقرر ذلك بعد الخدمة العسكرية، وربما أريد مع كل هذا أن أتعلم، وربما أرغب في السفر" [2].

ولم يتسم الوريث الذي كان يعده " يعقوب " بالحيرة والتردد فحسب، بل كان مستهتراً كسولاً، يرقص فقط مع الفتيات، ويعرف فقط كيف يستمتع بالحياة:

"على الرغم مما كان لديه من قوة، فإنه كان كسولاً بما فيه الكفاية، ولا يوجد شئ مهم بالنسبة له. فقط كان يرقص مع الفتيات ويستمتع بالحياة" [3]

وفجأة، يطالعنا القاص بمقتل " بنيامين " من جراء طلق ناري، فقد اشتبكت وحدتان عسكريتان إسرائيليتان في حرب ١٩٦٧ وتبادلا إطلاق النار عن طريق الخطأ، وهو الحادث الذي أطاح بآمال " يعقوب " في الوريث القادم، ولم يترك بنيامين خلفه سوى كف يده في الأرضية الخرسانية، التي كان يعقوب ينظفها من بقايا القمح:

" قتل بنيامين في وادي الأردن، عندما كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً، ولم يترك وراءه شيئاً، سوى وعد كف يده التي

(١)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٤٦-٣٤٧).
(٢)نفس المرجع ، (ص٢٣٨).
(٣)نفس المرجع ، (ص٢٣٩).

ظلت مطبوعة في الأرضية. وكان يعقوب ينفخ بها وينظفها من بقايا القمح والغبار الذى علق بها " [1].

ولم يجد " يعقوب " بدّا من معرفة أسباب مقتل ابنه الذى راح ضحية العبث فى الجيش الإسرائيلى، سوى الذهاب إلى المستشفى لمعرفة الحقيقة:

" لم يحكوا لى أحد عما حدث ؟ وكان لابد من معرفة الحقيقة بمفردى ؟ فذهبت إلى المستشفى فوجدت شاباً مصاباً هناك حكى لى عن كل شئ، وكيف حدث هذا وكيف تلقى بنيامين رصاصة، وسقط بعدها وأخذ يصرخ دون أن يعثر عليه أحد " [2].

أما " ليئة " أمه فقد أصابها الذهول مما حدث لابنها، ودخلت حجرته ولم تفارقها سنوات طوال ؛ حتى ألم بها المرض ؛ وظلت طريحة الفراش.

ويبدو أن حادث مقتل " بنيامين " من جراء خطأ عسكرى بالجيش الإسرائيلى، هو حادث حقيقى وقع بالفعل فى أثناء خدمة " شاليف " نفسه بالجيش الإسرائلى، حيث يقول " شاليف " : " فى الحقيقة. كانت هناك كتيبتان من وحدة واحدة تابعة للجيش الإسرائيلى أطلقت كل منهما النار على الأخرى فى نوفمبر ١٩٦٧، وقد حدث هذا بينما كنا على وشك الدخول فى وادى الأردن. وقتل بعض الأفراد، أما أنا فقد أصبت إصابة بالغة ؛ وفى التحقيق الذى جرى بالمستشفى جاء إلىّ بعض الضباط الكبار وحذرونى من الكشف عما حدث لأى فرد. فتساءلت ماذا يكون الأمر لدى الأسر الثكلى ؟ فقالوا هذا سر. فقلت لهم سوف أحكى ما حدث. وبعد عدة أيام جاءنى أحد الآباء، كان ابنه ضابطا وقتل. فجلس بجوار سريرى، وأخذ يبكى ويتوسل إلىّ حتى أحكى له ما حدث فى وادى الأردن. فحكيت له وشكرنى. وبعد عدة سنوات علمت أنه مات من الألم والحزن. وقبل أن اكتب تلك الرواية، تحدثت مع زوجته. لقد كانت آلام الجرح الذى ألم بى أقل بكثير من آلام ذلك الرجل المكلوم الذى التقيت به " [٣].

لقد تأثر " مئير شاليف " بذلك الحدث وبالأمهات والآباء الذين فقدوا أبناءهم، وامتلأت صفحات الرواية بالحديث عن الألم والأمهات الثكلى وعن الحروب التى لم تترك وراءها سوى الدمار والآلام للأمهات والآباء:

" هنا كل شيء على هذا النحو مكدس بدرجة كبيرة ... فالحرب هى حروب جوار. فنحن نرى من البيت الدخان ونسمع الصرخات. فكل هذه البلاد هى هرمون مخرب ... وكل من قتل هنا، قتل على مسافة ساعتين أو ثلاثة من خروجه من البيت. أو على الأكثر أربع ساعات " [4].

---

(١) نفس المرجع، (ص٣٤٧).
(٢) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٨٣).
(٣) ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص٣٧٢).
(٤) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص١٨٢-١٨٣).

إن شـاليف يـأتى هـنا بحـادث مقتل " بنيامين " فى الجيش الإسرائيلى ليعبر عن شيئين، همـا: فشـل الصـهيونية فـى إعداد ورثة لجيل المؤسسين، وفشلـها كذلك فى تحقيق الأمن والوطـن الآمـن لجمـوع الـيهود المهاجرة إلى أرض فلسطين، لا سيما أنه عايش هذا الوضع بنفسـه، وعـبر عـنه فـى صـفحات عديـدة مـن الـرواية. حـتى " يعقوب " مقت الحروب وخـرابها فهـو يزور دائماً قبور قتلى الحروب ؛ لأن آباءهم قد ماتوا، وأطاحت الشيخوخة بـإخوانهم ، فهـم يـريدون الحـياة (الـرواية، ص ١٨٣). كمـا أنه يرسل بخطاب لأخيه " عيسـو " فـى أمـريكا يمقـت فـيه الحـروب، ويصـف لـه القـبور الـتى امـتلأت بالحشرات والـهوام، والوضـع المأسـاوى الـذى آلت إليه الأسر بعد فقد أبنائها فى الحروب (الرواية، ص ١٨٣).

وقـد عـبر شـاليف عـن الحـروب ومـا تخلفـه من آلام للآباء والأمهات بصورة رائعة فى الـرواية قد يتأثر بها القارئ الإسرائيلى ويفكر فى الأمر جيداً. وقد نجح فى هذا " لأنه التقى بعشـرات الأمهـات الثكـلى، لكـى يصـف الحـزن الـذى ألم بيعقوب وليئة بعد فقد ابنهما بنيامين " [١]. وعبر " شاليف " عن هذا على لسان " عيسو " فى الرواية:

" ... هـؤلاء هـم أبناؤنا الموتى الذين أدخلونا جميعاً فى خندق واحد. كانت هناك أم قتل ابـناها الاثـنان. وقالـت لى، هل سمعت عن أمر مثل هذا ؟ ابنان فى حرب واحدة ... وكان هـناك أب يعمـل ضـابطاً بالشـرطة، جاء بملابسه الرسمية، وهو محطم إلى شظايا... وخبيرة تجمـيل، أتـت ومعهـا ابنـتها الصـغيرة الـتى بقت لـها ... ولم تتوقف عن الحديث عن ابنها وكيف كان ناجحاً " [2].

ويمكنـنا أن نجـد فـى تلك الكلمات التى تعبر عن فظاعة الحروب ونتائجها تعبيرا حقيقيا وواقعيا عن حالة المجتمع الإسرائيلى الذى يتعامل مع الحروب كما لو كانت حلقة مفرغة لا فكاك منها، " وهو الأمر الذى جعل المجتمع الإسرائيلى يعيش منذ وجوده تناقضاً حاداً بين فرضـيات الأيديولوجية الصهيونية التى تدعو إلى جعل اليهود شعباً مثل سائر الشعوب وبين إفـرازات الوجـود الإسـرائيلى القائمـة عـلى حتمـية التوسـع فـى الأراضـى سواء لأسباب أيديولوجـية صـهيونية أو أمنية. وهذا التناقض الحاد الذى يعيشه الإسرائيليون، هو تناقض لا يملكون لـه حسماً " [٣].

وقـد عـبرت عالمـة الـنفس الإسـرائيلية " عاميـا ليبليـخ " عن هذه الظاهرة الى لازمت الوجـود الصـهيونى عـلى الأرض العربـية بقولـها: " إن الـتعايش مع الحرب – أو حسب

(١)ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص٣٧١).
(٢)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٠١-٢٠٢).
(٣)د. رشاد عبدالله الشامى: عجز النصر، الأدب الإسرائيلى وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، (ص٧).

أقـوال الشاعر الإسرائيلى ناتان ألترمان (الحياة علي خط النهاية) - كان ومازال جزءاً رئيسياً مـن حياتـنا، منذ إقامة الدولة وكذلك فى الفترة السابقة عليها ... ولكن الخوف من الـهزيمة الذى يعنى موت الأعزاء علينا وربما ما هو أفظع من ذلك، قد زاد بعد حرب ١٩٧٣ " (١).

ولعلـهـا كانـت ظاهـرة عـبر عنها الكثير من الأدباء الإسرائيليين على الساحة الأدبية فى إسـرائيل، وهـى تشـير فـى غالب الأحيان إلى اتهام الصهيونية بذلك الوضع المتأزم الذى آل إلـيه المجتمع الإسرائيلى الذى أصبح بمثابة المجتمع النكنة. ولم ينس شاليف وهو بصدد نقد الصهيونية أن يعبر عن حتمية الحروب ونتائجها المريعة بالنسبة للأباء والأمهات من خلال " بنـيامين " الـذى كـان أمـل أسـرة " يعقـوب "، وكشف لنا كيف قضت الحرب على هذا الأمـل، ليعـبر هـذا عـن موقفـه مـن الصـهيونية التى أودت بحياة الكثيرين من الأبناء بفعل الحـروب الـتى خلّفـتها لدولـة إسرائيل، وبفعل نظرياتها وأساطيرها الجوفاء التى اعتمدت عليها فى صراعها مع الفلسطينيين والعرب.

وعـلى الـرغم من أن موت " بنيامين " غيرّ الكثير من الأمور فى حياة أسرة " يعقوب " وزعـزع الاستقرار فيها، وأطاح بالعلاقة بين " يعقوب " وزوجته " ليئة "، فإن " يعقوب " كـان مصراً على وجود وريث لـه كبديل لبنيامين. وكان " ميخائيل " هو الوريث البديل لبنـيامين، وقد ولد باغتصاب " يعقوب " لزوجته " ليئة " وهى نائمة ليجبرها على إنجاب وريـث لـه (الرواية، ص ٣٧٥). كان أبوه يحبه كثيراً ويهتم به وبشئونه، بعد أن تجدد الأمل لديـه فهو يعد لـه الفطائر كل ليلة ليأخذها معه إلى المدرسة، ويغضب " يعقوب " إذا رجع بها ولم يأكلـها:

" جـثا يعقـوب على قدميه واحتضن ابنه ثم انتصب وفتح حقيبته، وقال لـه، لم تـأكل الفطائـر التى أعددتها لك، إننى أشعر بمهانة بالغة، حيث كان " يعقوب " يعد لابنه ميخائيل فطيرتين صغيرتين كل ليلة " (2).

ولخـوف " يعقـوب " عـلى ابـنه " ميخائـيل "، كـان يأمـر " شمعـون " ابن العمة " دودوتش " بمصاحبته لأى مكان يذهب إليه، فهو يصاحبه إلى المدرسة ذهاباً وإياباً:

" كان يصاحب ميخائيل إلى المدرسة يومياً، ويعيده كذلك من هناك " (3).

وكانت الأسرة كلـها تهتم به وتعلمه فيما عدا أمه " ليئة "، فكانت العمة " دودوتش " تطعمه وتسقيه وتهتم بملابسه:

---

(١)(نقلاً عن د. رشاد عبدالله الشامى: عجز النصر، الأدب الإسرائيلى وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، ص ٧).

(٢)مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص١٣٨).

(٣)نفس المرجع، ، (ص١٣٧).

" بدأت تياه دودوتش تعلم ميخائيل هذا الأسبوع ...

" أخذت ميخائيل إلى المطبخ وأخذت تطعمه بملعقة خشبية ... " [1].

وعلى الرغم من اهتمام " يعقوب " بابنه " ميخائيل " الذى يعده إعداداً جيداً لوراثة المخبز فإن " ميخائيل " لم يكن هو الوريث المناسب للمخبز، لتتبدد آمال " يعقوب " مرة ثانية، ويعود بنا "شاليف " فى الرواية ليحصد الأمل بعد زراعته، حيث تشير كل الرموز فى الرواية إلى أن " ميخائيل " الصغير ليست لديه القدرة المناسبة على أن يكون وريثاً للمخبز، وقد بدا ذلك فى الأوصاف التهكمية التى أسبغها عليه "شاليف " :

" لميخائيل مشية مضحكة، لا هى بالسير إلى الأمام، ولا هى بالترنح جانباً كما انه يلوح بذراعيه، ليبدو وكأنه يحاول التحليق " [2].

و "ميخائيل " كذلك لا يشعر بالألم، وهو الأمر الذى جعل " يعقوب " يعيش فى قلق دائم. فهو يفحصه يومياً خشية أن يكون جرح أو أصيب. وينظر فى فمه ويفحص أسنانه وأذنه ويقيس له درجة الحرارة يومياً :

"خلع يعقوب نظارته لكى يرى جيداً، واقترب برأسه ناحية ابنه...خشية أن يكون اصطلى بالنار أو طعن أو جرح ... ثم ألقى بنظرة صغيرة بمصباحه إلى تجويف الفم وكأنه طبيب أسنان وكان يقيس له درجة حرارته يومياً" [3].

ويرى بعض النقاد الإسرائيليين أن المقصود بـ" ميخائيل " فى هذه الرواية هو " يتسحاق شامير " [•] رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق، وبخاصة أن وصف " شاليف " له فى مشيته تشبه إلى حد كبير مشية " شامير "، كما أن عدم شعوره بالألم يشير إلى سياسات " شامير " كما يقول أورن: " يتمتع ميخائيل بخاصية فريدة، فهو لا يشعر بالألم ... إنه لم يشعر بالألم فى أثناء عملية الولادة أو أثناء الختان، وعلى الرغم من أن هذه الخاصية تمنحه قوة خاصة فإنها تجعله يعيش فى خطر ... وفى رأى شاليف فإن هذه هى مشكلة شامير / ميخائيل فى الوقت الحاضر ويقصد بذلك يتسحاق شامير ... إن هذا الوصف التهكمي يكشف لنا عن اقتراب شاليف من ميخائيل رئيس وزراء إسرائيل. فها هو يتفاخر ببعد نظره وبقدراته السياسية الجازمة ولا يشعر فى ظل هذه المكانة بخطر الميراث " [4].

---

(١)نفس المرجع، ، (ص١٣٨ـ١٣٩).

(٢)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص١٣٧).

(٣)نفس المرجع، ، (ص٣١٩ : ٣٢١).

(•)اسحاق شامير: رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق، كان اسم "ميخائيل " هو الاسم الكودى له عندما كان أحد زعماء منظمة "لحى " اليهودية الإرهابية السرية.

(٤)يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦٨).

وبالإضـافة إلى خاصـية عـدم الشـعور بالألم ، فإن " ميخائيل " كذلك يميل إلى اختلاق القصـص الوهمـية والخيالية فهو يتخيل أشياء كثيرة ويظن أنها حقيقة ، إنه لا يعرف التمييز بين الواقع والخيال وهى صفات يعرفها الجميع عنه :

" إنـه لـن يقول شيئاً ، وحتى إذا حكى فلن يصدقه أحد فالكل يعرف حكاياته الخرافية . لقـد حكـى أنـه رأى أبـاه يتسـلق المدخنة فى الليل ، وأن الملائكة تعلمه الطيران ، وحكى أن شمعون أمسك بإيتسيك وهو يسرق من المخزن فخنقه حتى أغمى عليه . إنه يتمتع بتخيلات غريبة للغاية "[1] .

وفـى حقيقة الأمر ، يأتى وصف " ميخائيل " على هذا النحو من قبل " شاليف " لكى يؤكـد عـلى أن صـناعة الأسطورة والقصص الخرافية أمر سهل ، يمكن لأى أحد أن يختلقه ، ويوهـم نفسـه بأنـه حقـيقة ، كمـا أن اخـتلاق ميخائـيل للقصص الوهمية يشير إلى اختلاق الصـهيونية للأسـاطير الـتى تعضـد بهـا موقفها تجاه مسألة الصراع العربى الإسرائيلى حول مسـألة الأرض ، فى إشارة إلى أن قصص الآباء فى المقرا التى يعتمد عليها نهج " شامير " / " ميخائـيل " السياسـى هـى قصـص مختلقة ومن الممكن إنتاج مثلـها بسهولة وبلا حدود ، ويستطيع أى كاذب أن يختلق قصصا يحقق بها أهدافا لا يمكن تحقيقها فى الواقع .

وهكـذا ، تشـير دلائـل فشـل " يعقـوب " فى إعداد وريث لـه إلى اقتراب موعد الجولة الثانـية فـى الصـراع ، الـتى ستحسـم فـيها قضـية الصراع على أرض فلسطين كما يحاول " شاليف " أن يحذر .

إن الـنقطة المحوريـة الـتى يحـاول أن يـتمركز حولـهـا " شـاليف " ليـبين لنا موقفه من أسـطورة المقـرا وخطـر الاعتماد عليها هو أن استلاب الحق لم يهدئ من روع القضية ، لأن الطـرف الآخـر لـن يصـمت . وربما نجح شاليف فى التعبير عن هذا من خلال إقحام بعض الشخصـيات السياسية الإسرائيلية فى الرواية . وإذا نظرنا إليها سنجد أن بعضها شخصيات يمينـية مـتطرفة ـ شـامير ـ وهـى التى تتبنى سياسات الترحيل الجماعى وأيديولوجية أرض إسـرائيل الكاملـة . ولتعضـيد رؤيـته فـى الصـراع ، أسـبغ " شاليف " على هذه الشخصية اليمينية المتطرفة صفات تهكمية تعبر عن سخط ومقت ، وتحذر من التنبؤات الزائفة .

" لقـد كتبـت روايـة (عيسـو) للسـخرية مـن الأسـلوب السياسى للمعسكر القومى فى السياسـة الإسرائيلية . والعنصر العام فى هذه الرواية ينحصر فى أن ميخائيل / شامير يؤكد عـلى حـل الـنزاع العـربى الإسـرائيلى مـن خلال يمينيته ، وعن طريق حلول صعبة التحقيق مـثل : أرض إسرائيل الكاملة سوف تبقى فى أيدينا ، وأن العرب سوف يحظون بالاعتراف ،

(١)مئير شاليف : "عيساف" (عيسو) ، رواية ، مرجع سابق ، (ص٣٩٥) .

ولكن عليهم أن يتخلوا عن مطالبهم فى الميراث وحقهم فيها. معنى أن وريثاً واحداً سوف يأخذ الميراث كله، أما الوريث الثانى فسوف يوافق على تخليه عن حقوقه فيه "(1). وهو خطأ كبير يقع فيه اليمين الإسرائيلى وكل من يظن أن الحل المقرائى حول مستقبل فلسطين من الممكن تحقيقه بين نسل "يعقوب" و"عيسو".

ويبدو فى هذه الرواية أن أبناء " يعقوب " يمثلون رموز السياسة الإسرائيلية فإذا كان " ميخائيل " يمثل اليمين الإسرائيلى، فإن " رومى " ابنته تمثل اليسار الإسرائيلى، وترمز إلى حركات السلام الإسرائيلية، وبعيداً عن برامج هذه الحركات وجديتها فى الحل، فإن العلاقة التى جمعت بين " رومى " وعمها " عيسو " والتى تحاول فيها " رومى " أن تعيد حق عمها المسلوب تشير إلى فشل يعقوب فى استمالة " رومى " تجاهه من ناحية، وفشل الصهيونية فى إعداد الوريث المؤهل لمواصلة العمل على استلاب الحق ومواصلة المسيرة من ناحية أخرى.

إن حرص " رومى " على تخليد أبيها يعقوب فى معرض الصور الفوتوغرافية الذى أطلقت عليه (أبى) إنما هو معرض للعبرة والتاريخ، وبخاصة أنها كانت تصور أبيها فى أوضاع مخجلة ومحرجة. لقد كانت تصور الأسرة كلها فى أى وقت وفى أى مكان وكأن هذه الصور سوف تكون شهادة تاريخية على انتهاء دور أصحابها فى الصراع.

" وعبرت رومى من خلال هذا التخليد عن توقعاتها للنهاية المفاجئة والدرامية للنزاع بين الأخوين: سوف يدفع يعقوب ثمن خطئه تجاه عيسو الذى حدث منذ أربعين عاماً. ولن يكون عيسو قريباً من المخبز والميراث. هكذا يظن شاليف أيضاً فيما يمكن حدوثه عن طريق رومى من نتائج للنزاع بين العرب واليهود على فلسطين إذا استمر اليمين فى قيادة الدولة "(2).

(ج) انتهاء دور يعقوب فى الصراع:

لم يعد ليعقوب أى دور يقوم به فى مواصلة الصراع ضد أخيه بعد وفاة أمه " سارة " من ناحية، وفشله فى إعداد ابنه ميخائيل كوريث، ومقتل ابنه بنيامين فى حرب ١٩٦٧ من ناحية أخرى، وهو الحادث الذى قصم ظهر الأسرة كلها وأطاح بها، حيث خارت قوى "يعقوب" وزوجته " ليئة " التى ظلت طريحة الفراش منذ مقتله. وهنا تصبح الحلبة مهيأة ليصول بها عيسو ويجول وقتما يشاء، وتتداخل الحبكة الدرامية حسبما صاغها شاليف ليمرض أبراهام ويتم استدعاء "عيسو" من منفاه ليرعاه.

(1) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦٩).
(2) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، (ص٧٠).

لقد كان موت " سارة " بمثابة موت " يعقوب " ، وبخاصة أنها الوحيدة التى كانت قادرة على قيادة دفة الأمور وتسييرها لصالح ابنها يعقوب، وبعد موتها يتوقع يعقوب ما سيحدث له، حيث يرسل خطاباً لعيسو وهو فى أمريكا بعد وفاة أمه يقول فيه :

" والآن سوف يتبدد كل شئ. سوف ينهار كل شىء ... لقد كانت تربط الكل معاً. وتياه دودوتش لا تستطيع أن تفعل هذا، وليئة مازالت صغيرة، وأنا لست امرأة " [1].

وقد تعددت مظاهر انتهاء دور يعقوب فى الرواية، حيث تغيرت ملامحه للأسوأ وكأنه يفسح الطريق فى الجولة الثانية أمام أخيه "عيسو" لاسترجاع حقه المسلوب :

" شاخت كفى يعقوب عن سائر جسده ... واحمرت أطراف أصابعه للغاية ... وأصبح ظهر يده محروقاً ومجعداً بفعل لهيب الحجارة " [2].

لقد أدرك يعقوب مصيره، وهو السقوط والموت. وقد اعترف بذلك أمام أخيه "عيسو " :

قال لى : " سوف أسقط ذات يوم ببساطة، وسوف أموت هنا " [3].

ولم يكن هذا فحسب، بل تسللت الوحدة إليه وأصبح طاعناً فى السن على الرغم من أنه لم يبلغ الخامسة والخمسين من عمره :

" أصبح يعقوب ليفى رجلاً منغلقاً على نفسه وقد أصابته الحروق قليلاً، ولم يكن فى حاجة إلى كتب ليدرك لماذا يبدو طاعناً فى السن وهو فى عمره هذا. لقد بلغ الخامسة والخمسين من العمر، وعرفت الوحدة طريقها إليه جيداً " [4]

وفجأة، يطالعنا شاليف بيعقوب وهو طريح الفراش، ويرقد فى المستشفى فى حالة صحية سيئة :

" رقد يعقوب ثلاثة أيام فى المستشفى، ... وكان كل جسده يرتعد، ودرجة حرارته تعلو وتنخفض " [5].

وتزداد حالة يعقوب الصحية سوءاً، ثم يعود إلى المنزل :

" عاد إلى البيت متعباً وشاحباً، وجلس على الكرسى الهزاز الذى فى الشرفة، ونزع ضماداته من يده، لكى يجفف جراحه فى الهواء والشمس " [6].

---

(١)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٣١).
(٢)نفس المرجع، (ص٢٤١).
(٣)نفس المرجع، (ص٢٤٢).
(٤)نفس المرجع، (ص٣٦٩).
(٥)نفس المرجع، (ص٢٤٢).
(٦)نفس المرجع، (ص٢٤٢).

وتـبدو بـوادر فـوز "عيسـو" بالجولة الثانية فى الصراع واستسلام " يعقوب " فى ذلك الحديـث الـذى دار بيـنهما بعـد عـودة "عيسـو" مـن أمـريكا، حيـث يقـول " يعقـوب لـ" عيسو " :

قال لى: " لا أستطيع أن أسوى حسابات قديمة، ماذا تريد ؟ هل تريد أخذ المخبز الآن ؟ وتأخذ ليئة ؟ إنك تستطيع أن تأخذهما. إنك تستطيع أن تأخذ كل شىء " [1].

وهكـذا، يعـرض "يعقـوب" عـلى أخـيه "عيسـو" حقـه المسـلوب بكل سهولة، فهو يعـرض علـيه المخبز ويعـرض علـيه زوجـته الـتى أخذها منه عنوة بمساعدة أمه. لقد شعر "يعقـوب" بأن دوره فى الحياة قد انتهى بعد وفاة أمه، وفشلـه فى إعداد وريث يرث المخبز مـن بعـده، وبعد أن تهدمت حياته الأسرية وقصمته الظروف والأحداث التى ألمت بزوجته وأبنائه، وكأنما شاليف يدير حلبة الصراع ليفسح الطريق أمام فوز عيسو فى الجولة الثانية.

ويكمـن تعـبير " شـاليف " عـن أفـول نجم الصهيونية وعن النهاية القريبة لمشروعها فى تلـك الأوصـاف التهكمـية الـتى أسبغها على "يعقوب" فى معرض إعداده للمسرح الذى سـيعتليه " عيسـو " لاسـترجاع حقـه المسلوب، حيث وصف "يعقوب" بالفنار الذى بنى خطأ فوق اليابسة:

" بـدا لى يعقوب مثل فنار بنى عن طريق الخطأ فى قلب اليابسة، ويعطى إشارات لسفن غير موجودة ولا تقترب " [2].

وفـى الفصل الأخير من الرواية يذهب " شمعون " والعمة " دودوتش " إلى " عيسو " فى تل أبيب ليـأتيا به إلى بيت " يعقوب " ، حيث كان أبوه "أبراهام" يحتضر، وبعد موت أبـيه يجلـس "عيسـو" ليشـتم رائحـة الخبز فى أنفه. ويرسم لنا "شاليف" نهاية الرواية فى إشـارة إلى احتمالـية فـوز "عيسـو" بالجولـة الثانـية، حيث توقف المطر فى الخارج وصفت السماء وأتت الرياح برائحة الخبز إلى " عيسو " :

" وهكـذا جلسـت. بعـد ذلـك تصاعدت رائحة الخبز الطيبة إلى أنفى، يالـها من رائحة لخبز طازج تم خبزه من أجلى. فقمت وخرجت إلى الخارج. وإذا بالمطر قد توقـف بـالفعل، وأصـبحت السـماء صـافية، وهبـت الـرائحة مـن مخبز أخى يعقوب " [3].

وهكـذا، أنهـى شـاليف آخر سطور الرواية بتلك الكلمات، حيث توقف المطر وصفت السـماء، أى اقـترب الحـق مـن العودة إلى " عيسو " بعد أن سلب منه. وتشير رائحة الخبز

(١)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٢١).
(٢)نفس المرجع، (ص٧٠).
(٣)نفس المرجع (ص٣٩٧).

الطازجـة إلى حـياة جديـدة سـوف يعيشـها " عيسـو " بعد سنوات عديدة قضاها فى المنفى لـيعود ويـرث أرضـه ومخـبزه فى تحذير شديد اللـهجة من " شاليف " بأن الجولة الثانية فى الصـراع ســوف تكـون **لصـالح " عيسـو "** ، وأن الأسطورة المقرائية التى تبنتها الصهيونية واتخذهـا اليمين **الإسرائيلى منهجاً فى الصراع لن** تدوم طويلاً ، ولن تقوى على الصمود فى وجـه ريـاح الخبز **العاتية الصادرة من الرواية ، لأنها** رياح تحمـل الكثير من الآمال لصالح " عيسـو " وتحـذر مـن **يؤمـنون بـتلك** الأسـطورة ، ولأن لـهيـب الأحجار التى اكتوى بها " يعقـوب " فـى المخبز وبدا فى نهاية أيامه مصطلى اليدين بفعل الحروق من شأنها أن تصيب من يؤمن بتلك الأسطورة مثلما أصابت " يعقوب " وأنهت على حياته . .

(د) إثبات الحق العربى (الفلسطينى) فى الأرض :

كـان موقـف "شـاليف" مـن أسـطورة المقـرا التى تحل الصراع بإبقاء الميراث فى يد أحد الأخويـن واضـحاً عـبر صفحات هذه الرواية فى محاولة لإثبات الحق العربى الفلسطينى فى هذه الأرض. وسواء كان هذا عن قصدٌ أو عن غير قصد، فقد نجح شاليف إلى حد كبير فى إثبات هذا الحق، لا سيما أنه قد طالعنا على لسان بعض شخصيات الرواية بكلمات وجمل وأمـاكن عربـية عديـدة تشـير جـميعها إلى جذريـة الوجود العربى فى هذه الأرض من ناحية وتدحـض أسـطورة الصـهيونية وتحطمهـا مـن ناحـية أخـرى وهو ما فعلـه أيضاً فى روايته السـابقة (روايـة روسية) ؛ لتؤكد من جديد على استحالة انتهاء دائرة الصراع بهذا الشكل، وتحـذر مـن أن الجولـة الثانية من شأنها أن تكون لصالح عيسو الذى غبن حقه طوال سنوات عديدة راح فيها ضحية للظلم والقهر واستلاب الحق.

ويمكـن لـنا أن نتـبين جذريـة الوجـود العربى فى أرض فلسطين من خلال إتيان شاليف بـالعديد مـن الأسمـاء والأماكن والمصطلحات العربية على لسان شخصيات الرواية، وهى على سبيل المثال كالتالى:

الأماكن العربية :

العمورة البيضاء (الرواية ص ٣٣).
سرايا (الرواية ص ٣٦).
ضاحية أبو بصل (الرواية ص ٣٤).
باب الزهرة (الرواية ص ٤٨).
حمام العين (الرواية ص ٥١ ، ٥٣ ، ٢٢١).
وادى الحرمين (الرواية ص ٦١).
سوق العطارين (الرواية ص ٧٣).

حبس العبيد (الرواية ص ٧٧).
دير أيوب (الرواية ص ٨٣).
بعلبك (الرواية ص ٢١٣).

جمل وكلمات عربية :

يا تعبان (الرواية ص ٧٨).
افتحي الباب ياست مريم (الرواية ص ٢٣٥).
يلّلا (الرواية ص ٢٩٣).
أهبل (الرواية ص ٣٦٤).
حرام (الرواية ص ٣٩١).
يا أخى (الرواية ص ٣٩١).
أبونا (الرواية ص ٣٠).

أسماء عربية :

الوليد (الرواية ص ٣٠)
كشك(طعام من الجبن اللاذع) (الرواية ص ٤٠).
أبو العافية (الرواية ص ٤٣ ، ٦٢).
أبو الحزام (الرواية ص ٥٨).
بنت السلطان (الرواية ص ٧٥).
مشمش بلدى (الرواية ص ٨٩).
جميلة (الرواية ص ٨٩).
نسيم القلعى (الرواية ص ٩٩).
طربوش (الرواية ص ١٩٠).
الوالى (الرواية ص ٢١٣).

وهكذا ، امتلأت صفحات هذه الرواية التى قاربت الأربعمائة صفحة بمثل هذه الكلمات والجمل والمصطلحات العربية الدارجة ، مما يدل على يقينية " شاليف " بأن الوجود العربى الفلسطينى على الأرض المتنازع عليها سيلعب دوراً حاسماً فى نتيجة الجولة الثانية من الصراع . وبعيداً عن السؤال المطروح ، هل يعد " شاليف " فى هذه الرواية منصفاً للحق العربى الفلسطينى ؟ أم أنه محذر فقط من صلف اليمين الإسرائيلى المتطرف ؟ فإن " شاليف " آثر مبايعة الحقوق العربية إلى جانب الحق اليهودى على حد سواء ، لاسيما أنه استخدم كلمة "فلسطينا" (الروية ص ٥٩ ، ١٨٩) عدة مرات التى قلما نجد أديبا إسرائيليا

يستخدمها فـى أعمالـه الأدبية إلى جانـب كـلمة " ايـرتس يسرائيل " الشائعة لدى سائر الأدباء الإسرائيليين وهو ما فعلـه أيضاً فى روايته السابقة (رواية روسية).

ويمكـن القـول أيضاً، إن " شاليف " فى أحيان كثيرة من الرواية بدا محذراً أكثر من كونه منصـفاً، لأنـه لم ينه الـرواية بـالفوز الحقـيقى الملموس لعيســو فى الجولة الثانية، وترك النتيجة – وإن كانت واضحة ـ عرضة للتأويلات والتحذيرات لليمين الإسرائيلى المتطرف ؛ ممـا يدل على أن بعض الأدباء الإسرائيليين الذين يتعرضون للصراع العربى الإسرائيلى تحت شـعار (المسـاواة فى الحقوق) لا ينكرون الحق اليهودى فى الأرض، بل يعرضونه على قدم المساواة مع الحقوق العربية المشروعة.

والجديـر بالذكر أيضاً، أن شاليف قد تعرض فى روايته هذه إلى الدور الأمريكى فى حل هـذا الصـراع من خلال تلك الشخصية المجهولة التى كان يتحدث إليها " عيسو " وهو فى أمـريكا عـن صـراعه مع أخيه " يعقوب ". وإذا كان " أورن " كناقد إسرائيلى يرى " أن هـذه الشخصية كانت لغزاً يكمن فيه الـهدف الفكرى من الرواية، وأن مجهوليتها تجعل منها هيـئة قضـائية محـايدة، ومـن خلالـهـا تظهـر الحقيقة. وأنه من المستحيل أن نتوقع عدلاً من هـؤلاء المعنـيين بالصـراع نفسـه، وأن هـذه الشخصية تقوم بدور متوازن غير مشبوه فيه من شـأنه أن يحكم دون رياء أو محسوبية "[1]، فإننا نرى أن الطرف الأمريكى لم يكن قط محايداً بـل منحازاً للجانب الإسرائيلى ؛ لاعتبارات سياسية واقتصادية كثيرة. وبالتالى فإن شاليف يعـرض هـذا الـدور مـن مـنطلق مسـايرة الواقع الماثل أمامه ليس أقل أو أكثر، وليدلل مرة أخـرى عـلى مقصـده وهدفـه من هذه الرواية التى تعد صرخة مدوية ضد اليمين الصهيونى المـتطرف وضـد الـرؤى الإسـرائيلية السياسية التى تعتمد على الأساطير التوراتية فى حلـها للصراع القائم منذ سنوات طوال.

وتـبقى فقـط الصهيونية " شأنها شأن كل الحركات الاستيطانية الإحلالية تدور فى إطار الـرؤية المادية الداروينـية الـتى حولـت العالم بأسره إلى ساحة للقتال والصراع: البقاء فيها لصـاحب القـوة ولـيس بالضـرورة لصـاحب الحق ... وهى شأنها شأن أية حركة استيطانية أخـرى تقوم بإنكار التاريخ: تاريخ الجماعات اليهودية وتاريخ الشعب المستهدف الذى يود المستوطنون الاستيلاء على أرضه "[2].

(١)يوسـف أورن: " هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٦١-٦٢).
(٢)د. عبد الوهاب المسيرى: تفكيك الصهيونية، مجلة سطور، العدد ٣٨، يناير ٢٠٠٠، (ص ١٠).

الفصل الخامس

الصهيونية وصراعات القوى السياسية فى إسرائيل فى رواية (الحالة الثالثة) لـ"عاموس عوز"

الحالة الثالثة

تأتى رواية (الحالة الثالثة)[1]، ضمن الروايات التى تعرضت للصهيونية بالنقد الشديد، وإن كانت أكثر حدة من الروايات الأخرى فى تناولها للصراع السياسى فى إسرائيل ونقده، حيث تعبر عن التطورات السياسية المختلفة التى يتعرض لها المجتمع الإسرائيلى خلال فترات وجيزة، مما جعله مجتمعاً يفتقر إلى الاستقرار والطبيعية، ويختلف تماماً عن بقية المجتمعات الطبيعية الأخرى فى المجتمع الدولى، حيث تشير هذه الرواية إلى الصراع الدائم بين اليمين واليسار الإسرائيليين فى قيادة هذا المجتمع، مما يخلق حالة من التناحر الدائم بين هذين المعسكرين حول تولى القيادة، ويخلق أيضاً توجهات عديدة لدى قطاعات عديدة من المجتمع الإسرائيلى، وبخاصة نحو السلام وقضية الصراع حول الأرض والحدود.

إن الحالات السياسية السريعة التى يتعرض لها المجتمع الإسرائيلي فى ظل قيادة كل من اليمين واليسار، مع اختلاف التوجهات بينهما، يستلزم حلاً أو حالة ثالثة قد تخرجه من مستنقع التشرذم وجدها عوز فى إمكانية خلق حالة من الانسجام أو الامتزاج بين اليمين واليسار من خلال حكومات الوحدة الوطنية، بالرغم من أنها فكرة أو حالة معرضة للفشل فى غالب الأحيان.

وهكذا، فإن " الحالة الثالثة ليست مجرد فكرة سياسية، بقدر ما هى فكرة قومية وقد شعر " فيما " بطل الرواية ـ وهو من اليسار الإسرائيلى ـ بالحالة الثالثة، عندما جلس جنباً إلى جنب مع " ياعيل " ـ وهى من اليمين الصهيونى ـ دون حركة أو حديث بينهما وقتها شعر بالبهجة والسعادة والشبع كما لو كان قد حدث بينهما انسجام عميق وعظيم " [2].

ولكن هذه المحاولة تبوء بالفشل بعد أن قرر " "فيما" " فى النهاية، نهاية الرواية أن يبتعد نهائياً عن الحلبة السياسية.

ويمكن القول أيضاً، إن هذه الحالة قد تكون " حالة قومية بريئة من السياسة وبعيدة عن ألعاب اليمين واليسار " [3]. فهى تكمن فى (فتح صفحة جديدة)، وهى جملة امتلأت بها صفحات الرواية، فى محاولة من عوز للبحث عن خلاص لمجتمعه . . وهى حالة لكى

---

(١) عاموس عوز: "هامتساف هاشليشى" (الحالة الثالثة)، رواية، دار نشر كيتر، القدس، ١٩٩١، (٢٦٠صفحة)

(٢) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٣٦ـ٣٧).

(٣) نفس المرجع، (ص٣٧).

تحظـــى بهـا كمـا يقـول عـوز ـ علـيك أن " تتجرد من كل رغبة ، وأن تقف تحت سماء الليل ، بلا عمر ، وبلا جنس ، وبلا زمن ، وبلا شعب وبلا شيء " (الرواية ص ١٧٢).

لقـد حـاول عـوز ، عـبر هـذه الرواية ، ومن خلال لغز الحالة الثالثة أن يبحث عن مخرج للمجـتمع الإسـرائيلى وعن خلاص روحانى لـه ، بعد أن تشرذم ، وأخذ فى الانحلال بفعل صـراعات الـيمين واليسـار ، والحروب التى خاضتها إسرائيل مع جيرانها العرب ، وتعاليم الصـهيونية وأثرها النفسى على الشباب والأطفال الإسرائيليين ، والفشل الذريع الذى ينتظر الجيل القادم بعدما يجد نفسه فى مجتمع الانحلال الأخلاقى ، وغياب الوريث الصهيونى الذى يسـير عـلى الـدرب . . وهـى أمـور تضـع الصهيونية فى بؤرة الاتهام بأكاذيبها وأساطيرها وبرامجها التى ابتعدت كثيراً عن الواقع الذى أخفقت فى استقرائه .

قصة الرواية : (عرض مختصر) :

تحكى هذه الرواية عن فيما (أفرايم نيسان)الذى يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً . وهـو شخصية تعيش بمفردها ، اعتاد خلال سنوات وحدته على الحديث إلى نفسه . وكانت لـه عدة تجارب عاطفية طوال أيام حياته . كما كانت لديه تطلعات كثيرة وأفكار حول نهاية العـالم ، ووجهـات نظـر خاصة وواضحة حول فقدان هوية دولة إسرائيل . ويؤرقه كابوس خـاص بإقامـة حـركة سياسـية جديـدة ، تفـى بمتطلـبات الشعب الإسرائيلى . وهو يتطلع أيضـاً ، مـن خلال أشواق مثل هذه أو غيرها ، إلى فتح صفحة جديدة فى الحياة الإسرائيلية . إنه شخصية تشعر بعدم الاستقرار وتؤرقها ما يحدث فى المجتمع الإسرائيلى ، وما يحدث فى الأراضى المحتلة . وهو الأمر الذى يجعلـه يبحث كثيراً مع أصدقائه فى أمور الدولة ، ويصل بـه الأمـر إلى أن يكـون مـنهم مجلس وزراء مصـغرا ليبحـث كل القضايا . ومن خلال هذا المجلـس ، يصدر مع أصدقائه القرارات الحاسمة التى ستخدم الدولة من وجهة نظره ، سواء أكـان ذلـك بالنسبة للسـلام مـع العـرب أم بالنسـبة للأحـداث التى تجرى داخل إسرائيل ، وبسـبب ذلـك فهـو يحـلم دائمـاً بالاستقرار والـهدوء . وهو مصاب كذلك بالكوابيس التى تجعلـــه يسـتيقظ مـن نومـه وتؤرقه طوال حياته ، وهو الأمر الذى جعلـه متشائماً وينظر إلى الحياة نظـرة سـوداوية ، فهـو يـرى أن البشر يعيش بلا غاية أو هدف . فالناس تقرأ الجرائد وتسـتمع إلى الأخـبار ، وتواكـب الأحـداث ، ويقـول بعضـهم لبعض : (لا يمكن أن يستمر ذلـك) ، إلا أنهـم لا يفعلـون شيـئاً . لقد كـان فيما ضحية للصراع بين اليمين واليسار الإسـرائيليين ، بـين أبـيه اليميـنى المتطرف ، وأمـه اليسارية ، التى رحلت عنه وهو صغير ؛ فتركـته لأبـيه "بـاروخ" ، الـذى اختار لـه زوجته ياعيل اليمينية التى تتفق أفكارها مع أفكـاره . ولكـنه سـرعان مـا انفصـل عـنها ، ليعـيش وحيداً وكئيباً لا يعرف أين يمضى وما

الهدف من الحياة ؟ . إنها حاله وصل إليها بفضل اهتماماته السياسية وبما يجرى فى المناطق الفلسطينية المحتلة . ولكنه يستيقظ فقط فى نهاية الرواية من غفوته فيقرر الابتعاد نهائياً عن الشئون السياسية وعما يجرى فى دولته على الرغم من محاولات أصدقائه إثناءه عن ذلك .

اتجاهات نقد الصهيونية فى الرواية :

لم تكن الصهيونية فى منأى عن انتقادات عوز لها ؛ فقد نظر إليها على أنها المتهم الأول فيما آل إليه المجتمع الإسرائيلى من انهيار وتخبط فى ظل قيادة اليمين الإسرائيلى تارة ، واليسار تارة أخرى . واحتوت عريضة اتهامه على كثير من المحن التى ظلت تؤرق هذا المجتمع ؛ مما أفقدته هويته وهدفه ، حيث تفشى الانحلال الأخلاقى فى ظل تعاليم الصهيونية التى انهارت على مذبحها نفسية الشباب الإسرائيلى ، وجعلته يتشكك ويتخبط فى توجهاته نحو السلام وغيره من القضايا .

لقد ركزت انتقادات عوز للصهيونية على تمسك اليمين الصهيونى المتطرف بها ، ومحاولة فرض برامجها على اليسار بالقوة ؛ مما خلق حالة من التردد والتشكك الدائم لدى قطاع كبير من المجتمع فى جدوى الصهيونية وهدفها ، لاسيما وقد تزايدت إخفاقاتها فى ظل الواقع المعيش يوماً بعد يوم ؛ حتى إن انتصار إسرائيل فى حرب يونيو ١٩٦٧ واتساع رقعة الأرض التى احتلتها ، لم يكن انتصاراً بقدر ما كان محنة وكابوساً للمجتمع الإسرائيلى ، كما بيّنت تلك الرواية .

ويمكن القول ، إن عوز أكد أيضاً فى هذه الرواية على فشل الصهيونية فى ظل ذلك التخبط الذى يعيشه المجتمع الإسرائيلى فى إعداد وريث لجيل المؤسسين ، متفقاً فى ذلك مع عدد كبير من الأدباء الإسرائيليين ؛ فاحتوت روايته على مفردات عديدة تعبر عن هذا الفشل الصهيونى فى استقراء الواقع الذى زجت فيه جموع اليهود المختلفة مؤكداً على حقيقة تحول الحلم الصهيونى إلى وهم وخداع ، راح ضحيته الكثير من الأطفال والشباب الإسرائيلى الذين لم يدركوا تماماً حقيقة هويتهم وقضيتهم وسط مجتمع اختلف تماماً عن الصورة التى صاغتها الصهيونية قبل قيام الدولة .

ويمكننا أن نعرض هنا لأبرز النقاط التى تناولها عوز فى معرض نقده للصهيونية :

أولاً : موقف عوز من الصهيونية :

كان موقف عوز من الصهيونية واضحاً من منذ بداية ظهوره على الساحة الأدبية ، فهو ينظر إليها كحركة لتحرير (الإنسان)فقط وليس كحركة لتحرير (الأرض) ، حيث يقول فى كتابه (فى الضوء الأزرق الساطع) : " إننى صهيونى فيما يتعلق بخلاص اليهود ، ولكننى لست كذلك فيما يتعلق بـ(خلاص الأرض المقدسة) . وطبقاً لرأيى ، فإننا جئنا إلى هذه

الأرض لكى نكون أمة حرة، ولم نأت لكى (نحرر هذه الأرض المتألمة والمدنسة من نير الغرباء) فكلمة (تحرير)تنسحب فقط على البشر وليس على التراب والحجارة. فأنا لم أولد لكى (أطهر أماكن دنسها الغرباء)" (١).

ويرى عوز كذلك أن الصهيونية لها إخفاقاتها العديدة، فلا يصح أن ينجر اليهود وراءها بكل طاعة وخضوع دون تمييز للخطأ والصواب، حيث يقول: " ليس كل ما هو مستقيم فى عيونهم مستقيما فى عينى، وليس كل ما يفعلونه أنا مستعد أن استمر فيه وأفعله بخضوع وطاعة " (٢).

وفى إشارة إلى تطرف اليمين الصهيونى فى مواقفه ضد العرب، يقول عوز: "إننى أؤمن بالصهيونية الواضحة التى تتحلى بضبط النفس وأنظر إلى عرب فلسطين كعرب فلسطين فهم ليسوا مسحوق إنسان ينتظرنا أن نعجنه على هوانا إننى أؤمن بالصهيونية التى ترى نفسها كما يراها الآخرون " (٣).

ويرفض عوز كذلك شعارات الصهيونية التى روجت لها وأظهر الواقع أنها مغايرة تماماً ولم تكن على قدر من المسئولية والعقل، فيقول: " إننى أؤمن بالصهيونية التى تعترف سواء بالمعنى الروحى أو بالتجارب السياسية أن هذه الأرض هى وطن لشعبين حكم عليهما أن يعيشا جنباً إلى جنب " (٤). وهو يرى كذلك بأن هذه الأرض لم تكن (أرضا بلا شعب لشعب بلا أرض)، حيث يقول: " إن هذا الشعار أعطى للذين يلوحون به إمكانية لصهيونية بسيطة وسهلة، وأنا لست معهم " (٥).

وقد انعكست مواقف عوز المختلفة تجاه الصهيونية فى هذه الرواية. وأمام الواقع المرير الذى زجت فيه الصهيونية جموع اليهود من شتى أنحاء البلاد تحت أوهام الانصهار والازدهار تسائل عوز على لسان فيما بطل الرواية عن حالة الصهيونية آنذاك واتهمها بالمرض:

" هل كان المرض يكتنف الفكرة الصهيونية منذ بدايتها ؟ " (٦).

وفى سخرية بالغة من شعراء فترة الإحياء القومى، الذين امتلأت قصائدهم بالأشواق والحنين إلى أرض فلسطين، وأسهموا بقدر كبير فى نجاح الفكرة الصهيونية، يتحدث عوز على لسان فيما واصفاً أشعارهم بالعبث والهراء:

(١) عاموس عوز: " بأور هاتيخيلت هاعازاه " (فى الضوء الأزرق الساطع)، مرجع سابق، (ص٧٦).
(٢) نفس المرجع، (ص٧٧).
(٣) نفس المرجع، (ص٨٧).
(٤) نفس المرجع، (ص٨٧).
(٥) نفس المرجع، (ص٧٨).
(٦) نفس المرجع، (ص٨٠).

" هـل تـتذكر الشـطر المشـهور فى قصيدة أمير جلبواع: (فجأة استيقظ إنسان فى الصـباح وشـعر بأنه شعب وبدأ فى السير ؟ هذا هو بالضبط الـهراء الذى أحدثك عنه " [١].

ويبدو هنا أن عوز يشير إلى قصيدة "يهودا ليف جوردون " الشهيرة (استيقظ يا شعبى)، الـتى حـث فيها جموع اليهود على الاستيقاظ من غفوة الشتات والعيش بين الشعوب، وظل يكـرر بيته الشـعرى المشـهور فـى هـذه القصيدة (استيقظ يا شعبى، إلى متى النوم)، ويبدو كذلـك أن عـوز يسـخر مـن تلـك القصائد التى دفعت جموع اليهود للـهجرة إلى فلسـطين، ويمضى قائلاً فى سخرية:

" هـل حـدث لـك ذات مـرة أنـك اسـتيقظت فـى الصـباح وشعرت فجأة بأنـك شـعب؟ ... مـن الذى لديه القدرة على أن يقوم فى الصباح، ويشعر بأنه شعب ؟ ويبدأ فى السير قدما ؟ " [2].

ولم يكتف عوز بوصفه لـهذه الأبيات بالـهراء، بل إنه يصفها بالقذارة:

" لقد حان الوقت لكى نتوقف عن الشعور بأننا شعب، ولنتوقف عن السير. لقد انهينا هـذه القـذارة (صوت نادانى. . لكى نسير – فاتجهنا إلى هناك)إذ إن هذا فى الواقـع أفكـار شبه فاشـية. فأنت لست شعباً ولا أنا ولا أحد ... إننا لسنا شعباً. فعلى الأكثر نحن مجرد سبط ... نحن سبط بدائى. قذارة، إننا بالضبط هكذا " [3].

وينـتقل عـوز عـلى لسـان فيما إلى حاييم نحمان بياليك أشهر شعراء الصهيونية، ويتهمه بالكذب والخداع ولى الحقيقة:

" لقـد زعـم بيالـيك، عـلى سـبيل المـثال، أن الـنجوم خدعـته. وعدته ولـم تف بوعدهـا. حـددت لقـاء ولم تظهـر. أليست الحقيقة هى عكس ذلك: لم تخدعنا الـنجوم، بـل نحن الذين خدعناها؛ وعدنا ولم نف بوعودنا. دعتنا ونسينا أن نجئ إليها، حدثتنا ولـم نسمعها " [4].

وفـى حقـيقة الأمر تنبع سخرية عوز من شعراء القومية اليهودية، من الوضع العام الذى آلـت إلـيه الدولة بعد قيامها، فقد تغنى هؤلاء الشعراء بصهيون وبأرض فلسطين، الأرض الـتى تـدر لبناً وعسـلاً، وصدّقت جموع اليهود تلك الكلمات. ولكن سرعان ما انكشفت الحقـيقة، وغرقـت الدولـة فى الصراعات وملأ الخوف والفزع قلوب هؤلاء اليهود منذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن:

(١) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، ، (ص١٤٤).
(٢) نفس المرجع، (ص١٤٤).
(٣) نفس المرجع، (ص١٤٤).
(٤) نفس المرجع، (ص١٨٩).

" لقـد بـدأت حـياة الـيهود كشعب حينما وجد الراحة فى أرضه، ثم اكتشف فى الـنهاية أن قـوى الابداع و التطور مدفونة تحت طبقات عكرة من الخوف والغضب و المذابح و الاضطهادات والإبادة " (1).

وهو ما جعل الدولة كلـها فى تخبط و انكسار:

" إن الدولة بأسرها منكسرة " (2).

وامـتلأت قلـوب الـيهود فـى ظل هذا الوضع بالشك و اليأس و التساؤلات عن جدوى الحروب و الصراعات:

" فلنغير من وجه التاريخ، ولننه الحروب. فلنحول، إلى الأفضل، جموع القلوب التى تمتلئ بالشك و اليأس " (3).

ويمكـن القول أيضاً، لعل عوز يشير هنا إلى أن الوضع العام الذى تعيشه جموع اليهود فى دولـتهم لم يكـن بصـفة عامـة هـو الوضع الذى وعدت به الصهيونية قبل قيام الدولة. لقد تشـدق هرتسل و جابتونسكى بالراحة و النماء على هذه الأرض، و كانت الحقيقة غير ذلك كمـا يـرى فـيما بطـل الـرواية، و هو ينظر إلى تماثيل لـهما، حين كان يتجول فى شقة والده اليمينى الصهيونى ليلة وفاته، ليسألـهما فى نهاية الرواية و بسخرية عن حالـهما الآن بعد اكتشاف الحقيقة:

" تحسـس بكفـه التمـاثـيل الـبرونزية لكـل مـن هرتسل و جابتونسكى وسألـهما بأدب عن حالـهما هذه الليلة " (4).

وفـى نهايـة الـرواية، رأى فـيما بعـد أن قـرر ترك الحياة السياسية وصراعات قوى الـيمين و اليسـار، أنـه من الواجب عليه أن يسجل للتاريخ نهاية الحلم الصهيونى، فلم يعد للصهيونية مكان الآن:

" وبعـد مـرور سـنوات معـدودة سوف يصبح قادراً أن يسجل بكل وضوح قصة صعود الحلم الصهيونى وأفولـه " (5).

لقد اتضح موقف عوز من الصهيونية بصورة واضحة فى تلك الكلمات التى امتلأت بها صـفحات الـرواية، والـتى لا تكاد تخلو صفحة منها. و هى كلمات تعبر عن حجم الكارثة والشـك والخـوف واليأس والغضب وما إلى ذلك. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتى:

---

(١) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٨١).
(٢) نفس المرجع، (ص١٢٤).
(٣) نفس المرجع، (ص١١١).
(٤) نفس المرجع، (ص٢٥٧).
(٥) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٢٦).

كذب	(الرواية ص٨٦، ٨٩، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٨، ١٩٥ ، ٢٢٥، ٢٢٦).
أكاذيب	(الرواية ص ٨٦، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢١٢).
شك	(الرواية ص ٧٣، ١١١ ، ١٤١).
شك، وهم	(الرواية ٨٣، ١١١ ، ١٦٠ ، ٢٥٨).
كارثة	(الرواية ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٦، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ١٩١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦).
يأس	(الرواية ص ١٧ ، ١١١ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٦، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٧٧ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٣٣).
عار	(الرواية ص ١٧ ، ١٤٥ ، ١٥٧).
خطأ	(الرواية ص ٨٥، ١٢٤ ، ١٢٦).
ألم	(الرواية ص ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٩٨ ، ٢٣٤)/ (١١١ ، ١٣٨).

ثانياً : أثر نتائج حرب ١٩٦٧ في الموقف من الصهيونية :

جاءت حرب يونية ١٩٦٧ التي خاضتها إسرائيل ضد ثلاث دول عربية (مصر - سوريا الأردن)، و احتلت على أثرها أجزاء عديدة من أراضي هذه البلاد، لتمثل محنة جديدة من المحن التي أثقلت كاهل النفسية الإسرائيلية. فعلى الرغم من الانتصار الكبير الذي حققته العسكرية الإسرائيلية، فإنها أضافت أزمة جديدة، وضعت علامات استفهام كثيرة حول المسألة الصهيونية، لا سيما أنها " شكلت من نواح معينة تغييراً ملموساً في الموقف من العرب الفلسطينيين، لم يكن ملموساً من قبل، لدى قطاع من قطاعات المجتمع الإسرائيلي "[1].

" لقد تمخضت حرب يونية ١٩٦٧ عن عدة اتجاهات طفت على سطح الحياة السياسية في إسرائيل، تجاه ما أسفرت عنه هذه الحروب من نتائج التوسع الإقليمي الإسرائيلي باحتلال أراض عربية تبلغ مساحتها أكثر من ثلاثة أضعاف حجم دولة إسرائيل، عبر كل من مصر وسوريا و الأردن ... كان منها اتجاه رفض مبدأ احتلال أراضي الغير بالقوة، ورفض الاعتراف بأن هذه المناطق هي جزء من (أرض إسرائيل الكبرى)، أو أنها يمكن أن تشكل ورقة للمساومة من أجل السلام، واعتبر أن إسرائيل تحولت إلى دولة احتلال استعمارية بما يتناقض مع أخلاقيات الصهيونية المثالية "[2].

(١) د. رشاد عبدالله الشامي : عجز النصر، مرجع سابق، (ص ١٣٧).
(٢) د. رشاد عبدالله الشامي : إشكالية الهوية في إسرائيل، مرجع سابق، (ص ١٨٠ ، ١٧٩).

وقـد عـبر عـوز فى الرواية عن هذه الورطة النفسية فى الوقت الذى أصبح فيه عدد كبير مـن العـرب تحـت السيطرة الإسـرائيلية ممـا خلـق حالة من الخوف والفزع أحياناً من بطش الواقعـين تحت نير الاحتلال، وحالـه من الشعور بالـهزيمة لا بالانتصار أحياناً أخرى. وهو ما عبر عنه فيما بطل الرواية بقولـه:

" لقـد كـان الوضع القومى قبل الانتصار فى حرب ١٩٦٧، أقل خطورة ودماراً مما هو عليه اليوم " [1].

ولم تكـن نتيجة هـذه الحـرب انتصـاراً بقـدر مـا كانـت هـزيمة واندفاعـا نحـو الـهلاك والانحـلال، فالاستعمار واحتلال أراض الغير بالقوة لن يجلب معه إلا حالة من القلق الدائم والخـوف، وهـو نتيجة طبيعية لجنون احتلال أراضى الغير، ووضع يجعل الانتصار فى هذه الحرب هزيمة مروعة:

" إن كـل أجهزة الدولة تنهار، ولا يوجد من يعبأ بهذا. وهذه نتيجة مباشرة لحالة الجـنون بالمـناطق المحـتلة الـتى سيطرت علينا. فالحقيقة السـاخرة تقول، إن أى مـؤرخ سـوف يسـجل فـى المستقبل ذات يوم أن عبد الناصر، قد هزمنا فى حرب يونيو ١٩٦٧ " [2].

إن انتصـار إسـرائيل فـى هذه الحرب بالرغم من كل شىء، كما يرى فيما ، هو قدر أسـود و اندفـاع نحـو الخراب، وضع إسرائيل فى حالة لا مخرج منها، ووضع الصهيونية فى دائرة الاتهام:

" إن انتصـارنا هـذا قـد دفـع بقدرنـا إلى الخـراب. والمارد المسيحانى الذى نجحت الصـهيونية فى إدخالـه إلى القمقم، اندفع خارجها لدى النفخ فى البوق فى ساحة البراق " [3].

وفـى ظـل هـذا المـناخ العـام مـن الإحسـاس بالنصـر فـى هـذه الحرب لدى العسكريين الإسـرائيليين، اسـتغل الـيهود الدينـيون الفرصـة، وأرجعـوا هـذا الانتصـار إلى العـناية الإلـهـية. " وهو تحول تجلت بدايته فى تلك الموجة العارمة التى اجتاحت إسرائيل بأسرها، العلمانـيين والدينـيين على حد السواء، وأضفت على انتصار إسرائيل مغزى دينياً روحياً، مفسـرة الانتصـار عـلى أنه معجزة إلـهية تمت بمساعدة الرب " [4]، مما جعلـهم يستقطبون عـدداً كـبيراً مـن الـيهود العلمانـيين، وهـو مـا جعل فيما يتساءل، فى ظل ذلك، عن حقيقة الـهوية الإسرائيلية:

---

(١) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٠).
(٢) نفس المرجع، (ص١٥٠).
(٣) نفس المرجع، (ص١٥٠).
(٤)د. رشاد عبدالله الشامى: إشكالية الـهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ١٨١).

" وبكـلمات معـدودة ومباشـرة أطلعهـم "فـيما" على ضرورة الاختيار ما بين المناطق التي احتلتها إسرائيل في حرب ١٩٦٧ و بين هويتنا بذاتها " [1].

لقـد تمخضت حرب ١٩٦٧ عن عنف وقتل ودمار بين الجانبين، وتساءل بعض المحللين عـن الانحـلال الأخلاقـي للصهيونية في ظل هذا العنف المتبادل الذي خلّفته هذه الحرب بعد انـتهائها، ممـا أفقـد الجمـيع الشـعور بالأمان وجعل فيما يتهم الانتصار في هذه الحرب والتمسك بالمناطق بأنهما سبب رئيسي في الشعور بهذا الافتقاد، وهو وضع وصفه بالبلاهة والطيش:

" إن الـبلادة والعـنف والشـر تتدفق ذهاباً وإياباً من الدولة إلى المناطق المحتلة ومن المناطق المحتلة إلى الدولة، والنتيجة سوف تكون مدّمرة " [2].

وهكـذا، صـارت مشـاهد القـتل والدمار التي تركتها هذه الحرب صورة يومية تعبر عن الانحـلال الأخلاقـي فـي مقتل طفل عربي أصابه الجنود الإسرائيليون بطلق ناري في رأسه، وتعبر عن الوحشية تجاه الفلسطينيين وانتشار بهيمية العسكرية الإسرائيلية في كل مكان:

" وأنـت يـا سيدي رئيس الـوزراء ؟ ماذا فعلت في حياتك ؟ ماذا فعلت اليوم؟ وأمـس ؟ ... مـاذا فعلـت بالضبط عندما سمعت في الراديو عن مقتل طفل عربي في غزة من جراء طلقة نارية في رأسه ؟ " [3].

" فـي الثانـية عشـرة، سمع "فيما" في نشرة الأخبار نبأ عن مقتل صبي عربي فـي الصباح من جراء قذيفة بلاستيكية، أطلقت على ما يبـدو من بنـدقية جندي بمعسـكر جباليا للاجئين " [4].

" وفـي أقـل مـن نصف ساعة أعد "فيما" مقالاً قصيراً لصحيفة يوم الجمعة عن العلاقـة الوطيدة بين تدهور الوضع في المناطق المحتلة، وبين البلادة العامة الآخذة في الانتشار لدينا في كل مجالات الحياة " [5].

لقـد خلـق هـذا الوضـع المتدهور، في ظل اتساع رقعة الأرض التي احتلتها إسرائيل في هـذه الحـرب، حالـة مـن رد الفعـل المضـاد لـدى الفلسطينيين؛ مما أسفر عن انتشار أعمال المقاومـة الـتي يقـوم بهـا الشـباب الفلسـطينيون. " فقد دفع صبي عربي حياته ثمناً لمحاولة إحـراق عربة جيب إسرائيلية، أضرمت فيها النيران، فتجمع عدد كبير من العرب حولـها،

(١)عاموس عوز: " هامتساف هاشليشي " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٠).
(٢)نفس المرجع، (ص١٣٠).
(٣)نفس المرجع، (ص٩٢).
(٤)نفس المرجع، (ص١٧).
(٥)عاموس عوز: " هامتساف هاشليشي " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٢٩-١٣٠).

ومـنعوا الإسعاف من الوصـول إليــها، وتقديم الإسعافات الأولية للصبي؛ لأنهم ظنوا أن هذا الصبى هو جندى إسرائيلى " (١).

وهكـذا، خلق هذا الوضع الجديد حالة من الكراهية والعنف بين صفوف الجانبين. وأثر هـذا الاحـتلال فـى نفسية الكثيرين من الإسرائيليين ورفض بعض العسكريين الإسرائيليين الخدمـة فـى المـناطق المحـتلة (*)، رفضـاً للأعمـال الوحشية والقتل التى تنتهجها العسكرية الإسرائيلية ضد المدنيين:

" خمسـة آلاف رجـل، خمسـة آلاف مـنا يرفضون بكل بساطة العمل كاحتياط فى المناطق المحتلة وهذا يكفى " (2).

كمـا رسـم عـوز لــهؤلاء المهاجـرين الـيهود إبـان قـيام دولـة إسرائيل. لقد ظن هؤلاء المهاجـرون الـيهود أن دولـتهم سوف تقام بطرق المصالحة المختلفة، وأن هذه الأرض سوف تسـتقبلـهم بكل فخر وترحاب، وسوف يعيشون حياة جديدة أكثر أمناً واستقراراً. ولكنهم فوجئوا بالواقع المرير، فهم يعيشون وسط الدبابات والمدافع وتبادل إطلاق النيران:

" إن الدبابات تحيط بمبنى الكنيست، والمظليون يخترقون محطة البث الإذاعى ... لا ينبغى أن يحدث هذا هنا " (3).

إن هـذا الموقـف الواضـح مـن حـرب يونـية ١٩٦٧، ومـا ترتـب عليها من أوضاع تجاه الموقـف مـن الصـهيونية، يطرحه عوز كسؤال فى محاولة للإجابة عليه فى كتابه (فى الضوء الأزرق السـاطع)؛ فقد طرح سؤالاً حول ما يسميه " الثورة اليهودية "، وهل انتهت بإقامة الدولـة؟ والجيش؟ فـى إشارة إلى الانحلال الأخلاقى الذى انتهجته الدولة؛ لتخلق صورة مطابقـة للجيـتو الـيهودى داخـل دولـة إسـرائيل بالإضافة إلى حالة من الرعب والفزع، إذ يقـول: " إذا كانـت الإجابـة، أنـنا أتممـنا أنفسنا حيث الراحة والميراث فقد خرجنا من أوكرانيا ومدن جاليسيا والضواحى الفقيرة لبولندا وسهول رومانيا ومراكش وبغداد، وجئنا

---

(١) نفس المرجع، (ص٢٣٠-٢٣١).

(*) تجدر الإشـارة إلى أن رفـض الخدمة العسكرية من أهم آثار الانتفاضة الفلسطينية. إنها ظاهرة جديدة وقديـة فى المجتمع الإسرائيلى، قديمة من حيث أن التجمع الصهيونى عرفها من قبل عدة مرات، كان آخرها أثـناء احـتلال جـنوب لبـنان، وهى جديدة من حيث إنها ظهرت مرة أخرى استجابة لتصاعد المقاومـة الفلسـطينية مـنذ أن بـدأت انتفاضة الأقصى، ففى ٣٠ يناير ٢٠٠٢ أصدرت مجموعة من ٥٠ ضابطاً وجندياً من الاحتياط بياناً جاء فيه: أنهم يرفضون الخدمة فى المناطق الفلسطينية المحتلة، وأنهم لـن يشتركوا فيما يسمونه حرب سلامة المستوطنات، وانهم لن يواصلوا القتل بهدف السيطرة والطرد والـهدم والإغلاق والتصفية والتجويع والإهانة لشعب بأكملـه.

(٢)عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٨٣).

(٣) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٨٢).

إلى هنا لإقامة صورة مطابقة وتافهة لتلك الأماكن مع دائرة من الدبابات حولنا. وعلاوة على ذلك فقد أرعبنا أنفسنا وأرعبنا تاريخ هذا القرن وقتلنا ووضعنا هذا العالم على حافة الحرب " [1].

ويمضي عوز، في **هذه الرواية، واصفاً** تداعيات هذه الحرب على المستوى النفسي، حيث كانت لهذه الحرب **أيضاً آثارها النفسية** على المجتمع الإسرائيلي، " فمنذ حرب ١٩٦٧ ولم يعرف فيما طعماً للراحة؛ فقد كان طريقه قبل هذه الحرب واضحاً، كان طالباً في الجامعة، وشاعراً، ورب منزل ولكن هذه الحرب حولته إلى شخصية عصابية، لا فرق بينه وبين أبطال أبراهام يهوشواع العصابيين فعلى الرغم من انفصاله عن زوجته، فهو يعود ويقترح على ياعيل مطلقته أن يعود إليها ويعيش معها. ومثلما حدث مع مولخو فقد حاول فيما - دون أن ينجح - أن ينسى آلامه وفزعه في أحضان الكثير من النساء " [2]. وحاول عبثاً أن يضع حداً للكوابيس الكثيرة التي كانت تهاجمه كل ليلة. فكان يحلم بكوابيس سياسية يبحث فيها عن الكلمة الصائبة، وعن الحل الأمثل في خضم حواراته مع سائقي التاكسيات ونادلي المطاعم التي يرتادها. وفي ذروة يأسه كان يشكل مجلس وزراء مصغرا من أصدقائه؛ ليتشاور معهم حول كيفية إنهاء هذا الوضع المتأزم بعد حرب ١٩٦٧:

" ليس المقصود هو الوضع في المناطق بل الوضع في الدولة، داخل الخط الأخضر بالذات. في المجتمع الإسرائيلي " [3].

وعلى مدار الرواية، وفي ظل هذا الوضع السياسي و النفسي السيئ، ظل فيما يفكر في مغزى الحياة و هدفها، وينظر إليها نظرة تشاؤمية:

" إن السؤال الحقيقي فعلاً هو: ما مردود الثمن. أي ما معنى الحياة، و ما غايتها؟ " [4].

إنه يرى أن الإنسان يسير بلا هدف:

" إن الإنسان يا عزيزي برودكس مخلوق غريب جداً، فريد في غرابته، يضحك حين ينبغي أن يبكي، ويبكي حين ينبغي أن يضحك. يعيش بلا عقل، و يموت بلا رغبة " [5].

---

(١) نفس المرجع، (ص١٤٩).
(٢) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطي، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطي باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٣٥-٣٦).
(٣) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشي " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٤٣).
(٤) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشي " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق (ص٩٦).
(٥) نفس المرجع، (ص٦٣).

وفي مقابل كل هذا كان " فيما " مستعداً أن يرهن كل ميراثه في مقابل يوم واحد من الراحة النفسية :

" في حوالى الثالثة ليلاً، كان أفرايم على استعداد لأن يرهن على الفور كل ميراثه في مقابل يوم واحد أو ساعة من الحرية الداخلية الكاملة مع المشاعر العائلية " (1).

وفي حقيقة الأمر، لم تكن لهذه الحرب آثارها النفسية فقط على المجتمع الإسرائيلى، " فقد كان هذا الانتصار سبباً في تعاسة هذه الدولة كما يرى "فيما" (٢)، فعندما عرض عليه مجموعة من العمال العرب تحديث شقته، صرخ فيما " ساخراً من الحلم الصهيوني :

" في كل أنحاء هذه الدولة البائسة لم يتبق عامل بناء يهودى واحد. ولا حتى سباك أو بستانى. هذا ما جنته مناطقكم من الحلم الصهيونى. فالعرب هم الذين يبنون لنا البلاد ومع ذلك نقتلهم يومياً، هم و أبناءهم " (3).

وهكذا، لم تكن لحرب يونيو١٩٦٧ آثارها السياسية والنفسية فقط على المجتمع الإسرائيلى، " بل فتحت نتائج هذه الحرب من جديد، وربما بشدة أكثر، جروحاً قديمة كانت تبدو وكأنها اندملت خلال تسعة عشر عاماً من الاستقرار داخل الخط الأخضر (١٩٤٨ ١٩٦٧)، فبرزت من جديد مسألة نظام الأولويات في أهداف الصهيونية. ماذا أولاً ؟ دولة يهودية داخل فلسطين المحتلة، أم دولة تكون حدودها متماثلة مع حدود (أرض إسرائيل)؟ وهل تكون المناطق المحتلة ورقة للمساومة من أجل السلام، أم تكون ضمانة من أجل الأمن ؟ وأثيرت مسألة الاستيطان، حجمه، وتوقيته وطبيعة معاملة السكان العرب في المناطق المحتلة: ضم يؤدى إلى التغيير الديموجرافى أم طرد و ترحيل ؟ الخ " (٤)، وهى الأسئلة التي طرحتها هذه الحرب وأثرت تأثيراً سلبياً في الموقف من الصهيونية . .

ثالثا : موقف اليمين و اليسار من السلام :

تقسم الخريطة الحزبية السياسية في إسرائيل إلى عدة تقسيمات، أهمها التقسيم الشائع الذى يقسم هذه الأحزاب الإسرائيلية المختلفة إلى معسكرين مختلفين، هما اليمين واليسار. وترجع هذه التقسيمات إلى اختلاف النشأة التاريخية والفكرية والعقائدية ولتباين الاتجاهات السياسية والبرامج العملية لتلك الأحزاب. وتدور المواقف السياسية في إسرائيل تجاه العرب والفلسطينيين، بصفة عامة، في فلك هذين المعسكرين الرئيسين، حيث يتسم

(١) نفس المرجع، (ص٢٥٨).
(٢) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٣١).
(٣) نفس المرجع (ص١٤٧).
(٤) د. رشاد عبدالله الشامى: إشكالية الهوية في إسرائيل، مرجع سابق، (ص ١٨١).

موقف اليمين الإسرائيلى فى الصراع بأنه الموقف القومى المتطرف الذى لا يرى للصراع العربى الإسرائيلي نهاية، بينما يبدو الموقف اليسارى الإسرائيلي بأنه الموقف اللين المتسامح الداعى للسلام والحل الوسط.

ودائماً ما تخضع الخريطة السياسية فى إسرائيل ومنذ ما قبل قيام الدولة إلى صراع دائم على السلطة بين حزبين كبيرين هما المعراخ (•) (العمل) كممثل لليسار الإسرائيلى، والليكود كممثل للتكتل اليمينى الإسرائيلى، حيث " ظلت الصهيونية الاشتراكية هى القائدة والمهيمنة على المؤسسات الصهيونية قبل قيام الدولة، واستمر حزب (المباى)، و بعد ذلك (حركة العمل الإسرائيلية) فى حكم إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ و حتى عام ١٩٧٧، ليحدث (الانقلاب) الذى أحدث تغيرا جذريا فى الحياة السياسية فى إسرائيل، من نظام الحزب الواحد إلى الصراع بين حزبين كبيرين هما (العمل) و (الليكود). وقد أحدث صعود (الليكود) كممثل لمفاهيم الصهيونية الجابوتنسكية، انقلاباً حقيقياً فى العديد من المفاهيم السياسية و الثقافية و اليهودية التى كانت سائدة حتى عام ١٩٧٧ " (١).

ومنذ ذلك الحين، تشهد الانتخابات الإسرائيلية صراعاً حاداً بين هذين الحزبين؛ حيث يحاول كل منهما استمالة الشعب الإسرائيلي نحوه، وغالباً ما يلعب الصراع العربى الإسرائيلى دوراً فاعلاً فى حسم هذه الانتخابات، من خلال البرامج الحزبية التى يضعها كل حزب لحل هذا الصراع، وأسلوب الاتجاه نحو السلام والأمن الإسرائيليين.

وعلى سبيل المثال، ضم الكنيست الإسرائيلى الخامس عشر (مايو ٢٠٠١ مايو ٢٠٠٤)، بعد فوز آرئيل شارون كممثل لليمين الإسرائيلى فى الانتخابات برئاسة الحكومة، مائة وعشرين مقعداً، تم تقسيمهم بين معسكر اليمين الإسرائيلى وضم أحزاب (ليكود شاس الاتحاد القومى إسرائيل بيتنا المفدال يهودية التوراة يسرائيل بعلياه شعب واحد) ومعسكر اليسار وضم أحزاب (العمل إسرائيل واحدة جيشر ميرتس شينوى القائمة العربية حداش بلد)، بالإضافة إلى أحزاب الوسط العلمانى.

(•) المعراخ: تعد الأحزاب العمالية من أكبر الأحزاب التى حكمت إسرائيل، بدءاً من " بن جوريون " ونهاية بـ " إسحاق رابين ". ويمثل حزب الماباى (حزب عمال أرض إسرائيل)، و " أحدوت هاعغودا " (اتحاد العمال)، و " رافى " (قائمة العمال الإسرائيلية) الدعائم الأساسية للأحزاب العمالية فى إسرائيل، وقد تجمعت الأحزاب الثلاثة الأولى فى عام (١٩٦٨) مكونة (حزب عمال إسرائيل) وفى ٢٠/١/١٩٦٩ انضم " المابام " إلى هذا الحزب مكونين ما تعارف عليه حتى الآن باسم " المعراخ " أى (التجمع العمالى). (انظر: تطور الأحزاب والحركات السياسية فى إسرائيل، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٨٤، ص٧).

(١) د. رشاد عبدالله الشامى: إشكالية الهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ١٧).

وتنبثق رؤية اليسار الإسرائيلى للسلام وللصراع العربى الإسرائيلى، بصفة عامة، من أن السلام هو قيمة حقيقية للحياة فى إسرائيل. ويرتكز صنع السلام من وجهة نظر اليسار الإسرائيلى إلى قوة الجيش الإسرائيلى، والقوة العامة لدولة إسرائيل، والقدرات الردعية للدولة والرغبة فى إحلال الاستقرار فى الشرق الأوسط. ويرى اليسار الإسرائيلى أن معاهدات السلام التى ستكون إسرائيل طرفاً فيها، يجب أن ترتكز إلى الحفاظ على أمن إسرائيل ومصالحها أولا، وهى مهمة الجيش الإسرائيلي الذى يمكن له أن يتصدى لأية محاولة من جانب الفلسطينيين. إن التسوية السلمية من وجهة نظر اليسار لابد أن تضع فى اعتبارها المصالح الحيوية لإسرائيل.

وبشأن قيام دولة فلسطينية، يرفض اليسار قيامها من جانب واحد، وقبل توقيع الاتفاق النهائى، بمعنى أن قيام دولة فلسطينية يستلزم أولا التأكد من أن القيود الأمنية والسياسية المتفق عليها تعكس ذلك، وإن كانت إسرائيل تحبذ كونفدرالية فلسطينية أردنية، كما يرى اليسار الإسرائيلى.

وهكذا تنطلق رؤية اليسار الإسرائيلي للسلام من أهمية الحفاظ أولا وقبل كل شيء على أمن إسرائيل، وهى رؤية تجتنبها بعض الأمور التى قد لا تحل المشكلة، وبخاصة أن اليسار ينظر إلى القدس على أنها عاصمة أبدية لإسرائيل، وستبقى موحدة وكاملة تحت سيادة إسرائيل.

وتختلف رؤية اليمين الإسرائيلى للسلام والصراع العربى الإسرائيلى بعض الشيء، لاسيما أنها تتسم بالشدة والتطرف أحيانا، فاليمين الإسرائيلي ينظر إلى إسرائيل على أنها " دولة يهودية صهيونية وديمقراطية. والصهيونية هى حركة التحرير الخاصة بالشعب اليهودى، ويجب أن يوضع تحقيقها فى رأس سلم الحكومة الإسرائيلية. وتشكل دولة إسرائيل وسيلة لتحقيق أهداف الصهيونية، وهناك ضرورة لأن تعمل الحكومة بإخلاص من أجل تحقيق أهداف الصهيونية، من خلال زيادة الهجرة والاستيطان وبناء البلد وتطويره عبر هذا الاستيطان. ويرى اليمين الإسرائيلي ضرورة ارتباط يهود الشتات بدولة إسرائيل وبتراث إسرائيل "[(١)].

وترتكز أسس السلام لدى اليمين الإسرائيلي إلى أن السلام هدف حيوى أيضاً يمكن أن يتحقق عبر بوابة الاتفاقيات السلمية مع الجيران العرب، ولكن قبل تحقيقه لابد أن تتوقف أعمال المقاومة الفلسطينية ضد الشعب الإسرائيلى، وبخاصة خلال فترة المفاوضات. وقبل تحقق هذا السلام لابد من وقف التحريض ضد إسرائيل فى وسائل الإعلام الفلسطينية وفى

---

(١) انظر: ملف الانتخابات الإسرائيلية، مجلة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٣٩، ١٩٩٩، (ص١٠٤).

جهازها التعليمى ، وجمع الأسلحة غير المشروعة الموجودة لدى السكان الفلسطينيين . ويرى اليمين الإسرائيلى الصهيونى أن عملية الدمقرطة المتدرجة للسلطة الفلسطينية وللدول العربية عنصر مهم من أدوات بناء الثقة قبل المضى فى عملية السلام (•) . كما أن المفاوضات مع السلطة الفلسطينية ، من وجهة نظر اليمين الإسرائيلي ، لابد أن تضع المصالح الحيوية لدولة إسرائيل فوق كل اعتبار . ويرى اليمين الإسرائيلى أن الاستيطان تعبير واضح عن حق شعب إسرائيل غير القابل للنقض فى أرض إسرائيل ، فلابد من تطويره وزيادته كعنصر مهم للدفاع عن المصالح الحيوية لدولة إسرائيل .

ويرفض اليمين الإسرائيلي إقامة دولة عربية فلسطينية غربى نهر الأردن رفضاً مطلقاً ، ويرى أن الفلسطينيين يمكنهم أن يديروا شئونهم فى إطار حكم ذاتى ، لا فى إطار دولة مستقلة ذات سيادة .

أما القدس ، بالنسبة لليمين الإسرائيلى ، فهى عاصمة موحدة لإسرائيل وحدها ، وهناك رفض مطلق لأية محاولات لتقسيمها .

وعلى هذا الأساس ، تباينت أوجه الخلاف بين قوى اليمين الصهيونى الذى يمثله حزب (الليكود) ، واليسار الإسرائيلى الذى يمثله حزب (العمل)فيما يتعلق بقضية الصراع العربى الإسرائيلى ، والتوجهات نحو السلام ، ومسألة الأرض . وتأرجحت الاتجاهات بين المعسكرين حول هذه القضايا فيما يشكل صراعاً بينهما أخذ يشتد مع صعود اليمين للحكم . وظهر على الساحة السياسية فى خضم الصراعات الداخلية الإسرائيلية اتجاهان يعبران عن الصراع بين هذين المعسكرين و توجهاتهما نحو السلام

(أ) " اتجاه تتبناه القوى اليمينية الصهيونية وعلى رأسها (الليكود)يقضى بضم الأراضى الفلسطينية المحتلة إلى إسرائيل ، ومنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً ، فى المسائل المتعلقة بالتعليم والأحوال الشخصية والقضاء والصحة وغيرها من المجالات ، مع الإبقاء على السيطرة الأمنية و توسيع المستوطنات " (١) .

(ب) " اتجاه تتبناه قوى اليسار فى إسرائيل ، ويقضى بتنفيذ مبدأ (الأرض مقابل السلام)مع بعض الترتيبات الأمنية التى تضمن أمن إسرائيل ، وعدم تعرضها لهجوم مباغت من إحدى الدول العربية " (٢) .

(•) ربما تذكرنا هذه النقطة بشروط شارون زعيم الليكود والتكتل اليمينى المتطرف التعسفية بعد توليه رئاسة الحكومة الإسرائيلية فى مايو ٢٠٠١ ؛ حيث طالب بتغيرات جذرية فى السلطة الفلسطينية قبل المضى فى المفاوضات مع الفلسطينيين ، وطالب أيضاً بتنحية الرئيس الفلسطينى المنتخب عن السلطة كشرط لتحقيق السلام .

(١) د. رشاد عبدالله الشامى : إشكالية الهوية فى إسرائيل ، مرجع سابق ، (ص ١٨) .

(٢) نفس المرجع ، (ص ١٨ ، ١٩) .

وبعـيداً عـن أن هذيـن الاتجـاهين لا يعبران عن الطموح العربى الفلسطينى ؛ على اعتبار أنهمـا يضـعان الأولويـة الإسـرائيلية فى المقام الأول، و بعيداً عن اتجاه معسكر اليسار الذى يتصـف بالسـلبية فى صراعه مع اليمين بشأن الصراع العربى الإسرائيلى أحياناً، و فى تردده نحـو قيام دولة فلسـطينية، يشترط أن تكون منزوعة السلاح لاعتبارات أمن إسرائيل أحياناً أخـرى، يمكـن القول، إن هذين المعسكرين حتى وإن اختلفت أو تباينت وجهات نظرهما بشـأن الصـراع حـول الأرض والسـلام، يـدوران مـع عملية السلام فى حلقة مفرغة مادامـا يضـعان مصـالح دولة إسرائيل فقط فى الاعتبار دون الطرف الآخر، وهو ما حدث بالضبط بعـد أن اندلعت انتفاضة الأقصى فى أعقاب زيارة شارون للمسجد الأقصى فى سبتمبر عام ٢٠٠٠، بعدهـا عـادت عملـية السـلام إلى الصـفر وبدأ الدوران فى الحلقة المفرغة يعود من جديـد، حيث ازدادت عمليات المقاومة الفلسطينية داخل إسرائيل، وفشلت كل المحاولات الأمنية الإسرائيلية، وتكبدت إسرائيل خسائر بشرية ومالية فادحة، ربما لم تتعرض لـها من قبل، وربما أثبت ذلك أيضا أن هناك ضرورة ملحة فى أن يعيد اليمين واليسار معاً النظر فى رؤيتهما للسلام التى ترتكز إلى المصالح الإسرائيلية فقط.

ويمكـن القـول أيضـاً، إن الصـهيونية خلقت بقصد أو بغير وعى تاريخي كامل، الوجه الآخـر للمشـروع الصـهيونى وهو الحق العربى للفلسطينيين فى أرضهم، وفى دولة خاصة بهـم. وإذا كانـت إسـرائيل قـد تصـورت أنهـا نجحـت بطـريق أو بآخـر اعتباراً من حقبة السـتينيات، وبالـتحديد بعـد نشـوب حـرب ٦٧ ومـا ترتـب عليها، فى نزع فتيل الصراع العـربى الإسـرائيلى، فينـتهى الأمـر بعـد حرب ٧٣ إلى عقد معاهدة سلام مع مصر فى عام ١٩٧٩ لتسترد مصر سيناء بأكملـها، ثم عقد معاهدة سلام مع الأردن ١٩٩٤ فتخرج بذلك أكـبر دولـة فـى العالم العربى وهى مصر من حلبة الصراع ثم الأردن، ليتحول الصراع بعد ذلـك إلى صـراع فلسـطينى إسرائيلى، إذا كانت إسرائيل قد تصورت أنها نجحت فى هذا، فإنـه لا يمكـن لأحـد أن يدعـى أن انحصـار الصـراع فـى هـذا الإطـار قد وضع حداً لمشاكل إسـرائيل، وأنهـا قـد وجدت حلاً سحرياً لإشكاليتها؛ بانفرادها بالشعب الفلسطينى الذى ناضـل وسيناضل من أجل تحقيق حلمه هو الآخر فى إقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس الشـريف، مهمـا بلغت ضراوة إسرائيل فى تعاملـها معه ومهما كان حجم التضحيات التى سيدفعها ثمـنا لذلـك. ويـبقى هذا الأمر محلاً لاختبار رؤية اليمين الصهيونى المتطرف الذى أعـاد طرح شعارات الصهيونية من جديد محاولاً فرض رؤيته على الشعب الفلسطينى مدعياً أن الضـفة الغربـية هى جزء عضوى من أرض إسرائيل المدعاة، وهى معضلة ستجيب عنها كـلمة الـتاريخ ربمـا فـى المسـتقبل القريب أو البعيد، عندما يكتشف دعاة اليمين الصهيونى المتطرف أنهم بالفعل معادون للتاريخ، ولا يسـتفيدون من عبر الماضى.

وقد عبر عوز في هذه الرواية، وهو ينتمي إلى معسكر اليسار باعتباره أحد أعضاء حركة (السلام الآن *)، عن هاتين الرؤيتين للسلام، موضحاً تعنت اليمين الصهيوني وتأثير ذلك في المجتمع الإسرائيلي، وواضعًا الصهيونية كذلك في بؤرة الاتهام والتسبب في هذا الصراع الدائم.

" إن الشخصيات التي تتراءى أمامنا في الرواية تجعلنا ننظر إليها على أنها رواية سياسية. فيمكننا أن نقسم هذه الرواية إلى معسكرين متخاصمين: معسكر اليسار ويمثله "فيما" وأمه وأصدقاؤه ... ومعسكر اليمين الصهيوني ويمثله أبوه ومطلقته "ياعيل" وزوجها "تيد" " (١).

" فأبوه، "باروخ نومبرج"، من قدامى حركة "حيروت" (الرواية ص ٢٨)يكمن موقفه السياسي في حرصه على أن تظل أدوات المأكل والأثاث في المنزل على النحو الذي كانت عليه بين يهود وسط أوروبا ... لقد كان هناك صراع دائم بين الأم والأب حول أسلوب تربية وتعاليم "فيما" ؛ لذا فقد صار بينهما صمت يشوبه التوتر. فالأم ظلت حتى موتها تحاول أن تبعد "فيما" عن تأثير الأب، و بعد موتها ألقى الأب بأمتعتها وملابسها خارج البيت، (لقد محا أية ذكرى لها)، وحاول بكل جهده أن يعدّل من تعاليمها اليسارية لـ "فيما" من خلال السعي لتلقينه تعاليم متزمتة وعنيفة " (٢).

ويمثل التعارض بين الأم والأب، تعارضاً رئيسياً بين اليمين و اليسار، فعلى الرغم من موت الأم أم فيما وهو في سن العاشرة تقريباً، وتولى الأب باروخ المسئولية من بعدها في تربية فيما ، فلم ينجح باروخ في التأثير في ابنه بتلك التعاليم الصهيونية المتطرفة، حيث اختار له زوجته ياعيل اليمينية المتطرفة ولكن سرعان ما انفصل الاثنان لعدم تقاربهما في الأفكار ووجهات النظر، وهو انفصال يعبر عن فشل الأب في إكساب ابنه رؤى الصهيونية المتطرفة، فأفكارها السياسية تتفق معه وليس مع ابنه؛ وقد التقت بعد انفصالها بمن يتفق معها ومع باروخ وتزوجت من تيد الأمريكي الأصل، وسافرت معه في مهمة سرية إلى أمريكا، لتطوير آلة حربية إسرائيلية،

(*) السلام الآن: تعد هذه الحركة هي حركة ذات طابع صهيوني ليبرالي معتدل، وتعد امتداداً لحركة السلام الإسرائيلية بعد حرب (١٩٦٧)، وتضم في صفوفها العديد من أبرز رموز الثقافة والفكر في إسرائيل، وشخصيات متنوعة تضم أساتذة جامعات، وأدباء مشهورين، ورجال أعمال، وقادة سابقين في جيش الدفاع الإسرائيلي، وشخصيات عامة قيادية من بينهم وزراء سابقون في الحكومات الإسرائيلية، والآلاف من المتعاطفين مع الحركة وأهدافها.

(١)يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطي، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطي باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٢٨).

(٢) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطي، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطي باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٢٩).

بعـد أن تبنى باروخ مشروع تمويل هذه الآلة باعتباره مشروعاً ذا أهـمية قومـية ، قامت به ياعـيل فـى إحدى القواعد السرية للجيش الإسرائيلى ، واستلزم الأمر بعد ذلك ضرورة سفرها إلى أمريكا من أجل إكمالـه .

وعـلى ضـوء تلك الصراعات بين اليمين واليسار الصهيونيين ، أبرز عوز فى هذه الرواية الرؤى المختلفة للتوجهات نحو السلام بين اليمين واليسار عبر شخصيات عديدة التقى بها فـيما وتحاور معها بشأن الأرض والسلام ، ليعبر لنا فى النهاية عن شرائح مختلفة تمثل قوى سياسـية عديـدة تـتأرجح ، أحياناً ، فى التقدم نحو للسلام ، وترفضه تماماً فى أحيان أخرى ، فهـو حائـر مـا بـين الخضـوع للواقـع ، والاتجـاه نحـو السـلام ، و بـين التخـلى عـن مـبادئ الصهيونية .

ويصـل بـنا عـوز فـى الـنهاية إلى غلبة تأثير الصهيونية السلبى على الشعب الإسرائيلى ، وهـو الـتأثير الـذى أوقـع بطل الرواية فى حيرة ما بين الخضوع للواقع والاتجاه نحو السلام ، وبـين التخـلى عـن مبادئ الصهيـونية التى " لجأت إلى كل الوسائل غير الأخلاقية والبعيدة عـن الشـرعية للحصـول على الأرض وتفريغ فلسطين بالكامل من سكانها الفلسطينيين عـن طـريق الطـرد ، ونـزع الملكـيات ، وهدم المـنازل وتـرويع المواطـنين ، ودفعهم إلى تـرك أرضهم " [(١)] .

وهـذه الحـيرة تلقـى الضـوء عـلى التنازع المزدوج فى النفس اليهـودية ، " فبالرغم من نـزوع الشخصـية الـيهودية الإسـرائيلية نحو السلام أحياناً كرد فعل لفظائع الحروب ، ورغبة فى الحياة الـهادئة بلا تهديد ، مهما كان الثمن الذى سيدفع فى مقابل هـذا (دولة فلسطينية ، وتخـل عـن الأرض ، وإزالـة المسـتوطنات . . الخ)فإنهـا تظـل بشـكل مستمر فى حاجة إلى الشخصـية القويـة الـتى تختزن فى داخلـها كل مقومات العدوانية والقسوة ، لأنها هى الدرع الوحـيد التى يثقون فى قدرتها على الدفاع عن وجودهم ، و من هنا كان التنازع الرهيب فى النفسـية الإسـرائيلية بـين الرغـبة فـى السلام والخوف منه " [(٢)] ، و بين رغبة اليسار فى حل وسـط ، ورغـبة اليمين فى مزيد من الحرب والقسوة ، والعنف وهو ما عبر عنه عوز فى تلك الرواية من خلال هذين الموقفين :

(١) موقف اليسار الإسرائيلى من السلام :

عـبر عـوز فـى هذه الرواية عن توجهات الفرد الإسرائيلى نحو السلام من خلال " فيما " الـذى ظهـر مـتمرداً عـلى الواقـع وعـلى الدولة ومفاهيمها نحو السلام ، وأرقه ما يجرى فى الأراضى المحتلة ، وما يحدث داخل إسرائيل والمجتمع الإسرائيلى .

---

(١) انظر : د. محمد خليفة حسن : الوضع الأخلاقى للصهيونية ، مرجع سابق (ص ٦٣) .
(٢) د. رشـاد عـبدالله الشـامى : الشخصـية الـيهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق ، (ص ١٤٦) .

هـذا البطل يقول فى نهاية الرواية لأبطال الفيلم الذى يشاهده فى السينما، وكأن كل ما يشـاهده فـى الواقـع هو مشهد سينمائى: " إذا أردتم أن تستريحوا وتريحوا فليترك كل منكم الآخـر فـى حالــه، وكونـوا خيريـن. "[1] كما تكثر فى هذه الرواية تساؤلاته نحــو ماهية السلام، وكيف يحدث؟ وعلى أية صورة يكون؟ :

رأى نفسه فـى خيالـه وهـو يجمع وزراءه فى جلسة لمجلس الوزراء المصغر فى منتصـف الليـل. . . وفـى الفجـر سـوف يمـرر قـراراً بأغلبية الأصوات، يقضى بإخراج قواتنا فى المرحلة الأولى من قطاع غزة دون حتى اتفاقية "[2].

لقـد اعـتـاد "فيما" ، خـلال هـذه الـرواية، تصـوير نفسه على أنه المسئول الأول عن الدولـة؛ لذلك كان يجمع مجلس وزراء من أصدقائه، ويعرض عليهم مقترحاته حول بعض الأمـور التى تشغلـه. ونلاحظ هنا أن " فيما" يفكر فى السلام، ولكنه يخشى عواقبه. فهو يقـترح الانسـحاب مـن الأراضـى مـع وضـع تصـورات لمـا يمكـن أن يحـدث، فـإذا حافظ الفلسـطينيون على الـهدوء، وأثبتوا توجههم نحو السلام، فسوف ينتظر عامين حتى يطمئن إلى ذلـك (•)، وهـو مـا يـبين قلقـه تجاه حقيقة السلام، فيتنازع مع نفسه حول الرغبة فيه أو الخـوف مـنه. فهـو يـرى أن الدولـة تـبدد فرص السلام السانحة أمـامها، ويصف زعماءها بالعصابة:

" ... وانـتهى إلى أن هـذه الدولـة وقعـت فـى أيـدى عصابة من المختلين، يندفعون مراراً وتكـراراً نحـو تدمـير وفقد كل أمل فى السلام، لأن السلام يبدو لـهم كخدعة نازية تضمر إبادتهم.(••) "[3].

وهكذا، يرى "فيما" أن الدولة وقعت فى أيدى عصابة تخشى السلام، على الرغم من أن بعضهم ينشده؛ وذلك لأن الماضى يرفرف أمامهم، وأحداث النازى عالقة فى أذهانهم، فهم يخشون من ألا يحقق لـهم السلام الأمن المنشود.

---

(١) أحمد عمر شاهين: الرواية الإسرائيلية المعاصرة، مجلة إبداع، العدد الثانى فبراير ١٩٩٥، ص(١٥).
(٢) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٣).
(•) يذكـرنا هـذا بموقـف رئيس الوزراء الإسرائيلى شارون من الفلسطينيين عام ٢٠٠٢ ومطالبته لـهم بأن يكفوا عن المقاومة وعما يسميه بأعمال العنف، ثم بعد ذلك يتم التفاوض إذا ما رأى أنه يمكن أن يعطى للفلسطينيين ما يسميه تنازلات.
(••) مازالـت عقـدة الـنازية سمـة قابعة فى النفس اليهودية ولا مناص منها عند الإقدام على فعل شىء، وهـى سمـة علـق عليها علماء النفس بقولـهم، إنها تزيد الموقف تعقيداً، أى موقف، حيث تتشابك حلقاته وتتداخل الأسباب بالنتائج ويمتزج الفعل برد الفعل بحيث يصبح الأمر فى نهاية المطاف وقد غدا من الصعب معرفة أيهما أعمق جذوراً، وأشد تأثيراً، تعالى اليهود وعزلتهم، أم اضطهاد الآخرين.
(٣) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٣).

ويـرى "فيما أنه حان الوقت لوضع حد لدائرة الدماء، وفتح صفحة جديدة؛ لأن ذلك هو السبيل الوحيد للسلام:

" ومـع ذلـك سـوف يقـترح من الآن وضع حد لدائرة الدماء، والبدء معاً فى بناء مستقبل، يتسـم بالحكمـة، مـن خلال الحل الوسط والمصالحة، والشرط الوحيد للبدء فـى المفــاوضـات سـوف يكون التوقف النهاى عن أعمال العنف من كلا الطرفين. "[1].

وإذا لم تمتـثل الدولـة لمطالب الشعب فى الســلام فإن (الثورة)هى الحل الوحيد فى رأى " فيما " :

" ومـن الآن سيسـمى مجلس الـوزراء المصـغر بمجلس الثورة. وستتم العملية الانقلابية خـلال ستة أشهر. وحينئذ، سوف يكون هناك سلام، بعدها نعود جميعاً كل منا على الفور إلى شئونه، ولن نواصل التدخل مرة أخرى فى شئون السلطة المنتخبة. "[2].

ولعـل ذلـك يشـير إلى أن هـناك جزءاً من الشعب الإسرائيلى بمختلف طوائفه يرغب فى الســلام، ويـنتمى إلى حـركات تدعو إليه، وتعبر عن متطلباته مثل حركة " السلام الآن " ، وهـى إحـدى الحـركات الـتى تـنظر إلى السلام على أنه أمر حيوى لابد أن ينطوى على حل يرضى جميع الأطراف.. وهذا ما يفكر فيه " فيما " :

" مـن الممكـن أيضـاً أن أنضـم إلى أحد الأحزاب الحالية... وأضفى ضوءاً جديداً على الوضـع القومـى، حـتى تـتحرك تلك القلوب الصلدة للغاية. وهكذا، نصل إلى الدفة التى ستقودنا إلى إقرار السلام فى البلاد "[3].

وتـبقى الحـرب دائماً وفقد الأموات وزيادة عدد الثكلى، وموت الأبناء هى بمثابة جرس إنـذار، قـد يدفع الفرد الإسرائيلى للتفكير فى السلام، على الرغم من التشكك فى جدواه، فتقول "شنيد مان" إحدى شخصيات هذه الرواية فى حديث لـها مع " فيما " :

" فلـيأت السـلام فحسـب لدولتنا الغالية، لأنه من الصعب علينا أن نعانى بسبب الذين يموتون طوال الوقت "[4].

وهكـذا، " بدأ الإحساس بالدوران فى الحلقة المفرغة من الحروب، والسأم من كابوس الحـروب المتعاقـبة، والتشـكك فـى جدواهـا يعـم الكـثيرين، وبـدأت تتسـرب المشــاعر والانطـباعات الـتى تعبر عن مناخ الرفض لاستمرار أهوال الحرب، والتمرد على الموت بلا

(١) نفس المرجع، (ص٧٠).
(٢)عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق (ص٧٠).
(٣)، نفس المرجع، (ص٧٣ـ٧٤).
(٤) نفس المرجع، (ص١٥٩).

ثمن، والافتقار إلى الأمل فى حياة هادئة فى المستقبل، ورفض التوالد يأساً من المستقبل، ورفضاً لأن يكون الأبناء وقوداً لمزيد من الحروب. وقد شهدت فترة حرب الاستنزاف مجموعة من ردود الفعل العارمة التى اجتاحت قطاعاً عريضاً من المجتمع الإسرائيلى، مطالبة بوضع حد لهذه الحروب، وبالسعى إلى السلام بأى ثمن مع العرب، ولو على حساب التخلى عن الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى حرب يونيو ١٩٦٧ " [١].

وهكذا أيضاً، يظل (الفرد الإسرائيلى)متأرجحاً ما بين الرغبة فى السلام الذى يتطلب التنازل عن الأرض وبين الخوف منه، لكن التنازل يجب أن يكون مبنياً على الثقة، والفرد الإسرائيلى غالباً ما يتشكك فى الطرف الآخر (العرب)، والسلام لن يتحقق إلا بإعادة الأراضى المسلوبة، وهو ما يدركه جيداً؛ لذلك فهو يتردد تجاه السلام أحياناً، ويقع فى تناقض رهيب مابين الرغبة فيه والخوف منه ما دام ذلك سيقابله التنازل عن الأرض:

هناك معنى، حينئذ، لأن نحاول صياغة ميثاق يحدد بالضبط أين حدود استعدادنا المعتدلة الخاصة بنا من أجل تقديم تنازلات للعرب " [2].

(٢) موقف اليمين الصهيونى الإسرائيلى من السلام:

عبر عوز أيضاً عن موقف اليمين الصهيونى من السلام، وهو موقف تبنى المبادئ غير الأخلاقية للصهيونية فى استخدام القسوة والعنف وترويع الفلسطينيين، لاسيما وقد حسم بعضهم موقفه، وحدد أطراً عديدة لمفهوم السلام الذى يحلم به، بدونها لا يرضى به. وبعضهم الآخر رفضه تماماً؛ أملاً فى أن القوة ستحقق لهم الأمن، فهم يرون أن العرب لا يريدون السلام، بل يريدون إبادتهم وتدميرهم. فيقول الأب لـ "فيما" فى هذه الرواية:

" . إنهم يريدون ذبحنا. إن كل ما يريدونه هو إبادتنا " . [3]

كما أن فكرة الحل الوسط غير واردة، عند بعض الإسرائيليين، على الإطلاق. فالحل الوسط يمكن أن يكون مع أى أحد إلا العرب:

" حل وسط، بالطبع، هذا أجمل ما قلت. فالحل الوسط أمر ممتاز لا يوجد له مثيل. فالحياة كلها قائمة على الحل الوسط. . لكن مع من تصنع حلا وسطا ؟ مع الذين يطلبون دماءنا، ومع الذين يتطلعون فقط إلى إبادتنا ؟ " [4].

وهكذا، يرفض الأب السلام، ويحدد رأيه فيه بحسم، ويرى أن هناك انعداماً للثقة فى الطرف الآخر الذى لا يريد السلام، وإنما يريد فقط إبادتهم وذبحهم. وهذا الحسم نجده أيضاً لدى أحد السائقين فى حديثه مع "فيما" :

---

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ١٨٢).
(٢) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٩٦).
(٣) نفس المرجع، (ص٦٤).
(٤) نفس المرجع (ص٦٤).

" لنقتلهم فهم مازالوا صغاراً. ولا نسمح لهم برفع رءوسهم، فلنجعلهم يلعنون ذلك اليوم الذى فقدوا صوابهم فيه معنا. . . وعند خروجه من التاكسى سأل "فيما" السائق: حينئذ، ماذا سيحدث ؟ وإلى متى فى رأيك سوف نستمر فى قتل كل منا للآخر ؟ فقال السائق: حتى مائة عام. هكذا حدث أيضاً فى عصر التوراة. لم يكن هناك ثمة سلام بين اليهود وغير اليهود" . [1].

وهناك من رأى أن السلام دون ضمانات كافية، مثل الأمن الشامل، لن يصبح سلاماً. وربما ينطبق هذا الموقف على رؤية اليمين الإسرائيلى للسلام، حسبما كانت مطروحة فى الانتخابات الإسرائيلية فى مايو ٢٠٠١ :

" إننى من أجل السلام الحقيقى، الذى يقولون عنه، مع الأمن والالتزام وكل الضمانات والأمن الشامل " [2].

وهناك من حسم الموقف من منطلق القوة والتشكك فى مؤتمرات السلام، ودعا إلى التريث وعدم الاستعجال حتى يكون هناك ردع إسرائيلى يحقق الأمن:

" أوصى أحد الخبراء القدامى فى القانون الدولى الحكومة بعدم التسرع فى الجرى وراء مؤتمرات السلام المشكوك فيها؛ فعلينا أن ننتظر حتى يحدث على الأقل ردع إسرائيلى. وعلينا ألا نقترب، معاذ الله، من مائدة المفاوضات من خلال موقف ضعف واستعجال، بينما سيف الانتفاضة موجه إلى رقابنا. فالمفاوضات ربما تكون جادة فقط عندما يدرك العرب فى النهاية أن ليس لديهم أى أمل سياسى أو عسكرى، أو أى أمل، فيأتون للتوسل أمامنا وهم مستسلمون حتى نصنع معهم سلاما " [3].

وهكذا، يمكن القول من خلال ما سبق، إن السلام أصبح أمراً شائكاً ومحيراً شأنه شأن المجتمع الإسرائيلى، اختلفت الرؤى والتوجهات نحو مفهومه. وهو أمر ربما يعود إلى طبيعة تكوين المجتمع الإسرائيلى؛ فهو مجتمع يضم بين عناصره أيديولوجيات عديدة، وطوائف شتى يصعب أن تتجه جميعها ناحية هدف واحد، لاسيما أن إسرائيل كدولة " تتكون من عدة أمم تتعدد فيها الأعراق والثقافات والاتجاهات الفكرية؛ فبالإضافة للبنية التقليدية للمجتمع الإسرائيلى من عناصر السفارديم والإشكيناز والصابرا والمهاجرين الجدد والعرب الفلسطينيين، تتزاحم داخل المجتمع الإسرائيلى وتتناحر الأيديولوجيات المختلفة، حيث ينقسم الإسرائيليون إلى يهود متشددين، وقوميين، ودينيين، وتقليديين، وعلمانيين وغير

(١) نفس المرجع، (ص١٢٧).
(٢) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٨٣).
(٣) نفس المرجع (ص٢٣١).

ذلك من الفئات ؛ مما أدى إلى تشرذم المجتمع الإسرائيلي وتفتته إلى عدة ثقافات ولهجات " (١) وهو ما جعل التعامل مع أى موقف، أو حتى مع السلام بالنسبة للمجتمع الإسرائيلى على اختلاف طوائفه واتجاهاته، يتم من خلال رؤى غير واضحة المعالم يملؤها التردد والشك. كما أن الأيديولوجية الصهيونية تدخلت فى صنع النفسية الإسرائيلية، وجعلت الفرد الإسرائيلى يتشكك حتى فى أهم متطلبات الحياة وهو الأمن والاستقرار. وأصبح الشك وعدم الثقة فى الطرف الآخر من أهم السمات التى فرضتها الأيديولوجية الصهيونية على الفرد الإسرائيلى منذ نشأته، لذلك فهو يفكر فى السلام لأنه يفتقد الأمن، لكنه سرعان ما يعود ويحيد عنه عندما يصطدم بفرضيات التوجه الصهيونى الذى يجرى فى دمه، حتى حركات السلام فى إسرائيل تضع فى حسبانها دقة المحاولة.

وعلاوة على ذلك، فإن " قضايا الأمن الإسرائيلي لدى حركات السلام لها أهمية خاصة لا تختلف كثيراً عن سائر القوى الصهيونية اليمينية، وبخاصة في مسألة القوة النووية الإسرائيلية، وسياسة الردع بالإضافة إلى أن معظمها يؤكد على مبدأ (القدس الموحدة)، و(العاصمة الأبدية لإسرائيل) " (٢)، لذلك حتى وإن كان هناك قطاع عريض من الشعب الإسرائيلي يفكر في السلام، فإن مفهوم السلام لديه هو السلام المشروط الذي يضمن له الأمن، وعدم التعرض لخطر الإبادة، حتى وإن ضمن ذلك فيبقى حاجز عدم الثقة في الآخر أمراً مهم وضرورياً، يتراجع من خلاله عن رغبته في السلام ؛ ليعيش في تناقض غريب ما بين الرغبة في السلام والخوف منه من ناحية، وبين الرغبة في السلام مع الاحتفاظ بالأراضي العربية والفلسطينية من ناحية أخرى..

رابعاً : أثر تعاليم العنف الصهيونية فى نفسية الأطفال :

" مما لا شك فيه أن تحولاً جذرياً طرأ على اليهود بعد تعرضهم للإبادة والتشريد. فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى ملئ بالغزو و العدوان، وتغلب عليه صفة الشراسة و العنف. فقد تحول اليهودى فجأة إلى شخصية مستضعفة خانعة، تحقق أغراضها بالوسائل النائمة الملتوية وبالمكر والخديعة ... و فى العصر الحديث حاول المفكرون الصهاينة، المتأثرون فى منهجهم الفكرى بآراء داروين فى تطور الطبيعة، تطبيق هذا المنهج على التطور التاريخى والاجتماعى لليهود شأنهم فى ذلك شأن النازية. و قد فسر البعض تيه اليهودى فى الصحراء على أنه تطبيق ربانى لنظرية الاختيار الطبيعى، و بالتالى يصبح التيه محاولة من جانب الرب للقضاء على الضعيف منهم حتى لا يدخل أرض كنعان سوى

---

(١) د. محمد خليفة حسن: الشخصية الإسرائيلية واتجاهاتها نحو السلام، مرجع سابق، صحيفة الأهرام.
(٢) د. رشاد عبد الله الشامى: إشكالية الهوية فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص ١٩٨).

الأصحاء منهم وليس عقاباً. وكان هناك من بين المفكرين الصهاينة من حاول تفسير التيه في الصحراء على أنه كان مرحلة إعداد روحي لبني إسرائيل قبل دخول أرض كنعان "(١).

وهكذا تحول هؤلاء اليهود الذين كانوا عبيداً في مصر إلى غزاة محتلين لأرض كنعان، وفي العصر الحديث تحول جموع اليهود إلى غزاة محتلين لأرض فلسطين، و قد سبق هذا مجهود ضخم من قبل المفكرين الصهيونيين؛ لإعداد شخصية عنيفة قوية تستطيع أن تقوم بمهمة الغزو والقتل وتفريغ الأرض من سكانها الأصليين من ناحية، و محاولة طي ذكرى أحداث النازي، وذكرى اليهودي الجيتوي من ناحية أخرى.

إن صفات مثل العنف والقسوة التي تتسم بها الشخصية الإسرائيلية الصهيونية على أثر تعاليم صهيونية طويلة المدى تبدأ منذ الصغر و حتى مرحلة البلوغ " توضح لنا دائماً أن الإنسان الإسرائيلي، بل المجتمع الإسرائيلي اتخذ من (النازي)مثلاً أعلى له، و هو الأمر الذي يعطي له علم النفس التفسير المقبول: إذا ما تعرض الفرد لعدوان لا قبل له بمواجهته وأصبحت الهزيمة خطراً يهدد اتزانه النفسي، فإنه كثيراً ما يلجأ إلى اتخاذ مصادر العدوان نماذج له يقتدي بها، ومثلاً عليا يسير على هديها حفاظاً على اتزانه النفسي "(٢). وهو ما يسمى أيضاً في علم النفس بالتوحد في المتعدي.

ومن منطق هذا، " كانت الشخصية الإسرائيلية كثيراً ما تظهر بمظهر استفزازي تدعو إلى استعمال العنف والقسوة؛ والعنف قوة جنونية إذا أفلتت وجمحت لا يدري أحد كيف تنتهي "(٣).

ومن هنا يمكن القول، إن أحداث النازي وصورة اليهودي الجيتوي مثلت كابوساً مخيفاً للقادة الصهيونيين؛ لذا فقد ثبتت عبادة القسوة و الروح العدوانية في الفكر الصهيوني، وحاول هؤلاء الصهيونيون زرع روح هذه العبادة بين الشباب الإسرائيليين منذ الصغر؛ دون اهتمام بأثر هذه التعاليم في النفسية الإنسانية. ويقول الكاتب عاموس إيلون موضحاً هذا الأمر: " لقد نما نوع من القسوة الإسبرطية على مر السنين، و أصبحت تميز الآن أقساماً كبيرة من الإسرائيليين الراشدين. وهذه القسوة الإسبرطية الوحشية، تبدأ منذ سنوات مبكرة في حياة الفتى الإسرائيلي من خلال تدريبات (الجدناع •). إن التلاميذ يساقون في رحلات طويلة في الصحراء و يصابون بضربة الشمس، و أحياناً يموتون أو

---

(١) د. رشاد عبدالله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ١٤٠، ١٣٩)

(٢) د. قدري حفني: تجسيد الوهم، ص ٩٠ (نقلاً عن د. رشاد عبدالله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، ص ١٤٥).

(٣) د. حسن ظاظا: الشخصية الإسرائيلية، دار القلم للنشر، ط٢، ١٩٩٠، (ص ٨٩).

(•) الجدناع: هي اختصار الكلمات العبرية "جدودي هانوعار" (كتائب الشباب). وتعد منظمة عسكرية للشباب ما قبل الثامنة عشرة، أي ما قبل دخول الجيش. وفيها يتدرب الشباب الصغار على استعمال الأسلحة والعمل متطوعين في المستوطنات اليهودية المختلفة.

يسقطون في أثناء التدريبات التي تجعلهم أصلب عوداً، و التي تعودهم على قمع رغبتهم والقضاء على الخوف، و تبدأ هذه التدريبات من سن الثانية عشرة والثالثة عشرة، فيرسل الغلمان إلى العراء في ليالي الشتاء الباردة، و يجبرون على السير حفاة على الشاطئ المبلل، وتجبر الفتيات في سن الرابعة عشرة على دخول مقابر المسلمين في الليالي المظلمة، واستجماع الشجاعة والرقاد على القبور " [(١)].

و قد عبر عوز عن الأثر النفسي السيئ لتلك التعاليم الصهيونية في نفسية الأطفال قبل بلوغهم سن الرشد من خلال شخصية ديمي ابن ياعيل و تيد ، الذي يبلغ من العمر عشر سنوات. لقد تصارعت قوى اليمين الصهيونية في الرواية على الاهتمام به؛ ليصبح شخصية صبارية قوية وعنيفة. " فأبواه ياعيل و تيد المنغمسان في المشروع الأمني يتجهان إلى تربيته وتدريبه؛ ليسير على دربهم؛ وليواصل نفس الطريق؛ ويهتم بالموضوعات ذات (الأهمية القومية)ولعل الألعاب الإلكترونية التي امتلأت بها حجرته تشير إلى ذلك. وفي دهشة و تعجب يقبلان باروخ اليميني كجد لـ ديمي " [(٢)].

كان باروخ اليميني الصهيوني يقوم بدوره القومي كجد لكل طفل و لكل شيء واستمر في علاقته بـ ياعيل حتى بعد طلاقها من ابنه فيما ؛ فالعلاقة القومية لديه أقوى من العلاقة الشخصية، فكان يقضي مع ابنها ديمي أوقاتاً طويلة، علمه خلالها العنف والقسوة:

" ظل الجد مع الطفل بمفردهما في المعمل، وأخذ يعلمه كيف يستخدمون الأستون أيضاً في صناعة المواد المتفجرة " [(3)].

وهكذا، وقع هذا الطفل وهو في سن العاشرة تحت تأثير التعاليم الصهيونية لأبويه و باروخ ، حيث كانت هذه المرحلة التعليمية هي مقدمة لما سيحدث لذلك الطفل من اكتئاب نفسي، وهو ما أدى إلى تطلعه للهروب من هذا الواقع المعيب، الذي سمم نفسيته، كما ذكر عوز على لسان فيما عندما نهر أباه باروخ وهو يعلم ديمي صناعة المواد المتفجرة:

" غلى "فيما" من الغيظ، وانقض على أبيه في حماس قائلاً: لماذا تفسد هذا الطفل ؟ فلدينا عدد كاف من القتلة، لماذا تسمم نفسيته ؟ " [(4)].

---

(١) انظر: عاموس ايلون: الإسرائيليون، المؤسسون والأبناء ص ٢٣٦ (نقلاً عن د. رشاد عبدالله الشامي، الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، ص ٢٠٠)

(٢) يوسف أورن: "هاعيط كشوفار بوليطي، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطي باسيبورت هايسرائيليت " ، مرجع سابق، (ص٣٠).

(٣) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشي " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٧١).

(٤) نفس المرجع، (ص٧١).

وبالفعل، لم تكن تعاليم العنف الصهيونية إلا سما يفسد نفسية هؤلاء الأطفال وهم في سن مبكرة، أشار إليه عوز في قصة ديمى مع الكلب [1]:

وجد فيما ذلك الطفل في حالة إعياء شديدة، لقد كان ديمى في حالة نفسية سيئة، متجهم الوجه وحزينا. فأخذ يتحدث إليه محاولاً أن يعرف ماذا حدث له ؟ و بعد محايلات من قبل فيما بدأ ديمى يحكى قصته بصوت متقطع: لقد وجد هو وأصدقاؤه الأطفال كلباً يعبث بين صفائح القمامة، فاتفقوا على قتله. فجاءوا به وأوثقوه بالحبال، وأقاموا له مذبحاً بهدف ذبحه بالسكين. وكان الكلب مع كل هذا يظن أنهم يلهون معه؛ فخضع لهم، وتركهم يفعلون به ما يشاءون في سعادة وغبطة، ثم أتى ديمى بالسكين وأخذها منه أحد أصدقائه، وهم ليذبح الكلب؛ فاهتزت يداه فجأة، وانكسرت يد السكين، وأصاب لعاب الكلب معظم هؤلاء الأطفال. وتكررت المحاولة عبثاً، فسال من الكلب دم غزير، ربما كان ذلك بسبب ورم كان يعاني منه الكلب. وفي تلك الأثناء نجح الكلب في قضم الحبل الأمامي، فهرع أصدقاؤه ينيف وننجا ورونين ليهربوا؛ خوفاً من بطش الكلب بهم، وتركوا ديمى بمفرده الذي أخذ يجرى هو الآخر وراءهم، بينما هرب الكلب بين الأشجار و هو ينزف دماً. لقد فعلوا ذلك فقط (لأنه كلب عربي قذر). لقد تجمع ديمى وأصدقاؤه مرة أخرى، فدار شجار بينهم، حيث اتهمه أصدقاؤه بالسبب فيما حدث؛ لأن السكين التي أحضرها كانت غير صالحة، وصرخوا في وجه صائحين (سوف تندلع هنا انتفاضة)بعد أن هرب الكلب بين الحياة والموت. وعقدوا العزم على معاقبة ديمى بكل قسوة وعنف، فأوثقوه ديمى بالحبال بعد أن أخذوا منه نظارته السميكة فلم ير شيئاً، وأخذوا يركلونه بأرجلهم، وهناك من تبول عليه، ثم تركوه موثوقاً بالحبال. بعدها شعر ديمى بالندم في انسياقه وراءهم بعدما أصيب بهزة نفسية عميقة:

" إننى طفل مهرج. لم يكن هذا بأمر صحيح، فقد كان يجب أن أعارض هذا، ولا أنجر وراءهم " [2].

ولم يندب ديمى حظه جراء ما فعل فحسب، بل لعن والديه اللذين أتيا به إلى هذه الحياة، إنه يكرهما وهما اللذان علماه العنف والقسوة:

" إننى أكرهما على الرغم من أن ذلك حرام. من الذى أمرهما بأن ينجباني ؟ ... لا يوجد ما أفعله في هذه الحياة مطلقاً ... فكل شيء ينتهى هنا إلى أسوأ. وكل شيء عبارة عن غضب ومشكلات. إن كل ما أفعله ليس سوى الغضب والمشكلات " [3].

---

(١) نفس المرجع، (ص١١٦ : ١٢٠).
(٢) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١١٩).
(٣) نفس المرجع، (ص١٢٠).

وهكـذا، لم تضـع الصـهيونية فـى حسبانها، مدى تأثير زرع العنف لدى تلك البراعم الصـغيرة، فهـا هـو ديمـى لم يـتخط العاشـرة بعـد، نجده يلعن أبويه ويكرهما بعد تلك الحادثـة الـتى تعـرض لـهـا مـع أصـدقائه الذين اتسموا بالعنف أيضاً، فلم تجن تلك النشأة سـوى نفسية طفل ممزقة كره الحياة ومن فيها، حتى أقرب الناس إليه. ولم تدرك الصهيونية أنهـا تـدس السـموم وتضعها بغزارة فى نفسية هؤلاء الصغار، كما حاول أن يبين لنا عوز، عـلى لسـان " فيما " الذى كانت تقلقه تلك العلاقة التى جمعت بين أبيه "باروخ" والطفل " ديمى ":

" لقد سممنا بالفعل "ديمى" و أصدقائه " [1].

و مما لا شك فيه أن هذه الحادثة التى تعرض لـها "ديمى" ـ حادثة الكلب ـ تشير أيضاً إلى عدة حقائق، ربما حاول عوز أن يظهرها لنا فى معرض نقده للصهيونية، وهى:

(١) أن زراعـة العـنف فـى نفسـية الأطفـال الصـغار لم تخلق سوى شباب غير متزن، يتسم بالعـنف والقسـوة، وإذا كـان الـهدف هو كراهية الطرف الآخر في الصراع والتعامل معـه بمنتـهى العنف، فقد انعكست هذه الكراهية على المجتمع الذى يعيش فيه هؤلاء الأطفال، مثلما فعل ديمى مع أبويه.

(٢) " أن اسـتخدام بعـض التعـبيرات فـى هذه الحادثة لم يأت عفوياً من قبل عوز، فعندما يحـاول ديمـى أن يهـرب فيحاصـره أصـدقاؤه بـبعض التعـبيرات الـتى تسـتخدم فى الأحـداث السياسية بين الكبار مثل (كفى أن تكون مرهف الإحساس). ويأتى تفسير فـيما بوضـوح للمعـنى السياسـى لما فعلـه الأطفال بالكلب: لقد بدا فى عينيه رعب يأتى (كنتيجة مباشرة لما يحدث فى المناطق المحتلة) " [٢].

(٣) دائمـاً مـا تصـيب الانتفاضـة الفلسـطينية جمـوع الشـعب الإسـرائيلى بحالـة مـن الفـزع والرعـب. فـإذا كـان هـذا الكلـب الذى حاول ذبحه هؤلاء الأطفال هو " كلب عربى مـتعفن " (الـرواية، ص ١١٧)، فبالطبع " سوف تندلع هنا انتفاضة " (الرواية، ص ١١٨). غـير أن تشـويه صـورة العـرب لـيس بالأمـر الجديـد فـى الأدب العـبرى الإسرائيلى.

(٤) يحذر عوز من الإمعان فى تلك التعاليم الصهيونية لدى الأطفال، فالأطفال هم البوصلة الـتى تحـدد الحالـة الأخلاقـية للمجتمع، وهو ما يؤكد عليه يوسف أورن قائلاً: " لقد تعلمـنا من رواية (نبى)١٩٨٨ لشولاميت هارئيفن أن من يريد أن يدرك أو يفهم الحالة

(١) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٦٣).
(٢) يوسـف أورن: " هاعيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٣١).

الأخلاقية للمجتمع، فلينظر إلى تأثير أعمال الكبار على الصغار. فالألعاب التى يمارسها الأطفال فى القدس تشير إلى خوف فيما و فزعه من تأثير الاستمرار فى الاحتلال للمناطق الفلسطينية على الجيل القادم و على هذا فلم يكن صدفة أن تتحول أحلام فيما إلى كوابيس تمتلئ بأطفال قساة ووحشيين "[1].

وهكذا لم تجن الصهيونية من تعاليمها سوى حالة من القلق الوجودى فى عالم ملئ بالإثارة والعنف، فالأطفال الإسرائيليون لا يعيشون مثل سائر أطفال المجتمعات الأخرى، فقد ساقتهم الصهيونية للعيش في عالم آخر ليس عالم الأطفال الأبرياء، فخلقت منهم شبابا مريضا كره المجتمع الذى يعيش فيه. وهى حالة يعلق عليها أورن قائلاً: " إننا منغمسون فى حالة لا مخرج لها منذ أن تعلم الأطفال القتل، لأن الواقع ينشئهم قساة ووحشيين. لقد كان "فيما" قلقاً في كل مرة يضاجع فيها امرأة؛ خشية أن تحبل وتلد طفلاً؛ فيصبح هكذا مثل سائر الأطفال "[2].

خامساً: فشل الصهيونية فى إعداد وريث لجيل المؤسسين:

كان إخفاق الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل الآباء المؤسسين من الأمور التى اتفق عليها معظم الأدباء الإسرائيليين فى أعمالهم الأدبية. و لم يكن عوز فى منأى عن هؤلاء الأدباء، فقد تطرق إلى هذه القضية و" أشار إلى فشل الأيديولوجية الصهيونية فى إعداد ورثة من الأجيال التى أعقبت جيل المؤسسين، لكي يواصلوا الهدف بنفس الحماس والإخلاص فى روايتيه (راحة صحيحة)١٩٨٢ و(صندوق أسود)١٩٨٧ ". ويكمن هذا الفشل فى آباء الأسرة الذين أسسوا الضيعة الأسرية التى نمت وتحصنت؛ لتدل على هدف الصهيونية فى استخدام الميراث على مدار أجيال كثيرة، و لم تنجح نبوءات المؤسس بتحقيق ذلك فى الأجيال القادمة بعدما ظهر الوريث المستهدف، وهو غير جدير بهذا الميراث.

وتعد رواية (الحالة الثالثة)هى ثالث رواية يتناول فيها عوز مسألة الميراث لجيل المؤسسين لقد أكد فى الروايات الثلاث على عدم جدارة الوريث الشرعى بالميراث، وهو الأمر الذى يجعل المورّث يلجأ إلى التبني في محاولة للحفاظ على المشروع. "ففى روايتى (راحة صحيحة)، و(صندوق أسود)يقيم عوز دورة الميراث فى منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات، وفيهما يجد الأب المورّث أن الوريث الشرعى له غير جدير بالميراث. و دون خيار فهو يتبنى وريثاً آخر يتميز عن الوريث الشرعى بميزات تجعله قادراً على التنفيذ "

---

(١) نفس المرجع، (ص٣١).
(٢) يوسف أورن: "هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت"، مرجع سابق، (ص٣١).

. فهـا هـو "يولـيق" فـى (راحة صحيحة)كان يستعد لأن يورّث الكيبوتس الذى أسسه لوريـث مـثلـه أو مـن نوعه، من شأنه أن يواصـل المشروع بنفس الحماس والروح، ولأجل ذلـك عـلم ابـنه "يونـى"، ولكـن "يونى" يخيب آمالـه؛ فهو يفتقر إلى المميزات الروحية المطلوبـة فـى الوريـث. وفى خضم يأسه، ولكى يحول دون انهيار المشروع يتبنى "يوليق" وريـثاً لـيس مـن صلبه؛ ليواصل الابن المتبنى عزريا مشروع المؤسسين مع الابن الشرعى "يونى". [1]

ويؤكـد عـوز أيضـاً عـلى هـذا الفشـل فى روايته (صندوق أسود)، التى ربما خصصت أحداثهـا بالكـامل لمعالجـة هـذه القضـية. وعـلى غـرار مـا حدث من حل فى رواية (راحة صحيحة)يحـدث كذلـك فـى تلـك الرواية، حيث يخيب أمل فلوديا فى ابنه الكسندر الذى يكـرس حـياته فى تبديد الثروة التى أعدت من أجلـه، فيدير المحامى زقهيم الأمور فى حين يهتم الكسندر بأعمالـه الروحية.

" ولكـن روايـة (صندوق أسود)لم تشر فقط إلى دورة الميراث الأولى، بل تتجه باستمرار إلى وصـف أحـداث دورة المـيراث الثانـية بصـورة موسـعة، الـتى حدثـت فـى منتصـف السـبعينيات، وجـاء دور الكسـندر بعـد عشـر سـنوات لاختـيار وريـث للضـيعة الأسرية وشـجرة النسـل. وتـبدأ ايلانـه فـى إقناع الكسندر لتوريث كل شىء لابنها بوعز، إلا أن بوعـز الوريـث الشـرعى يخـيب آمالـهما؛ حيث كان طائشاً أهوج منذ الطفولة ليصبح هو الأخـر غير جديد بالميراث. فلم يبق أمام الكسندر سوى أن يفعل مثلما فعل يوليق فى رواية (راحة صحيحة)ويضم سومو إلى بوعز فى دورة الميراث الثانية " [2].

وعـلى غـرار مـا حـدث فـى هـاتين الروايتين لحل مشكلة الميراث، يؤكد عوز فى رواية (الحالـة الثالـثة)عـلى ذلك الأسلوب فى حل مشكلة الوريث، فى أن يؤول الميراث إلى الابن غير الشرعى، أو يقتسم بين الاثنين، وهو ما فعلـه باروخ مع ابنه فيما الذى جعلـه يقتسـم المـيراث مـع ديمـى الـذى تبـناه بالرعاية والاهتمـام، وقسّم التركة فى وصيته بين الاثنين.

و يعلـق يوسـف أورن على هذا الحل الذى لجأ إليه باروخ قائلاً: " لقد تعرضنا من قـبل إلى حـرب المـيراث بين اليمين واليسار، ولكن فى رواية (الحالة الثالثة)يقفز بنا عوز إلى عقـد آخـر، بعـد الثمانينيات؛ ليحكى لنا عن النتائج المتنبأ بها حول جولة الميراث الثانية. فالمورّث هذه المرة هو رجل اليمين باروخ نومبرج، ظل فيما ابنه الشرعى بعيداً تماماً

---

(١)يوسـف أورن: "هاعـيط كشـوفار بولـيطى، عيسـر ماسـوت عـل هارومـان هابولـيطى باسـيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٣٣).

(٢) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص١٨).

عن الميراث فى نظر أبيه على الرغم من كل التعاليم التى حرص على تزويده بها لإعداده كوريث، و فعل مثل كل الآباء المورثين، وتبنى له وريثاً آخر، هو ديمى "[1].

وفى وصيته وزع " باروخ " ميراثه بين الاثنين :

" فيما عدا الملك الواقع فى شارع رينس بتل أبيب ... فكل أملاكى تكون لابنى الوحيد أفرايم نومبرج نيسان ... من الملحق الخاص بالوصية اتضح أن الملك الواقع فى شارع رينس بتل أبيب، الذى لم يعرف به "فيما" أبداً، هو عمارة صغيرة أوصى الجد أن تكون من نصيب (حفيدى الحبيب ابن تيدور وياعيل توبياس) "[2]

وهكذا، قسم باروخ فى وصيته التركة بين أفرايم نيسان (فيما)و ديمى ، ولكون ديمى لم يبلغ السن القانونية للميراث فقد عين أمه وصية عليه حتى يكبر.

وهكذا " تنتهى دورة الميراث الثانية كسابقيها فى تصوير الواقع السياسى كما هو : فيجب على فيما أن يتغير، كما يجب على ديمى أن ينضج. فإذا لم يستطع فيما أن ينفذ وجهات نظره اليسارية، فيجب الانتظار حتى ينضج الوريث المتبنى ديمى ، فوحشيته ستكون أمراً موثوقاً فيه "[3].

ومن الناحية السياسية أيضاً فإن تقسيم الميراث بين اليمين واليسار يعد حلاً تكافلياً، لجأ إليه عوز فى إشارة إلى حكومات الوحدة الوطنية التى تجمع بين اليمين واليسار، وهو حل غير مفيد، حيث سيظل الصراع بين المعسكرين قائماً، وإن نجح هذا الحل فى تجميده، فإنه لم ينجح فى وضع نهاية له.

وعلى الرغم من قرار تقسيم الميراث بين فيما و ديمى الذى اتخذه باروخ فإن الاثنين كانا فى منأى عن الهدف والحلم؛ فلم تعجبهما أسلوب الحياة الروتينية، تلك الحياة التى تخضع للبرمجة والتوجيه من قبل آباء لم يكن شغلهم الشاغل إلا المحافظة على مشروعهم الصهيونى، متناسين تماماً الحياة الشخصية للأبناء؛ فصادروا حرياتهم خوفاً من المستقبل، ولم يجنوا إلا الفشل والإحباط. فضلاً عن التسبب فى وضع نفسى سيئ لهؤلاء الأبناء والأحفاد.

كما يمكن القول أيضاً، إن باروخ قد لجأ لحل تقسيم الميراث، بعد أن تأكد من فشل حلمه الذى كان يحلم به طوال حياته، وهو حلم الوريث الشرعى الذى سيحمل الراية من بعده ليظل مشروع المؤسسين باقياً :

---

(١) نفس المرجع، (ص٣٤).

(٢) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٥٤).

(٣) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت " ، مرجع سابق، (ص٣٤).

" ربما كانت هى الأقرب منا إلى ذلك الشيء الذى لم يتوقف "باروخ" طوال حياته عن الحلم بأن "فيما" سوف يحققه " (1).

ولكن فيما الذى اهتم به والداه منذ الصغر، لم يكن على مستوى هذا الحلم، لقد قرر فى نهاية الرواية الابتعاد نهائياً عن الساحة السياسية، بعد أن ظل طوال حياته، يجادل، ويشجب ويحتج ضد ما يحدث فى المناطق المحتلة ولكن دون جدوى:

" فى الحقيقة من الأفضل ألا أكتب شيئاً. و أن أبتعد تماماً من اليوم ودائماً عن الصحف والراديو والتليفزيون " (2).

" لقد حاولوا مراراً و تكراراً أن يتبادلوا معه الآراء السياسية، لكن " فيما" رفض الاشتراك فى ذلك " (3).

لقد ترك "فيما" الساحة للجميع متخذاً قراراً بألا يعود إلى تلك الحياة الرتيبة اليائسة، حتى إنه ترك أصدقاؤه ليلة موت أبيه فى شقته، وذهب إلى السينما؛ لكى يتساءل فى نهاية الرواية عن سبب تلك الآلام التى يعانى منها أبطال الفيلم:

" أخذ يحملق فى الشاشة، ويسأل نفسه؛ لماذا ولأجل من، لم تتوقف شخصيات الفيلم عن التسبب فى كل أنواع الآلام وجرح المشاعر لبعضها بعضا " (4).

أما ديمى شريك فيما فى الميراث، وهو الابن غير الشرعى الذى تبناه باروخ فلم يكن هو الأخر مهيأ لمثل هذه المهمة؛ بفعل الوضع النفسى السيئ بعد حادثة الكلب. لقد ظن باروخ الذى اهتم به ورعاه أن تربيته على العنف والقسوة هما السبيل الوحيد لتحمل مشاق هذه المهمة ولم يدرك خطأ هذه التربية والنشأة، إلا بعد أن تأكد من فشل هذا الطفل فى حمل الراية، لينضم إلى فيما وليؤكد الاثنان معاً على فشل باروخ والصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين، و كان مكمن هذا الفشل هو أسلوب الصهيونية فى تربية النشء. و مع كل هذا، فلم يتبدد الحلم لدى باروخ ، فعلى الرغم من عدم سعادته بالوريث المتبنى، فإنه يصر على عدم اعترافه بالفشل.

" إنه لم يكن سعيداً بصورة مطلقة بوريثه المتبنى "ديمى" حيث يقول لـ"فيما" : إنه مثلك أيضاً ولكن عمره هو أفضل ما لديه. فمن الممكن أن نتوقع من طفل ذى عشرة ربيعاً أن يصبح ذئباً حتى الثمالة " (5).

---

(1) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٤٨).
(2) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٢٦).
(3) نفس المرجع، (ص٢٥٩).
(4) نفس المرجع (ص٢٥٩).
(5) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٣٤).

ولكن عوز يؤكد لنا في نهاية الرواية على فشل باروخ في تحقيق حلمه، فقد صار " ديمي ط طفلاً بائساً، وفي وضع نفسي سيئ:

" و أضاف قائلاً، إن "ديمي" أغلق على نفسه الحجرة، فكانوا في حاجة إلى استشارة عبر التليفون من صديق لهم من جنوب أفريقيا متخصص في علم نفس الأطفال " (1).

وقد دفع هذا الوضع النفسي السيئ ديمي إلى الاستنجاد بـ فيما ؛ فطلب منه أن يأخذه بعيداً عن الواقع الذي يعيش فيه، ذلك الواقع الذي أهدر طفولته:

" ألم ترد أن نعيش معاً في جزر جالافاجوس، ونبني لنا كوخاً هناك ؟ ونصطاد سمكا وأصدافا ؟ و نطارد الظباء التي تعيش ألف سنة ؟ ... ففي هذه الجزر لا يوجد شتاء بل ربيع أبدي " (2).

وهكذا يرفض ديمي العيش في هذه البلاد التي تمتلئ بالوحشية والبلاهة، فبعد أن استصرخ والديه اللذين أنجباه في مثل هذا العالم، كما رأينا من قبل، يطلب من فيما أن يذهب به إلى المحيط الهادي. " إن الدولة التي تنتهج الوحشية في مناطق محتلة هي في نظر فيما بلاد شتوية يسكن بها من يصطاد الحيتان فقط، تماماً مثل ديمي الذي يفضل العيش في دولة يسود بها ربيع أبدي مثل جزر جالافاجوس في المحيط الهادي " (3).

كما أن التقاء وجهات النظر بين الوريثين المرشحين لم يكن بالأمر الغريب؛ فقد نبع ذلك من التشابه بين طفولتهما. فإذا كان ديمي يبلغ من العمر عشر سنوات فإن فيما صار يتيماً وهو في العاشرة بعد موت أمه، وخضع لتعليم يميني من قبل أبيه مثلما خضع ديمي لنفس التعاليم من قبل أبويه، و باروخ الجد. كما تجدر الإشارة إلى أن فيما وهو يبلغ من العمر ٥٤عاماً كان حريصاً على إنقاذ هذا الطفل من الوقوع في دائرة السياسة الشيطانية التي تجرع كأسها طوال حياته منذ أن كان صغيراً، فاهتم به ورعاه، فكان يذهب إليه دائماً رغماً عن والديه. ويستجيب ديمي لهذا الإنقاذ، ويلتقي مع فيما في ضرورة نبذ هذا الواقع و يطلب منه الرحيل.

و في حقيقة الأمر، فقد رحل الاثنان في نهاية الرواية عن ذلك الواقع في محاولة للبحث عن الذات؛ فها هو فيما يهجر الجدال العقيم مع اليمين الصهيوني؛ لكي يتوحد مع ذاته، وينفصل عن ذلك الصراع عديم الفائدة في محاولة منه ليسعد بحياته، و قد وصل إلى

---

(١) عاموس عوز: " هامتساف هاشليشي " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٤٤).
(٢)عاموس عوز: " هامتساف هاشليشي " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٢١).
(٣)يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطي، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطي باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص٣٢).

هـذه المحطة بعد معاناة طويلة . أما ديمى فهو طفل صغير ، يحلم مثل أى طفل صغير بحياة هادئـة يعـيش فيها طفولة بريئة بعيدة عن العنف والكراهية والقتل ، فطلب الرحيل والعيش فـى كـوخ بجـزر جالافـاجوس فى المحيط الـهادى . لقد رحل الاثنان وبقيت قضية الوريث معلقة لأجل غير مسمى .

الخاتـمة

تـناول هذا الكتاب دراسة لأهم الأعمال الروائية التى تعرضت بالنقد لمفردات الصهيونية وإخفاقاتهـا عـلى كـل المستويات السياسـية والفكـرية والاجتماعـية خـلال الثمانينـيات والتسـعينيات مـن القـرن العشـرين. وقـد عـالج البحـث الـرؤى الأدبـية المخـتلفة تجـاه الأيديولوجية الصهيونية وإخفاقاتها، وكذلك ما حققته من إنجازات.

وعـلى ضـوء مـا تقـدم، أمكـن استخلاص النتائج التى تم التوصل إليها من خلال هذه الدراسة فى النقاط التالية:

(١) تـبقى الأيديولوجـية الصـهيونية دومـاً إشـكالية معقـدة تـتداخل فـيها اتجاهات ورؤى وفرضـيات عديـدة، وهـو الأمـر الـذى أحـدث سـجالاً واسـعاً فـى الأدب العـبرى الإسـرائيلى بـين الأدبـاء والـنقاد الإسرائيليين، وأصبح هناك ما يمكن أن نطلق عليه " صـراع أدبـى " بـين الأدبـاء حـول تقييم الصهيونية فى الأدب العبرى من ناحية، وبين النقاد الإسرائيليين من ناحية أخرى.

(٢) يمـثل الأدب العـبرى الإسـرائيلى بوصـلة المجـتمع الإسرائيلى، التى يمكن من خلالـها اسـتنباط دلائـل الإطـروحات الفكـرية والأيديولوجـية ومـدى تأثيرهـا عـلى المجتمع الإسـرائيلى. كمـا أن هـذا الأدب الذى حمل الصهيونية فى رحمه وأسهم كثيراً فى إنجاز المشروع الصهيونى، بحيث يمكن القول، إن " الصهيونية الأدبية " سبقت " الصهيونية السياسـية "، هـو نفسه الأدب الذى وضع الصهيونية فى قفص الاتهام، وقام بمراجعة دقيقة وشاملة لمفرداتها واخفاقاتها على كل المستويات.

(٣) مثلت الحروب التى خاضتها إسرائيل منذ قيامها وحتى الآن حلقة مفرغة تدور فى فلك الأيديولوجـية الصـهيونية، حيـث عـبر الكـثير من الأدباء الإسرائيليين عن هذه الحلقة المفـرغة مـن الحروب المتوالية فى عدد كبير من الأعمال الأدبية التى تغلغلت فى أعماق الـنفس الإسرائيلية، وكشفت لنا هذه الأعمال عن مرارة نفسـية عميقة وشعور بالخطر الدائـم حـتى فـى أوقـات الانتصـار، وهـو الأمـر الـذى جعـل الكـثيرين مـن الأدباء الإسـرائيليين يضـعون علامات استفهام عديدة حول الصهيونية، وحول تدنى قدرتـها عـلى مواجهـة الـتحديات الـتى تواجهـا دولـة إسـرائيل. وقـد تأثـر هـذا التقيـيم بالاهـتزازات الـتى تعرضـت لـهـا أهداف الصهيونية ووسائل تحقيقها، ومن هنا تمت المـراجعة لمـدى قـوة الصـهيونية فى تحقيق أهدافها، وارتبط هذا التقييم بالأحداث التى أشارت إلى نجاحات الدولة وفشلـها أكثر من أى شىء آخر.

(٤) عبر الأدب العبرى فى فترات وجيزة عن أهداف الصهيونية وتطلعاتها بإخلاص تام، ولكنه سرعان ما اتجه، بعد أن واجهت الدولة الكثير من المشكلات الداخلية والخارجية، إلى **الشكوكية الشاملة فى** التعامل مع مدى صدق الصهيونية فى نهجها وفى احتمالات **تحقيق مشروعاتها (الإقليمية**، والديموجرافية، وغيرها). ووصل الأمر إلى القول بأنه لم تعد **هناك حاجة** إلى الصهيونية الكلاسيكية بعد أن أقيمت الدولة، وبات الجو مهيأ لفكرة الانفصال عن الصهيونية والبحث عن بديل جديد يتوافق مع الواقع المعاش بمتغيراته، وهو ما فعله الأديب الإسرائيلى " أ. ب يهوشواع " فى رواية (مولخو)، وهام فى الأفق التنكر لكل مبدأ صهيونى يسعى إلى ترسيخ مفاهيم ونظريات عفا عليها الزمن، ولا تتلاءم مع الوضع الراهن لدولة إسرائيل. وبدا أن هناك شبه اتفاق على أن الصهيونية قد آن أوان تشييعها إلى مثواها الأخير، وبخاصة فى فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين.

(٥) أجمعت الأعمال الأدبية التى تم دراستها فى هذا البحث، على تحطم " بوتقة الانصهار " التى حلمت بها الصهيونية على مدار عقود عديدة، وانهيار مشروع الصهيونية الأكبر وهو عودة الطبيعية بعودة يهود الشتات إلى فلسطين، بعد أن أصبح النزوح عن إسرائيل منذ قيام الدولة فى تزايد مستمر شأنه شأن تزايد الصراع الدينى العلمانى والصراع الإشكنازى السفارادى داخل المجتمع الإسرائيلى.

(٦) ادعاء الصهيونية بالحق التاريخى فى فلسطين، هو ادعاء خاطئ وأسطورة تنفى حقوق العرب الفلسطينيين فى هذه الأرض، حيث إن تواجد الفلسطينيين على هذه الأرض يسبق التواجد اليهودى بآلاف السنين وهو ما كشفت عنه المكتشفات الأثرية. وينظر " شاليف "، فى روايته (رواية روسية)، إلى ادعاءات الصهيونية بالحق التاريخى لليهود فى أرض فلسطين على أنها أسطورة خرافية ابتدعتها الصهيونية من أجل تشجيع الهجرة إلى أرض فلسطين والاستيطان فيها.

(٧) ادعاء الصهيونية بالحق الدينى لليهود فى أرض فلسطين إدعاء خاطئ وأسطورة دينية - كما ذهب شاليف أيضاً، فى روايته (عيسو) - والقول بأن هناك حلفاً دينياً خاصاً بين اليهود والرب الذى وعدهم بموجبه بهذه الأرض وبالاستناد إلى ما ورد فى العهد القديم، هو افتراء وكذب، حيث إن هذه الأرض كانت أرض غربة بالنسبة لليهود؛ وطبقاً لما ورد فى العهد القديم أيضاً.

(٨) مـن الخطـر الاعـتماد عـلى أسـطورة المقرا - كما يرى شاليف فى رواية (عيسو) - التى تحـل حـالات الـنزاع حـول المـيراث بتخلى أحد الأخوين عن الميراث فهذا أمر لا يمكن حدوثـه عـلى أرض الواقـع. ويؤكد " شاليف " على أن القصص المقرائية التى حكت عـن إمكانـية حلـول مـثل هـذه تعد (أساطير)، وتقترب كثيراً من الخيال المختلق الذى يقـدم حلـولاً لـن تحدث على أرض الواقع، مشيراً إلى اعتماد الصهيونية على الأساطير الدينـية فـى حـل الصراعات، ويؤكد " شاليف " على أنه إذا كانت الجولة الأولى من الصراع قد حسمت لصالح " يعقوب " فعلينا أن ننتظر نتيجة الجولة الثانية.

(٩) اتفقت الأعمال الأدبية التى تم تناولـها فى هذا البحث، على فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين الصهيونيين. ويكمن هذا الفشل الصهيونى فى آباء الأسرة الذين حـلموا بشخصـية جديـدة تناقض شخصية " اليهودى الجيتوى " ؛ فخلقوا شخصية " الصـبار " أو العبرى الجديد لتدل على هدف الصهيونية فى استخدام الميراث على مدار أجيال عديـدة، فـلم تـنجح تنبؤات المؤسسين لتحقيق ذلك فى الأجيال اللاحقة، وانتحى مشروع المؤسس جانباً وهجر ودمر على يد نسلـه بعد ما ظهر الوريث الشرعى غـير مؤهـل لاسـتكمال الدور وحمل الراية، وعلى الرغم من اتجاه الآباء المؤسسين إلى التبـنى، (أى تبـنى وريـث غير شرعى) فإن هذا الوريث هو الآخر كان غير جدير بهذه الـثقة، وبالـتالى فـإن (مـرحلة الـنجاح) الـتى حققـتها الصـهيونية فى إعداد هذا الجيل أعقبـتها (مـرحلة الفشـل)، وهـى رؤيـة اتفـق عليـها كـل من "عوز" و"يهوشواع" و"شاليف" فى أعمالـهم الأدبية التى تم دراستها.

(١٠) يشـهد الأدب العـبرى الإسـرائيلى نوعـاً مـن " المـناورة الأدبية " ، أحياناً، بين أدباء الـيمين الصـهيونى وأدبـاء اليسار، حيث دائماً ما يتخذ أدباء اليسار الإسرائيليون زمام المبادرة فـى طرح القضايا الفكرية والسياسية على الساحة الأدبية، ولـهذا فإنه لا يمكن قـراءة الأدب العـبرى فـى إسـرائيل إلا مـن خلال هؤلاء الأدباء اليساريين تحديداً. أما أدبـاء الـيمين الصهيونى فتأتى أعمالـهم عادة ليس بروح المبادرة، ولكن من خلال الرد الدفاعى على ما يثيره كتاب اليسار من قضايا فى نقد أو إعادة تقييم الصهيونية أو طرح الحلـول لإخـراج الصهيونية من مأزقها، مثلما فعل الأديب الإسرائيلى اليمينى " ناتان شـاحام " ، الـذى كتـب روايـته (فـى قلب تل أبيب) لتمجيد المشروع الصهيونى ورداً على روايات " شاليف " المعادية للصهيونية.

الفهرس